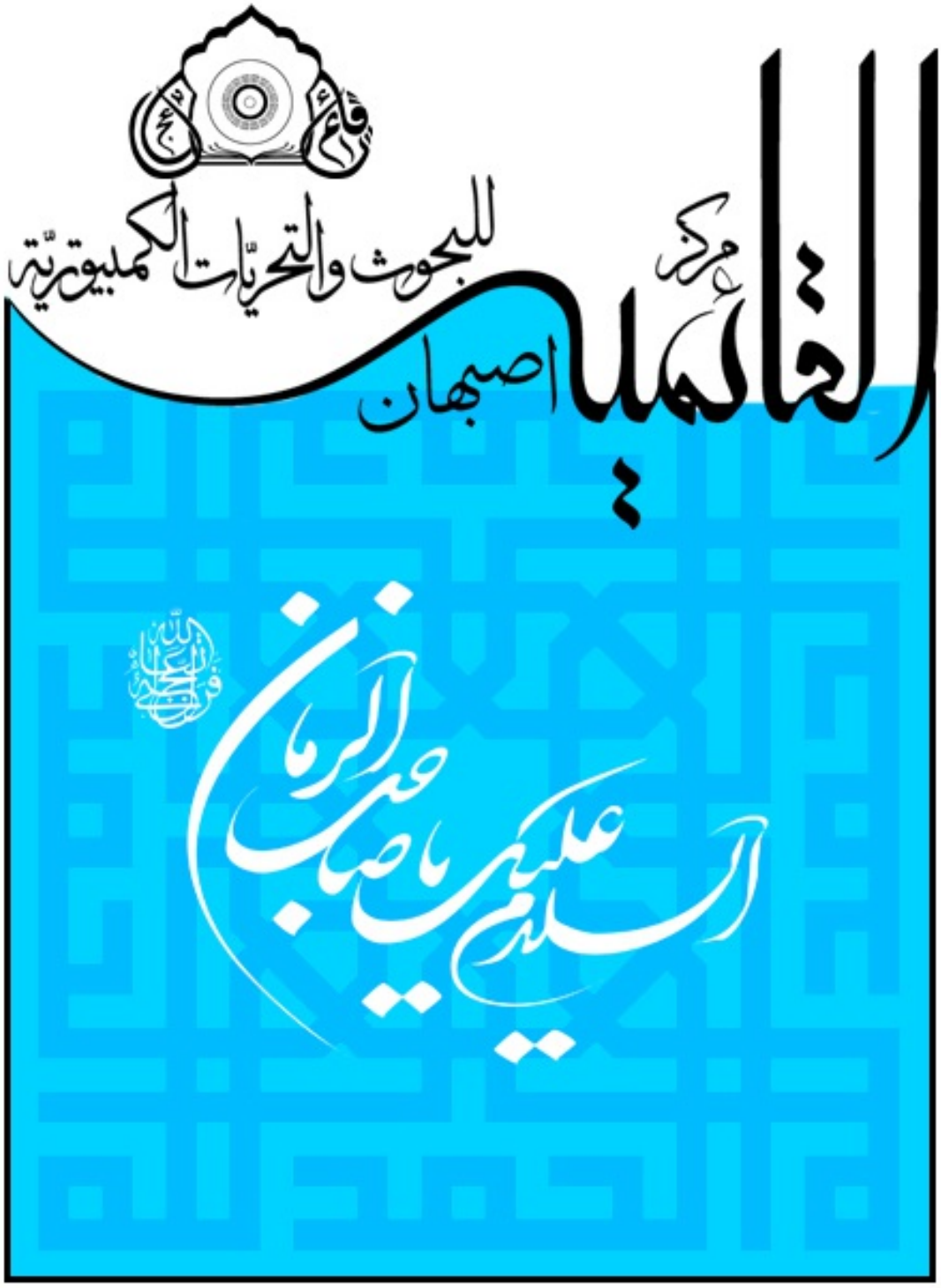

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

بحوث

فی الملل و النحل

الحنابلة

الجزالرابع

جعفر السبحانی التبریزی

بسم الله الرحمن الرحيم

بحوث فی الملل و النحل

كاتب:

جعفر سبحانی

نشرت فی الطباعة:

موسسة النشر الاسلامی

رقمی الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
بحوث فی الملل و النحل - الجزء الرابع (یتناول حیاة ابن تیمیة) ----- ۷
اشارة ----- ۷
مقدمة ----- ۷
کلمة التوحید وتوحید الکلمة ----- ۸
ابن تیمیة: حیاته والرأی العام فیه ----- ۱۸
الإتهام بالشرک والبدعة ----- ۳۲
ابن تیمیة ----- ۳۲
البدعة فی الدین وما هو حدها ----- ۴۳
التبرک بآثار النبی الأکرم والصالحین ----- ۴۹
عقائد ابن تیمیة ----- ۵۱
عقائد ابن تیمیة ----- ۵۲
ابن تیمیة ورأیه فی الصفات الخبریة(۱) ----- ۵۲
ابن تیمیة وشد الرحال إلی زیارة النبی ـ صلّی الله ----- ۶۱
ابن تیمیة ورأیه فی زیارة النبی ـ صلّی الله علیه ----- ۶۷
ابن تیمیة والبناء علی القبور ----- ۷۷
ابن تیمیة وبناء المساجد علی القبور ----- ۹۰
ابن تیمیة وإقامة الصلاة عند قبور الأنبیاء ----- ۹۵
ابن تیمیة والتوسل بالأنبیاء والصالحین ----- ۹۷
اقسام التوسل: ----- ۹۸
التوسل بالأنبیاء والصالحین أنفسهم ----- ۹۹
التوسل إلی اللّه بحق النبی وحرمته ومنزلته ----- ۱۰۸
التوسل بدعاء النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ ----- ۱۱۱

إبن تيمية وطلب الشفاعة ممن ثبت كونه شفيعاً ---- ۱۱۷
ابن تيمية والنذر لأهل القبور ---- ۱۲۲
ابن تيمية والحلف بغير اللّه تعالى ---- ۱۲۵
ابن تيمية والحلف على اللّه بحق الأولياء ---- ۱۲۸
ابن تيمية وتكريم مواليد أولياء اللّه ووفياتهم ---- ۱۳۲
تاريخ الوهابية ---- ۱۳۷
تاريخ الإمارة القبلية السعودية ---- ۱۴۹
الفترة الأُولى ---- ۱۴۹
الفترة الأولى لحياة العائلة ---- ۱۴۹
الفترة الثالثة للإمارة القبلية السعودية ---- ۱۵۹
تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---- ۱۷۲

بحوث فی الملل و النحل – الجزء الرابع (یتناول حیاة ابن تیمیة)

اشارة

سرشناسه : سبحانی تبریزی جعفر، - ۱۳۰۸

عنوان و نام پدیدآور : بحوث فی الملل و النحل : دراسه موضوعیه مقارنه للمذاهب الاسلامیه تالیف جعفر السبحانی مشخصات نشر : قم اداره الحوزه العلمیه بقم الجماعه المدرسین فی الحوزه العلمیه بقم موسسه النشر الاسلامی ۱۴۱۴ق = - ۱۳۷۲.

فروست : (موسسه النشر الاسلامی جامعه المدرسین بقم ۷۲۰، ۷۲۱، ۷۲۲، ۷۲۳، ۷۲۵: مرکز مدیریت حوزه علمیه قم ۱، ۲۶)

شابک : بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت ؛ بها:۳۴۰۰ریال ج ۱)بهای‌هرجلدمتفاوت وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی یادداشت : ج ۱ (چاپ دوم ۱۳۷۱)؛ بها: ۱۸۰۰ ریال یادداشت : جلد اول و چاپ دوم ۱۴۱۵ق = ۱۳۷۳؛ بها: ۴۰۰۰ ریال‌جلد پنجم (چاپ دوم ۱۴۱۵ق = ۱۳۷۳)؛ بها: ۵۵۰۰ ریال (موسسه النشر الاسلامی جامعه مدرسین بقم)۷۲۴

یادداشت : جلد اول (چاپ چهارم ۱۴۱۶ق = ۱۳۷۴؛ بها: ۶۵۰۰ ریال یادداشت : ج ۴(چاپ پنجم ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵)؛ ۷۶۰۰ ریال یادداشت : ج ۷(چاپ اول ۱۴۱۶ق = ۱۳۷۴)؛ ۱۰۰۰۰ ریال یادداشت : ج ۸(چاپ اول موسسه الامام الصادق ۱۴۱۸ق = ۱۳۷۶)؛ ۱۰۰۰۰ ریال یادداشت : ج ۱۴۱۲ ۵ق = ۲۵۰۰ :۱۳۷۱ ریال یادداشت : ج ۶ (چاپ چهارم ۱۴۲۴ق = ۱۳۸۲): ۳۴۰۰۰ ریال یادداشت : کتابنامه مندرجات : ج ۱. تاریخ عقائد اهل الحدیث و الحنابله و السلفیه .-- ج ۲. تاریخ الامام الاشعری و انصاره و عقائدهم .-- ج ۳. و یتناول تاریخ و عقائد الماتریدیه و المرجئه .-- ج ۴. حیاه ابن‌تیمیه و ابن‌عبدالوهاب و عقائدهما .-- ج ۶. تاریخ الشیعه نشاتهم عقائدهم و شخصیاتهم .-- ج ۷. یتناول شخصیه و حیاه الامام الثائر زیدبن علی و تاریخ الزیدیه و عقائدهه -- ج ۸. الاسماعیلیه و فرق الفطیحه ...--

موضوع : اسلام -- فرقه‌ها

شناسه افزوده : جامعه مدرسین حوزه علمیه قم دفتر انتشارات اسلامی شناسه افزوده : حوزه علمیه قم مرکز مدیریت رده بندی کنگره : BP۲۳۶/س ۲ب ۳ ۱۳۷۲

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۵

شماره کتابشناسی ملی : م۷۳-۲۱۵۵

مقدمة

مقدمة بسم اللّه الرحمن الرحیم

الحمد للّه رب العالمین، والصلاة والسلام علی النبی الخاتم وعلی آله المصطفین الأخیار. أما بعد: فهذا هو الجزء الرابع من موسوعتنا الکلامیة حول المذاهب الإسلامیة، ونستعرض فیه دراسة المذهب الوهابی الّذی نشأ فی أوسط القرن الثانی عشر فی إقلیم «نجد» وقد غاب نجمه یوم طلوعه، وصار خامل الذکر، ثم أعید الی الساحة الإسلامیة فی أواسط القرن الرابع عشر، بعد استیلاء العائلة السعودیة علی الحرمین الشریفین (مکة و المدینة)، وتبنّت الدعایات السیاسیة الزمنیة ترویج ذلک المسلک بترغیب وإرهاب، وقامت الدوائر الإعلامیة العالمیة ـ عن طریق المجلات والصحف، والمؤلفین المأجورین الجدد ـ بنشر تعالیمه و تفاصیله. أسأل اللّه سبحانه أن یوفقنا فی هذا الجزء، ویعیننا فی هذه الدراسة، ویوصلنا إلی الحق الصواب إنه قریب مجیب. إنّ المذهب الوهابی المفروض علی الشعب المسلم فی الجزیرة العربیة وغیرها، قام علی الأفکار الّتی ورثها مؤسّسها محمد بن عبدالوهاب (ت ۱۱۱۵ ـ م ۱۲۰۷) من أحمد بن

تيمية (ت ٦٦١ ـ م ٧٢٨) الّذى بذر هذه الأفكار فى أواخر القرن السابع (٦٩٨) وأوائل القرن الثامن، وكانت بذرته الّتى بذرها مودوعة فى الكتب وزوايا المكتبات، إلى أن أحيى محمد بن عبد الوهاب ما دثره الدهر، واتّخذ من عقائد شيخه فى المذهب ابن تيمية قاعدة (۶)

لمذهبه، وحذف منها ما يمتّ إلى مسألة التشبيه والتجسيم وإثبات الجهة والفوقية بصلة، واهتم بما يرجع من عقائده إلى مسألة التوحيد والشرك . ولأجل أن تكون الدراسة متكاملة الأطراف، مترامية الجوانب، نشرع باذىء بدء دراسة حياة شيخه ابن تيمية أولا، ثم نعقبها بدراسة مجدّد مذهبه ومسلكه فى القرن الثانى عشر الهجرى، وإليك البحث عن حياة ابن تيمية وآراء معاصريه فى حقّه، وآرائه، مع تحليل ما اعتمد عليه من الأُصول لمذهبه، ولكن بعد تقديم مقدّمة تكشف عن الظروف العصيبة الّتى أُلقيت فيها هذه البذرة، ونشأ فيها هذا المذهب . قم ـ الحوزة العلمية جعفر السبحانى شوال المكرم / ١۴١٠ . (٧)

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة

كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة دعامتان للإسلام

بُنىّ الإسلام على كلمتين هما دعامتاه المبدئيتان: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة ;أمّا الأُولى فقد دعا إليها النبى الأعظم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ، بل الأنبياء والمرسلون قاطبة، ولم يكن لهم هدف سوى إرساء قاعدة التوحيد والقضاء على الوثنية، وما سوى ذلك من التعاليم من فروع تلك الشجرة الطيبة وأغصانها وثمارها، ولولا هذا الأصل لما قام للدين عمود ولا اخضرّ للإسلام عود. قال سبحانه: (و لقد بَعَثْنَا فى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أنِ اعبُدُوا اللّهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .(١) وأمّا الثانية فهى الدعامة الثانية لإرساء صرح الإسلام، بل هى الركن الركين لنشر تعاليمه وكبح جماح الجبابرة والطواغيت، ولولا وحدة الكلمة لكان الإسلام فى بدء طلوعه فريسة لمطامع الظالمين، وقد دعا إليها الذكر الحكيم فى غير مورد من آياته. قال سبحانه: (وَ اعتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَميعاً وَ لا تَفَرَّقُوا واذكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُم إذْ كُنْتُم أعداءً فَألَّف بين قُلُوبِكُم فَأَصبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إخْواناً)(٢) . وقد قام النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى دار هجرته بتجسيد مفهوم الاخوّة بين أصحابه، قال سبحانه: (إنَّما المؤْمنونَ إخوةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم)(٣)، _____

١ . سورة النحل : الآية ٣۶ .

٢ . سورة آل عمران : الآية ١٠٣ .

٣ . سورة الحجرات : الآية ١٠ . (٨)

فآخى بين الأوس و الخزرج، وبين المهاجرين والأنصار، وآخى بين نفسه وصنوه وصهره علىّ صلوات اللّه عليه(١) . ثمّ إنّ الرسول الأكرم ـ انطلاقاً من هذا المبدأ ـ شبّه المؤمنين مع كثرتهم ووفرتهم بالجسد الواحد وقال: «مثل المؤمنين فى توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد (الواحد) إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٢) . ولقد كان النبى الأكرم يراقب أمر الأُمة، لا يشقّ عصاها منازع جاهل أو عدوّ غاشم، وكان يقودها إلى الأمام برعايته الحكيمة، وكلّما واجه خلافاً أو شقاقاً ونزاعاً بادر إلى ترميم صدعها بحزم عظيم وتدبير وثيق، ولقد شهد التاريخ له بمواقف فى هذا المجال انتخبنا منها ما يلى: ١- انتصر المسلمون على قبيلة بنى المصطلق وقتل من قتل من العدوّ وأُسر من أُسر منهم ;فبينما رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ على مائهم، نشب النزاع بين رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين، فصرخ الأنصارى فقال: يا معشر الأنصار، وصرخ الآخر وقال: يا معشر المهاجرين، فلما سمعها النبى، قال: دعوها فإنّها منتنة.. يعنى إنّها كلمة خبيثة، لأنّها من دعوى الجاهلية، واللّه سبحانه جعل المؤمنين إخوة وصيّرهم حزباً واحداً، فينبغى أن تكون الدعوة فى كل مكان وزمان لصالح الإسلام و المسلمين عامة، لا لصالح قوم ضدّ الآخرين، فمن دعا فى الإسلام بدعوى الجاهلية يُعزّر (٣). فالنبى الأكرم يصف كل دعوى تشقّ عصا المسلمين و تمزّق وحدتهم بأنّها دعوى منتنة، فكيف لا يكون كذلك وهى توجب انهدام الدعامة للكيان الإسلامى، وبالتالى انقضاض صرح الإسلام . _____

۱ . راجع فی الوقوف علی مصادر الحدیث کتاب الغدیر. ج ۳ ص ۱۱۲ ـ ۱۲۴ .

۲ . مسند أحمد ج ۴ ص ۲۷۰ .

۳ . السیرة النبویّة، ج ۳ ص ۳۰۳ غزوة بنی المصطلق، ولا حظ التعلیقة للسهیلی، وراجع مجمع البیان، ج ۵ ص ۲۹۳ وغیره من التفاسیر . (۹)

۲- نزل النبی الأـکرم دار هجرته والتفّت حوله القبیلتـان: الأـوس والخزرج، فمرّ شـأْس بن قیس ـ الّـذی کان شـیخاً عظیم الکفر شـدید الضـغن علی المسلمین، شدید الحسد لهم ـ علی نفر من أصحاب رسول اللّه من الأوس والخزرج فی مجلس قد جمعهم یتحدثون فیه، فغاظه ما رأی من أُلفتهم وجماعتهم، وصـلاح ذات بینهم علی الإسـلام، بعـد الّذی کان بینهم من العداوة فی الجاهلیة. فقال: قد اجتمع ملأُ بنی غیلـة بهـذه البلاد، لا واللّه ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم من قرار، فأمر فتیً شاباً من الیهود کان معهم فقال: اعمـد الیهم فاجلس معهم، ثم اذکر یوم بعـاث، یوم اقتتلت فیه الأـوس و الخزرج، وکـان الظفر فیه یومئـذ للأُـوس علی الخزرج، وکـان علی الأـوس یومئذ حضـیر بن سـماک الأشـهری، وعلی الخزرج عمرو بن النعمان البیاضـی، فقتلا جمیعاً . دخل الشاب الیهودی مجتمع القوم فأخـذ یذکر مقاتلتهم ومضاربتهم فی عصـر الجاهلیـة، فأحیی فیهم حمیتها حتّی اسـتعدوا للنزاع والجـدال بحجـة أنّهم قتل بعضـهم بعضاً فی العصـر الجـاهلی یوم بعاث، وأخـذ الشاب یُؤجّج نار الفتنـة ویصب الزیت علی النار حتّی تواثب رجلان من الحیّین فتقاولا . فبلغ ذلک رسول اللّه فخرج، إلیهم فیمن معه من أصـحابه المهـاجرین، حتّی جـاءهم فقـال: یـا معشـر المسـلمین! اللّه، اللّه، أبـدعوی الجاهلیـة وأنـا بین أظهرکم، بعـد أن هـداکم اللّه بالإسـلام وأکرمکم به وقطع به عنکم أمر الجاهلیة، واسـتنقذکم من الکفر وألّف به بین قلوبکم؟ کانت کلمة النبی کالماء المصبوب علی النار بشدة وقوة، حیث عرف القوم أنّها نزعة من الشیطان وکید من عدوهم، فبکوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضـهم بعضاً، ثم انصـرفوا مع رسول اللّه ـ صـلّی الله علیه وآله وسـلم ـ مـذعنین، متسالمین، مطیعین قد دفع اللّه عنهم کید عدو اللّه شأْس بن قیس، فأنزل اللّه تعالی فی شأْس وما صنع (۱).. ــــــــــــــــــــــــ

۱ . السیرة النبویة ج ۲ ص ۲۵۰ . (۱۰)

۳- کان لقضـیة الإفک فی عصر الرسول دویّ بین أعدائه، فکان عدوّ اللّه «عبد اللّه بن أُبی» یشیع الفاحشة ویؤذی النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسـلم ـ ، فقام رسول اللّه فی الناس یخطبهم، فحمد اللّه وأثنی علیه ـ ثم قال: «أیّها الناس ما بال رجال یؤذوننی فی أهلی ویقولون علیهم غیر الحق، واللّه مـا علمت منهم إلاّـ خیراً، ویقولون ذلـک الرجل، واللّه ما علمت منه إلاّ خیراً، وما یـدخل بیتاً من بیوتی إلاّ وهو معی ـ و کان کبر ذلک الإفک عند عبد اللّه بن أُبی بن سـلول فی رجال من الخزرج . فلمّا قال رسول اللّه تلک المقالة، قال «أسـید بن حضیر» وکان أوسیاً: یا رسول اللّه! إن یکونوا من الأوس نکفکهم، وإن یکونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا بأمرک، فواللّه إنّهم لأهل أن تضـرب أعناقهم، فقال سـعد بن عبادة ـ وکان خزرجیاً ـ : کذبت لعمر اللّه لا تضرب أعناقهم، أما واللّه ما قلت هذه المقالة إلاّ أنّک قـد عرفت أنّهم من الخزرج، ولو کانوا من قومک ما قلت هذا. فقال أسـید: ولکنّک منافق تجادل عن المنافقین. و عندئذ تساور الناس حتّی کاد أن یکون بین هذین الحیین من الأوس والخزرج شرّ. وفی لفظ البخاری: فصار الحیّان الأوس والخزرج حتّی همُّوا أن یَقْتَتِلوا ورسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسـلم ـ قائم علی المنبر، فلم یزل یخفّضـهم حتّی سـکتوا وسکت(۱) . هـذه نماذج من مواقف النبی الأـعظم حیـال الخلافات الّتی کانت تنشب أحیاناً بین أُمّته وهو ـ صلّی الله علیه وآله وسـلم ـ کان یصـنع من الخلاف وئاماً ومن النزاع وفاقاً، ویدفع الشـر بقیادته الحکیمة، وما هذا إلاّ لأنّ صـرح الإسـلام قائم علی کلمتین: کلمة التوحید وتوحید الکلمة . وهذا صنو النبی الأکرم ووصـیه وخلیفته ـ إذ حرم من حقّه المشـروع، وبـدلت الخلافـة التنصیصـیة إلی تداول الخلافة بین تیم وعدی، ثم إلی أُمّیة ـ قد

---

۱ . السیرة النبویة ج ۳ ص ۳۱۲ ـ ۳۱۳، و صحیح البخاری ج ۵ ص ۱۱۹ باب غزوة بنی المصطلق . (۱۱)

بقی حلیف بیته وأَلیف کتـاب اللّه، وهو یری المفضول یمارس الخلافـة مع وجود الفاضل، بل یری تراثه نهباً، ومع ذلک کله لم ینبس

ببنت شفة إلاّ فى موارد خاصة، حفظاً للوفاق والوئام، وهو ـ عليه السَّلام ـ يشرح لنا تلك الواقعة بقوله: «فواللّه ما كان يُلْقَى فى رُوعى، وَ لا يَخْطُرُ ببالى، أنّ العَرَبَ تُزعِجُ هَذَا الأَمرَ مِنْ بَعْدِهِ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ عَنْ أهْل بَيتِهِ، وَ لا أنّهُمْ مُنَحُّوهُ عنّى مِنْ بَعْدِهِ، فما رَاعَنى إلاّ انثيالُ الناسِ على فُلان يُبَايِعُونَهُ فَأمْسَكْتُ يدى حتّى رأيتُ راجعةَ الناسِ قد رَجَعَتْ عن الإسلام يَدْعُونَ إلى مَحْقِ دينِ مُحَمّد فخَشيتُ إن لَمْ أنْصُرِ الإسلامَ و أهلَهُ أن أرَى فيه ثَلْماً أو هَدْماً تَكُونُ المُصيبَةُ بِهِ علىَّ أعْظمَ مِنْ فَوْتِ ولايَتِكُم، الّتى إنّما هِىَ مَتاعُ أيّام قَلائِلَ...»(۱). وعندما تسنّم سدّة الخلافة ورجع الحق إلى مداره، قام خطيباً فقال: «والزَمُوا السّوادَ الأعظَمَ، فإنَّ يدَ اللّهِ مَعَ الجماعَةِ و إيّاكُمْ و الفُرْقَةَ فإنّ الشّاذَّ مِنَ الناسِ للشيطانِ كَمّا أنّ الشّاذّ مِنَ الغَنَمِ للذِّئْبِ. ألا مَنْ دَعَا إلى هذا الشّعارِ فَاقْتُلُوهُ وَ لَوْ كَانَ تحتَ عِمَامَتى هَذَهَ»(۲) . هذه هى سيرة النبى الاكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وسيرة وصيّه وتلميذه، وهما تعربان عن أنّ حفظ الوحدة من أهمّ الواجبات وأوجب الفرائض، ولكن يا للأسف لم تراع الأُمّة نصح النبى الأكرم عبر القرون والأجيال، وهذه مأساة سقيفة بنى ساعدة المسرحية وما تمخّض عنها. واقرأها بدقة وإمعان ترَ أنّ الجانبين المهاجرين والأنصار تشبّثوا بدعاوى منتنة تشبه دعوى الجاهلية، فمندوب الأنصار يجرّ النار إلى قرصه بحجة أنّهم نصروا النبى الأكرم و آووه، كما أنّ المتكلم عن جانب المهاجرين (و لم يكن فى السقيفة منهم آنذاك إلاّ خمسة أشخاص) يراهم أحقّ بتداول الخلافة بحجة أنّهم عشيرة النبى الأكرم، وفى الوقت نفسه لم نجد فى كلامهما ما يشير إلى ما يخدم صالح الإسلام والمسلمين، وأنّ المصالح الكبرى تكمن ضمانتها فى تنصيب من توفّرت فيه شرائط وسمات وملامح القيادة الربّانية دون سائر أفراد الأُمّة . _____

۱ . نهج البلاغة، الرسالة ۶۲ .

۲ . نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۷ . (۱۲)

وقد توإلى الخلاف والشقّاق، ودارت الدوائر على المسلمين بعد مقتل عثمان وانتخاب على ـ عليه السَّلام ـ للزعامة باتفاق المهاجرين والأنصار، إلاّ من شذّ ولا يتجاوز عددهم خمسة، وعند ذلك ثقل على الأُمّة عدل علىّ وسيرته، فثارت الضغائن البدرية ضدّه فوقع ما وقع، وتوالت الوقائع والأحداث، فجاءت وقعة الجمل الّتى أُريقت فيها دماء المسلمين، لأجل إزالة الإمام وتنحيته عن حقّه ومقامه. وبعد ما انتصر الإمام على الناكثين وعاد الحق إلى مقره، نجم قرن آخر تمثل فى وقعة صفين الّتى ذهبت ضحيتها عشرات الآلاف من المسلمين، إلى أن انتهى الأمر إلى وقعة النهروان الّتى شغلت بال الإمام واستنفدت طاقات المسلمين، واستشهد الإمام، والمسلمون بعد لم يندمل جرحهم، وبويع ولده الإمام الحسن السبط للخلافة، وأخذ بزمام الأمر أشهراً قلائل، غير أنّ ابن ابى سفيان شنّ الغارة على العراق وشيعة الحسن ـ عليه السَّلام ـ ومبايعيه، فانجرّ الأمر إلى التصالح، وأُنيخ جمل الخلافة على باب بنى أُميّة يتداول كرتها واحد بعد واحد، حتّى انتكث عليهم فتلهم وأجهز عليهم عملهم بانتفاضة الأُمة ضدّهم، إلى أن استولى العباسيون فصاروا خلفاء الأُمة وقادتها، ولم يكونوا بأحسن من الأمويين . يا ليت جور بنى مروان دام لنا * وليت عدل بنى العباس فى النار كان العباسيون يتوارثون الخلافة من الآباء إلى الأولاد، و كان للإسلام صولة وللمسلمين هيبة، ولم تكن تجترىء القوى الكافرة فى العالم عبر قرون على غزو المسلمين، وإن كانت الفتن والحروب الداخلية دائرة بينهم. غير أنّ تلك الحروب وضعف القيادة الإسلامية أتاحت فرصة صالحة للقوى الكافر ة المتربّصة بالمسلمين لشنّ الغارة على الوطن الإسلامى وضرب الإسلام والمسلمين ضربة قاضية فى أوائل القرن السادس، حيث أنشبت مخالبها فى جسد الإسلام والمسلمين، وانقضّت عليهما بالحملات الصليبية فى أوائل ذلك القرن، وكان منطلق شنّ تلك الحملات والغارات من جانب الغرب، عن طريق البحر تارة على سواحل الشامات، وأُخرى عن طريق البر عبر القسطنطنية. كانت تلك الحروب لا تزال طاحنة ومشتعلة ينتصر فيها المسلمون على (۱۳)

العدو فى فترة بعد فترة، إذ بدأت الحملات الأُخرى من جانب الشرق على يد التتار والمغول، فكان مختتم الحروب الصليبية مبدأ للحروب الوثنية بايدى عبدة الشمس والكواكب، ولعلّ هذا يعرب عن اتفاق الصليب والصنم، وبالتالى الصليبيين والصنميين على تدمير الحضارة الإسلامية... ولسنا أول من تنبّه إلى اتفاق هاتين القوتين فى ذلك العصر المظلم، بل يظهر عن طريق الإمعان فى ثنايا التاريخ

أنّ ذلك كان أمراً مدبّراً، ولو لم يكن هناك اتفاق فى بدء الأمر لكن حصل الاتفاق بين الصليبى والوثنى فى أثناء تلك الحروب، وفى كلام ابن الأثير المعاصر لهذه الحروب إشارة إلى ذلك حيث يقول: «وقد بلى الإسلام والمسلمون فى هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأُمم. منها هؤلاء التتار ـ قبحهم اللّه ـ أقبلوا من المشرق ففعلوا الأفعال الّتى يستعظمها كل من سمع بها، ومنها خروج الإفرنج ـ لعنهم اللّه ـ من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر، وملكهم ثغر دمياط منها، وأشرفت ديار مصر والشام وغيرها على أن يملكوها لولا لطف اللّه تعالى ونصره عليهم»(١) . ثم إنّ ابن الأثير يشير إلى ضعف القيادة الإسلامية فى تلك العصور، ويزيح النقاب عنها بقوله: «يسرّ اللّه للمسلمين و الإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه...»(٢) . ولأجل إيقاف القارىء على مدى الخسائر الفادحة الواردة على الإسلام والمسلمين، الناجمة عن هذه الحروب الصليبية والتترية، نذكر لمحة خاطفة من هاتين الحربين كنموذج تمثيلى، ليعلم بذلك داء المسلمين فيه، ثم نبحث عن الدواء الّذى كان ينبغى لعلماء الإسلام أن يقدّموه إلى المجتمع الإسلامى، والمصل الناجع، ونقدّم الكلام عن الحروب الصليبية أوّلا، ثم عن التترية ثانياً، ثم تنامى رقعة الهجمات الصليبية فى الوطن الإسلامى بهجومهم على الأندلس ثالثاً، وقد استغرقت هذه الهجمات الصليبية والتترية قرنين، من

١ . الكامل فى التاريخ ج ١٢ ص ٣٦٠ .

٢ . الكامل فى التاريخ ج ١٢ ص ٣٧٦ . (١٤)

أوائل القرن السادس إلى أواخر القرن السابع أو أزيد. الحروب الصليبية (٤٩١ ـ ٦١٦)

كانت النصارى بالمرصاد للمسلمين، وكان من أُمنياتهم الاستيلاء على بيت المقدس و سلبه من أيدى المسلمين بحجّة أنّه قبلة الأُمم المسيحية ومثوى ومنتجع عواطفهم الدينية، فشنّوا الغارة على بلاد المسلمين حوالى سنة ٤٩١ إلى أواخر القرن السابع، وكانت للحروب الصليبية مراحل ثمان أو تسع، فكانوا ينتصرون فى بعضها، كما تلحقهم الهزيمة فى بعضها الآخر، ومن المراحل التى انتصروا فيها على المسلمين المرحلة المعروفة التى: «ساروا فيها إلى بيت المقدس، فحاصروه ونصبوا عليه برجين، وملكوه من الجانب الشمالى، وسلّط على الناس السيف، ولبث الإفرنج فى البلد أُسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد ما يزيد على سبعين ألفاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء» (١) . إنّ التواريخ الإسلامية تعرف السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (م ٥٨٩ هـ) الفاتح الكبير والقائد الفذّ، الّذى صمد فى وجه، الصليبيين حيث طرد الإفرنج عن الشامات، غير أنّه لم يقض فى فتوحاته على غائلة الحروب الصليبية بشكل نهائى، بل امتدت هذه الحروب فى الوطن الإسلامى بعده ايضاً. كيف وقد وقعت حرب ضروس فى سنة ٥٩٣ هـ بين الملك العادل ابى بكر بن ايوب وبين الإفرنج، فأنقذ مدينة يافا من الساحل الشامى من يد الإفرنج(٢) وقد ذكر ابن الأثير أيضاً فى حوادث سنة ٦١٤: «أن الإفرنج اقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة ٦١٥ فساروا فى البحر إلى دمياط، فوصلوا فى صفر، فأرسلوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط النيل...»(٣) . زحف التتار إلى البلاد الإسلام

قد ذكر المؤرخون بعض الدوافع لاشتعال هذه الحرب فى أوائل القرن

١ . تاريخ مختصر الدول، للملطى المعروف بابن العبرى، المتوفى ٦٧٥ هـ .

٢ . الكامل ج ١٢ ص ١٢٦ .

٣ . الكامل ج ١٢ ص ٣٢٣ . (١٥)

السابع بين الوثنيين والمسلمين قالوا: إنّ ملك التتار المعروف بـ «جنكيز خان» قد سيّر جماعة من التجار ومعهم شىء كثير من النقرة والقندر وغيرهما إلى ما وراء النهر، سمرقند وبخارى، ليشتروا به ثياباً للكسوة، فوصلوا إلى مدينة من بلاد الترك تسمّى «أوترار» وهى آخر ولاية «خوارزم شاه» وكان له نائب هناك، فلما وردت عليه هذه الطائفة من التتر أرسل إلى خوارزم شاه يعلمه بوصولهم، ويذكر له ما معهم من الأموال، فبعث إليه خوارزم شاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال، فقتلهم وسيّر ما معهم، وكان شيئاً كثيراً، فلما

وصل إلى خوارزم شاه فرّقه على تجار بخارى و سمرقند، وأخذ ثمنه منهم، فبلغ الخبر إلى جنكيزخان فأرسل رسولا إلى خوارزم شاه يقول: «تقتلون أصحابى و تجارى وتأخذون مالى منهم، فاستعدوا للحرب فإنّى واصل إليكم بجمع لا قبل لكم به» (۱) . ويظهر من بعض الآثار أنّ يد بعض الأساقفة كانت وراء تحريض ملك التتار على الزحف والحرب، يقول ابن العبرى: «عظم الأمر عند جنكيزخان وتأثر منه إلى الغاية وهجره النوم، وصار يحدث نفسه ويفكر فى ما يفعله، ففى الليلة الثالثة رأى فى منامه راهباً عليه السواد وبيده عكازة وهو قائم، فذكر رؤياه للأسقف فقال الأسقف: يكون الخان قد رأى بعض قديسينا، ومن ذلك الوقت صار يميل إلى النصارى ويحسن الظن بهم ويكرمهم، ومن هذه السنة (۶۱۶) قصد جنكيزخان البلاد الإسلامية»(۲). الداهية العظمى أو خروج التتار إلى بلاد الإسلام

إنّ عظمة الداهية بلغت حداً لا يستطيع القلم واللسان تبيينها وترسيمها ولا يستطيع المسلم أن يسمع ذكراً منها أو يقرأ فصلا من فصولها، حتّى أنّ ابن الأثير بقى عدة سنين معرضاً عن ذكر الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فبقى يقدّم رجلا ويؤخّر أُخرى، ثم علّل إعراضه عن تحرير هذه الواقعة _____

۱ . الكامل ج ۱۲ ص ۳۶۱ ـ ۳۶۲ .

۲ . تاريخ مختصر الدول ص ۲۳۰ . (۱۶)

بقوله: «ومن ذا الّذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين، ومن ذا الّذى يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أُمّى لم تلدنى، ويا ليتنى متّ قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً، إلّا أنّه حثّنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رايت أنّ ترك ذلك لا يجدى نفعاً فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى الّتى عقمت الأيام والليالى عن مثلها، عمّت الخلائق وخصّت المسلمين، فلو قال قائل إنّ العالم مذ خلق اللّه سبحانه وتعالى آدم و إلى الآن لم يبتلوا بمثله لكان صادقاً، فإنّ التواريخ لم تتضمّن ما يقاربها ولا ما يدانيها . ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بخت نصر ببنى إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، وما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد، الّتى كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فإنّ أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل، ولعل الخلق لن يروا مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا، إلّا يأجوج ومأجوج . وأمّا الدجال فإنّه يبقى على من اتّبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنّا للّه و إنّا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلى العظيم، ولهذه الحادثة الّتى استطار شررها، وعمّ ضررها، وصارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإنّ قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاسغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان فيفرغون منها ملكاً، وتخريباً وقتلا، ثم يتجاوزونها إلى الرى، وهمدان، وبلد الجبل وما فيها من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد آذربيجان وأرانية يخربونها ويقتلون أكثر أهلها ومن ينجو إلّا الشريد الفارّ (فعلوا كل ذلك) فى أقل من سنة هذا ما لم يسمع بمثله . ثم لما فرغوا من آذربيجان وأرانية صاروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه (۱۷)

ولم يسلم غير القلعة الّتى بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز، ومن فى ذلك الصقع من الأُمم المختلفة فأوسعوهم، قتلا، ونهباً، وتخريباً، ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عدداً، فقتلوا كل من وقف لهم، فهرب الباقون إلى الغياض ورؤوس الجبال، وفارقوا بلادهم واستولى هؤلاء التتر عليها فى أسرع زمان، ولم يلبثوا إلّا بمقدار مسيرهم لا غير. ومضت طائفة أُخرى غير هذه الطائفة إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان، ففعلوا فيها مثل ما فعل هؤلاء وأشد. وهذا ما لم يطرق الأسماع مثله. فإنّ الإسكندر الّذى اتفق المؤرخون على أنّه ملك الدنيا لم يملكها فى هذه السرعة، إنّما ملكها فى نحو عشر سنين ولم يقتل أحداً. وإنّما رضى من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأحسنه، وأكثره عمارة وأهلا، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة فى نحو سنة، ولم يبق فى البلاد الّتى لم يطرقوها إلّا وهو خائف يتوقعهم ويترقب وصولهم إليه» (۱) . ثم إنّ ابن

الأثير تتبع مسير التتار وهجماتهم الوحشية، فذكر الحوادث المفجعة سنة بعد سنة، إلى أن وصول إلى حوادث (۶۲۸ هـ) وبعدها بقليل . و أظنّ أنّ فيما ذكره على وجه الإجمال غنى وكفايـة، ولا يحتاج إلى سـرد التفاصـيل الّتى جاءت بعـد هذا الإجمال، ولكنّه لم يدرك الهزيمة النكراء الّتى أصابت المسـلمين عند سقوط بغداد، ولكن المؤرخين الذين جاءوا بعده ذكروا سقوط العاصمة فى أيدى أولئك الوحوش الضوارى، وقـد ارتكبوا جرائم لاـ تغسـل عن ساحـة الـذاكرة الإنسانيـة بمـاء المحيـط، فضـلا عن البحر والنهر، ولاجل إيقاف القارىء على مدى الخسائر الفادحة الروحية والجسدية الواردة على المسـلمين، نذكر من تلك الهجمات العديدة هجومهم على بغداد، فإنّه يوقفنا على حقيقة ما جرى فى غيرها، معتمدين فى ذلك على ما سطره ابن كثير فى تاريخه. ــــــــــــــــــ

۱ . الكامل لابن الأثير ج ۱۲ ص ۳۵۸ ـ ۳۶۱ . (۱۸) سقوط الخلافة العباسية بأيدى وحوش التتار

لم تستهل هـذه السـنة إلاّ وجنود التتار قد أحاطت ببغداد بصـحبة الأميرين اللذين على مقدمة عساكر سـلطان التتار، هولاكوخان، وقد جاءت إليهم أمـداد صابـح الموصل يساعـدونهم على البغاددة وميرته وهـداياه وتحفه، وكل ذلك خوفاً على نفسه من التتار، ومصانعة لهم قبّحهم اللّه تعالى، وقـد سترت بغـداد ونصـبت فيها المجانيق والعرادات وغيرها من آلات الممانعة الّتى لا ترد من قدر اللّه سـبحانه وتعالى شـيئاً، كما ورد فى الأثر «لن يغنى حـذر عن قدر» و كما قال تعالى: (إِنَّ أَجَلَ اللّهِ إذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ) (۱) وقال تعالى: (إِنَّ اللّهَ لا يُغَيِّرُ مـا بِقَوم حتّى يُغَيِّروا مـا بأنفُسِـهم وَإذا أرادَ اللّهُ بِقوم سُوءاً فَلاـ مَردَّ لَهُ وَمَـا لَهم مِن دُونِهِ مِن وَال)(۲). وأحاطت التتار بـدار الخلافة يرشـقونها بالنبال من كل جانب حتّى أُصيبت جارية تلعب بين يدى الخليفة وتضحكه، وكانت من جملة خطاياه، وكانت مولدة تسمى عرفـة، جاءها سـهم من بعض الشـبابيك فقتلها وهى ترقص بين يـدى الخليفـة، فانزعـج الخليفـة من ذلك وفزع فزعاً شديـداً، وأحضـر السـهم الّـذى اصابهـا بين يـديه فإذا عليه مكتوب: «إذا أراد اللّه إنفاذ قضائه وقـدره أذهب عن ذوى العقول عقولهم» فأمر الخليفـة عند ذلـك بزيـادة الاحتراز، وكثرت السـتائر على دار الخلافـة وكان قـدوم هولاكو خان بجنوده كلها ـ وكانوا نحو مائتى ألف مقاتل ـ إلى بغداد فى ثانى عشـر المحرم من هذه السـنة. ووصل بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن باللّه ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغـداد من ناحيتها الغربية والشـرقية، وجيوش بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشـرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش كلهم قـد صـرفوا عن إقطاعـاتهم حتّى اسـتعطى كثير منهم فى الأسـواق وعلى أبواب المساجـد، و أنشـد فيهم الشـعراء قصـائد يرثونهم ويحزنون على الإسلام وأهله . ولما فتحوا البلد، قتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء ــــــــــــــــــ

۱ . سورة نوح: الآية ۴ .

۲ . سورة الرعد: الآية ۱۱ . (۱۹)

والوالـدان والمشايـخ والكهول والشـبان، ودخـل كـثير من النـاس فى الآبـار و أمـاكن الحوش، وقنى الوسـخ، وكمنوا كـذلك أيامـاً لا يظهرون، وكـان الجماعـة من الناس يجتمعون فى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إمّا بالكسـر و إمّا بالنار، ثم يـدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعـالى الأمكنـة، فيقتلونهم بالأسـطحة، حتّى تجرى الميازيب من الـدماء فى الأزقـة، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون. وكـذلك فى المساجـد والجوامع والربـط، ولم ينـج منهم سوى أهل الذمـة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم... وطائفـة من التجار أخـذوا لهم أماناً، وبـذلوا عليه أموالا جزيلة حتّى سـلموا وسـلمت أموالهم، وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلّها، كأنّها خراب ليس فيها إلاّ القليل من الناس، وهم فى خوف وجوع وذلة وقلة . وقد جرى على بنى إسـرائيل ببيت المقدس قريب مما جرى على أهل بغداد، كما قصّ اللّه تعالى، علينا ذلك فى كتابه العزيز، حيث يقول: (وَ قَضَـينا إلى بَنى إسـرائيلَ فى الكتابَ لَتُفْسِدُنَّ فى الأرضِ مَرَّتَينِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كبيراً * فإذا جاءَ وَعـدُ أولاهُما بَعَثْنا عَليكُم عَباداً لَنا أُولى بَأْس شَديـد فَجاسُوا خِلالَ الـدّيارِ وَكَانَ وَعْـداً مَفعولا)(۱) . وقد قتـل من بنى إسـرائيل خلق من الصـلحاء، وأسـر جماعـة من أولاـد الأنبيـاء، وخرب بيت المقـدس بعـد مـا كـان معموراً بالعباد والزهاد والأحبار والأنبياء، فصار خاوياً على عروشه واهى البناء . وقد اختلف الناس فى كمية من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الوقعة. فقيل ثمانمائـة ألف، وقيـل ألف ألف وثمانمائـة ألف، وقيـل بلغت القتلى ألفى نفس، فإنّـا للّه و إنّـا إليه راجعون، ولاـ حول ولا قوة إلاّ باللّه

العلىّ العظيم، وكان دخولهم إلى بغداد فى أواخر المحرم، وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوماً . ولما انقضى الأمر المقدور وانقضت الأربعون يوماً بقيت بغداد خاوية على _____

۱ . سورة الإسراء: الآية ۴ـ۵ . (۲۰)

عروشها ليس بها أحد إلّا الشاذّ من الناس، القتلى فى الطرقات كأنّها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيّرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغيّر الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد، حتّى تعدى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام ;فمات خلق كثير من تغيّر الجو وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والطعن والطاعون فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون. ولما نودى ببغداد الأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنّهم الموتى إذا نبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضاً فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى، واجتمعوا تحت الثرى بأمر الّذى يعلم السرّ وأخفى اللّه لا إله إلّا هو له الأسماء الحسنى، وكان رحيل السلطان المسلّط هولاكوخان عن بغداد فى جمادى الأُولى من هذه السنة (۶۶۶ هـ) إلى مقر ملكه (۱) . ثم امتدّت الهجمات بعد سقوط بغداد حتّى وصل جيش العدو إلى عين جالوت وغزة فى فلسطين، وكانت الأُمنية الكبرى للعدو هى الاستيلاء على الشامات ثم مصر، ولكن الزحف توقف بتدبير الملك الظاهر بيبرس (۶۵۹ ـ ۶۷۶ هـ) ولكن العدو حاول الاستيلاء ثانياً على الشامات...(۲) . وهذا اليافعى يتتبّع مسير التتار وهجومهم، فيقول فى حوادث عام ۷۰۰ هـ: «حصلت أراجيف بالتتار وجاء غازان بجيشه الفرات وقصد حلب فتشوشت الخواطر...» . ويقول فى حوادث عام ۷۰۲ هـ: «طرق غازان الشام ولكن انهزم عند سور دمشق وتفرّقت جيوشه، ثم جهّز غازان جيوشه فصاروا إلى مرج دمشق وتأخر المسلمون وبات أهل دمشق فى بكاء واستغاثة وخطب شديد، وقدم _____

۱ . البداية والنهاية، ج ۱۳، ص ۲۰۰ ـ ۲۱۳ .

۲ . فيليب حتى. تاريخ العرب المترجم إلى الفارسية، ج ۲ ص ۸۸۳، ۸۵۱، ۸۲۸ . (۲۱)

السلطان وانضمّت إليه جيوشه...»(۱) . هذا قليل من كثير مما جنت يد التتار على الإسلام والمسلمين، وقد امتدّ الدمار والهلاك بعد هذه السنة حتّى تجاوز القرن السابع إلى أواخر القرن الثامن. فابتدأت الحروب التترية من عام ۶۰۳ هـ وانتهت عام ۸۰۷ هـ بموت تيمورلنك الّذى تظاهر هو بالإسلام وبعض من قبله، ولكن لمن تزل القلوب مضطربة باستيلاء هؤلاء على المناطق الإسلامية . * * * إبادة المسلمين فى الأندلس

انتهت الحروب الصليبية والتترية فى مختتم القرن الثامن، ولكن نار الحرب بين المسلمين والمسيحيين كانت مشتعلة فى الوطن الإسلامى «الأندلس» عن طريق إبادة المسلمين وإجلائهم عن وطنهم والتنكيل بهم . إنّ المسلمين بفضل المجاهدين الإسلاميين وصلوا إلى تلك البلدة الخصبة عام ۹۲ هـ واستمرّوا فى الفتح إلى أن وصلوا إلى قلب فرنسا عند مدينتى «تور» و«بواتييه» عام ۱۱۲ هـ (۲) وهناك توقفت الفتوحات بسبب ضعف القيادة الإسلامية فى بغداد، وقطع صلة الحكام بالأندلس عنها، وعند ذلك طمع الصليبيون فى سلب تلك البلدة من أيدى المسلمين، فبدأوا بالحروب ضدهم، وكانت الأندلس فى نهاية القرن الخامس الهجرى قد انقسمت إلى عدة ممالك صغيرة، عرف حكامها بملوك الطوائف، وكان نصارى الشمال يهددون هذه المنطقة»(۳) . إلى أن حلت الهزيمة بالمسلمين فى موقعة العقاب فى ۱۵ صفر ۶۰۹ هـ أى فى نفس الوقت الّذى كان التتار قد بدأوا بشنّ الغارة على المسلمين من الشرق إلى الغرب وبالتالى زال سلطان «الموحدين» وسقطت هذه البلاد فى يد _____

۱ . مرآة الجنان ج ۴ ص ۲۳۴ ـ ۲۳۵ .

۲ . دائرة المعارف الإسلامية، مادة «أندلس» .

۳ . تاريخ الإسلام، تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ۴ ص ۵۳۷ . (۲۲)

«الإسبان» ولم يبق فى أيدى المسلمين سوى منطقة جبلية فى جنوب شرقى إسبانية حيث قامت مملكة «غرناطة» الإسلامية على أيدى

بنى نصر (بنى الأحمر) الذين بايعوا الخليفة الحفصى أقوى حكام المغرب فى ذلك الحين (۱) . ولكن العدو لم يرض بما اكتسب من الفتوح فشنّ الغارة عليهم حتّى أبادهم عام ۸۹۸ هـ فصار الأندلس كله للإسبان. ثم إنّ التاريخ يحكى لنا تعامل الإفرنج مع المسلمين معاملة سوء، حيث أجبروهم على التنصّر وعلى خروج النساء مكشوفات، فهرب المسلمون إلى الجبال فصاروا يطاردونهم كما تطارد الفرائس. وقد عدّ بعض المؤرخين عدد العرب المطرودين فى قرن واحد (أى من عام ۷۹۱ إلى عام ۸۹۸ هـ) نحواً من ثلاثة ملايين كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة وعلماً . و أنت إذا قرأت التاريخ وقلبت صفحاته تقف على أنّ هذه القرون الأربعة أى من بداية ۵۰۰ إلى ۹۰۰ هـ شرّ القرون وأسوأها بالنسبة إلى المسلمين، فقد حلت بهم عقوبات وضحايا لم يسجّل التاريخ لواحد من الأُمم مثلها، وإليك مبدأ هذه الحروب ومختتمها: ۱- الحروب الصليبية. بدأت من عام ۴۸۹ هـ واستمرت إلى عام ۶۶۰ هـ . ۲- الحروب التترية، ابتدأت من عام ۶۰۳ وانتهت عام ۸۰۷ هـ بموت تيمور لنك الّذى تظاهر بالإسلام . ۳- إبادة المسلمين فى الأندلس و إجلاؤهم بعد انحصار سلطانهم فى منطقة صغيرة فى غرناطة، ابتدأت من عام ۶۰۹ إلى ۸۹۸ هـ . حصيلة البحث

نحن نستنتج من هذا البحث الضافى أنّ الخلافة العباسية وملوكها وسلاطينها بلغوا من الفساد والانحلال إلى حدّ غاب عنهم معه ما كان يجرى

۱ . المصدر نفسه، ص ۳۱۸ . (۲۳)

خارج قصورهم، فقد كانت القوى الكافرة محيطة بدار الخلافة، والخليفة كان غافلا عمّا يجرى خارج القصر، وكانت تلعب بين يديه جاريته فلم يوقظه من الغفلة أو السكرة إلّا إصابة نبل الخصم لجاريته، فإذا كان هذا هو الإسلام وهذا خليفته، وهذا شعوره وإحساسه، فعلى الإسلام السلام، وعلى تلك الخلافة العفاء . وقد عرفت أنّ ابن الأثير كان من المشاهدين للقضايا عن كثب، ويعرف الخلفاء وسلاطينهم بأنّهم بلغوا من العقلية إلى درجة لا يهمّهم إلّا ما يهمّ البهيمة من إشباع بطنها و إرضاء فرجها (۱) . ومن المعلوم أنّ الفساد لم يكن مقتصراً على بلاط الخلفاء، بل الانحلال الخلقى والانحطاط المعنوى كان سائداً على الغالبية العظمى من المجتمع، إذ الناس على دين ملوكهم، ومن العجب أنّ المؤرخين الأباعد يحملون وزر سقوط الخلافة العباسية على عاتق الوزير الشيعى مؤيّد الدين ابن العلقمى، الّذى يصفه ابن الكثير بقوله: «وكان عنده فضيلة فى الإنشاء وليديه فضيلة فى الأدب» ويضيف أيضاً: «إنّه أشار على الخليفة بأن يبعث إلى هولاكو بهدايا سنية ليكون ذلك مدارة له عمّا يريده من قصد بلادهم، فخذّل الخليفة عن ذلك دويداره الصغير «أيبك» وغيره، وقالوا إنّ الوزير إنّما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليه من الأموال، وأشاروا بأن يبعث بشىء يسير، فأرسل شيئاً من الهدايا فاحتقرها هولاكوخان»(۲) . ومن الظلم إلقاء جريرة سقوط بغداد على عاتق هذا الوزير مع كون الخليفة على الحال الّتى سمعتها من ابن الكثير، وكون الملوك والسلاطين لا يهمّهم إلاّ بطنهم وشهوتهم، مع اشتعال نار الخلاف بين الرؤساء والقادة الشاغلين منصّة قيادة المجتمع الإسلامى، فلا تنتج تلك المقدمات إلاّ هذا الوضع الوبيل، إنّا للّه و إنّا إليه راجعون .

---

۱ . الكامل فى التاريخ ج ۱۲ ص ۳۷۵ .

۲ . البداية والنهاية ج ۱۳ ص ۲۱۴ . (۲۴) الحواضر الإسلامية آنذاك، دواؤها وذواوها

قد تعرّفت على الأوضاع المؤسفة السائدة فى الحواضر الإسلامية، وما آلت إليه من الدمار والهلاك والمذابح الفظيعة، والمجازر الرهيبة الّتى تعرّض لها سكانها الأبرياء، بسبب تلك الحملات العدوانية، وعندئذ نسأل كل مسلم حر الضمير عن دواء هذا الداء الّذى ألمّ بالمسلمين، وعلاج تلك المأساة الّتى وقع فيها الإسلام ؟ ولا أشك فى أنّ دواءها الوحيد كان هو إحياء التعاليم الإسلامية ـ آنذاك ـ فى مجال الجهاد والمقاومة، وإعادة الثقة إلى النفوس، والعمل على تقوية المعنويات ورفع المستوى العسكرى لدى المسلمين عملا بقوله تعالى: (وَ أَعِدُّوا لهم مَا استَطَعْتُم مِن قُوَّة وَمِن رِباطِ الخَيلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَ عَدُوَّكُم)(۱) . ثم السعى فى توحيد ما تفرّق وتشتّت من صفوف المسلمين، وحثّهم على تعمير ما تهدم من حضارة الإسلام، وإحياء شتى مناحى الحياة الاجتماعية

والاقتصاديـة والسياسـية، ممّا انهارت تحت ضـربات الأعـداء من الشـرق والغرب . ولا يكون ذلك إلا بإعادة العلم الناجع إلى الساحة، وتناسى الخلافات الفرعية، والدعوة إلى التمسّك بمبادىء الوحدة، وتجسيد قوله سبحانه: (إنَّما المُؤمنُونَ إخوةٌ)(۲) ورفض البحث عن الخلافات الّتى تثير النزاع، وتوجـد الفرقـة وتمزق الصـفوف. هـذا ما يحكم به ضـمير كل إنسان حر، فلو وجـدنا فى مثل هذه الظروف العصـيبة من يثير نار الخلافات الطائفيـة والمذهبية، وبالتالى يضـرب المسـلم بالمسـلم ويشـغلهم بالبحث عن فروع ليس لها من الأهمية بالقيـاس إلى علاـج الـدمار الرهيب الّـذى حلّ بالمسـلمين ـ لو وجـدنا رجلا بهـذا الوصف والنعت ـ فلا نشك أنّ نعرته نعرة جاهليـة، وحركته حركة مشبوهة، ودعوته دعوة منتنة _____

۱ . سورة الانفال: الآية ۶۰ .

۲ . سورة الحجرات: الآية ۱۰ . (۲۵)

حسب تعبير النبى، ومن الظلم والجنايـة على الإسـلام والمسـلمين تلقيب هـذا الداعى بـ«شـيخ الإسـلام» أو «محيى الشـريعة» أو «محيى السنة» أو غير ذلك من ألفاظ الثناء الوافر الّذى يوصف به هذا الرجل فى هذا القرن، بترغيب وترهيب من أصحاب الثراء والسلطة، بعد أن كـان معروفـاً بغيرهـا فى القرون الغـابرة، كما سـتوافيك كلمات معاصـريه ومن جاء بعـدهم إلى هـذه الأعصار . إنّ طرح الخلافات الكلامية والفقهية ـ فى العصـر الّذى كانت القوارع تنصبّ فيه على رؤوس المسـلمين من الشـرق والغرب، وتهدم الديار وتقتل النفوس البريئـة، وتشقّ بطون النساء والأطفال، ويرفع الرجال على أعواد المشانق وتخضب الأراضـى بدماء المسـلمين ـ ما هو إلّا من قبيل صـب الزيت على النـار، وتعميق الجرح غير المنـدمل . إنّ طرح المسائـل على ضوء العقـل إذا كان لغايـة التعرّف على الحقائق أمر يستحسـنه العقل ويقبله الشـرع فى جميع الحالات ولكن طرح هذه المسائل على وجه يتضـمن تكفير الفرق الإسلامية واتهامهم بالشرك، وتجويز قتلهم وإهـدار دمائهم، فى الوقت الّذى غمس العدو يده فى دمائهم إلى مرفقه، وقتل منهم الملايين، لا يصحّ تفسـيره إلّا بأحد وجهين: إمّا أن يكون رجلا غبياً لا يعرف الداء ولا الدواء، أو رجلا مُعقّداً مغرماً بالشهرة وحبّ العظمة. وما هذا الرجل إلّا أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت ۶۶۱ ـ م ۷۲۸ هـ) فقد ولد فى شر القرون وعاش فى أجوائها الصعبة على المسلمين، ومات فى ظروف الهزيمة الّتى حلت بالمسـلمين، لعلل تعرّفت عليها، فقـد أثار فى تلك الظروف العصـيبة مسائل خلافيـة لا تزيد فى الطين إلّا بلّة ولا فى الجرح إلّا تعميقاً، فهو بـدل أن يعيد إلى الساحة الإسـلامية الأخلاق والعمل بالإسـلام، ويعظ الملوك والساسة بالقيام بالوظائف وفتح معسـكرات لإعداد الشـباب وتـدريبهم، وإيجاد روح الكفاح، تجـده يرفع عقيرته بالمسائل الّتى لا تعود على المسـلمين فى تلك الظروف العصـيبة بشـىء سوى تعميق الخلاـف وتعكير الصـفو، وتشديـد النزاعـات المذهبيـة والطائفيـة . ورؤوس المسائـل الّتى طرحهـا ابن تيميـة وأصـرّ عليها وخالف الرأى العام (۲۶)

للمسـلمين ـ ولأجل ذلك اعتقل ونفى إلى مصر ـ هى الأُمور التالية: ۱- يجب توصـيفه سبحانه بالصفات الخبرية بنفس المعانى اللغوية من دون تصـرّف، كالاسـتواء على العرش، و أن له يـداً ووجهاً، وأن له نزولا وصـعوداً. ۲- يحرم شـدّ الرحال إلى زيارة النبى وتعظيمه بحجّـة أنّها تؤدّى إلى الشـرك. ۳- يحرم التوسّـل بالأوليـاء والصالحين. ۴- تحرم الاسـتغاثة بالأوليـاء ودعوتهم. ۵- يحرم بنـاء القبور وتعميرها. ۶- لا يصـح أكثر الفضائل المنقولـة فى الصـحاح والسـنن فى حقّ علىّ وآله . إلى غير ذلك من المسائل الفرعيـة فى أبواب الطلاق وغيرها كما ستقف عليها عند عرض آرائه. هب أيّها القارىء لما أنّ تبنّاه من الآراء مسحة من الحق ـ وليست آراء ساقطة تضاد القرآن الكريم والسـنة النبوية وسـيرة المسـلمين ـ هب أنها آراء صـحيحة ـ ولكنّها هل كانت مفيدة فى تلك الظروف، هل كانت دواءً لـداء الأُمـة الإسـلامية؟ أو كـانت أموراً غريبـة عمّـا يجب القيـام به، بـل كـانت مؤيـدة لمـا يتوخـاه العـدو من تشـتيت الشـمل وتمزيق الصـفوف؟!! إنّ من البداهة بمكان أنّ هذه المسائل لم تكن مما يخشاه العدو، فإنّ هذا النوع من المسائل الجدلية لا تفضح نوايا العدو ولا تعرقل خططه، لأنّها لا تعيد إلى المسـلمين روح الوثبة والمقاومة والاسـتبسال، بل من شأنها أن تسـتنفد طاقاتهم من دون جدوى، و تفنى قواهم من دون أثر يتّصل بالواقع . فلو كان ابن تيمية «شـيخ الإسـلام» حقاً لكان عليه أن يدع ما يلهى المسـلمين عن مصيرهم، بل

ما يعمّق محنتهم، ويتصدّى لمواجهة العدو بإعادة الروح الجهادية إلى نفوسهم، وبث المعنويات فى قلوبهم، وتوجيه همم (۲۷) المسلمين، إلى إعادة بناء كيانهم العسكرى والصناعى والعلوم الناجعة، حتّى يستعيدوا بذلك مجدهم المندثر الّذى تألق فى القرن الرابع الهجرى . ويا للأسف إنّه بدل القيام بوظائف شيخوخة الإسلام الحقيقية انصرف إلى مسائل اجتهادية ليست ناجعة فى ذلك العصر ولا بعده . ابن تيمية لم يكن سلفياً

إنّ الموالين لابن تيمية والمقتفين أثره يصفونه بالسلفية، ويتقولون فيه بأنّه محيى مذهب السلف. هب أنّ السلفية مسلك ومذهب، ولكن السلفى عبارة عمَّن لا ـ يتخطّى عمّا سلكه السلف الصالح طيلة قرون سبعة، ولكن أراءه وأفكاره على طرف النقيض من أراء السلف. إنّ المسلمين طيلة قرون كانوا يحترمون قبر النبى ويزورونه، ولم تقع الزيارة فى تلك العصور ولو مرة واحدة ذريعة إلى الشرك، بل كان الداعى إلى زيارته فى كل فترة من الفترات، كونه نبيّ الإسلام نبيّ التوحيد، ومكافح الشرك ومنابذه، فيجب احترامه وتكريمه وحفظ آثاره وقبره، وآثار أصحابه وزوجاته وأبنائه انطلاقاً من هذا المبدأ (أى كونه نبيّ التوحيد، مشيد بنائه الشامخ) ولكنّا نرى أنّ ابن تيمية يخالف هذه السيرة الموروثة من الصحابة إلى زمانه، ويحرّم شدّ الرحال إلى زيارته تمسكاً بحديث غير دال على ما يرتئيه، كما سيوافيك. إنّ المسلمين طيلة القرون الغابرة إلى ميلاد ابن تيمية كانوا يتبرّكون بالنبى وآثاره، ولا يرون ذلك شركاً ولا ذريعة إليه، حتّى أنّ الشيخين أوصيا بمواراتهما فى جوار النبى، لما استقرّ فى قرارة ضميرهما بأنّ للمكان شرافة ومكانة بالغين، وأنّ المواراة فى ساحة النبى لها كرامة، ولم ينبس أحد من الصحابة ببنت شفة بأنّ ذلك ذريعة إلى الشرك، إلى أن ألقى الشر بجرانه إلى الأرض بميلاد ابن تيمية وآرائه الساقطة، فجعل ينكر هذا العمل ويخالف السلف. إنّ السلف الصالح فى حياة النبى وبعده كانوا يستغيثون بالنبى لما له من كرامة عند اللّه، لما أمرهم اللّه سبحانه بالمجيء إليه وطلب الاستغفار منه، ولم يخطر ببال أحد أن الاستغاثة بالملخوق شرك أو ذريعة إلى الشرك، وكان هذا (۲۸)

ديدن السلف فى جميع القرون، فجاء ابن تيمية ينكر الاستغاثة والتوسل، ثم يصف نفسه سلفياً، فما معنى هذه السلفية؟ (ما هكذا تورد يا سعد الإبل) . تقييم إنجازات ابن تيمية

إنّ قيمة كل امرىء بما يقدّمه إلى الأُمة من خدمات وخيرات، فإمّا أن يشيد بناء ثقافتهم ويضمن تقدمهم فى ميادين العلم والعمل، ويرفع من مستوى أخلاقهم وسلوكهم الإنسانى والإسلامى، وإمّا أن يرفع مستوى معيشتهم و يسعى فى ترفيههم بمشاريع البرّ و الإحسان، من بناء المدارس ومراكز التعليم والمستشفيات والمستوصفات، ودعم الكفاح بالتدريب العسكرى وغيره مما يرجع إلى دعم البنية المادية للمجتمع. هلم معى نطرح إنجازات ابن تيمية على طاولة النقاش والمحاسبة، فهل قام بأحد الأمرين؟ أمّا من جانب المعنى فلم نر أنّه قدم إلى المجتمع، دراسة نافعة فى الحقوق والسياسة والاقتصاد أو الاجتماع، أو ألف جامعاً حديثياً يكون هو المرجع للمسلمين كما قام بعض معاصريه بهذا الأمر، فلم يبق منه إلاّ التركيز على المسائل الّتى قدمنا رؤوسها والّتى كفّر بها مخالفيه، وبالتالى كفّر جمهور المسلمين الذين عاشوا طيلة سبعة قرون . هب أنّه قدم إلى المسلمين دراسات توحيدية، ولكن ما كانت نتيجة تلك الدراسات، فغاية ما أنجز وأتى ـ بعد ما تصوب وتصعد ـ أنّه يجب توصيفه سبحانه بنفس الصفات الخبرية بمعناها اللغوى، فصار معناه هو التجسيم والتشبيه وإثبات الجهة والفوقية للّه سبحانه، وقد فهم الكل هذا المعنى من دراساته. هب أنّه لم يقصد من إثبات هذه الصفات ما نسب إليه من الجسمية، ولكنّه صبّ ما رآه فى قوالب أَذْعَنَ الكُلُّ ـ الدانى منهم والنائى ـ بأنّه مُجسّم مشبّه مُثْبت للّه سبحانه الجهة والفوقية، مع أنّه سبحانه ليس بجسم ولا جسماني، و أنَّهُ ليس كمثله شيء . ما معنى هذه الدراسات العميقة الّتى لم تورث إلاّ هذه الأفكار الباطلة، (۲۹)

وسوف يوافيك أنّ الرجل مجسّم وإن كان لا يتفوه به، ولكن جُمَلَهُ وألفاظه وعباراته وما أصرّ عليه لا تنتج إلاّ ذلك. وقس عليه سائر إنجازاته من جانب المعنى، فقد منع شدّ الرحيل إلى زيارة النبى الأكرم، مع أنّ قبور الأنبياء لم تزار تزل من عصر النبى وقبله وبعده، وليست الغاية من زيارتهم إلاّ ـ التوقير والتكريم و عقد الميثاق مع ما جاءوا به من أُسس التوحيد، فكيف يكون ذلك ذريعة إلى

الشرك؟ وحصيلة البحث هى أنّنا لم نجد فى جميع إنجازاته شيئاً بديعاً يرفع به رأسه ويفتخر به على من سواه، سوى ما فى كلامه من الغلظة والأذى . اللسان والقلم مرآتان للضمير

إنّ اللسان والقلم مرآتان لضمير صاحبهما يعربان عن نفسيته الخبيثة أو الطيبة، الشريرة أو الخيّرة، فاللسان البذىء يكشف عن نفسيته المستهترة المريضة، كما أنّ اللسان و مثله القلم النزيهين يكشفان عن ملكة فاضلة. ومن رجع إلى كتب ابن تيمية يعرف أنّه ما كان يملك لسانه وقلمه عن التقوّل على المسلمين والتهجّم عليهم فجاءت كتاباته مليئة بالقول البذىء و إساءة الأدب، الّذى هو على طرف النقيض من الإسلام والعلم. ابن تيمية فى مرآة الرأى العام

ولقد كانت ثورة الرأى العام الإسلامى عليه من جانب الفقهاء والحكام والمتكلمين والمحدثين أدلّ دليل على انحرافه عن الخط المستقيم والطريق المهيع، فليس من القضاء الصحيح تخطئة جمهور المسلمين وتصويب رجل واحد، فمنذ نشر الرجل رأيه حول الصفات الخبرية عام ۶۹۸ هـ فى «الرسالة الحموية» جاءت الاستنكارات تترى من جميع الطوائف، وكلما تعرض الرجل للعقائد الإسلامية الّتى اطبقت عليها الأُمة فى جميع القرون، تعالى الاستنكار، حتّى أُلقى عليه القبض ونفى من بلد إلى بلد، وتعرض لاعتقال بعد اعتقال، إلى أن منع من القرطاس والكتابة، حتّى مات فى السجن ممنوعاً من كل شىء . ولو كان الرجل شيخ الإسلام ورائده وناصحه، لما ضاق عليه المجال من (۳۰)

جانب أبناء جلدته من قضاة وحكام: شوافع وأحناف . نعم الأسف كلّه على الناشئة الجدد الذين وقعوا فرائس فى أحابيل الدعاية الوهابية الّتى يقودها النظام السعودى ويغذيها بثروته الواسعة، ويدعمها الاستعمار الغاشم لغاية إضعاف المسلمين بالخلافات وإشغالهم بقضايا ومسائل لا تمتّ إلى الحياة بصلة. ولأجل ذلك نضع حياة الرجل وشخصيته أولا، وآراء معاصريه ومن جاء بعده فى القرون اللاحقة فى حقه فى ميزان النقد والقضاء ثانياً، ثم نبحث عن آرائه و أفكاره ونعرضها على الكتاب والسنة ثالثاً، حتّى يتبين الحق ويظهر، ويزهق الباطل .

ابن تيمية: حياته والرأى العام فيه

ابن تيمية: حياته والرأى العام فيه

هو أحمد بن عبد الحليم الحرانى الدمشقى، ولد فى العاشر من شهر ربيع الأول سنة ۶۶۱ هـ ، بعد خمس سنوات من سقوط الخلافة الإسلامية فى بغداد، وانغمار المسلمين فى مشاكل كثيرة. كان مولده بمدينة حران مهد الصابئة والصابئين من أقدم عصور الإسلام، وقد نشأ النشأة الأُولى إلى أن بلغ السابعة من عمره، فلما أغار عليها التتار، فرّ سكانها منها، وكان ممن هاجر أُسرة ابن تيمية، حيث هاجرت إلى دمشق، وقد اتّجه إلى العلم منذ صغره، وكان يدرس الفقه الحنبلى ويتتبع سير ذلك المذهب، وكان أبوه من شيوخ هذا المذهب، ففى المدارس الحنبلية تخرج ابن تيمية، ودرس فى كنف ابيه وتوجيهه ولم ير منه بادرة إلّا بعد ما كتب رسالة فى جواب سؤال أهل حماة، سألوه بقولهم: «ما قول السادة العلماء أئمة الدين ـ أحسن اللّه إليهم أجمعين ـ فى آيات الصفات، كقوله تعالى: (الرّحمنُ عَلىَ العَرْشِ اسْتَوى) وقوله: (ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماء) إلى غير ذلك من الآيات وأحاديث الصفات، وأيضاً كقوله (صلى الله عليه و آله): «إنّ قلوب بنى آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن» وقوله: «يضع الجبّار قدمه فى النار» إلى غير ذلك، وما قالت العلماء فيه، وليبسطوا القول فى ذلك مأجورين إن شاء اللّه؟»(۱) .

۱ . الرسالة الحموية، ص ۴۲۵ ـ طبعت فى ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ج ۱ . (۳۲)

فأجاب بما هو نصّ فى التجسيم، وإن ذيّل كلامه بشىء يريد به الستر على عاره، ولكنّه لا يسمن ولا يغنى من جوع، وسيوافيك نصّه عند تبيين عقائده، فاوجد الجواب ضجة كبرى، وعرف بالشذوذ والانحراف، وكان ذلك عام ۶۹۸ هـ يقول تلميذه «ابن كثير» فى حوادث تلك السنة: «قام عليه جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضى «جلال الدين الحنفى» فلم يحضر، فنودى فى

البلد فى العقيدة الّتى كان قد سأله عنها أهل حماة، المسماة بالحموية...»(۱) . وقد كانت له محنة أخرى فى عام ۷۰۵ هـ يذكره ابن كثير فى حوادث تلك السنة ويقول: «وفى يوم الإثنين ثامن رجب حضر القضاء وفيهم «الشيخ تقى الدين ابن تيمية» عند نائب السلطنة بالقصر، وقرأت عقيدة الشيخ تقى الدين (الواسطية)، وحصل بحث فى أماكن منها، وأُخّرت مواضع إلى المجلس الثانى، فاجتمعوا يوم الجمعة بعد الصلاة ثانى عشر الشهر المذكور، وحضر الشيخ صفى الدين الهندى وتكلم مع الشيخ تقى الدين كلاماً كثيراً، ثم اصطلحوا على أن يكون الشيخ كمال الدين الزملكانى هو الّذى يحاققه من غير مسامحة، فتناظرا فى ذلك وشكر الناس من فضائل الشيخ كمال الدين الزملكانى، وجودة ذهنه، وحسن بحثه، حيث قاوم «ابن تيمية» فى البحث وتكلم معه... ثم عقد المجلس فى يوم سابع شعبان بالقصر، واجتمع الجماعة على الرضى، إلى أن صدر القرار بنفى الشيخ إلى مصر إن لم يعزف عن بوادره وعقائده، فأدى به الأمر إلى انتدابه فى مجلس بالقلعة اجتمع فيه القضاة، وانتدب للبحث معه شمس بن عدنان، وادّعى عليه عند «ابن مخلوف» المالكى أنّه يقول: إنّ اللّه فوق العرش حقيقة، وإنّ اللّه يتكلم بحرف وصوت، فحكم عليه القاضى بالحبس فى برج أياما، ثم نقل منه إلى الحبس المعروف بالجب، وكُتِبَ _____

۱ . البداية والنهاية ج ۱۴ ص ۴ و ۲۶ . (۳۳)

كتاب نودى به فى البلاد الشامية والمصرية، وفيه الحط على الشيخ تقى الدين، فانضمّ إلى صفّه جماعة كثيرة من الفقهاء والفقراء، وجرت فتن كثيرة منتشرة، وحصل للحنابلة بالديار المصرية إهانة عظيمة(۱) . بقى الشيخ فى السجن بسبب عقيدته الّتى لا تجتمع مع عقيدة جمهور المسلمين حتّى مطلع سنة (۷۰۶ هـ) . يقول ابن كثير: وفى ليلة عيد الفطر من تلك السنة، أحضر الأمير سيف الدين سلار نائب مصر، القضاة الثلاثة وجماعة من الفقهاء، فالقضاة: الشافعى والمالكى والحنفى، والفقهاء: الباجى، والجزرى، والمنوارى، وتكلموا فى إخراج الشيخ تقى الدين ابن تيمية من الحبس، فاشترط بعض الحاضرين عليه شروطاً فى ذلك منها أنّه يلتزم بالرجوع عن بعض عقائده، فأرسلوا إليه ليحضر ليتكلموا معه فى ذلك، فامتنع عن الحضور . استهلّت سنة (۷۰۷ هـ) والشيخ معتقل فى قلعة الجبل بمصر، إلى أن أُطلق سراحه يوم الجمعة ۲۳ من ربيع الأول، وخيّر بين الإقامة بمصر أو الروح إلى موطنه الشام، وقد اختار هو الإقامة بمصر، ولكنّه لم يبرح فى غلوائه وأفكاره إلى أن واجهته محنة ثالثة، وقد ذكرها ابن كثير ايضاً فى تاريخه. المحنة الثالثة

وفى شوال عام ۷۰۷ هـ، شكى منه أيضاً، فردّ الأمر إلى القاضى الشافعى، فعقد له مجلس، وادّعى له ابن عطاء بأشياء ورأى القاضى بدر الدين بن جماعة أنّ فى آرائه قلة أدب بساحة النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ فحضرت رسالة إلى القاضى إلى أن يعمل معه ما تقتضيه الشريعة، فتمّ الأمر بحسبه فى سجن القضاة، ودخل السجن، وأُفرج عنه فى مستهل سنة ۷۰۸ هـ وبقى فى القاهرة إلى أن توجّه منفياً إلى الإسكندرية فى ليلة سلخ صفر فى عام ۷۰۹ هـ وأقام هناك ثمانية أشهر إلى أن تغيرت الظروف، فعاد _____

۱ . المصدر نفسه . (۳۴)

الشيخ منها إلى القاهرة يوم عيد الفطر سنة ۷۰۹ هـ فاقام بها إلى سنة ۷۱۲ هـ ثم رجع إلى الشام (۱) . وشغل الشيخ منصة التدريس والإفتاء إلى سنة ۷۱۸ هـ . وقد صدر منه فتاوى شاذة، وكان مصرّاً عليها، فعقد له يوم الخميس ثانى رجب من شهور سنة ۸۲۰ هـ مجلس بدار السعادة، فحضر نائب السلطنة، وحضر القضاة والمعنيون من المذاهب، وحضر الشيخ وعاتبوه، ثم حبس فى القلعة خمسة أشهر، إلى أن ورد مرسوم من السلطان بإخراجه يوم الإثنين يوم عاشوراء، سنة ۷۲۱ هـ . وظل الشيخ بعد خروجه من الحبس مستمراً فى التدريس إلى عام ۷۲۶ هـ . يقول جمال الدين يوسف بن تغرى الأتابكى: «ورد مرسوم شريف من السلطان فى شعبان سنة ۷۲۶ بأن يجعل فى قلعة دمشق، فاقام فيها مدة مشغولا بالتصنيف، ثم بعد مدة منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما كان عنده من الكتب، ولم يتركوا عنده دواتاً[دواةً] ولا قلماً ولا ورقاً»(۲) . وقال اليافعى: «مات بقلعة دمشق الشيخ الحافظ الكبير، تقى الدين أحمد، بن تيمية، ومنع قبل وفاته بخمسة أشهر عن الدواة والورق»(۳) . هذا، وقد لفظ الرجل نفسه ومات فى قلعة دمشق عام ۷۲۸ هـ وبذلك طويت صحيفة حياته، وبقيت آثاره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. إنّ ما تلوناه عليك من حياته يعرب: أولا: إنّه لم يكن رجلا موضوعياً يهمّه

ما کان یعانی منه المسلمون فی تلک الظروف العصیبة، الّتی کانت الدعوة إلی الوحدة فیها أحوج ما یحتاج إلیه ــــــــــــــــــــ

۱ . البدایة والنهایة ج ۱۴ ص ۵۲، وکانت إقامته بمصر سبع سنین.

۲ . المنهل الصافی والمستوفی بعد الوافی، ص ۳۴۰ .

۳ . مرآة الجنان ج ۴ ص ۲۷۷ . (۳۵)

الناس، فکان یبثّ بذور الخلاف فترة بعد فترة، ویشغل الحکومات والقضاة عن القیام بالواجب بنقل الشیخ من مقام إلی مقام . وثانیاً: إنّ جماهیر الفقهاء والقضاة کانوا یخالفونه فیما یبدیه من الآراء الشاذة، فی مجال الأُصول والفروع، وإنّ آراءه کانت مخالفة لما هو المشهور المجمع علیه بین العلماء . وثالثاً: إنّ الرجل کان معروفاً بالقول بالتجسیم والتشبیه والجهة، وکان اعتقاله لأجل التفوّه بها، فکلّ من أراد تنزیهه عن هذه التهمة، خالف الرأی العام فی حقّه وما عرف منه یوم حیاته .

نعم إنّ هناک أُناساً ترجموا للرجل ترجمة وافیة، فأثنوا علیه الثناء البالغ، وذکروا ذکاءه وتوقّد ذهنه، وإحاطته بالکتاب والسنّة، کما ذکروا آثاره العلمیة من کتب ورسائل، ولکن یؤخذ علیهم بأنّه لماذا رکّزوا علی جانب واحد من حیاته، ولم یشیروا إلی الجانب السلبی منها، فإنّه لا یمکن لأحد تخطئة أولئک العلماء الذین ناظروه، وباحثوه، وأصدروا أرائهم فیه، وهم کثیرون، ولأجل ذلک نشیر إلی المصادر الّتی أخذتها العصبیة العمیاء فجاءوا کأنّهم یعرفون رجلا أطبق علماء عصره علی نزاهته وصفاء فکره، فمن أراد أن یقف علیها فلیرجع إلی المصادر التالیة: ۱- تذکرة الحفاظ للذهبی ۴/ ۱۴۹۶، بالرقم ۱۱۷۵. وإن استدرک زلّته هذه ببعث رسالة مستقلة إلی ابن تیمیة یستنکر فیها علیه أعماله وأقواله کما ستوافیک . ۲- شذرات الذهب فی أخبار من ذهب لأبی الفلاح عبد الحی بن عماد الحنبلی (م ۱۰۹۸) ۶/۸۰ . ۳- طبقات الحفاظ، لجلال الدین السیوطی، (ت ۹۱۱ هـ)، ص ۵۲ . ۴- الذیل علی طبقات الحنابلة، لابن رجب زین الدین، أبی الفرج، عبدالرحمن بن شهاب الدین أحمد البغدادی ثم الدمشقی الحنبلی، (۷۳۶ ـ ۷۹۵ هـ) ۲/ ۳۸۷، بالرقم ۴۹۵ . (۳۶)

۵- الوافی بالوفیات، لصلاح الدین، خلیل بن أیبک الصفوی ۷/۱۵ ـ ۳۳ بالرقم ۲۹۶۴ . ۶- طبقات المفسرین، للحافظ شمس الدین محمد بن علی بن أحمد الداودی (م ۹۴۵ هـ)، ص ۴۵ ـ ۴۹ بالرقم ۴۲ . ۷- تاریخ الشیخ زین الدین عمر، الوردی، المعروف بتاریخ ابن الوردی ج ۲ ص ۴۰۶ . ۸- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تالیف محمد بن علی الشوکانی (ت ۱۲۵۰ هـ)، ج ۱ ص ۶۳ ـ ۷۲ بالرقم ۴۰ . ۹- البدایة والنهایة، للحافظ عماد الدین، أبی الفداء، إسماعیل بن عمر بن کثیر، (م ۷۴۴ هـ)، ج ۱۴، فی حوادث سنة (۶۹۸ هـ)، وغیرها. ولکنّه أشار فی مواضع آخر إلی بعض زلاته ومخالفته للرأی العام فی ذلک الیوم کما عرفت . ۱۰- الأعلام للزرکلی، ج ۱ ص ۴۴ . نعم هؤلاء هم الدین رکّزوا علی الجانب الإیجابی وتناسوا الجانب السلبی، مع أنّ التقییم لا یصحّ إلّا بملاحظة کلا الجانبین، ولکن هناک جماعة موضوعیین واقعیین، لم تملأ عیونهم کتب الرجل ورسائله، فجاءوا بتقییم آرائه فیما صار سبباً لاشتهاره، وإلیک نصوص هؤلاء حتّی لا نخرج فی التقییم عن حد العدل . آراء معصاریه ومقاربی عصره فی حقه

قد تعرّفت علی حیاة الشیخ وأنّه لم یزل ینتقل من معتقل إلی آخر، ومن مصر إلی مصر، وکان الرأی المتفق علیه بین القضاة والمعنیین من الحکام هو أنّه رجل یصدر عن عقائد وآراء فی مجال العقائد والأحکام تخالف الرأی العام بین أهل السنة، ولأجل ذلک کانوا یصدرون الحکم علیه بعد الحکم، ویعاقبونه مرة بعد أُخری ;وقد علمت أنّه منع من الکتابة حتّی فی نفس السجن، فما حال من کان علی طرف الخلاف من قضاة المذاهب وحکامهم و علمائهم؟ (۳۷)

وبذلک تعرف أنّ الدعایات الأخیرة هی الّتی تریدأن تعرّفه بشیخ الإسلام و محیی السنة، فما معنی هذه الشیوخة لأهل السنة مع أنّهم أجمعوا علی ضَلاله وشذوذه؟ ولأجل أن یقف القارىء علی آراء معصاریه فی حقه ومقاربی زمانه، نقتطف من غضون التاریخ جملا تکشف عن إطباق العلماء، علی الرد علیه ونقد آرائه، وستوافیک فی أثناء البحث رسالة الذهبی إلیه بنصها. وإلیک قائمة الشخصیات الذین ردّوا علیه فی عصره أو بعده بقلیل: ۱- الشیخ صفی الدین الهندی الأرموی (ت ۷۱۵ هـ)

عرّفه السبكى بقوله: «متكلم على مذهب الأشعرى، كان من أعلم الناس بمذهب الشيخ أبى الحسن وأدراهم بأسراره، متضلّعاً بالأصلين، ومن تصانيفه فى علم الكلام «الزبدة»، وفى أصول الفقه: «النهاية»، وكل مصنفاته حسنة جامعة، لاسيما «النهاية» . مولده ببلاد الهند سنة ۶۴۴ هـ ثم قدم دمشق سنة ۶۸۵ هـ واستوطنها وتوفى بها سنة ۷۱۵ هـ ولما وقع من ابن تيمية فى «المسألة الحموية» ما وقع، وعقد له المجلس بدار السعادة(۱) بين يدى الأمير «تنكز» وجمعت العلماء، أشاروا بأنّ الشيخ الهندى يحضر، فحضر، وكان الهندى طويل النفس فى التقرير، إذا شرع فى وجه يقرره لا يدع شبهة ولا اعتراضاً إلّا اشار إليه فى التقرير، بحيث لا يتم التقرير إلّا وقد بعد على المعترض مقاومته، فلما شرع يقرّر، أخذ ابن تيمية يعجّل عليه على عادته، ويخرج من شىء إلى شىء. فقال له الهندى: ما أراك يا بن تيمية إلاّ كالعصفور حيث أردت أن أقبضه من مكان، فرّ إلى مكان آخر . وكان الأمير تنكز يعظم الهندى ويعتقده، وكان الهندى شيخ الحاضرين كلّهم، فكلّهم صدر عن رأيه، وحبس ابن تيمية بسبب تلك المسألة، وهى _____

۱ . قال المعلق: كان ذلك سنة (۷۰۵ هـ)، راجع البداية والنهاية ج ۱۴ ص ۳۶ ـ ۳۸ . (۳۸)

الّتى تضمّنت قوله بالجهة، ونودى عليه فى البلاد وعلى أصحابه، وعزلوا من وظائفهم(۱) . ۲- الشيخ شهاب الدين ابن جهبل الكلابى الحلبى (ت ۷۳۳ هـ)

قال «السبكى»: «درس وأفتى وشغل بالعلم مدة بالقدس ودمشق. مات سنة ۷۳۳ هـ ووقفت له على تصنيف صنفه فى نفى الجهة رداً على ابن تيمية» وبما أنّ الرسالة مفصّلة نكتفى فى المقام بذكر مقدمتها. يقول: «أمّا بعد فالذى دعا إلى تصدير هذه النبذة. ما وقع فى هذه المدة، مما علّقه بعضهم فى إثبات الجهة واغترّ بها من لم يرسخ له فى التعليم قدم، ولم يتعلّق بأذيال المعرفة، ولا كبحة لجام الفهم ولا استبصر بنور الحكمة فاحببت أن أذكر عقيدة أهل السنة وأهل الجماعة ثم أُبيّن فساد ما ذكره، مع أنّه لم يدّع دعوى إلاّ نقضها ولا أطّد قاعدة إلاّ هدمها»(۲) . ۳- قاضى القضاة كمال الدين الزملكانى (۶۶۷ ـ ۷۳۳ هـ)

عرّفه السبكى بقوله: «الإمام العلاّمة المناظر، ولد فى شوال سنة ۶۶۷ هـ ودرس بالشامية البرانية ـ إلى أن قال ـ : ثم ولى قضاء حلب، وصنفّ الرد على ابن تيمية فى مسألتى الطلاق والزيارة(۳) . ۴- الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى (ت ۷۴۸ هـ)

ترجمه فى «تذكرة الحفاظ» غير أنّه لم يذكر مما ردّ عليه بشىء، وهذا عجيب من الحافظ الذهبى، ولكنّه نصحه فى رسالة بعثها إليه ويذكر ما فيه ويقول: «الحمدللّه على ذلّتى، يا ربّ ارحمنى، وأقلنى عثرتى، واحفظ علىّ _____

۱ . طبقات الشافعية الكبرى ج ۹ ص ۱۶۲ ـ ۱۶۴ .

۲ . تاج الدين، أبونصر، عبدالوهاب بن على بن عبدالكافى السبكى (ت ۷۲۷ ـ م ۷۷۱) طبقات الشافعية الكبرى ج ۹ ص ۳۴ ـ ۳۵) .

۳ . طبقات الشافعية الكبرى ج ۹ ص ۱۹۰ ـ ۱۹۱. (۳۹)

إيمانى، واحزناه على قلة حزنى، وأسفاه على السنة وذهاب أهلها، واشوقاه إلى إخوان مؤمنين يعاونونى على البكاء، واحزناه على فقد أُناس كانوا مصابيح العلم وأهل التقوى وكنوز الخيرات، آه على وجود درهم حلال وأخ مؤنس، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وتبّاً لمن شغله عيوب الناس عن عيبه. إلى كم ترى القذاة فى عين أخيك وتنسى الجذع فى عينك؟ إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعباراتك وتذمّ العلماء وتتبع عورات الناس؟ مع علمك بنهى الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ [وآله]: «لا تذكروا موتاكم إلاّ بخير، فإنّهم قد أفضوا إلى ما قدموا» بل اعرف أنّك تقول لى لتنصر نفسك: إنّما الوقيعة فى هؤلاء الذين ما شمّوا رائحة الإسلام، ولا عرفوا ما جاء به محمد ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ [وآله]وهو جهاد، بلى واللّه عرفوا أخيراً كثيراً مما إذا عمل به العبد فقد فاز، وجهلوا شيئاً كثيراً مما لا يعنيهم، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، يا رجل! باللّه عليك كفّ عنّا، فإنّك محجاج عليم اللسان لا تقر ولا تنام، إياكم والغلوطات فى الدين، كره نبيك ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ [وآله] المسائل وعابها، ونهى عن كثرة السؤال وقال: «إنّ أخوف ما أخاف على أُمّتى كل منافق عليم اللسان» وكثرة الكلام بغير زلل، تقسى القلب إذا كان فى الحلال والحرام، فكيف إذا كان فى عبارات اليونسية والفلاسفة وتلك الكفريات الّتى تعمى القلوب، واللّه قد صرنا ضحكة فى الوجود، فإلى

كم تنبش دقائق الكفريات الفلسفية؟. لنرد عليها بعقولنا، يا رجل! قد بلعت «سموم» الفلاسفة وتصنيفاتهم مرات، وكثرة استعمال السموم يدمن عليه الجسم، وتكمن واللّه فى البدن، واشوقاه إلى مجلس فيه تلاوة بتدبّر وخشية بتذكّر وصمت بتفكّر. واهاً لمجلس يذكر فيه الأبرار، فعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة، بل عند ذكر الصالحين يذكرون بالازدراء واللعنة، كان سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخيتهما، باللّه خلّونا من ذكر بدعة الخميس وأكل الحبوب، وجدّوا فى ذكر بدع كنّا نعدّها من أساس الضلال، قد صارت هى محض السنة وأساس (۴۰)

التوحيد، ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار، ومن لم يكفر فهو أكفر من فرعون، وتعدّ النصارى مثلنا، واللّه فى القلوب شكوك، إن سلم لك إيمانك بالشهادتين فأنت سعيد، يا خيبة من اتّبعك فإنّه معرض للزندقة والانحلال، لاسيما إذا كان قليل العلم والدين باطولياً شهوانياً، لكنّه ينفعك ويجاهد عنك بيده ولسانه، وفى الباطن عدوّ لك بحاله وقلبه . فهل معظم أتباعك إلّا قعيد مربوط خفيف العقل؟ أو عامى كذّاب بليد الذهن، أو غريب واجم قوى المكر؟ أو ناشف صالح عديم الفهم؟ فإن لم تصدقنى ففتشهم وزنهم بالعدل، يا مسلم اقدم حمار شهوتك لمدح نفسك، إلى كم تصادقها وتعادى الأخيار؟ إلى كم تصادقها وتزدرى الأبرار؟ إلى كم تعظمها وتصغر العباد؟ إلى متى تخاللها وتمقت الزهاد؟ إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح ـ واللّه ـ بها أحاديث الصحيحين؟ يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك . بل فى كل وقت تغير عليها بالتضعيف و الإهدار، أو بالتأويل والإنكار، أما آن لك أن ترعوى؟ أما حان لك أن تتوب وتنيب؟ أما أنت فى عشر السبعين وقد قرب الرحيل؟ بلى ـ واللّه ـ ما أذكر أنّك تذكر الموت، بل تزدرى بمن يذكر الموت. فما أظنك تقبل على قولى ولا تصغى إلى وعظى، بل لك همة كبيرة فى نقض هذه الورقة بمجلدات، وتقطع لى أذناب الكلام، ولا تزال تنتصر حتّى أقول البتة سكت، فإذا كان هذا حالك عندى وأنا الشفوق المحب الواد، فكيف حالك عند أعدائك؟ وأعداؤك ـ واللّه ـ فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء، عما أنّ أولياءك فيهم فجزة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر، قد رضيت منك بأن تسبنى علانية، وتنتفع بمقالتى سراً، فرحم اللّه امرأً أهدى إلىّ عيوبى، فإنّى كثير العيوب، غزير الذنوب، الويل لى إن أنا لا أتوب، وافضيحتى من علاّم الغيوب! ودوائى عفو اللّه ومسامحته وتوفيقه وهدايته، والحمد للّه ربّ العالمين، وصلّى اللّه على سيدنا محمّد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين». (۱) _____

۱ . تكملة السيف الصقيل، للمحقّق المعاصر الكوثرى، ص ۱۹۰ ـ ۱۹۲ كتبه من خط ابن قاضى: شهبة، منقولا من خط قاضى القضاة برهان الدين بن جماعة وكتبه، هو من خط الشيخ الحافظ أبى سعيد العلائى المنسوخ من خط الذهبى، وجاء شطر منه فى «فرقان القرآن» تأليف الشيخ سلامة القضاعى العزامى الشافعى فى مقدمة كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقى ص ۱۲۹. وقد طبعت صورة خط ابن قاضى شهبة فى تكملة السيف الصقيل ص ۱۸۷ ـ ۱۸۹.

(۴۱) ۵- الشيخ الإمام صدر الدين المرحل (ت حوالى ۷۵۰ هـ)

عرّفه السبكى بقوله: «كان إماماً كبيراً، بارعاً فى المذهب والأصلين، يضرب المثل باسمه، فارساً فى البحث، نظاراً مفرط الذكاء، عجيب الحافظة ـ إلى أن قال ـ : وله مع ابن تيمية، المناظرات الحسنة، وبها حصل عليه التعصّب من أتباع ابن تيمية، قيل فيه ما هو بعيد عنه، وكثر القائل فارتاب العاقل، وكان الوالد يعظّم الشيخ صدر الدين ويحبّه، ويثنى عليه بالعلم وحسن العقيدة ومعرفة الكلام على مذهب الأشعرى (۱) . ۶- الحافظ على بن عبدالكافى السبكى (ت ۷۵۶ هـ)

ترجمهُ ولده فى طبقات الشافعية، وهو أحد من ردّ على ابن تيمية، وألّف فيه كتاباً أسماه «شفاء السقام فى زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام» وربما سمى «شنّ الغارة على من أنكر السفر للزيارة»(۲) وهو يعرّف والده ويقول: «إمام ناضح عن رسول اللّه بنضاله، وجاهد بجداله، حمى جناب النبوة الشريف، بقيامه فى نصره، وتسديد سهامه للذب عنه من كنانة مصره... إلى أن قال: قام حين خلط على ابن تيمية الأمر، وسول له قرينه الخوض فى ضحضاح ذلك الجمر، حين سد باب الوسيلة وأنكر شدّ الرجال لمجرّد الزيارة، وما برح يدلج ويسير حتى نصر صاحب ذلك الحمى الّذى لا ينتهك، وقد كادت تذود عنه قسراً صدور الركائب. وتجر قهراً أعنة القلوب بتلك

الشبهة الّتى كادت شرارتها تعلق بحداد الأوهام... كيف يزار المسجد ويخفى صاحبه، أو يخفيه الإبهام؟ ولولاه ـ عليه السلام ـ لما عرف تفضيل ذلك المسجد، ولولاه لما قدّس الوالى، ولا أسس على التقوى مسجد فى ذلك النادى _____

۱ . طبقات الشافعية الكبرى ج ۹ ص ۲۵۳ .

۲ . طبقات الشافعية ج ۱۰ ص ۳۰۸ . (۴۲)

شكر اللّه له، قام فى لزوم ما انعقد عليه الإجماع»(۱) . وكان لهذا الكتاب دوى فى ذاك العصر، حيث جابه السبكى ضوضاء الباطل بكتابه الهادى، وصار مدار الدراسة والقراءة، وهذا هو الشيخ صلاح الدين الصفدى قرأ الكتاب على المؤلف، يقول السبكى (ولد المؤلف): قرأ على الشيخ الإمام (المراد تقى الدين السبكى) ـ رحمه الله ـ جميع كتاب «شفاء السقام فى زيارة خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام»(۲) . وقال أيضاً فى خطبة كتابه «الدرة المضيئة فى الرد على ابن تيمية» ما هذا لفظه: «أمّا بعد فإنّه لما أحدث ابن تيمية ما أحدث فى أُصول العقائد، ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاقد، بعد أن كان مستتراً بتبعية الكتاب والسنّة، مظهراً أنّه داع إلى الحق، هاد إلى الجنة، فخرج عن الإتباع إلى الإبتداع، وشذ عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع، وقال بما يقتضى الجسمية والتركيب فى الذات المقدسة، وإنّ الإفتقار إلى الجزء ليس بمحال، وقال بحلول الحوادث بذات اللّه تعالى، وإنّ القرآن محدث تكلم اللّه به بعد أن لم يكن، وإنّه يتكلم ويسكت، ويحدث فى ذاته الإرادات بحسب المخلوقات، وتعدّى فى ذلك إلى استلزام قدم العالم، والتزم بالقول بأنّه لا أوّل للمخلوقات فقال بحوادث لا أوّل لها، فأثبت الصفة القديمة حادثة، والمخلوق الحادث قديماً، ولم يجمع أحد هذين القولين فى ملة من الملل، ولا نحلة من النحل، فلم يدخل فى فرقة من الفرق الثلاث والسبعين الّتى افترقت عليها الأُمّة، ولا وقفت به مع أُمّة من الأُمم همة. وكل ذلك و إن كان كفراً شنيعاً، لكنّه تقل حملته بالنسبة إلى ما أحدث فى الفروع. ثم إنّ السبكى لما وقف على كتاب «منهاج السنة» فى الرد على «منهاج الكرامة» للعلامة الحلى، أنشأ قصيدة، ومما جاء فيها ناقداً لابن تيمية قوله:

---

۱ . طبقات الشافعية ج ۱۰ ص ۱۴۹ ـ ۱۵۰ وللكلام صلة .

۲ . المصدر نفسه، ص ۵ . (۴۳)

ولابن تيمية رد عليه وفى * بمقصد الرد واستيفاء أضربه لكنّه خلط الحق المبين بما * يشوبه كدراً فى صفو مشربه يرى حوادث لا مبدا لأولها * فى اللّه سبحانه عما يظن به لو كان حياً يرى قولى ويفهمه * رددت ما قال أقفو اثر سبسبه كما رددت عليه بالطلاق وفى * ترك الزيارة رداً غير مشتبه (۱) إنّ الشيخ الذهبى من الحنابلة الذين يتعصّبون للمذهب الحنبلى، ومع ذلك نرى أنّه يصف تقى الدين السبكى الّذى ولى مشيخة دار الحديث وخطابة الجامع الأموى بدمشق بقوله: لِيَهْنَ المنبرُ الأمويُّ لما * علاه الحاكمُ البحر التقيُّ شيوخ العصر أحفظهم جميعاً * وأخطبهم «وأقضاهم عليُّ» فإذا كان هذا مقام السبكى عند الذهبى، فليكن حجة على الحنابلة ممن يبغض السبكى لنقده نظرية ابن تيمية فى الزيارة وغيرها(۲) . ۷- محمد بن شاكر الكتبى (ت ۷۶۴ هـ)

قال فى «فوات الوفيات» فى ترجمته: «إنّه ألّف رسالة فى فضل معاوية، وفى أنّ ابنه يزيد لا يسب»(۳) . هذه الرسالة تعرب عن نزعته الأموية، ويكفى القول فى الوالد والوالد: «ووالد وما ولد» أنّه بدّل الحكومة الإسلامية إلى الملكية الوراثية، ودعا عباد اللّه إلى ابنه يزيد، المتكبّر، الخمّير، صاحب الديوك والفهود والقرود، وأخذ البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعيد والإخافة والتهديد والرهبة، وهو يطلع على خبثه ورهقه، ويعاين سكره وفجوره، ولما استتبّ

الأمر ليزيد، أوقع بأهل الحرة الوقيعة الّتى لم يكن فى الإسلام أشنع منها ولا أفحش، وظن أنّه قد انتقم من أولياء اللّه فقال مجاهراً بكفره: _____

۱ . المصدر نفسه ج ۱۰ ص ۱۸۶ وتوفى السبكى تقى الدين والد تاج الدين عام (۷۵۶ هـ)وتوفى الولد عام (۷۷۱ هـ) .

۲ . فرقان القرآن ص ۱۲۹ .

۳ . فوات الوفیات ج ۱ ص ۷۷ . (۴۴)

لعبت هاشم بالملک فلا * خبر جاء ولا وحی نزل وهذا هو المروق من الدین، وقول من لا یرجع إلی اللّه ولا إلی دینه ولا إلی کتابه ولا إلی رسوله، ثم من أغلظ ما انتهک وأعظم مااخترم سفکه دم الحسین بن علیّ، بن فاطمة بنت رسول اللّه، مع موقعه من رسول اللّه ومکانه منه، ومنزلته من الدین والفضل، وشهادة رسول اللّه له ولأخیه بسیادة شباب أهل الجنة، اجتراءً علی اللّه، وکفراً بدینه، وعداوة لرسوله، ومجاهدة لعترته، واستهانة بحرمته، فکأنّما یقتل به وبأهل بیته، قوماً من الکفار(۱) . ۸- أبو محمد المعروف بالیافعی (ت ۷۶۸ هـ)

قال فی کتابه «مرآة الجنان» فی ترجمة ابن تیمیة: «مات بقلعة دمشق الشیخ الحافظ الکبیر تقی الدین أحمد بن تیمیة معتقلا، ومنع قبل وفاته بخمسة أشهر عن الدواة والورق، وسمع من جماعة وله مسائل غریبة ـ أنکر علیها وحبس بسببها ـ مباینة لمذهب أهل السنة، ومن أقبحها نهیه عن زیارة النبی ـ علیه الصلاة والسلام ـ وطعنه مشایخ الصوفیة، وکذلک ما قد عرف من مذهبه کمسألة الطلاق وغیرها، وکذلک عقیدته فی الجهة، وما نقل فیها من الأقوال الباطلة، وغیر ذلک ما هو معروف من مذهبه، ولقد رأیت مناماً فی وقت مبارک یتعلّق بعضه بعقیدته، ویدل علی خطئه فیها، وقد قدمت ذکره فی حوادث سنة ۵۵۸ هـ فی ترجمة صاحب «البیان» . وقال: کان ابن تیمیة یقول: قوله: «إنّ اللّه علی العرش استوی»، استواء حقیقة، وإنّه یتکلّم بحرف وصوت، وقد نودی فی دمشق وغیرها: من کان علی عقیدة ابن تیمیة حل ماله ودمه! (۲) وقال فی حوادث سنة ۷۲۸ هـ : وله _____

۱ . مأخوذ من کتاب (المعتضد) الّذی تلی علی رؤوس الأشهاد فی أیامه. نقله الطبری فی تاریخه ج ۱۱ ص ۷۷ .

۲ . مرآة الجنان ج ۴ ص ۲۷۷، فی حوادث سنة ۷۲۸ هـ وص ۲۴۰ . (۴۵)

مسائل غریبة أنکر علیها وحبس بسببها مباینة لمذهب (أهل السنة) ثم (عدّ له) قبائح، قال: ومن أقبحها نهیه عن زیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ . ۹- أبوبکر الحصنی الدمشقی (ت ۸۲۹ هـ)

یقول: «فاعلم أنّی نظرت فی کلام هذا الخبیث الّمذی فی قلبه مرض الزیغ، المتتبّع ما تشابه من الکتاب والسنّة ابتغاء الفتنة، وتبعه علی ذلک خلق من العوام وغیرهم ممن أراد اللّه عزّوجلّ إهلاکه، فوجدت فیه ما لا أقدر علی النطق به، ولا لی أنامل تطاوعنی علی رسمه وتسطیره، لما فیه من تکذیب ربّ العالمین، فی تنزیهه لنفسه فی کتابه المبین، وکذا الازدراء بأصفیائه، المنتخبین وخلفائهم الراشدین، واتباعهم الموفقین، فعدلت عن ذلک إلی ذکر ما ذکره الأئمّة المتّقون، وما اتّفقوا علیه من تبعیده وإخراجه ببغضه من الدین(۱) . ۱۰- شیخ الإسلام، شهاب الدین، أحمد بن حجر، العسقلانی (ت ۸۵۲ هـ)

ترجمه ابن حجر فی کتابه «الدرر الکامنة فی أعیان المائة الثامنة» وذکر حیاته علی وجه التفصیل وقال: «وأول ما أنکروا علیه من مقالاته فی شهر ربیع الأول سنة ۶۹۸ هـ قام علیه جماعة من الفقهاء بسبب الفتوی الحمویة، وبحثوا معه، ومنع من الکلام» ثم ذکر معتقلاته وسجونه إلی أن أدرکته المنیّة بما لا حاجة إلی ذکره، ونقتبس مما ذکره الجمل التالیة: أ ـ یقول: «حکم المالکی بحبسه فأُقیم من المجلس وحبس فی برج، ثم بلغ المالکی أنّ الناس یترددون علیه، فقال: یجب التضییق علیه إن لم یقتل، وإلاّ ـ فقد ثبت کفره، فنقلوه لیلة عید الفطر إلی الجب، وعاد القاضی الشافعی إلی ولایته، ونودی بدمشق: من اعتقد عقیدة ابن تیمیة حل دمه وماله، خصوصاً الحنابلة، وقرأ المرسوم وقرأها ابن الشهاب محمود فی الجامع، ثم جمعوا الحنابلة من _____

۱ . دفع شبهة من شبّه وتمرّد، ص ۲۱۶، طبع بمصر عام ۱۳۵۰ هـ . (۴۶)

الصالحیة وغیرها وأشهدوا علی أنفسهم أنّهم علی معتقد الإمام الشافعی» . ب ـ نقل عن جمال الدین السرمری أنّه قال: وکان ابن تیمیة یتکلم علی المنبر علی طریقة المفسرین مع الفقه والحدیث، فیورد فی ساعة من الکتاب والسنة واللغة والنظر ما لا یقدر أحد علی أن یورده فی عدة مجالس: «... ومن ثم نصب أصحابه إلی الغلوّ فیه، واقتضی ذلک العجب بنفسه حتّی زها علی أبناء جنسه، واستشعر أنّه مجتهد یرد علی صغیر العلماء وکبیرهم، قدیمهم وحدیثهم، حتی انتهی إلی عمر فخطأه فی شیء، وقال فی حق علی: أخطأ فی سبعة

عشر شيئاً، ثم خالف فيها، وكان لتعصبه لمذهب الحنابلة يقع فى الأشاعرة، حتّى أنّه سب الغزالى،.. فعظم ذلك على الشيخ نصر المنبجى، وأعانه عليه قوم آخرون ضبطوا عليه كلمات فى العقائد المثيرة وقعت منه فى مواعيده وفتاواه، فذكروا أنّه ذكر حديث النزول، فنزل عن المنبر درجتين فقال: كنزولى هذا(۱) ، فنسب إلى التجسيم، وردّه على من توسّل بالنبى، فأشخص من دمشق فى رمضان سنة (۷۰۵ هـ) . ثم يقول: إنّه اختلف الناس بعد إخراجه عن بعض معتقلاته، فمنهم من نسبه إلى التجسيم، لما ذكر فى العقيدة الحموية والواسطية وغيرهما من ذلك، كقوله إنّ اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية للّه، وإنّه مستو على العرش بذاته، فقيل له يلزم من ذلك التحيّز والإنقسام، ومنهم من أنكر كون التحيّز والانقسام من خواص الأجسام (۲) . ومنهم من ينسبه إلى الزندقة، لقوله: إنّ النبى لا يستغاث به، وإنّ فى ذلك تنقيصاً ومنعاً من تعظيم النبى، ومنهم من ينسبه إلى النفاق لقوله فى علىّ ــــــــــــــــــ

۱ . سيوافيك نص ابن بطوطة السياح المعروف فى ذلك، وأنه سمعه بأذنه ورآه بعينه، فانتظر .

۲ . اقرأ واضحك على عقلية القائل . (۴۷)

ماتقدم، ولقوله إنّه كان مخذولا حيثما توجّه، وإنّه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها، إنّما قاتل للرئاسة لا للديانة، ولقوله إنّه كان يحب الرئاسة، وإنّ عثمان كان يحبّ المال، ولقوله أبوبكر أسلم شيخاً يدرى ما يقول، وعلىّ أسلم صبياً والصبى لا يصحّ إسلامه على قول(۱) . ۱۱- جمال الدين يوسف بن تغرى الأتابكى (۸۱۲ ـ ۸۷۴ هـ)

وقد ترجمه جمال الدين فى كتابه: «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى» ومما جاء فيه: قال القاضى كمال الدين الزملكانى: «ثم جرت له محن فى مسألة الطلاق الثلاث، وشدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، وحبّب للناس القيام عليه، وحبس مرات فى القاهرة والإسكندرية ودمشق، وعقد له مجالس بالقاهرة ودمشق، إلى أن ورد مرسوم شريف من السلطان فى شعبان سنة (۷۲۶ هـ) بأن يجعل فى قلعة دمشق، فاقام فيها مدة مشغولا بالتصنيف، ثم بعد مدة منع من الكتابة والمطالعة، وأخرجوا ما كان عنده من الكتب، ولم يتركوا عنده دواتاً [دواةً]ولا قلماً ولا ورقة. ومما وقع له قبل حبسه أنّه ناظر بعض الفقهاء، وكتب محضراً، فإنّه قال. أنا أشعرى ثم أخذ خطه بما نصه: أنا أعتقد أنّ القرآن معنى قائم بذات اللّه، وهو صفة من صفات ذاته القديمة، وهو غير مخلوق، وليس بحرف ولا صوت، وأنّ قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) ليس على ظاهره، ولا أعلم كنه المراد به، بل لا يعلمه إلّا اللّه، والقول فى النزول كالقول فى الاستواء، وكتبه أحمد بن تيمية، ثم أشهدوا عليه جماعة أنّه تاب مما ينافى ذلك مختاراً، وشهد عليه بذلك جمع من العلماء وغيرهم»(۲) . ــــــــــــــــــ

۱ . الدرر الكامنة ج ۱ ص ۱۵۴ ـ ۱۶۵ .

۲ . «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى» ج ۱ ص ۳۳۶ ـ ۳۴۰، والزملكانى هو كمال الدين محمد بن على بن عبد الواحد الشافعى، ولد سنة (۶۶۷ هـ) وتوفى سنة (۷۳۳ هـ) . (۴۸)

وترجمه أيضاً فى كتابه الآخر: «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» بنفس النص الوارد فى «المنهل الصافى»(۱) . ۱۲- شهاب الدين، ابن حجر، الهيثمى (ت ۹۷۳ هـ)

قال فى ترجمة ابن تيمية: «ابن تيمية عبد خذله اللّه، وأضلّه وأعماه وأصمّه وأذلّه، بذلك صرّح الأئمة الذين بيّنوا فساد أحواله وكذب أقواله، ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة كلام الإمام المجتهد المتفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد، أبى الحسن السبكى وولده التاج والشيخ الإمام العزّ بن جماعة، وأهل عصرهم وغيرهم من الشافعية والمالكية والحنفيةولم يقصر اعتراضه على متأخّرى السلف الصوفية، بل اعترض على مثل عمر بن الخطاب وعلىّ بن ابى طالب رضى الله عنهما. والحاصل أنّه لا يقام لكلامه وزن، بل يرمى فى كل وعر وحزن ويعتقد فيه أنّه مبتدع، ضالّ، مضلّ، غال، عامله اللّه بعدله، وأجارنا من مثل طريقته وعقيدته وفعله. آمين! إلى أن قال: إنّه قائل بالجهة، وله فى إثباتها جزء، ويلزم أهل هذا المذهب الجسمية والمحاذاة والاستقرار. أى فلعلّه بعض الأحيان كان يصرّح بتلك اللوازم فنسبت إليه، وممن نسب إليه ذلك من أئمة الإسلام المتفق على جلالته وإمامته وديانته، وإنّه الثقة العدل

المرتضی المحقق المدقق، فلا یقول شیئاً إلّا عن تثبت، وتحقق، ومزید احتیاط، و تحر، لا سیما إن نسب إلی مسلم ما یقتضی کفره، وردّته، وضلاله، وإهدار دمه»(۲) . وقال أیضاً فی کتابه: «الجوهر المنظم فی زیارة القبر الشریف النبوی المکرم»: «فإن قلت: کیف تحکی الإجماع السابق علی مشروعیة الزیارة والسفر إلیها وطلبها، وابن تیمیة من متأخری الحنابلة منکر لمشروعیة ذلک کله، کما

---

۱ . «النجوم الزاهرة...» ج ۲ ص ۲۷۹ .

۲ . الفتاوی الحدیثیة، ص ۸۶. ونقله العلامة الشیخ محمد بخیت (م ۱۳۵۴ هـ) فی کتابه «تطهیر الفؤاد» ص ۹ ط مصر. (۴۹)

رآه السبکی فی خطه، واطال ابن تیمیة فی الاستدلال بذلک بما تمجّه الأسماع وتنفر منه الطباع، بل زعم حرمة السفر لها إجماعاً، وأنّه لا تقصر فیه الصلاة، وأنّ جمیع الأحادیث الواردة فیها موضوعة، وتبعه بعض من تأخّر عنه من أهل مذهبه! . قلت: من هو ابن تیمیة حتّی ینظر إلیه؟ أو یعوّل فی شیء من أُمور الدین علیه؟ وهل هو إلّا کما قال جماعة من الأئمة الذین تعقّبوا کلماته الفاسدة، و حججه الکاسدة، حتّی أظهروا عوار سقطاته، وقبائح أوهامه وغلطاته، کالعز بن جماعة: عبد أذلّه اللّه وأغواه، وألبسه رداء الخزی وبوّأَهُ من قوة الإفتراء والکذب ما أعقبه الهوان، وأوجب له الحرمان...»(۱) . ۱۳- ملّا علی القاریء الحنفی (ت ۱۰۱۶ هـ)

وقال ملّا علی القاریء الحنفی فی شرحه علی الشفاء(۲): «وقد أفرط ابن تیمیة من الحنابلة حیث حرم السفر لزیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ کما أفرط غیره حیث قال: کون الزیارة قربة معلوم من الدین بالضرورة. وجاحده محکومع لیه بالکفر، ولعلّ الثانی أقرب إلی الصواب، لأنّ تحریم ما أجمع العلماء فیه علی الاستحباب یکون کفراً، لأنّه فوق تحریم المباح المتفق علیه فی هذا الباب» .

۱۴- أبو العباس أحمد بن محمد المکناسی، الشهیر بابن القاضی (۹۶۰ ـ ۱۰۲۵ هـ)

وقد ترجمه ابن القاضی فی ذیل وفیات الأعیان المسمی بـ«درة الحجال فی أسماء الرجال» قال: «أحمد بن عبد الحلیم مفتی الشام ومحدّثه وحافظه، وکان یرتکب شواذ الفتاوی، ویزعم أنّه مجتهد»(۳) . _____

۱ . فرقان القرآن، ص ۱۳۲ ـ طبع فی مقدمة کتاب الأسماء والصفات للبیهقی .

۲ . «درة الحجال فی أسماء الرجال» ج ۱ ص ۳۰ .

۳ . تألیف الحافظ أبی الفضل عیاض بن موسی القاضی (ت ۵۴۴ هـ) وأسماه: «الشفا فی تعریف حقوق المصطفی» وله شروح کثیرة ذکره الکاتب الحلبی فی کتابه . (۵۰) ۱۵- النبهانی (ت ۱۳۵۰ هـ)

قال النبهانی فی تألیفه «شواهد الحق» بعد نقل أسماء عدة من الطاعنین به: «فقد ثبت وتحقّق وظهر ظهور الشمس فی رابعة النهار أنّ علماء المذاهب الأربعة قد اتّفقوا علی ردّ بدع ابن تیمیة، ومنهم من طعنوا بصحة نقله، کما طعنوا بکمال عقله، فضلا عن شدة تشنیعهم علیه فی خطئه الفاحش فی تلک المسائل الّتی شذّ بها فی الدین، وخالف بها إجماع المسلمین، ولا سیما فیما یتعلّق بسیّد المرسلین ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ » . ۱۶- المحقق الشیخ محمد الکوثری المصری (ت ۱۳۷۱ هـ)

إنّ الشیخ الکوثری هو أکثر الناس تتبعاً لمکامن حیاة ابن تیمیة، وقد شهره وفضحه، بنشر کتاب «السیف الصقیل» للسبکی وجعل له تکملة، نشرهما، معاً فمن وقف علی هذا الکتاب وما ذیّل به، لعرف مواقع الرجل، وإلیک کلمة من الکوثری فی حق الحشویة، یقول فی تقدیمه لکتاب «الأسماء والصفات» للحافظ البیهقی ـ بعد ما یسرد أسماء عدة من کتب الحشویة کالاستقامة لخشیش بن أصرم، والسنة لعبد اللّه بن أحمد «والنقض» لعثمان بن سعید الدارمی السجزی المجسم ـ : «إنّ السجزی أول من اجترأ بالقول «إنّ اللّه لو شاء لا ـ ستقرّ علی ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته، فکیف علی عرش عظیم» وتابعه الشیخ ابن تیمیة الحرانی فی ذلک، کما تجد نص کلامه فی «غوث العباد» المطبوع سنة ۱۳۵۱ بمطبعة الحلبی» (۱) . وقال ایضاً فی مقدمته علی السیف الصقیل: جزی اللّه علماء أُصول الدین عن الإسلام خیراً، فإنّ لهم فضلا جسیماً فی صیانة عقائد المسلمین بادلّة ناهضة مدی القرون، أمام کل فرقة زائغة ـ إلی أن قال ـ : ومن طالع من ألّفه بعض الرواة علی طول القرون من کتب فی التوحید _____

۱ . مقدمة الأسماء والصفات للبيهقى، ص «ب» . (۵۱)

والصفات والسنة، والردود على أهل النظر، يشكر اللّه سبحانه على النور الّذى افاضه على عقله، حتّى نبذ مثل تلك الطامات بأول نظرة. وقد استمرّت فتن المخدوعين من الرواة على طول القرون مجلبة لسخط اللّه تعالى، ولاستسخاف العقلاء، من غير أن يخطر ببال عاقل أن يناضل عن سخافات هؤلاء، إلى أن نبغ فى أواخر القرن السابع بدمشق، حرّانى تجرّد للدعوة إلى مذهب هؤلاء الحشوية السخفاء، متظاهراً بالجمع بين العقل والنقل على حسب فهمه من الكتب، بدون أُستاذ يرشده فى مواطن الزلل، وحاشا العقل الناهض والنقل الصحيح أن يتضافرا فى الدفاع عن تحريف السخفاء إلّا إذا كان العقل عقل صابئى والنقل نقل صبى، وكم انخدع بخزعبلاته أُناس ليسوا من التأهّل للجمع بين الرواية والدارية فى شىء، وله مع خلطائه هؤلاء، موقف فى يوم القيامة لا يغبط عليه. ومن درس حياته يجدها كلها فتناً لا يثيرها حافظ بعقله، غير مصاب فى دينه، وأنّى يوجد نصّ صريح منقول أو برهان صحيح معقول يثبت الجهة والحركة والثقل والمكان ونحوها للّه سبحانه؟ . وكل ما فى الرجل أنّه كان له لسان طلق، وقلم سيال، وحافظة جيدة، قلّب ـ بنفسه بدون أُستاذ رشيد ـ صفحات كتب كثيرة جداً من كتب النحل الّتى كانت دمشق امتلأت بها بواسطة الجوافل من استيلاء المغول على بلاد الشرق، فاغترّبما فهمه من تلك الكتب من الوساوس والهواجس، حتى طمحت نفسه إلى أن تكون قدوة فى المعتقد والأحكام العملية، ففاه فى القبيلين بما لم يفه به أحد من العالمين، مما هو وصمة عار وأمارة مروق فى نظر الناظرين، فانفضّ من حوله أُناس كانوا تعجّلوا فى إطرائه ـ بادىء بدء ـ قبل تجريبه، وتخلّوا عنه واحداً إثر واحد على تعاب فتنة المدونة فى كتب التاريخ،ولم يبقَ(۱) معه إلّا أهل مذهبه فى الحشو من جهلة المقلدة، ومن ظن أن علماء

---

۱ . وقال فى التعليق: وثناء بعض المتأخرين عليه لم يكن إلا عن جهل بمضلات الفتن فى كلامه، ووجوه الزيغ فى مؤلفاته، ومنهم من ظن أنه دام على توبته بعد ما استتيب فدام على الثناء، ولا حجة فى مثل تلك الأثنية، وأقواله الماثلة أمامنا فى كتبه لا يؤيدها إلّا غاو غوى، نسأل اللّه السلامة . (۵۲)

عصره صاروا كلهم إلباً واحداً ضدّه حسداً من عند أنفسهم، فَلْيَتّهم عقله وإدراكه قبل اتّهام الآخرين، بعد أن درس مبلغ بشاعة شواذه فى الاعتقاد والعمل، وهو لم يزل يستتاب استتابة إثر استتابة، وينقل من سجن إلى سجن إلى أن افضى إلى ما عمل وهو مسجون فقير، هو وأهواؤه فى البابين، بموته وبردود العلماء عليه، وماهى ببعيدة عن متناول رواد الحقائق . كلامه فى حق تلميذه ابن القيم

وكان ابن زفيل الزرعى المعروف بابن القيم يسايره فى شواذه حياً وميتاً، ويقلده فيها تقليداً أعمى فى الحق والباطل، وإن كان يتظاهر بمظهر الاستدلال، لكن لم يكن استدلاله المصطنع سوى ترديد منه لتشغيب قدوته، دائباً على إذاعة شواذ شيخه، متوخياً ـ فى غالب مؤلفاته ـ تلطيف لهجة أُستاذه فى تلك الشواذ لتنطلى وتنفق على الضعفاء، وعمله كله التلبيس والمخادعة والنضال عن تلك الأهواء المخزية، حتى أفنى عمره بالدندنة حول مفردات الشيخ الحرانى . تراه يثرثرفى كل واد ويخطب بكل ناد، بكلام لا محصل له عند أهل التحصيل، ولم يكن له حظ من المعقول، وإن كان كثير السرد لآراء أهل النظر، ويظهر مبلغ تهافته لمن طالع شفاء العليل له بتبصّر، ونونيته(۱) و عَزَوْه من الدلائل على أنّه لم يكن ممن له علم بالرجال ولا بنقد الحديث، حيث أثنى فيهما على أُناس هلكى، واستدل فيهما باخبار غير صحيحة على صفات اللّه سبحانه. وقد ذكره الذهبى فى المعجم المختص بما فيه عبرة، ولم يترجم له الحسينى

---

۱ . وهى قصيدته البالغة خمسة آلاف بيت فى العقائد، وهى الّتى رد عليها السبكى بتاليف كتاب السيف الصقيل، وأكمله محمد الكوثرى وأسماه تكملة السيف الصقيل، وها نحن ننقل هاتيك العبارات منها. (۵۳)

ولا ابن فهد ولا السيوطى فى عداد الحفاظ فى ذيولهم على طبقات الحفاظ، وما يقع من القارىء بموقع الأعجاب من أبحاثه الحديثية فى زاد المعاد وغيره، فمختزل مأخوذ مما عنده عن كتب قيّمة لأهل العلم بالحديث، كـ«المورد الهنى فى شرح سير عبدالغنى» للقطب الحلبى ونحوه . ولو لا محلى ابن حزم «وأحكامه» و «مصنف» ابن أبى شيبه «وتمهيد» ابن عبدالبر لما تمكن من مغالطاته وتهويلاته فى

«أعلام الموقعين» . وكم استتيب وعذر مع شيخه وبعده على مخاز فى الاعتقاد والعمل، تستبين منها ما ينطوى عليه من المضى على صنوف الزيغ تقليداً لشيخه الزائغ، وسيلقى جزاء عمله هذا فى الآخرة ـ إن لم يكن ختم له بالتوبة والأمانة ـ كما لقى بعض ذلك فى الدنيا . كلام الحافظ الذهبى وغيره فى حق ابن القيم

قال الذهبى فى المعجم المختص عن ابن القيم هذا: «عنى بالحديث بمتونه وبعض رجاله وكان يشتغل فى الفقه ويجيد تقريره، وفى النحو ويدريه، وفى الأصلين. وقد حبس مدة لإنكاره على شد الرحل لزيارة قبر الخليل (إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ) ثم تصدر للاشتغال ونشر العلم، لكنّه معجب برأيه جرىء على الأُمور . قال ابن حجر فى الدرر الكامنة: «غلب عليه حب ابن تيمية حتّى كان لا يخرج عن شىء من أقواله، بل ينتصر له فى جميع ذلك، وهو الّذى هذب كتبه ونشر علمه... واعتقل مع ابن تيمية بالقلعة، بعد أن أُهين وطيف به على جمل مضروباً بالدرة، فلما مات أُفرج عنه، وامتحن مرة أُخرى بسبب فتاوى ابن تيمية، وكان ينال من علماء عصره وينالون منه». قال ابن كثير: «كان يقصد للإفتاء بمسألة الطلاق، حتى جرت له بسببها أُمور يطول بسطها مع ابن السبكى وغيره... وكان جماعاً للكتب فحصّل منها ما لا يحصر، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهراً طويلا سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم.. وهو طويل النفس فى مصنفاته، يتعانى (۵۴)

الإيضاح جهده، فيسهب جداً، ومعظمها من كلام شيخه بتصرف فى ذلك، وله فى ذلك ملكة قوية، ولا يزال يدندن حول مفرداته وينصرها ويحتج لها.. وجرت له محن مع القضاة، منها فى ربيع الأول طلبه السبكى بسبب فتواه بجواز المسابقة بغير محلل فأنكر عليه، وآل الأمر إلى أنّه رجع عما كان يفتى به من ذلك» . كلام ابن الحصنى فى حقه

وقال التقى الحصنى: كان ابن تيمية ممن يعتقد ويفتى بأنّ شدّ الرحال إلى قبور الأنبياء حرام لا تقصر فيه الصلاة، ويصرّح بقبر الخليل وقبر النبى (صلى اللّه عليهما وسلم) ، وكان على هذا الاعتقاد تلميذه ابن قيم الجوزية الزرعى، وإسماعيل بن كثير الشركوينى، فاتّفق أنّ ابن قيم الجوزية سافر إلى القدس الشريف، ورقى على منبر فى الحرم ووعظ وقال فى أثناء وعظه بعد أن ذكر المسألة: وها أنا راجع ولا أزور الخليل. ثم جاء إلى نابلس، وعمل له مجلس وعظ، وذكر المسألة بعينها حتى قال: فلا يزور قبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ، فقام إليه الناس وأرادوا قتله، فحماه منهم والى نابلس، وكتب أهل القدس وأهل نابلس إلى دمشق يعرّفون صورة ما وقع منه، فطلبه القاضى المالكى فتردد وصعد إلى الصالحية إلى القاضى شمس الدين بن مسلم الحنبلى وأسلم على يديه، فقبل توبته وحكم بإسلامه وحقن دمه، ولم يعزّره لأجل ابن تيمية... ثم أحضر ابن قيم الجوزية وادُّعى عليه بما قاله فى القدس الشريف وفى نابلس فأنكر، فقامت عليه البينة بما قاله، فأُدّب وحُمل على جمل، ثم أُعيد إلى السجن، ثم أُحضر إلى مجلس شمس الدين المالكى وأرادوا ضرب عنقه، فما كان جوابه إلاّ أن قال: إنّ القاضى الحنبلى حكم بحقن دمى وبإسلامى وقبول توبتى، فأُعيد إلى الحبس إلى أن أُحضر الحنبلى فأخبر بما قاله، فأُحضر وعزّر وضرب بالدرة، وأُركب حماراً وطيف به فى البلد والصالحية، وردّوه إلى الحبس ـ وجرسوا ابن القيم وابن كثير، وطيف بهما فى البلد وعلى باب الجوزية لفتواهم فى مسالة الطلاق . (۵۵)

قال ابن رجب: قد امتحن و أوذى مرات، وحبس مع الشيخ تقى الدين فى المدة الأخيرة بالقلعة منفرداً، لم يفرج عنه إلاّ بعد موت الشيخ . وقد سقت هنا نماذج من كلمات أصحابه و أضداده والمتحايدين فى حقه، ليعتبربها المغرورون به. على أنّ الخبر اليقين فيما يجده القارىء الكريم فى حقه فى هذا الكتاب، وأرجو أن الحق لا يتعدى ما دللت عليه فى حقه فيما كتبناه. وأحق الناس بالرثاء وأجدرهم بالترحّم من أفنى عمره فى سبيل العلم منصاعاً لمبتدع يرديه من غير أن يتخيّر أُستاذاً رشيداً يهديه، ومثله إذا دوّن أسفاراً لا يزداد بها إلاّ بسمعه ولا يبصر بعداً عن اللّه وأوزاراً، وهو الّذى يصبح متفانياً فى شيخه الزائغ بحيث لا يسمع إلاّ ببصره فى جميع شؤونه، ويبقى فى أحط دركات الجهل من التقليد الأعمى، ولو فكر قليلا لكان أدرك أنّ من السخف بمكان، وضعه لشيخه فى إحدى كفّتى الميزان ليوازن به جميع العلماء والفقهاء من هذه الأُمة فى كفته الأُخرى فيزنهم ويغالبهم به فيغلبهم فى علومهم!! وهذا ما لا يصدر من حافظ بعقله، ولا سيما بعد التفكير فى تلك المخازى من شواذه . نعم، يمكن أن يكون عنده أو عند شيخه بعض تفوق فى بعض

العلوم على بعض مشايخ حارته، أو أهل خطته أو قريته أو مضرب خيام عشيرته، لكن لا يوجب هذا أن يصدق ظنه فی حق نفسه أن جوّ هذه الأرض يضيق عن واسع فهومه، وعرض هذه البحار لا يتّسع لزاخر علومه»(۱) . ۱۷- الشيخ سلامة القضا العزامی (ت ۱۳۷۹ هـ) قال: «بدأ ابن تيمية حياته بطلب العلم على ذكاء وتصالح، ورفق به أكابر العلماء لأنّ اباه كان رجلا هادئاً وكان من بيت علم، فساندوه وشجعوه وأثنوا عليه خيراً، حتّى إذا أقبل عليه الناس بدأ يظهر بالبدع، وأبطرته الغرة، فتمادى فی التعصب لآرائه، وما زال يتلاعب به الهوى حتّى كان مجموعة بدع _____

۱ . تكملة السيف الصقيل ص ۴ ـ ۹ . (۵۶)

شنعاء، ودائرة جهالات وأباطيل شوهاء، فتجده فی مسائل من علم التوحيد حشوياً كرامياً، يقول فی اللّه بالأجزاء والجهة والمكان، والنزول والصعود الحسيين، وحلول الحوادث بذاته تعالى، ومن ناحية أُخرى تجد فيه حضيضة الخوارج، يكفّر أكابر الأُمة ويخطیء أعاظم الأئمة وقال: من نذر شيئاً للنبی أو غيره من النبيين والأولياء من أهل القبور، أوذبح له ذبيحة كان كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم وينذرون لها، فهو عابد لغير اللّه فيكون بذلك كافراً، ويطيل فی ذلك الكلام، واغترّ بكلامه بعض من تأخّر عنه من العلماء ممن ابتلی بصحبته أو صحبة تلاميذه، وهو منه تلبيس فی الدين، وصرف إلى معنى لا يريده مسلم من المسلمين، ومن خبر حال من فعل ذلك من المسلمين وجدهم لا يقصدون بذبائحهم ونذورهم للمتقين من الأنبياء والأولياء إلاّ الصدقة عنهم، وجعل ثوابها إليهم، وقد علموا أنّ إجماع أهل السنة منعقدة على أنّ صدقة الأحياء نافعة للأموات واصلة إليهم. ولقد تعدّى هذا الرجل حتّى على الجناب المحمدی فقال: إنّ شد الرحال إلى زيارته معصية، وإنّ من ناداه مستغيثاً به بعد وفاته فقد أشرك، فتارة يجعله شركاً أصغر، وأُخرى يجعله شركاً أكبر، وإن كان المستغيث ممتلیء القلب بأنّه لا خالق ولا مؤثر إلاّ اللّه، وأنّ النبی إنّما ترفع إليه الحوائج ويستغاث به، على أنّ اللّه جعله منبع كل خير، مقبول الشفاعة، مستجاب الدعاء كما هی عقيدة جميع المسلمين مهما كانوا من العامة . وقد أوضح ذلك كل الإيضاح قبلنا أكابر جهابذة العلم لا سيما علَمُ أعلام هذا العصر، حامل لواء الحكمة الإسلامية، وأحد جماعة كبار العلماء بحق، الشيخ يوسف الدجوی، فيما كتبه فی مجلة الأزهر ـ أدم اللّه تأييده بروح منه، وجلله بالعافية من لدنه ـ . وهذه البدعة من مبتكراته قد اغتر بها ناس، فقالوا بكفر من عداهم من جماهير المسلمين، وسفكت فی ذلك دماء لا تحصى، وقد أُلفت الكتب الكثيرة فی رد هذه البدعة وفروعها، بين مطوّل قد جوّده صاحبه، ومختصر أفاده مؤلفه وأجاد. (۵۷)

ومن عجيب أمر هذا الرجل أنّه إذا ابتدع شيئاً حكی عليه إجماع الأولين والآخرين كذباً وزوراً، وربما تجد تناقضه فی الصفحة الواحدة، فتجده فی منهاجه مثلا يدّعی أنّه ما من حاديث إلاّ وقبله حادث إلى ما لا نهاية له فی جانب الماضی، ثم يقول: وعلى ذلك أجمع الصحابة والتابعون. وبعد قليل يحكی اختلافاً لحق الصحابة فی أول مخلوق ما هو؟ أهو القلم أم الماء؟ وبينما تراه يتكلّم بلسان أهل الحق المنزهين، إذا بك تراه قد انقلب جهوياً(۱) وسمّی كل من لا يقول بذلك معطّلا، وزنديقاً، وكافراً، وقد جمع تلميذه «ابن زفيل» سفاهاته ووساوسه فی علم أصول الدين، فی قصيدته النونية، وبينما تراه يسب جهماً والجهمية، إذا بك تراه يأخذ بقوله فی أنّ النار تفنی، وأن أهلها ليسوا خالدين فيها أبداً ـ إلى أن قال ـ: وليس من غرضنا بسط الكلام فی بدع هذا الرجل، فقد كفانا العلماء ـ شكر اللّه سعيهم ـ من عصره إلى هذا العهد، المؤنة بالتصانيف الممتعة فی الرد عليها، ولكن رفع الجهل رأسه فی عصرنا هذا، وانتدب ناس من شيعته لطبع الكثير من كتبه وكتب تلميذه ابن زفيل، ففضحوا الرجل وشهّروا به عند المحققين من أهل الفقه فی الدين، وتبينت صحة نسبة ما كان يتورع العلماء عن نسبته إليه، وإنّ نصيحتی الّتی أسديها لكن مسلم نصيحة للّه ولرسوله ولكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم، هی لزوم جماعة المسلمين فی أُصول الدين وفروعه، ولولا أنّی اشفق على القارىء أن يملّ لتحدّثت إليه طويلا فيما أصاب الإسلام والمسلمين من عظائم هذا الرجل، ولبسطت له ما قال أكابر العلماء فيه وفی شيعته، ولكنّی أرجو أن يكون ما قدّمته كافياً لذوی النهی»(۲) . ۱۸- الشيخ محمد أبو زهرة (۱۳۱۶ ـ ۱۳۹۶ هـ)

ألّف الشيخ محمد أبو زهرة، كتاباً فی حياة ابن تيمية وشخصيته، ومع _____

۱ . کذا فی النسخة ولعل المراد: «جهمیاً» .

[أو لعل المراد: نسبته إلی من یقول فی اللّه بالجهة] الناشر .

۲ . فرقان القرآن ص ۱۳۲ ـ ۱۳۷ وقد فرغ المؤلف منه سنة ۱۳۵۸ هـ . (۵۸)

أنّه أغمض عن کثیر من الجوانب السلبیة فی حیاته، وأخرج کتابه علی وجه یلائم روح المحایدة فی الکتابة، ومع ذلک انتقد علیه فی موارد، ومنها: منعه التبرک بآثار النبی. یقول: «دفن النبی فی حجرة عائشة لأنّ یکون قبره قریباً من المسجد، وأن یکون قبره معروفاً غیر مجهول، فإنّه لو دفن بالبقیع فی الصحراء، فقد یجهل موضعه، ویکون بعیداً عن مسجده، وأمّا إذا دفن فی حجرة عائشة فإنّه یکون قریباً من مهبط الوحی ومبعث الدعوة ومکان التنزیل، وبعد فإنّا نخالف ابن تیمیة منعه التبرک بزیارة قبر الرسول و المناجاة عنده، وعدم الندب إلیه، وإنّ التبرک الّذی نریده لیس هو العبادة أو التقرب إلی اللّه بالمکان. إنّما التبرک هو التذکّر والاعتبار والاستبصار. وأیّ امرىء مسلم علم حیاة النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ وسیرته، وهدایته، وغزواته وجهاده، ثم یذهب إلی المدینة ولا یحس بأنّه فی هذا المکان کان یسیر الرسول ویدعو ویعمل، ویدبّر ویجاهد، أو لا یعتبر ـ ولا یستبصر، أو لا یحس بروحانیة الإسلام و عبقریة النبی الأمین، أو لا تهزّ أعطافه محبة للّه ورسوله والأخذ بما أمر اللّه به، والانتهاء عما نهی عنه إلاّ من أعرض عن ذکر اللّه ولم یکن من أولی الأبصار؟ إنّ الزیارة إلی قبر الرسول هی الذکری والاعتبار، والهدی والاستبصار والدعاء عند القبر دعاءً، القلب خاشع، العقل خاضع، والنفس مخلصة، والوجدان مستیقظ، وإنّ ذلک أبرک الدعاء»(۱) . وهذه النصوص الرائعة من أئمة الحدیث والتفسیر والکلام فی حق الرجل تغنینا عن إفاضة القول فیه، وقد اکتفینا بهذا المقدار عن الکثیر، فإنّ الناقدین له أکثر مما ذکرنا. وقد نشر کتیب باسم «الوهابیة فی نظر المسلمین»(۲) وذکر بعض من لم نذکره، کما أنّه لم یذکر بعض ما ذکرنا من النصوص . والّذی یعرب عن أنّ الرأی العام یوم ذاک کان علی ضدّه هو أنّ لفیفاً من العلماء من معاصریه والمتأخرین عنه ردّوا علیه بکتب ورسائل فندوا فیها. _____

۱ . ابن تیمیة حیاته وشخصیته ص ۲۲۸ .

۲ . تألیف: إحسان عبداللطیف البکری. (۵۹)

الرجل حول الصفات الخبریة أولا، والزیارة والتوسل ثانیاً، إلی غیر ذلک مما أثار عجاباً فی السحاة الإسلامیة، وإلیک الإیعاز بالردود الّتی کتبت علی آرائه. الناقضون والرادّون علی ابن تیمیة

وإلیک قائمة ممن ألف کتاباً أو رسالة حول آرائه: ۱- شفاء السقام فی زیارة خیرالأنام، لتقی الدین السبکی . ۲- الدرة المضیئة فی الرد علی ابن تیمیة، له أیضاً . ۳- المقالة المرضیة، لقاضی قضاة المالکیة تقی الدین أبی عبداللّه الأخنائی . ۴- نجم المهتدی ورجم المقتدی، للخفر ابن المعلم القرشی . ۵- دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلک إلی الإمام أحمد، لتقی الدین الإمام أبی بکر الحصنی الدمشقی (ت ۷۲۹ هـ) . ۶- التحفة المختارة فی الرد علی منکری الزیارة، لتاج الدین عمر بن علی اللخمی المالکی الفاکهانی (ت ۷۳۴ هـ) . ومما جاء فیه قوله: أخبر جمال الدین عبداللّه بن محمد الأنصاری المحدث قال: رحلنا مع شیخنا تاج الدین الفاکهانی إلی دمشق، فقصد زیارة نعل رسول اللّه الّتی بدار الحدیث الأشرفیة بدمشق، وکنت معه، فلما رأی النعل المکرمة، حسر عن رأسه، وجعل یقبله ویمرغ وجه علیه ودموعة تسیل وأنشد: فلو قیل للمجنون: لیلی ووصلها * ترید أم الدنیا وما فی طواياها لقال غبار من تراب نعالها * أحب إلی نفسی وأشفی لبلواها(۱) ۷- اعتراضات علی ابن تیمیة، لأحمد بن إبراهیم السروطی _____

۱ . الغدیر: ج ۵ ص ۱۵۵ نقلا عن الدیباج المذهب . (۶۰)

الحنفی (۱) . ۸- إکمال السنة فی نقض منهاج السنة، للسید مهدی بن صالح الموسوی القزوینی الکاظمی (ت ۱۳۵۸ هـ)(۲). ۹- الإنصاف والإنتصاف لأهل الحق من الإسراف، فی الرد علی ابن تیمیة الحنبلی الحرانی، فرغ منه مؤلفه سنة (۷۵۷ هـ)، توجد نسخة منه فی المکتبة الرضویة ـ مشهد ـ رقم ۵۶۴۳ . ۱۰- البراهین الجلیة فی ضلال ابن تیمیة، للسید حسن الصدر الکاظمی (ت ۱۳۵۴ هـ) (۳). ۱۱- البراهین الساطعة، للشیخ سلامة العزامی (۱۳۷۹ هـ) (۴) . ۱۲- جلاء العینین فی محاکمة الأحمدین (أحمد بن تیمیة وأحمد بن

حجر)، للشیخ نعمان بن محمود الألوسی(۵) . ۱۳- الدرة المضیّة فی الرد علی ابن تیمیة، لمحمد بن حمید الدین الحنفی الدمشقی کمال الدین المعروف بابن الزملکانی (۶) . ۱۴- الرد علی ابن تیمیة فی الاعتقاد، لمحمد بن حمید الدین الحنفی الدمشقی (۷) . الفتیا الّتی اصدرها الشامیّون فی حق ابن تیمیة

وفی الختام نثبت فی المقام صورة الفتیا الّتی أصدرها الشامیون ونقلها _____

۱ . معجم المؤلفین: ج ۱ ص ۱۴۰ .

۲ . الذریعة ج ۱۰ ص ۱۷۶ .

۳ . الذریعة ج ۳ ص ۷۹ .

۴ . ابن مرزوق: کتاب التوسل بالنبی، ص ۲۵۳ .

۵ . إیضاح المکنون: ج ۱ ص ۲۶۳، معجم المؤلفین ج ۱۳ ص ۱۰۷ .

۶ . کشف الظنون ج ۱ ص ۷۴۴، معجم المؤلفین ج ۱۱ ص ۲۲ .

۷ . معجم المؤلفین ج ۸ ص ۳۱۶ . (۶۱)

الشیخ محمد زاهد الکوثری فی تکملة السیف الصقیل، وإلیک ما ذکره: «وقد اصدر الشامیون فتیاً وکتب علیها البرهان ابن الفرکاح الفزاری نحو أربعین سطراً بأشیاء، إلی أن قال بتکفیره، ووافقه علی ذلک الشهاب بن جهبل، وکتب تحت خطه، کذلک المالکی، ثم عرضت الفتیا لقاضی القضاة الشافعیة بمصر: البدر بن جماعة، فکتب علی ظاهر الفتوی: الحمد للّه، هذا المنقول باطنها جواب عن السؤال عن قوله: إن زیارة الأنبیاء والصالحین بدعة، وما ذکره من نحو ذلک، ومن أنّه لا یرخص بالسفر لزیارة الأنبیاء، باطل مردود علیه، وقد نقل جماعة من العلماء أنّ زیارة النبی فضیلة وسنة مجمع علیها، وهذا المفتی المذکور ـ یعنی ابن تیمیة ـ ینبغی أن یزجر عن مثل هذه الفتاوی الباطلة عند الأئمة والعلماء، ویمنع من الفتاوی الغریبة، ویحبس إذا لم یمتنع من ذلک، ویشهر أمره لیحتفظ الناس من الاقتداء به. وکتبه محمد بن إبراهیم بن سعد اللّه بن جماعة الشافعی . وکذلک یقول محمد بن الجریری الأنصاری، الحنفی: لکن یحبس الآن جزماً مطلقاً، وکذلک یقول محمد بن أبی بکر المالکی، ویبالغ فی زجره حسبما تندفع تلک المفسدة وغیرها من الفاسد . وکذلک یقول أحمد بن عمر المقدسی الحنبلی: وهؤلاء الأربعة قضاة المذاهب الأربعة بمصر أیام تلک الفتنة فی سنة (۷۲۶ هـ)(۱) . ولو أردنا أن نستقصی کل ما کتب رداًعلی ابن تیمیة، لخرجنا عمّا هو الهدف، وکفی فی ذلک ما نشر باسم «الوهابیة فی نظر المسلمین»(۲) . إلی هنا تمّ تبیین الرأی العام فی ابن تیمیة، فی حیاته ومماته، وقد عرفت _____

۱ . راجع تکملة السیف الصیقل، ص ۱۵۵، ودفع الشبهة لتقی الدین الحصنی ص ۴۵ ـ ۴۷ .

۲ . تألیف إحسان عبداللطیف البکری: الطبعة الرابعة، ومجلة «تراثنا» . (۶۲)

فما هو الحق، غیر أن تقییم الرجل بنقل آراء الأکابر من العلماء وإن کان له قیمة ـ ولکنّه تقییم تقلیدی لهم ـ ومن أراد تقییمه عن اجتهاد وإمعان فیجب أن یستعرض آراءه وأقواله من کتبه ورسائله، لیعرف ما هو الحق فی ذلک المجال، وعندئذ یصدر القاضی عن اجتهاد وإمعان، لا عن تقلید واقتداء بالغیر، ولأجل ذلک نخص الفصل الآتی بنقل آرائه فی مواضع مختلفة، ونکتفی ببعضها الّذی أوجد ضجة فی الأیام الغابرة، وقام العلماء فی وجهه کصف واحد، وزجروه وعاتبوه ونفوه وسجنوه، إلی أن مات فی سجن دمشق، ولا ینافی کل ذلک ما للرجل من فضل وفضیلة فی نواح من العلوم الإسلامیة، فإنه لولا تحلّیه بالذکاء والتوقّد، أو بالعلم بالکتاب والسنة لما اکتسب مقاماً فی الأوساط الإسلامیة، ولم یکن لآرائه قیمة، فالمبدع لا یکون ناجحاً فی بدعه وضلاله إلّا إذا خلط الحق بالباطل ـ وإلاّ ـ فالباطل المطلق لا ـ یکون له نجاح ونفوذ، ولنعم ما قال أمیرالمؤمنین علیّ ـ علیه السَّلام ـ : «إنّما بدءُ وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحکام تبتدع، یخالف فیها کتاب اللّه، ویتولی علیها رجال رجالا، علی غیر دین اللّه. فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق، لم یخف علی المرتادین، ولو أنّ الحق خلص من لبس الباطل، انقطعت عنه السنُ المعاندین، ولکن یؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث

فیمزجان، فهنالک یستولی الشیطان علی أولیائه، وینجو الذین سبقت لهم من اللّه الحسنی»(۱) .

۱ . نهج البلاغة الخطبة ۴۹ .

الإتهام بالشرک والبدعة

الإتهام بالشرک والبدعة

إنّ أکثر شیء تداولا وأرخصه فی کتب الوهابیین ودعایاتهم هو اتّهام المسلمین بالشرک والبدعة، وکأنهم لا یجدون فی کنانتهم شیئاً یرمون به المسلمین سوی هاتین الفریتین. تری أنّهم یتّهمون جمیع المسلمین من عرب وعجم وسنة وشیعة بالشرک فی العبادة، وأنه لیس تحت السماء وفوق أدیم الأرض أُمة موحّدة سوی محمد بن عبدالوهاب وأتباعه . کما أنهم بدل تکریم المسلمین عند اللقاء، وتهنئتهم بالتسلیم ونشر العطور ونثر الازاهیر علیهم، یتهمونهم بالابتداع، ویسمونهم بالمبتدعة. ولأجل ذلک یجب علی کل محقق وناقد لمزاعم الوهابیین الموروثة من ابن تیمیة القیام بأمرین مهمین وهما: ۱- تحدید العبادة تحدیداً منطقیاً بحیث یکون جامعاً ومانعاً . ۲- تحدید البدعة تحدیداً دقیقاً مثل الشرک فی العبادة . ثم القیام بتطبیق ما أوقفه علیه البحث والتنقیب علی ما یصفونه بالشرک والبدعة، حتّی یتبیّن أنّ التطبیق صحیح أولا؟ فها نقدّم إلیک أیّها القارىء الکریم بحثاً ضافیاً حول هذین الموضوعین المهمین، حتّی یتّضح الحقّ بأجلی مظاهره، وتقف علی أنّ أکثر من یصفونه بالشرک والبدعة خیال وضلال وجهل بحقیقتهما. (۶۴)

ابن تیمیة

ابن تیمیة وملاکات التوحید والشرک فی العبادة

إنّ المفتاح الوحید لردّ شُبَهِ الوهابیین هو تحدید العبادة وتمییزها عن غیرها، فما لم یتحدّد مفهموم العبادة بشکل منطقی حتّی تتمیز فی ضوئه العبادة من غیرها، لم یکن البحث والنقاش ناجحاً، ولأجل ذلک نخصّص هذا الفصل لتعریف العبادة، و نبیّن ما ذکر حولها من التعاریف. إنّ للتوحید مراتب بیّنها علماء الإسلام فی الکتب الکلامیة والتفسیریة، ونحن نشیر إلی هذه المراتب علی وجه الإجمال، ونرکزّ علی التوحید فی العبادة: الأُولی: التوحید فی الذات، أو التوحید الذاتی، والمراد منه هو: أنه سبحانه واحد لا نظیر له، فرد لا مثیل له. قال سبحانه: (قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ)(۱) . الثانیة: التوحید فی الخالقیة، والمراد منه هو: أنّه لیس فی صفحة الوجود خالق أصیل غیر اللّه، ولا مؤثر مستقل سواه، وأنّ تأثیر سائر الأسباب الطبیعیة وغیرها بأمره وإذنه وإرادته سبحانه. قال سبحانه: (قُلَ اللّهُ خالِقُ کُلّ شَیء وَ هُوَ الوَاحِدُ القَهّارُ)(۲) . الثالثة: التوحید فی الربوبیة والتدبیر، والمراد منه أن للکون مدبّراً واحداً

۱ . سورة الإخلاص: الآیة ۱ .

۲ . سورة الرعد: الآیة ۱۶ . (۶۶)

ومتصرّفاً فرداً لا یشارکه فی التدبیر شیء آخر، وأنّ تدبیر الملائکة وسائر الأسباب بأمره وإذنه، فلم یفوّض أمر التدبیر إلی الأجرام السماویة والملائکة والجن. قال سبحانه: (ثُمَّ اسْتَوَی عَلَی العَرش یُدَبِّرُ الأمْرَ مَا مِنْ شَفِیع إلاّ مِنْ بَعْدِ إِذنِهِ ذَلِکُمُ اللّهُ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَکَّرُونَ)(۱) . والمراد من الشفیع هو العلل الطولیة، وسُمّی بالشفیع لأنّ تأثیره متوقف إلی ضمّ إذنه سبحانه إلیه، والشفع هو الضم، سمی السبب شفیعاً لأنه یؤثر بانضمام إذنه تعالی . وإذ انتهی إلیه کل تدبیر من دون الاستعانة بمعین، أو الاعتضاد بأعضاد، لم یکن لشیء من الأشیاء أن یتوسط فی تدبیر أمر من الأُمور ـ وهو الشفاعة ـ إلاّ من عبد إذنه تعالی، فهو سبحانه السبب الأصلی الّذی لا سبب بالأصالة دونه، وأمّا الأسباب فإنها أسباب بتسبیبه، وشفعاء من بعد إذنه(۲) . الرابعة: التوحید فی التشریع والتقنین، والمراد منه حصر الحاکمیة التشریعیة فی اللّه فلیس لأحد أن یأمر وینهی ویحرم ویحلل إلاّ اللّه سبحانه. قال تعالی: (إِنِ الحُکْمُ إلاّ للّهِ أَمَرَ ألاّ تَعْبُدُوا إلاّ إیّاه)(۳) . الخامسة: التوحید فی الطاعة، والمراد منه هو: أنه لیس هناک من تجب طاعته بالذات إلاّ اللّه تعالی، فهو وحده الّذی یجب

أن یطاع، ولو وجبت طاعة النبی فإنما هو بإذنه. قال سبحانه (فاتّقوا اللّهَ مَا اسْتَطَعْتُم واسْمَعُوا و أَطَیعُوا)(۴) . السادسة: التوحید فی الحاکمیة، والمراد منه هو: أن جمیع الناس سواسیة، فلا ولایة لأحد علی أحد بالذات، بل الولایة للّه المالک الخالق، فمن مارس الحکم فی الحیاة یجب أن یکون بإذنه، قال سبحانه: (إنِ الحُکمُ _____

۱ . سورة یونس: الآیة ۳ .

۲ . المیزان ج ۱۰، ص ۷۶ .

۳ . سورة یوسف: الآیة ۴۰ .

۴ . سورة التغابن: الآیة ۱۶ . (۶۷) إلّا للّهَ یَقُصُّ الحَقّ وَهُوَ خَیْرُ الفَاصلینَ)(۱) . السابعة: التوحید فی الشفاعة والمغفرة، والمراد منه هو: أن کلا من الشفاعة والمغفرة حق مختص به فلا یغفر الذنوب إلّا هو، ولا یشفع أحد إلّا بإذنه. قال سبحانه: (وَ مَن یَغْفرُ الذُّنوبَ إلّا اللّه)(۲) .

وقال سبحانه: (مَنْ ذا الّذی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إلّا بِإذنِهِ)(۳) . الثامن: التوحید فی العبادة، وحصرها فی اللّه سبحانه، فلا معبود إلّا هو، لا یشارکه فیها شیء، وهذا الأصل مما اتفق علیه الموحدون، فلا تجد موحداً یجوّز عبادة غیر اللّه. إنّما الکلام فی المصادیق والجزئیات، وأن هذا العمل مثلا (الاستغاثة بالأولیاء وطلب الدعاء منهم والتوسل بهم) هل هو عبادة لهم حتّی یحکم علی المرتکب بالشرک، لأنّه عبد غیراللّه، أوْ لا؟ وهذا هو البحث الّذی عقدنا هذا الفصل لبیانه، وما تقدم ذکره من أقسام التوحید کان استطراداً فی الکلام(۴).

جاءت لفظة العبادة فی المعاجم بمعنی الخضوع و التذلل. قال ابن منظور: أصل العبودیة: الخضوع والتذلل، وقال الراغب: العبودیة إظهار _____

۱ . سورة الأنعام: الآیة ۵۷ .

۲ . سورة ال عمران: الآیة ۱۳۵ .

۳ . سورة البقرة: الآیة ۲۵۵ .

۴ . إنّ الوهابیة تعترف بنوعین من التوحید وهما التوحید الربوبی والتوحید الالوهی، ویفسرون الأول بالتوحید فی الخالقیة، والثانی بالتوحید فی العبادة، وکلا الاصطلاحین خطأ.

أمّا الأول فالمراد من الربوبیة هو تدبیر المربوب وإدارته، وأن وظیفة الرب الّذی هو بمعنی الصاحب، إدرة مربوبه، کرب الدابة والدار والبستان بالنسبة إلیها. فالتوحید فی الربوبیة غیر التوحید فی الخالقیة، وإن کان ربما تنتهی الربوبیة إلی الخالقیة.

و أمّا الثانی، أعنی التوحید فی الالوهیة فهو مبنیّ علی أن الإله بمعنی المعبود، ولکنه خطأ، بل هو ولفظ الجلالة بمعنی واحد، غیر أن الأول کلّیّ والثانی علم لواحد من مصادیق ذلک الکلّی .

ومن أراد التفصیل فلیرجع إلی مفاهیم القرآن، الجزء الأول ص ۴۳۲. وعلی ضوء هذا کلما أطلقنا لفظ الإله أو الالوهیة فلا نرید منه إلّا هذا، لا المعبود . (۶۸)

التذلل، والعبادة أبلغ منها، ولکن هذه التعاریف وأمثالها کتفسیرها بالطاعة کما فی القاموس، کلها تفسیر بالمعنی الأعم، فلیس التذلل وإظهار الخضوع والطاعة نفس العبادة، وإلّا یلزم الالتزام بأُمور لا یصحّ لمسلم أن یلزم بها: ۱- یلزم أن یکون خضوع الولد أمام الوالد، والتلمیذ أمام الأُستاذ، والجندی أمام القائد، عبادةً لهم. قال تعالی: (وَاخْفِض لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرحْمَةِ)(۱) . ۲- یلزم أن یکون سجود الملائکة لآدم، الّذی هو من أعلی مظاهر الخضوع، عبادةً لآدم. قال سبحانه: (وَ إذ قُلْنا لِلْمَلائِکَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ...)(۲) . ۳- یلزم أن یکون سجود یعقوب وزوجته وأبنائه لیوسف عبادة له. قال سبحانه: (وَ رَفَعَ أَبَوَیْهِ عَلَی العَرشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ یَا أَبَتِ هَذَا تَأوِیلُ رُؤْیایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبّی حَقاً)(۳) . ۴- یلزم أن یکون تذلل المؤمن عبادة له، مع أنه من صفاته الحمیدة، قال تعالی: (فَسَوفَ یَأتِی اللّه بَقَوْم یُحبّهُمْ وَیُحِبُّونَهُ، أذِلَّة عَلَی المُؤمِنینَ أعَزّة عَلَی الکَافِرینَ)(۴) . کل ذلک یدفع بنا إلی القول بأنّ تفسیر العبادة

بالتذلل والتخضع أو إظهارهما، وبالطاعة وما يشابه ذلك تفسير بالمعنى الأعم، ولا يكون الخضوع ضعيفهُ وشديدهُ عبادةً إلّا إذا دخل فيه عنصر قلبى خاص يميزه عن مماثلاته ومشابهاته، وهذا العنصر عبارة عن أحد الأمور التالية: ۱- الاعتقاد بألوهية المعبود .

---

۱ . سورة الإسراء: الآية ۲۴ .

۲ . سورة البقرة: الآية: ۳۴ .

۳ . سورة يوسف: الآية ۱۰۰ .

۴ . سورة المائدة: الآية ۵۴ . (۶۹)

۲- الاعتقاد بربوبيته . ۳- الاعتقاد باستقلاله فى الفعل من دون أن يستعين بمعين أو يعتمد على معاضد. إنّ هذه العبارات الثلاثة تهدف إلى أمر واحد، وهو أنّ مقوّم العبادة ليس هو ظواهر الأفعال وصورها، بل مقومها هو باطن الأعمال ومناشئها، والخضوع الّذى ينبعث عن اعتقاد خاص فى حق المعبود، وهو: إمّا عبارة عن الاعتقاد بألوهية المعبود، سواء أكانت ألوهية حقيقية أم الوهية كاذبة مدّعاة، فاللّه سبحانه إله العالم وهو الإله الحقيقى الّذى اعترف به كل موحد على وجه الأرض، كما أنّ الأوثان والأصنام آلهة مدّعاة اعتقد بألوهيتها عبدتها والعاكفون عليها، فاللّه سبحانه عند المشركين كان إلهاً كبيراً وهؤلاء آلهة صغيرة، وزّعت شؤون الإله الكبير عليهم. أو عبارة عن الاعتقاد بربوبية المعبود، وأنّه المدبّر والمدير بنفسه. أو عبارة عن الاعتقاد باستقلال الفاعل فى فعله وإيجاده، سواء أكان مستقلا فى وجوده وذاته كما هو شأن الإله الكبير عند المشركين، أم غير مستقل فى ذاته ومخلوقاً للّه سبحانه، ولكنه يملك شؤونه سبحانه من المغفرة والشفاعة، أو التدبير والرزق أو الخلق، إلى غير ذلك مما هو من شؤونه سبحانه، والمراد من تملّكه بعض هذه الشؤون أو كلها، هو استقلاله فى ذلك المجال، فكأنه سبحانه فوضها إليه وتقاعد هو عن العمل . هذه هى الملاكات الّتى تضفى على كل خضوع خفيف أو شديد، لون العبادة وتميزه عن أى تكريم وتعظيم للغير. وفى الآيات القرآنية إلماعات إلى هذه القيود الّتى ترجع حقيقتها إلى أُمور ثلاثة: أمّا الأول: فإليك بعض الآيات: قال سبحانه: (أَمْ لَهُم إلهٌ غَيْرُ اللّه، سُبْحانَ اللّه عمّا يُشرِكُونَ)(۱) فقد جعل فى هذه الآية اعتقادهم بألوهية

---

۱ . سورة الطور: الآية ۴۳ . (۷۰)

غير اللّه هو الملاك للشرك. يقول سبحانه: (إنّهم كانُوا إذا قيلَ لَهُم لا إله إلّا اللّه يستَكبرون)(۱) أى إنّهم يرفضون هذا الكلام لأنّهم يعتقدون بألوهية معبوداتهم، ويعبدونها بما أنّها آلهة حسب تصورهم، ولأجل تلك العقيدة السخيفة، قال تعالى: (إذا دُعىَ اللّه وَحْدَهُ كَفَرْتُم وَإنْ يُشْرَك بِهَ تُؤمِنُوا فالحُكْمُ للّهَ العلىّ الكَبير)(۲) . وقال سبحانه: (وَإذا ذُكِرَ اللّهُ وَحْدَهُ اشْمأزَّتْ قُلُوبُ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونِ بالآخِرَةِ وَ إذا ذُكِرَ الّذينَ مِنْ دُونِهِ إذا هُمْ يَسْتَبشِرُونَ)(۳) . والآيات فى هذا المجال وافرة جداً لا حاجة لنقلها، ومن تدبّر فى هذه الآيات يرى أن التنديد بالمشركين لأجل اعتقادهم بألوهية أصنامهم وأوثانهم. قال سبحانه: (الذينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)(۴) . وأما الثانى: أى كون الاعتقاد بالربوبية مؤثراً فى إضفاء طابع العبادة على الخضوع، فيكفى قوله سبحانه: (يا أيُّها الناس اعْبُدُوا ربَّكُمُ الّذى خَلَقَكُم والَّذينَ مِنْ قَبْلِكُم)(۵) . وقال تعالى: (ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكم لا إلهَ إلّا هُوَ خَالِقُ كُلّ شىء فَاعْبُدُوه)(۶) . فتعليل لزوم العبادة بكونه سبحانه «ربكم» فى الآية الأُولى أو «ربكم وخالق كلّ شىء» فى الآية الثانية، يعرب عن أن الدافع إلى العبادة هو ذلك الاعتقاد، وبالتالى ينتج أنه لا يتصف الخضوع بصفة العبادة إلّا إذا اعتقد الإنسان أن المخضوع له خالق ورب أو ما يقاربه، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه

---

۱ . سورة الصافات: الآية ۳۵ .

۲ . سورة غافر: الآية ۱۲ .

۳ . سورة الزمر: الآية ۴۵ .

۴ . سورة الحجر: الآية ۹۶ .

۵ . سورة البقرة: الآية ۲۱ .

۶ . سورة الأنعام: الآية ۱۰۲ . (۷۱)

ينفى صلاحية من فى السماوات والأرض لأن يكون معبوداً لأجل أنهم عباد الرَّحمن، قال: (إن كُلّ مَنْ فى السّمواتِ والأرْضِ إلاّ آتى الرّحمنِ عَبْداً)(۱)، فليسوا أرباباً ليدبّروا أُمورهم، ولا خالقين ليخلقوهم . نعم، الاعتقاد بالربوبية ينحل إلى الاعتقاد بأنه يملك شؤون العابد، إمّا فى جميع الجهات كما هو الحال فى إله العالم عند الموحدين، أو بعض الشؤون كالشفاعة والمغفرة، أو قضاء الحوائج ورفع النوازل، كما هو الحال فى الآلهة الكاذبة عند المشركين، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه ينفى عن معبوداتهم كونهم مالكين لكشف الضر. قال: (لَا يَمْلِكُونَ لِانفُسِهِم نَفْعاً وَ لا ضرّاً)(۲)، وقال تعالى: (لا يَمْلِكُونَ كَشْف الضُّرّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْويلا)(۳) وقال: (لا يَمْلُكون عَنِ الشّفاعة إلاّ مَنِ اتّخَذَ عِنْدَ الرّحْمنِ عَهْداً)(۴) . وقال: (إنّ الذينَ تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُم رِزْقاً)(۵) إلى غير ذلك من الآيات الّتى بتاتاً، تملّك معبوداتهم المدعاة شيئاً من شؤونه سبحانه . وهذا يعرب عن أنّ وجه اتّصاف خضوعهم بالعبادة ودعائهم لها، هو اعتقادهم بأنهم أرباب يملكون ما ينفع فى حياتهم عاجلا أو آجلا، ويؤيد ذلك ما كانوا يرددون فى ألسنتهم حين الطواف والسعى ويقولون: لبّيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك إلاّ شريك هو لك، تملكه وما ملك . وأما الثالث: وهو الاعتقاد بكون المخضوع له مستقلا إمّا فى ذاته وفعله، أو فى فعله فقط، الإلماع إليه فى غير موضع من كتاب اللّه العزيز، وهو توصيفه سبحانه بالقيوم، قال سبحانه: (اللّه لا إله إلاّ هُوَ الحَىُّ _____

۱ . سورة مريم: الآية ۹۳ .

۲ . سورة الرعد: الآية ۱۶ .

۳ . سورة الإسراء: الآية ۵۶ .

۴ . سورة مريم: الآية ۸۷ .

۵ . سورة العنكبوت: الآية ۱۷ . (۷۲) القَيُّومُ)(۱) وقال: (وَعَنَتِ الوُجوهُ للحىِّ القَيُّوم)(۲) والمراد منه هو الموجود القائم بنفسه، ليس فيه شائبة من الفقر والحاجة، وأنّ كل ما سواه قائم به، ومن المعلوم أن القائم بنفسه والغنى فى ذاته، غنى فى فعله عن غيره، فلو استغنا بأحد باعتقاد أنه يملك كشف الضر عنّا فقد طلبنا فعل اللّه سبحانه من غيره، لأنه تعالى وحده الّذى يملك كشف الضر لا غيره، والغنى فى الفعل هو اللّه سبحانه، فلو أقمنا موجوداً آخر مكان اللّه سبحانه فى مجال الإيجاد، وزعمنا أنه يخلق ويرزق ويدبّر الأُمور، أو أنه يغفر الذنوب ويقضى الحاجات من عند نفسه، أو بتفويض من اللّه سبحانه واعتزاله عن الساحة، فقد وصفناه بالربوبية أولا (التعريف الثانى) ولو زعمنا أنه قائم بنفس الفعل الّذى يقوم به سبحانه ثانياً فكأننا أعطينا غيره صفة من صفاته سبحانه، وهى القيومية ولو فى مجال الإيجاد (التعريف الثالث) .

هذا وللتفويض شؤون واسعة: منها تفويض اللّه تدبير العالم إلى خيار عباده من الملائكة والأنبياء والأولياء، ويسمى بالتفويض التكوينى . ومنها تفويض الشؤون الإلهية إلى عباده كالتقنين والتشريع والمغفرة والشفاعة ويسمى بالتفويض التشريعى . وهذا هو الذكر الحكيم يصف أهل الكتاب بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه يقول: (اتّخَذوا أحْبَارَهُم وَ رُهْبانَهُم أرباباً مَنْ دُون اللّه والمَسيحَ ابنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِروا إلاّ لِيَعْبُدُوا إلهاً واحِداً لا إله هُوَ سُبْحانَهُ عمّا يُشرِكُون)(۳) . إنّ أهل الكتاب لم يعبدوهم من طريق الصلاة والصوم لها، وإنما _____

۱ . سورة البقرة: الآية ۲۵۵ .

۲ . سورة طه: الآية ۱۱۱ .

۳ . سورة التوبة: الآية ۳۱ . (۷۳)

أشركوهم فی تفویض أمر التشریع والتقنین إلیهم، وزعموا أنهم یملکون شأناً من شؤونه سبحانه. قال الإمام الصادق ـ علیه السَّلام ـ : «واللّه ما صَامُوا لَهُم، وَ لاَ صَلُّوا لَهُم، وَلَکِن أحَلُّوا حَرَماً وَ حَرّموا عَلَیْهِم حَلاَلا فاتّبعوهم»(۱). روی الثعلبی فی تفسیره: عن عدی بن حاتم قال: أتیت رسول اللّه وفی عنقی صلیب من ذهب، فقال لی: «یا عدی، اطرح هذا الربق من عنقک» قال: فطرحته، ثم انتهیت إلیه وهو یقرأ هذه الآیة: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً) حتّی فرغ منها، فقلت: إنّا لسنا نعبدهم، فقال: ألیس یحرّمون ما أحلّه اللّه، فتحرّمونه، ویحلّون ما حرّم الله فتستحلّونه؟ قال: فقلت: بلی. قال: فتلک عبادة(۲) . وفی ضوء هذا البحث الضافی تستطیع أن تمیّز العبادة عن غیرها، والتعبّد عن التکریم، والخضوع العبادی عن التعظیم العرفی وتقف علی أنّ سجود الملائکة لآدم، ویعقوب وزوجته وأبنائه لیوسف، لم تکن عبادة قط، وما هذا إلّا لأن خضوعهم لم یکن نابعاً عن الاعتقاد بألوهیتهما أو ربوبیتهما، أو أنهما یملکان شؤون اللّه سبحانه، کلها أو بعضها، ویقومان بحاجة المستنجد بنفسهما وذاتهما. ومما یؤید أنّ خضوع المشرکین أمام أوثانهم وأصنامهم کان ممزوجاً بالاعتقاد بکونهم آلهة صغیرة، أو أرباباً، وموجودات تملک شؤون الرب أو بعضها، أنهم کانوا یصفونها بأنها أنداد للّه سبحانه. قال سبحانه: (وَ مِنَ النّاسِ مَنْ یَتَّخِذُ مِنْ دُونَ اللّه أنْداداً یُحِبُّونَهُم کَحُبّ اللّه)(۳) ولما زعموا أن معبوداتهم المصطنعة، تستجیب دعاءهم وتشفع لهم مثله، عادوا یحبّونها کحب اللّه، ویذکر فی آیة أُخری أنّ المشرکین کانوا یسوّون آلهتهم بربّ العالمین.

---

۱ . الکافی ج ۱ ص ۵۳ .

۲ . مجمع البیان ج ۳ ص ۲۳ والبرهان فی تفسیر القرآن ج ۲ ص ۱۲۰ .

۳ . سورة البقرة: الآیة ۱۶۵ . (۷۴)

قال سبحانه: (تاللّه إنْ کُنّا لَفِی ضَلال مُبین * إذْ نُسَوّیکُمْ بِرَبّ العَالمین)(۱) . والمراد هو التسویة فی شؤونه سبحانه جمیعها أوبعضها، وأمّا التسویة فی العبادة فکانت من شؤون ذلک الاعتقاد، فإنّ العبادة خضوع من الإنسان للمعبود، فلا تتحقق إلّا أن یکون هناک إحساس من صمیم ذاته بأن للمعبود سیطرة غیبیة علیه، یملک شؤونه فی حیاته، وکان المشرکون فی ظل هذه العقیدة یسوّون أوثانهم برب العالمین. وبالتالی یعبدونهم. ولیس المراد من التسویة هو التسویة فی خصوص توجیه العبادة، إذ لم یعهد من المشرکین المتواجدین فی عصر الرسول توجیه العبادة إلی اللّه، ویؤید ذلک: أنّ الوثنیة دخلت مکة ونواحیها أول ما دخلت بصورة الشرک فی الربوبیة، وفی ذلک یکتب ابن هشام: کان عمرو بن لحی أول من أدخل الوثنیة إلی مکة ونواحیها، فقد رأی فی سفره إلی البلقاء من أراضی الشام أُناساً یعبدون الأوثان، وعندما سألهم عما یفعلون بقوله: «ما هذه الأصنام الّتی أراکم تعبدونها؟» قالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطوننی منه فأسیر به إلی أرض العرب فیعبدون؟!. ثم إنّه استصحب معه إلی مکة صنماً کبیراً باسم (هبل)، ووضعه علی سطح الکعبة المشرفة ودعا الناس إلی عبادتها(۲)، فطلب المطر من هذه الأوثان یکشف عن اعتقادهم بأن لهذه الأوثان دخلا فی تدبیر شؤون الکون وحیاة الإنسان. الوهابیون وملاکات التوحید و الشرک

ثم إنّ الوهابیین لما لم یضعوا للعبادة حدّاً منطقیاً تتمیّز به عن غیرها، _____

۱ . سورة الشعراء: الآیة ۹۷ ـ ۹۸ .

۲ . سیرة ابن هشام ج ۱ ص ۷۹ . (۷۵)

عمدوا إلی وضع ملاکات للعبادة، عجیبة جداً، وهی مبثوثة فی کتبهم وثنایا دعایاتهم وهی: ۱- الاعتقاد بالسلطة الغیبیة . ۲- الاعتقاد بأن المدعو یقضی حاجته بسبب غیر عادی . ۳- طلب الحاجة من المیت . ۴- طلب الحاجة مع کون المطلوب منه عاجزاً . إلی غیر ذلک من المعاییر الّتی لا تمت إلی التوحید والشرک بصلة أبداً ولکون هذه الملاکات تدور علی ألسنتهم و تتکرر فی کتبهم، نرکّز علی هذه المعاییر وأشباهها لنخرج بنتیجة قطعیة، وهی أنّ الملاک فی تمییز التوحید عن الشرک أمر واحد وهو الاعتقاد بالألوهیة والربوبیة، أو کون الفاعل مستقلا ومفوضاً إلیه الأمر، وأمّا هذه المعاییر فکلها معاییر عرضیة، بل لا تمت إلی مسألة العبادة بصلة أصلا،

بل كل منها يوصف بالتوحيد على وجه، وبالشرك على آخر، وإليك البيان: ۱- هل الاعتقاد بالسلطة الغيبية معيار للشرك ؟

«إنّ هناك من يتصور أن الاعتقاد بالسلطة الغيبية فى المدعو يلازم الاعتقاد بكونه إلهاً. يقول الكاتب المودودى: «إنّ التصوّر الّذى لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه ويتضرّع إليه هو ـ لا جرم ـ تصور كونه مالكاً للسلطة المهيمنة على الطبيعة، وللقوى الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة»(۱) وهذا الكلام صريح فى أنّه جعل الاعتقاد بهذه السلطة ملازماً للاعتقاد بالألوهية، وعلى ضوء ذلك فكل من اعتقد فى واحد من الصالحين بأنّ له تلك السلطة فهو معتقد بألوهيته، فيصبح دعاؤه عبادة، والداعى عابداً له . وهو مردود من وجهين: _____

۱ . المصطلحات الأربعة ص ۱۷ . (۷۶) أولاـ إنّ التصور الّذى لأجله يدعو الإنسان الإله، لا ينحصر فى تصوّر كونه مالكاً للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة، بل يكفى الاعتقاد بكونه مالكاً للشفاعة والمغفرة، كما كان عليه فريق من عرب الجاهلية، إذ كانوا يعتقدون فى شأن أصنامهم بأنّها آلهتهم لأنّها تملك الشفاعة والمغفرة، وهو غير القول بوجود السلطة على عالم التكوين، وبذلك يظهر الضعف فى كلام آخر له، حيث يقول:

«إنّ كلا من السلطة والألوهية تستلزم الأُخرى»(۱). والحال أنّ الإعتقاد بالألوهية أعمّ من الاعتقاد بالسلطة، فلو افترضنا أن الاعتقاد بالسلطة يستلزم الألوهية، ولكن الاعتقاد بالألوهية لا يستلزم الاعتقاد بالسلطة، بل يكفى أن يعتقد أنّ المدعو يملك مقام الشفاعة والمغفرة، أو شأناً من شؤونه سبحانه . وثانياً: إنّ الاعتقاد بالسلطة إنّما يستلزم الاعتقاد بالألوهية إذا كان ينطوى على الاعتقاد بأنّه فوّضت إليه تلك السلطة تفويضاً، بحيث يقوم بأعمالها باختياره من دون استئذان من اللّه سبحانه واعتماد عليه، وعلى ضوء ذلك لا يكون الاعتقاد بها ـ إذا كان إعمال تلك السلطة بإذن اللّه ـ ملازماً للاعتقاد بالألوهية، وإلّا وجب أن لا نسجّل أحداً من المسلمين المعتقدين بالقرآن فى ديوان الموحدين، فإنّه يثبت ليوسف وموسى وسليمان والمسيح، بل لأناس آخرين ليسوا بأنبياء سلطة غيبية. هذا قوله سبحانه فى قصة سليمان: (قال يَا أَيُّها المَلأ أَيُّكُم يَأتِينى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أن يَأتُونى مُسلِمينَ * قال عِفْريتٌ مِنَ الجنّ أنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أن تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَإِنّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أمينٌ * قَالَ الّذى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمّا رآه مُستَقرّاً عَندَهُ قَالَ هَذَا مَنْ فَضلَ رَبّى لِيَبْلُونى أأشْكُرُ أم أكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإنَّ رَبّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ)(۲).

---

۱ . المصطلحات الأربعة ص ۳۰ .

۲ . سورة النمل: الآية ۳۸ ـ ۴۰ . (۷۷)

ولا يرتاب أحد فى أنّ سليمان سأل ما سأل بعد اعتقاده بكونهم أصحاب السلطة الغيبية، أفيصح للمودودى أن يرمى ذلك النبى العظيم بما لا يليق بساحته، بل لا يحتمل فى حقه؟ . إنّ الذكر الحكيم يثبت ـ لسليمان ـ نفسه سلطة غيبية، وأنّه كان له سلطة على الجن والطير حتّى أصبحا من جنوده، كما يقول: (وَحُشِرَ لِسُلَيمانَ جُنودُهُ مِنَ الجنّ وَ الإنسِ وَ الطّيرِ...)(۱). وكانت له السلطة على عالم الحيوانات حتّى أنّه كان يخاطبهم ويطلب منهم تنفيذ أوامره، كما يقول: (وَ تَفَقَّدَ الطّيرَ فَقالَ مَالِىَ لا أرَى الهُدْهُدَ أم كَانَ مِنَ الغَائبينَ * لأُعذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَديداً أو لأَذْبَحَنَّهُ أوْ لَيَأتِيَنّى بِسُلطان مُبين)(۲)، وكانت له السلطة على الجن، فكانوا يعملون بأمره وإرادته، كما يقول: (وَ مِنَ الجنّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإذْنِ رَبّهِ... يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشاءُ...)(۳)، وكانت له السلطة على الريح أيما تسليط كما يقول: (وَ لِسُلَيمانَ الرّيحَ عاصِفَةً تَجْرِىَ بِأَمْرِهِ)(۴) .

وعلى أىّ تقدير فأيّة سلطة أعظم وأوضح من هذه السلطة الّتى كانت لسليمان؟ والجدير بالذكر أنّ بعض الآيات صرحت بأنّ كل هذه الأُمور غير العادية كانت تتحقق بأمره . هذا ما ذكره القرآن فى حق سليمان، وقد ذكر نظيره فى حق غير واحد من الأنبياء، لاحظ الآيات(۵) فكيف يكون الاعتقاد بالسلطة الغيبية المهيمنة على الطبيعة على وجه الإطلاق ملازماً للاعتقاد بالألوهية ؟

۱ . سورة النمل: الآیة ۱۷ .

۲ . سورة النمل: الآیة ۲۰ ـ ۲۱ .

۳ . سورة سبأ: الآیة ۱۲ – ۱۳ .

۴ . سورة الأنبیاء: الآیة ۸۱ .

۵ . سورة یوسف: الآیة ۹۳ ـ ۹۶، سورة الشعراء: الآیة ۶۳، سورة البقرة: الآیة ۶۰ (فی حق موسی)، سورة آل عمران: الآیة ۴۹ (فی حق المسیح)، سورة المائدة: الآیة ۱۱۰ (فی حقه أیضاً) . (۷۸) ۲- هل طلب قضاء الحاجة بأسباب غیر طبیعیة معیار للشرک ؟

یری المودودی ان التوسل بالأسباب الطبیعیة لیس بشرک، أمّا طلب الحاجة وإنجازها بأسباب غیرها فهو یلازم الشرک. یقول: فالمرء إذا کان أصابه العطش فدعا خادمه وأمره بإحضار الماء، لا یطلق علیه حکم الدعاء، ولا أن الرجل اتخذ إلهاً، وذلک أنّ کل ما فعله الرجل جار علی قانون العلل والأسباب، ولکن إذا استغاث بولیّ فی هذا الحال فلا شک أنّه دعاه لتفریج الکربة واتّخذه إلهاً، فکأنّی به یراه سمیعاً بصیراً، ویزعم أنّ له نوعاً من السلطة علی عالم الأسباب مما یجعله قادراً علی أن یقوم بإبلاغه الماء، أو شفائه من المرض(۱) . أقول: إنّ ما ذکره صورة أُخری للمعیار الأول، وکلاهما وجهان لعملة واحدة، فإنّ طلب التوسل بالأسباب غیر الطبیعیة لا ینفک عن الاعتقاد بکونه مالکاً للسلطة المهیمنة علی قوانین الطبیعة . یلاحظ علیه: أنّ المودودی تصوّر أنّ طلب التوسل بالأسباب الطبیعیة لیس بشرک، وإنّما الشرک هو طلب التوسل بغیرها. والحال أنّ کلا منهما علی وجهین: فلو تصوّر أنّ القائم بعمل علی وفق الأُصول الطبیعیة، إنّما یقوم به عند نفسه وباقتدار مستقل من دون اعتماد علی اقداره سبحانه واستئذان منه، فقد اعتقد بألوهیته وطلب فعل الإله من غیره، وأمّا إذا اعتقد أنّ الخادم یحضر الماء بقدرة مکتسبة واستئذان منه فهو نفس التوحید. ومثله الکلام فی الأسباب غیر الطبیعیة، فلا شک أنّ أُمة المسیح کانوا یعتقدون فی حقه ـ بعدما رأوا الآیات والمعجزات منه ـ أنّ له سلطة غیبیة، وکانوا یسألونه إبراء مرضاهم وإحیاء موتاهم، أفهل یتصوّر أنّ سؤالهم هذا کان شرکاً؟ وأنّ المسیح کان مجیباً لدعوتهم الشرکیة؟! فمن ذا الّذی یسمع قول المسیح بین بنی إسرائیل: (أَنّی أَخْلُقُ لَکُمْ مِنَ الطّینِ کَهَیئَةِ الطّیرِ فَأَنْفُخُ فِیهِ فَیَکُونُ طَیراً بِإذنِ اللّهِ و أُبْرِیءُ الأَکْمَهَ والأَبْرَصَ و أُحیِ المَوْتی بِإذنِ اللّهِ وأُنَبِّئُکُم بِما تَأکُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِی _____

۱ . المصطلحات الأربعة ص ۳۰ . (۷۹) بُیُوتِکُم إنَّ فی ذَلِکَ لآیةً لَکُمْ إنْ کُنْتُم مُؤمِنینَ)(۱) .

فَمَنْ ذا الّذی یسمع کلامه هذا ـ ولا یعتقد بسلطته الغیبیة؟ ولا یسأله کشف الکرب والملمات بإذنه سبحانه؟ أفیصح للمودودی أن یتّهم أُمة المسیح وفیهم الحواریون الذین أُنزلت علیهم مائدة من السماء ومدحهم سبحانه فی الذکر الحکیم(۲)بالشرک ؟ هذا هو الذکر الحکیم ینقل عن السامری قوله: (بَصُرْتُ بِما لَمْ یبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَ کَذَلِکَ سَوَّلَتْ لی نَفْسی)(۳) . وهو یعطی أنّ السامری توسّل بالتراب المأخوذ من أثر الرسول، وکان له أثر خاص فی إخراج العجل الّذی کان له خوار. فلو اعتقد المسلم ـ تبعاً للقرآن ـ بأنه توسل باسباب غیر طبیعیة لإضلال قومه، فهل یصحّ اتهامه بالشرک؟ . وبالجملة: لیس الاعتقاد بالسلطة الغیبیة فی مقابل الاعتقاد بالسلطة العادیة، کما ولیس التوسل بالأسباب غیر العادیة فی مقابل التوسل بالأسباب العادیة، معیارین للتوحید والشرک، بل کل واحد منهما یمکن أن یقع علی وجهین، فعلی وجه یوافق الأُصول التوحیدیة، وعلی آخر یخالفها . ۳- هل الموت والحیاة ملاکان للتوحید والشرک؟ .

یظهر من الوهابیین أنهم یجوّزون استغاثة الأحیاء، وفی الوقت نفسه یرون استغاثة الأموات شرکاً. یقول محمد بن عبدالوهاب: وهذا جائز فی الدنیا والآخرة أن تأتی رجلا صالحاً تقول له: ادع اللّه لی، کما کان أصحاب الرسول ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ یسألونه فی حیاته، وأمّا بعد مماته فحاشا وکلاّ أن یکونوا سألوا ذلک، بل أنکر السلف علی من قصد دعاء اللّه عند قبره، فکیف بدعاء نفسه(۴) .

---

۱ . سورة آل عمران: الآیة ۴۹ .

۲ . سورة المائدة: الآیة ۱۱۵ وسورة الصف: الآیة ۱۴ .

۳ . سورة طه: الآیة ۹۶ .

۴ . کشف الشبهات ـ طبع مصر ـ ص ۷۰ . (۸۰)

عجیب جداً أن یکون عمل محدد ومشخّص إذا طلب من الحی، نفس التوحید، وإذ طلب من المیت یکون عین الشرک. إنّ القرآن ینقل عن بعض شیعة موسی ویقول: (فاسْتَغَاثَهُ الّذی مِنْ شِیَعتِه عَلَی الّذی من عَدوِّهِ فَوَکَزَهُ مُوْسی فَقَضی عَلَیْهِ)(۱)فنفس هذه الاستغاثة فی حال الحیاة، یتصور علی وجهین، یحکم علی أحدهما أنه موافق لأصول التوحید، وعلی الآخر بخلافها!! إنّ هذه الاستغاثة إنما تکون علی وفق التوحید إذا اعتقد أنّ موسی فی حال حیاته یقوم بالاغاثة بقدرة مکتسبة وإذن منه سبحانه، ولو اعتقد بأصالته فی إغاثة المستغیث فقد اعتقد بألوهیته، فإذا کان هذا هو المعیار فی الاستغاثة من الحی، فلیکن هذا هو المعیار عند الاستمداد بالأرواح المقدسة العالمة الشاعرة حسب أخبار القرآن (أو الأموات) علی زعم الوهابیین . فلو فرضنا أنّ أحداً من شیعة موسی استغاث به بعد خروج روحه الشریف عن بدنه علی نحو الاستغاثة الأُولی، فهل یتصوّر أنّه أشرک باللّه؟ وأنّه عبد موسی لاعتقاده أنّه یغیث المستغیث حیاً ومیتاً؟ . ولو کانت حیاة المستغاث ومماته معیاراً، فإنّما یصحّ أن یکون معیاراً فی الجدوائیة وخلافها، لا فی الشرک و التوحید. وبذلک تقف علی ضعف کلام تلمیذ ابن تیمیة حیث یقول: «و من أنواع الشرک طلب الحوائج من الموتی والاستغاثة بهم والتوجه إلیهم، وهذا أصل شرک العالم، فإنّ المیت قد انقطع عمله، وهو لا یملک لنفسه ضراً ولا نفعاً»(۲) . یلاحظ علیه: أنّ ما ذکره من الدلیلین لا یثبت مدّعاه، لأنّ قوله: «فإنّ المیت قد انقطع عمله» علی فرض صحته، یثبت عدم الفائدة فی _____

۱ . سورة القصص: الآیة ۱۵ .

۲ . فتح المجید، تألیف حفید الشیخ محمد بن عبدالوهاب ص ۶۷ الطبعة السادسة . (۸۱)

الاستغاثة بالمیت، لا انّه شرک، وأمّا قوله: «ولا یملک نفسه ضراً ولا نفعاً» فهو جار فی الحی والمیت، فلیس فی صفحة الوجود من یملک لنفسه شیئاً، فإنما یملک بإذنه وإراته سواء أکان حیاً أم میتاً، ومع الإذن الإلهی یقدرون علی إیصال النفع والضر أحیاءً وأمواتاً. هذا کلام التلمیذ، فهلمّ ندرس کلام أُستاذه ابن تیمیة وهو یقول: کل من غلا فی نبی أو رجل صالح وجعل فیه نوعاً من الإلهیة وجعل یقول: یا سیدی فلان أنصرنی وأغثنی... فکل هذا شرک وضلال یستتاب صاحبه، فإن تاب، وإلّا قتل(۱) . یلاحظ علیه: أنّ الإستغاثة بالأموات ـ حسب تعبیر الوهابیین، أو الأرواح المقدسة حسب تعبیرنا ـ إذا کانت ملازمة للاعتقاد بنوع من الألوهیة، یلزم أن تکون الاستغاثة بالأحیاء ملازمةً لذلک، لأنّ حیاة المستغاث ومماته حدّ لجدوائیة الاستغاثة وعدمها، ولیس حداً للتوحید والشرک، فی حین أنّ الاستغاثة بالحی تعد من أشد الضروریات للحیاة الاجتماعیة . وهناک کلام آخر له هلم معی نستمع إلیه یقول: «والذین یدعون مع اللّه ألهة أخری مثل المسیح والملائکة والأصنام لم یکونوا یعتقدون أنّها تخلق الخلائق، أو تنزل المطر، وإنّما کانوا یعبدونهم أو یعبدون قبورهم، أو یعبدون صورهم ;یقولون: ما نعبدهم إلا لیقرّبونا إی اللّه زلفی، أو هؤلاء شفعاؤنا»(۲) . إنّ قیاس استغاثة المسلمین بما یقوم به المسیحیون والوثنیون، والخلط بینهما ابتعاد عن الموضوعیة، لأنّ المسیحیین یعتقدون بألوهیة المسیح، والوثنیین یعتقدون بتملّک الأوثان مقام الشفاعة والمغفرة، بل مقام التصرف فی الکون کإرسال الأمطار علی ما نقله ابن هشام(۳) ولأجل هذا الاعتقاد کان طلبهم واستغاثتهم بالمسیح والأوثان عبادة لها . _____

۱ . فتح المجید ص ۱۶۷ .

۲ . نفس المصدر .

۳ . السیرة النبویة ج ۱ ص ۷۹ . (۸۲)

وأمّا استغاثة المسلمین بالأرواح المقدّسة فخالیة من هذه الشوائب فعندئذ، لا یکون شرکاً ولا عبادة، بل استغاثة بعبد لا یقوم بشیء إلّا بإذنه سبحانه، فإن أذن أجاب، وإن لم یأذن سکت، فما معنی توصیف هذا بالشرک ؟ ۴- هل القدرة والعجز حدان للتوحید والشرک

؟

وهناک معیار مزعوم آخر یظهر من کلمات ابن تیمیة، وهو أنّ قدرة المستغاث علی تحقیق الحاجة یوجب أن لا یکون الطلب شرکاً ولکن عجزه عن قضاء الحاجة یضفی علی الطلب لون الشرک، یقول ابن تیمیة: «مَنْ یأتی إلی قبر نبیی أو صالح ویسأل حاجته ویستنجد به، مثل أن یسأله أن یزیل مرضه ویقضی دینه، ونحو ذلک مما لا یقدر علیه إلّا اللّه عزّوجلّ. فهذا شرک صریح یجب أن یستتاب صاحبه، فإن تاب وإلّا قتل»(۱) . ولیس هذا ملاکاً جدیداً بل هو وجه آخر للملاک السابق، غیر أنّه عبّر فی السابق بموت المستغاث وحیاته، وهنا بالعجز والقدرة، یقول الصنعانی: «الاستغاثة بالمخلوقین فی ما یقدرون علیه مما لا ینکرها أحد، وإنّما الکلام فی استغاثة القبوریین وغیرهم بأولیائهم، وطلبهم منهم أُموراً لا یقدر علیها إلّا اللّه تعالی، من عافیة المرض وغیرها، وقد قالت أُم سلیم: یا رسول اللّه. خادمک أنس، ادع اللّه له، وقد کان الصحابة یطلبون الدعاء منه وهو حی، وهذا أمبر متفق علی جوازه، والکلام فی طلب القبوریین من الأموات أو من الأحیاء أن یشفوا مرضاهم ویردوا غائبهم، ونحو ذلک من المطالب الّتی لا یقدر علیها إلّا اللّه»(۲) . وعلی أیّ تقدیر، فسواء أکان هذا وجهاً آخر للملاک السابق أم ملاکاً آخر بقرینة عطف الأحیاء علی الأموات فی هذا الکلام، فلیست القدرة والعجز ملاکین للتوحید والشرک، وإنّما هما ملاک الجدوائیة وعدمها. _____

۱ . زیارة القبور والاستنجاد بالمقبور، ص ۱۵۶ ـ والهدایة السنیة، ص ۴۰ .

۲ . کشف الإرتیاب ص ۲۷۲ نقلا عن الصنعانی . (۸۳) ۵- طلب فعل اللّه من غیره

هذا هو الملاک الحقیقی الّذی أو عز إلیه الصنعانی، ویوجد فی کلمات ابن تیمیة وقد عرفت قوله: «مَن یأتی إلی قبر نبی أو صالح ویسأله أن یزیل مرضه ویقضی دینه أو نحو ذلک مما لا یقدر علیه إلّا اللّه تعالی» وهذا مما لا إشکال فیه، غیر أنّ الکلام فی تمییز فعل اللّه عن فعل غیره، أمّا الکبری فمسلمة عند الکل، فقد اتفق الموحدون علی أنّ طلب فعله سبحانه من غیره، ملازم للاعتقاد بألوهیة المسؤول وربوبیته، فاللازم دراسة الصغری، وأنّ فعل اللّه ما هو؟ والترکیز علیه . تری أنّ ابن تیمیة قد سلم أنّ شفاء المریض وقضاء الدین علی وجه الإطلاق من أفعاله سبحانه، مع أنّ الحق أن قسماً منهما یعدّ فعلا للّه سبحانه دون قسم آخر . إنّ إبراء المریض وقضاء الدین ورد الضالة وغیرها بالسنن الطبیعیة أو غیرها علی وجه الاستقلال ومن دون استعانة بأحد هو فعل اللّه سبحانه، فلو طلب نفس ذلک من غیره لا ینفک عن الاعتقاد بالألوهیة والربوبیة . وأمّا لو طلب منه مع الاعتقاد بأنّه مستغاث یقوم بهذه الأُمور عن طریق العلل الطبیعیة أو غیرها، مستمداً من قدرة اللّه وقائماً بإذنه ومشیئته، فلیس هذا فعل اللّه حتّی یکون طلبه من غیره شرکاً. لأنّه سبحانه یقوم بالفعل مستقلا وبلا استمداد. کیف وقد صرح القرآن بأنّ المسیح «یبرىء الأکمه والأبرص بإذنه» مع أنّ ابن تیمیة وأتباعه زعموا أنها من أفعاله سبحانه، قال سبحانه: (وَ تُبْرِئُ الأَکْمَهَ والأَبْرَص بِإذنی وَ إذْ تُخْرِجُ المَوْتی بِإذْنِی)(۱) وقد نسب الذکر الحکیم

---

۱ . سورة المائدة: الآیة ۱۱۰ . (۸۴)

کثیراً من الأمور الخارقة للعادة إلی أنبیائه، فلم تکن هذه النسبة إلّا لأجل أنّهم یقومون بما یقومون، بإذنه سبحانه . وحصیلة الکلام: التوسّل بالأسباب بقید أنّها أسباب ـ سواء أکانت طبیعیة أم غیر طبیعیة ـ لا یلازم الشرک، نعم، السبب ربما یکون سبباً واقعیاً، وأُخری سبباً کاذباً وخاطئاً، والاشتباه فی سببیة السبب لا یستلزم الاعتقاد بألوهیة السبب أو ربوبیته، أو کون الطلب منه طلب فعل اللّه من غیره . ونعید الکلام حتّی یتّضح الحق بأجلی مظاهره فنقول: إنّ التعلّق بالشیء والطلب منه مع الاعتقاد بالسببیة، وأنّ اللّه سبحانه أعطاه المقدرة علی إنجاز المأمول یمتنع أن یتصف بالشرک، لأنّ المفروض أنّ المتوسل إنّما تعلّق به بقید کونه رابطاً وسبباً. نعم یمکن أن یکون المتوسل صائباً فی الاعتقاد بالسببیة أو خاطئاً، ولکن الاشتباه فی الموضوع لایکون دلیلا علی الاعتقاد . وأمّا إذا کان التعلق بالشیء لا بوصف السببیة والرابطیة، بل بما أنّ المطلوب منه، موجود مستقل فی فعله وإیجاده، یقوم بالفعل بنفسه، ویقوم بحاجة المستنجد من صمیم ذاته من دون أن یکون سبباً ورابطاً بین الإنسان وربّه، فهذا یکون ملازماً للإعتقاد بالألوهیة من دون نقاش . کان

اللائق بابن تيمية ونظرائه دراسة فعل اللّه سبحانه وتمييزه عن غيره، حتّى لا يحكموا بضرس قاطع بأنّ الإعانة والإماتة والشفاعة وغيرها على الإطلاق من أفعال اللّه سبحانه، بل الحق أنّ كلاّ من هذه الأفعال يقع على وجهين، فهو على وجه فعله سبحانه، وعلى وجه آخر يصحّ أن يعدّ فعلا للسبب، ولأجل ذلك نرى أنه سبحانه ينسب فعلا واحداً لذاته، وفى الوقت نفسه ينسبه لمخلوق من مخلوقاته، وإليك نماذج من ذلك: ١- يعدّ القرآن - فى بعض آياته - قبض الأرواح فعلا للّه تعالى، ويصرح بأنّ اللّه هو الّذى يتوفّى الأنفس حين موتها إذ يقول مثلا: (٨٥) (اللّهُ يَتَوَفّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)(١) .

بينما تجده ينسب التوفّى فى موضع آخر، إلى غيره، قال: (حَتّى إذا جاءَ أحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتهُ رُسُلُنا)(٢) . ٢- يأمر القرآن - فى سورة الحمد - بالاستعانة باللّه وحده إذ يقول: (وَإيّاكَ نَسْتَعِينُ)(٣)، فى حين نجده فى آية أُخرى يامر بالاستعانة بالصبر والصلاة إذ يقول: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ)(۴) . ٣- يعتبر القرآن الكريم الشفاعة حقاً مختصاً باللّه وحده، إذ يقول: (قُلْ للّهِ الشَّفَاعَةُ جَميعاً)(۵) . بينما يخبرنا - فى آية أُخرى - عن وجود شفعاء غير اللّه كالملائكة ويقول: (وَكَم مِنْ مَلَك فى السّمواتِ لاَ تُغْنى شَفَاعَتُهُم شَيئاً إلاّ مَنْ بَعْدِ أنْ يأذَنَ اللّه)(۶) . ۴- إنّ اللّه هو الكاتب لأعمال عباده إذ يقول: (وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيّتُون)(٧) فى حين أنّ القرآن يعتبر الملائكة كتبة أعمال العباد إذ يقول: (بَلَى وَرُسُلُنا لَدَيْهم يَكْتُبُونَ)(٨) . ۵- قد تضافرت الآيات على أنّه سبحانه هو المدبّر، يقول: (وَمَن يُدَبّرُ الأمرَ فَسَيَقُولُونَ اللّه)(٩) بينما يصرّح القرآن بمدبرية غيره ويقول: _____

١ . سورة الزمر: الآية ۴٢ .

٢ . سورة الأنعام: الآية ۶١ .

٣ . سورة الفاتحة: الآية ۵ .

۴ . سورة البقرة: الآية ۴۵ .

۵ . سورة الزمر: الآية ۴۴ .

۶ . سورة النجم: الآية ٢۶ .

٧ . سورة النساء: الآية ٨١ .

٨ . سورة الزخرف: الآية ٨٠ .

٩ . سورة يونس: الآية ٣١ . (٨۶) (فَالمُدبّراتِ أمراً)(١) .

وهذه نماذج من الآيات مما نسب الفعل إلى اللّه سبحانه، وفى الوقت نفسه نسب إلى عباده، وما المصحح إلاّ ما ذكرنا، وهو أنّ المنسب إليه سبحانه غير المنسوب إلى العباد، وأنّ قيامه سبحانه بالأفعال على وجه الاستقلال من دون أن يعتمد على سبب عال أو قوة عليا، وأمّا قيام غيره فإنما هو بالسببية والرابطية والمأمورية. وفى ضوء هذا تقدر على تمييز فعله سبحانه عن فعل غيره، فليس شفاء المريض وقضاء الدين وردّ الضالة على وجه الإطلاق، من فعله سبحانه، ولا من فعل عباده، بل لكلّ سمة وعلامة، بها يتميز عن غيره. والحد الفاصل بين فعله سبحانه وفعل غيره هو كون الفاعل مستقلا فى الايجاد، ومالكاً لفعله، وكونه غير مستقل فى الفعل وغير مالك له، والأول (أى الّذى يصدر عن الفاعل على وجه الاستقلال) لا يطلب إلاّ منه، والثانى يطلب من غيره. فتلخّص من هذا البحث الضافى أنّ كل خضوع قلبى أو لسانى أو خشوع فعلى لا يتصف بالعبادة إلاّ إذا اعتقد الخاضع بأنّ فى المخضوع له، عنصر الألوهية والربوبية، وأنّه مستقل فى الذات والفعل، أو فى الفعل فقط، وأمّا إذا كان قلب الخاضع خالياً عن الاعتقاد بهذا العنصر، بل كان معتقداً بعبوديته وعدم مالكيته شيئاً، وعدم قيامه بأمر إلاّ بإذنه، وأنّه ليس له دور سوى دور السببية، فطلب أىّ شىء منه لا يتّسم بالعبادة، سواء أطلب منه القيام عن طريق أسباب طبيعية، أم القيام به عن طريق أسباب خارقة للعادة . وسواء اعتقد أنّ فيه سلطة غيبية يقوم بأعمال خارقة للعادة فى ظلها أو لا - وسواء أكان المطلوب منه عاجزاً أم قادراً. وسواء أطلب أُموراً عادية كالسقى، أم أُموراً غير عادية كبرء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى . _____

۱ . سورة النازعات: الآية ۵ . (۸۷)

إذ ليس شيء منها هو العامل المؤثر لإضفاء العبادة على الطلب، وإنّما الموثر هو ما ذكرناه، وبذلك نقدر على القضاء فى الموضوعات التالية الّتى وصفتها الوهابية بأنّهاشرك محرّم وهى: ۱- طلب الشفاعة من الأنبياء والصالحين . ۲- الاستعانة بأولياء اللّه . ۳- طلب شفاء المريض من غير اللّه . ۴- دعوة الصالحين، مثل: يا محمد أغثنى . فإنّ الوهابيين تبعاً لشيخهم فى المنهج يصورون جميع هذه الدعوات شركية أشبه بدعاء عبدة الأصنام . ولكنّك بعدما أحطت خبراً بما ذكرنا سرعان ما ترجع وتقضى بحكمين مختلفين ينشآن من اختلاف عقيدة الداعى وتقول: إنّ كل واحد من هذه الاُمور على وجه، شرك، وعلى وجه آخر ليس بشرك، ولا يعلم أىّ واحد منهما إلاّ أن نقف على عقيدة السائل . فلو كان المدعو فى اعتقاد الداعى هو اللّه العالم أو غيره، لكن باعتقاد أن له سهماً من الألوهية أو الربوبية، فهو عبادة بلا شك، حتّى لو سئل منه السقى بالماء وإيصاد الباب، وما شابههما من الاُمور العادية البسيطة والمتعارفة. وأمّا إذا كان المدعو حسب اعتقاد الداعى عبداً مرزوقاً ومربوباً محتاجاً، قائماً فى ذاته باللّه سبحانه، مستمداً فى فعله منه، ولا يقوم بفعل إلاّ بإقداره واذنه، فلا يكون الطلب منه ولا دعاؤه متسماً بوصف العبادة، بل أقصى ما يمكن أن يقال هو أنّه إذا كان المسؤول والمدعو قادراً على العمل، يكون الطلب مفيداً، وإلاّ يكون لغواً . وبذلك يظهر أنّ الميزان فى توصيف العمل بالشرك والانحراف عن خط التوحيد ليس هو صور الأعمال وظواهرها، بل المراد حقائقها وبواطنها. فما ورد (۸۸)

فى كلمات القوم من تشبيه عمل المسلمين بعمل عبدة الأصنام تشبيه باطل لا يعوّل عليه. بقيت هنا كلمة وهى : ما هو المراد من النهى عن دعوة غير اللّه ؟

إنّ الآفة كل الآفة هى أن الوهابيين كشيخهم ابن تيمية يسردون الآيات والروايات من دون أن يتفكروا فى مفادهما ومواردهما، ولكنهم يأخذون بالظواهر الابتدائية مع تناسى ما حول الآيات من القرائن، فتراهم يعدون دعاء الصالحين والاستغاثة بهم والطلب منهم شركاً، بحجّة أنّه سبحانه عد دعاء المشركين للأصنام والأوثان شركاً وقال: (وَ أنّ المَساجِدَ للّه فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللّه أحَداً)(۱) . (لَهُ دَعوَةُ الحَقّ والّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِه لا يَسْتَجيبونَ لَهُم بِشَىء)(۲) . (إنّ الّذينَ تَدْعونَ مِنْ دُونِ اللّهِ عَبادٌ أمْثَالَكُمْ)(۳) . (وَالّذينَ تَدعُونَ مِنْ دُونِهَ مَا يَملِكُونَ مِن قِمطير)(۴) . (قُلِ ادْعُوا الّذينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرّ عَنْكُم وَلا تَحويلا)(۵) . (أُولئِكَ الّذينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبّهم الوَسيلَةَ...)(۶) . _____

۱ . سورة الجن: الآية ۱۸ .

۲ . سورة الرعد: الآية ۱۴ .

۳ . سورة الأعراف: الآية ۱۹۴ .

۴ . سورة فاطر: الآية ۱۳ .

۵ . سورة الإسراء: الآية ۵۶ .

۶ . سورة الإسراء: الآية ۵۷ . (۸۹) (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللّه مَا لا يَنْفَعُكَ وَ لا يَضُرُّكَ...)(۱) . (وَ مَنْ أضَلّ مَمَّن يَدْعُو مَنْ دُونِ اللّه مَنْ لا يَسْتَجيبُ لَهُ إلى يَومِ القيامَةِ)(۲) .

ترى أنهم يسردون هذه الآيات الواردة فى حقّ المشركين المعتقدين بالوهية الأصنام وربوبيتهم، وكونهم مفوّضاً إليهم القيام بالأفعال والأعمال، من الشفاعة والمغفرة، والشفاء وغيرها. يسردون هذه الآيات بصلافة وقحة فى حق المسلمين الإلهيين الذين لا يعتقدون فى حق الأنبياء والصالحين سوى كونهم عباداً مقربين، تستجاب دعوتهم إذا دعوا، ويقومون بحاجة المستنجد بإذنه سبحانه وقدرته، وإليك محصّلها: ۱- إنّ هذه الآيات وما ضاهاها تختص بالمشركين الذين كانوا يصورون أوثانهم وأصانهم آلهة يملكون كشف الضر والتحويل، وينصرون بلا استئذان منه سبحانه، لأنّهم يملكون هذا الجانب من الأفعال الإلهية، وأين هو من عقيدة المسلم الموحد فى حقّ الأنبياء والصالحين من أنهم عباد مكرمون، لا يعصون اللّه ما أمرهم، وهم بأمره يعملون، وبإذنه يشفعون و...؟ ۲- إنّ المراد من

الـدعاء فی هـذه الآیـات، لیس الـدعوة المجردة بمعنی النـداء بل المراد هو الـدعاء الخاص المرادف للعبادة، ولیس ذلک بغریب، فقد جمع سبحانه فی آیـة واحـدة، بین الـدعوة والعبـادة، وفسّـر الأُولی بالثانیـة نحـو قـوله: (وَقـالَ رَبُّکُم ادْعُونی أسـتَجِب لَکُم إنَّ الّـذینَ یَسْـتَکْبِرُونَ عَنْ عِبَادتی سَیَدْخُلُونَ جَهَنم دَاخرینَ)(۳) . یقول الإمـام زین العابـدین ـ علیه السَّلام ـ : «وسـمیت دعـاءک عبـادة، وترکه استکباراً وتوعدت علی ترکه دخول جهنم داخرین»(۴) . _____

۱ . سورة یونس: الآیة ۱۰۶ .

۲ . سورة الاحقاف: الآیة ۵ .

۳ . سورة غافر: الآیة ۶۰ .

۴ . الصحیفة السجادیة، الدعاء ۴۹ . (۹۰)

وما ورد فی الحـدیث: «الـدعاء مـخّ العبادة» فالمراد هو هذا القسم من الدعاء، أی الدعاء المقرون بالوهیة المدعو بنحو من الأنحاء . ۳- إنّ المنهی عنه هو جعل المـدعو فی مرتبـة اللّه الخالق، کما یعرب عنه قوله: (وَ أنَّ المَسَاجِـدَ للّه فَلا تَـدْعُوا مَعَ اللّه أحَداً)(۱) وکان هو أساس عبادة المشـرکین، قال سبحانه: (و جَعلوا للّهِ أنداداً لِیُضلُّوا عَنْ سبیله)(۲) وقال: (إذْ نُسَوِّیکُم بِرَبّ العَالمین)(۳) وأین هذه الآیات من الموحدین الذین لا یرون مع اللّه شیئاً، بل یرون الکل دونه لکونهم مربوبین؟. _____

۱ . سورة الجن: الآیة ۱۸ .

۲ . سورة إبراهیم: الآیة ۳۰ .

۳ . سورة الشعراء: الآیة ۹۸ .

البدعة فی الدین وما هو حدها

البدعة فی الدین وما هو حدها

«البدعـة» هی إدخال ما لیس من الدین فی الدین، ولا شک أنّ البدعة محرّمة بنص الکتاب العزیز، قال سـبحانه: (اللّهُ أذِنَ لَکُمْ أم عَلی اللّهِ تَفْتَرُونَ)(۱) دلّت الآیـة علی أنّ کـل مـا ینسب إلی اللّه سـبحانه بلا إذن منه فهو أمر محرّم، ومن أدخل فی الـدین ما لیس منه فقد افتری علی اللّه، ولأجل ذلک نری أنّه سـبحانه یعـد من افتری علی اللّه أظلم الناس ;قال سـبحانه: (فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَی عَلَی اللّهِ کَذِباً أو کَـذَّبَ بآیاتِهِ إنّه لا یُفْلِـحُ الْمُجْرِمُونَ)(۲) . نری أنّه لمـا اقترح المشـرکون علی النبی أن یـأتی بقرآن غیر هـذا أو یبـدله إلی الآـخر، تحاشـی عن ذلک وقال: (قُلْ مَا یَکُونُ لی أنْ أُبَـدِّلَهُ مَنْ تَلْقَاءِ نَفْسـی إنْ أتَّبِعُ إلاّ مَا یُوحی إلَیَّ إنّی أخَافُ إنْ عَصَـیْتُ رَبّی عَـذابَ یَوم عَظیم (۳) . فالمبدع فی الشریعة، مبدل لها، وسوف یحیق به عذاب ألیم . هل التقالید والآداب من البدع؟

قـد تعرّفت أنّ مقوّم البدعـة هو أن یقوم الإنسان بفعل ما، باسم الـدین والشـریعة، وباعتقاد أنّه جزء منها، وأمّا إذا قام بأمر مباح فی حد نفسه، ومن _____

۱ . سورة یونس: الآیة ۵۹ .

۲ . سورة یونس: الآیة ۱۷ .

۳ . سورة یونس: الآیة ۱۵ . (۹۲)

دون أن ینطبق علیه أحـد العنـاوین المحرمـة کشـرب الخمر واقتراف المیسـر، لاـ بمـا انّه من الـدین، بـل بمـا أنّه من العـادات والتقالید المتعارفة فی حیاة الشـعب، من دون أن یمت إلی الدین بصـلة، مثلا إذا احتفل شـعب بیوم استقلالهم، وخروجهم عن ذل الاستعباد، أو إذا احتفلوا فی أول الربیع بمـا أنه أول السـنة، وترددوا فی أندیـة الأحبّـة والإـخوان، فلاـ یکون ذلـک بدعـة، وذلـک لأنّ المحتفلین لا یقومون به بمـا أنه من الـدین، وأنّ الشـارع أمر بـذلک، وإنّمـا یقومون به باسم التقالیـد والعادات الّتی جرت علیها الآباء والأجـداد، أو

ابتكرها الجيل الحاضر تشييداً لعزائم الشعب، فى طريق حفظ استقلالهم، والخروج عن سيطرة القوى الكبرى عليهم، مع كون العمل غير محرم فى ذاته، بل هو اجتماع وإنشاد قصائد، وإلقاء خطب وشرب شاى، ولقاء إخوان، إلى غير ذلك . لقد مرّت على الشعب الجزائرى أعوام عديدة كان يسيطر عليهم فيها الإستعمار الفرنسى، ينهب أموالهم وثرواتهم الطائلة، ويدمر ثقافتهم الإسلامية وهو يتهم الدينية، ثم إنّ اللّه سبحانه منحهم ـ فى ظل عزائمهم القوية واستعدادهم لبذل النفس والنفيس فى سبيل هدفهم المنشود ـ الإستقلال والحرية، والرجوع إلى هويتهم الإسلامية، فلو عزم هذا الشعب على أن يقيم فى ذلك اليوم فى كل سنة احتفالا ـ عظيماً غير مقترن باقتراف المنكرات وارتكاب المعاصى، لا يلامون ولا يذمّون على فعلهم هذا، بل يمدحهم العقلاء بفطرتهم السليمة، ولا يدور فى خلد أحد أنّهم ارتكبوا بدعة فى الدين، وذلك لأنّهم لم يقوموا بما قاموا به، باسم الدين والشريعة، وأنّ النبى أمر بذلك، بل قاموا بذلك باسم حفظ المصالح الشعبية وتشييد عزائمهم الّذى هو فى حد ذاته حلال بلا ريب: فمن حكم بحرمة هذه التقاليد والآداب و الرسوم، سواء أكانت لها جذور فى الأعوام السابقة أم كانت من محدثات العصر، فقد ارتكب الخطأ فى تحديد البدعة، ولم يميّزها عن غيرها من المراسم والآداب . ولو صحّ تقسيم البدعة إلى الحسنة والسيئة، فإنما يصحّ فى هذا القسم، أى التقاليد والآداب العرفية، فقد يتصف بالحسن وأُخرى بالقبح، وأمّا (۹۳)

البدعة بمعنى إدخال ما ليس من الدين فى الدين فهو قبيح مطلقاً، لا ينقسم وليس له إلاّ قسم واحد، وهو أنّه قبيح محرّم على الإطلاق . هذا ابن تيمية باذر هذه البذور الخبيثة والشكوك الساقطة يصرح بأنّ الأصل فى العادات هو الحلية، إلاّ ما حظره اللّه، قال: «فالأصل فى العبادات لا يشرع منها إلاّ ما شرعه اللّه، والأصل فى العادات لا يحظر منها إلاّ ما حظره اللّه»(۱) . وبذلك يعلم أنّ تضييق الأمر والتقاليد الّتى لم يرد فيها حظر من الشرع، لا ـ يصدر إلاّ ـ من الجاهل، فإنّ الشريعة الإسلامية سمحة سهلة(۲) لم تتدخل فى عادات الناس وتقاليدهم، بل خوّلتها إلى أنفسهم حتّى يختار كل شعب ما يناسب بيئته و ظروفه وملابساته، وهذا هو الأساس، لكون الإسلام خاتم الشرائع، وكتابه خاتم الكتب، ونبيّه خاتم الأنبياء ولو كان محدداً للتقاليد والآداب، والرسوم والمراسم لوقع التصادم بينه وبين حياة الشعوب وحضاراتها المتكاملة مع مر الحقب والأزمان . هل الاحتفال بالمواليد من التقاليد أو من صميم الدين ؟

البحث المهم فى المقام هو تعيين حكم هذا المصداق، وأن الاحتفال بميلاد النبى هل هو كالاحتفال بمواليد سائر الأفراد كالآباء والأجداد أو الأولاد الّذى جرى عليه ديدن العقلاء فى العالم؟ أو أن الاحتفال به يعد من الأُمور الدينية؟ لا اظن أنّ من لمس روح الاحتفالات والمهرجانات الّتى تقام بين المسلمين يوم الميلاد وغيره أن ينسبها إلى التقاليد والرسوم والآداب القومية، فإذن ذلك شىء لا يلائم روح الاحتفالات وأغراض المقيمين لها، فلا شك أنهم يقومون ــــــــــــــــــــ

۱ . المجموع من فتاوى ابن تيمية، ج ۱۴ ص ۱۹۶ .

۲ . صحيح البخارى ج ۱ كتاب الإيمان باب «الدين يسر» ص ۱۲ روى عن النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ : «أحب الدين إلى اللّه الحنيفية السمحة» . (۹۴)

به باسم الدين، ويرجون ثواباً جزيلا فى عقباهم، فالإصرار على أنّه من الآداب والرسوم خطأ، لا يتفوه به من شاهدها وعاينها وعاشر المقيمين لها، فيجب على المسوغ والمانع البحث فى أمر آخر، وهو أنه هل لهذا الأمر أصل فى الشريعة على الوجه الكلى حتّى يكون الإحتفال تجسيداً له فى هذه الظروف، أو ليس له اصل فى الشريعة حتّى يكون بدعة؟ والأسف كله أن المانعين والمسوغين لم يركزوا على هذا المهم إلاّ القليل منهم(۱) فعلى من يحاول حسم مادة الخلاف تبيين تلك النقطة الحساسة، وترك ما يثار حوله من الجدال والحوار . فنقول: إنّ كون شىء أمراً جائزاً فى الدين على قسمين: تارة يقع النص عليه بشخصه، كالاحتفال فى عيدى الفطر والأضحى، أوالاجتماع فى عرفة ومنى، فلا شك أنّ هذا الاجتماع والاحتفال أمر به الشارع بشخصه، فخرج به عن كونه بدعة. وأُخرى يقع النص عليه على الوجه الكلى، ويترك انتخاب أساليبه وأشكاله وألوانه إلى الناس حسب الظروف ورعاية المقتضيات، وإليك بعض الأمثلة :

۱- ندب الشارع إلى تعليم الأولاد ومكافحة الأُمّية، ولا شك أنّ لهذا الأمر الكلى أشكالا أو ألواناً حسب تبدل الحضارات وتكاملها،

فلو كان التعليم والكتابة فى الظروف السابقة متحققة بالكتابة بالقصب والحبر، وجلوس المتعلم أمام المعلم على الأرض فى الكتاتيب، فقد تطورت كيفية التعليم من هذه الحالة البسيطة إلى حالة تستخدم فيها الأجهزة المتطورة، حيث أصبح الناس يتعلمون عن طريق الإذاعة والتلفاز، و (الكمبيوتر)، والأشرطة، إلى غير ذلك من وسائل التعليم وأجهزة الإعلام، سواء أكان ما يذيعه تعليمياً أم تبليغياً، فالشارع أمر _____

۱ . ولقد أعطى العلامة الحجة السيد جعفر مرتضى فى كتابه القيم «المواسم والمراسم» للتحقيق فى هذا المجال حقه. شكر اللّه مساعيه . (۹۵)

بالتعليم والتعلم، وخوّل اتخاذ الأساليب إلى الظروف والمقتضيات، ولو كان مصراً على لون خاص من كيفية التعليم، لفشل فى طريق هدفه المقدس، لأن الظروف ربما لا تناسب الأداة الخاصة والكيفية المختصة الّتى يعينها ويحددها. ۲- ندب الإسلام إلى الإحسان إلى اليتامى، والتحنن عليهم وحفظ أموالهم، وتربيتهم، غير أن هذا الأمر الكلى له ألوان وأساليب مختلفة، تجارى مقتضيات، العصر وإمكانياته، فاللازم علينا هو امتثال ما ندب إليه الشارع، وأما كيفية الإحسان فقد خولت إلى أوليائهم حسب إمكانيات الظروف ومقتضياتها، فمن أصر على أن الشارع بين خصوصيات الامتثال ومشخصات إطاعة ذلك الأمر، فقد جهل الإسلام ولم يعرف أساس كونه خاتماً، إذ لا يكون خاتماً إلّا إذا أخذ باللب (الإحسان إلى الأيتام) وترك القشر واللباس إلى الناس ومقتضيات الظروف . ۳- إنّ الصحابة ـ حسب رواية أهل السنة ـ قاموا بجمع آيات القرآن المتفرقة فى مصحف واحد، ولم يصف أحد منهم هذا العمل بدعة، وما هذا إلّا لأن عملهم كان تطبيقاً لقوله سبحانه: (إنّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذّكْرَ وإنّا لَهُ لَحَافِظُونَ)(۱)، فعملهم فى الواقع كان تطبيقاً عملياً لنصوص شرعية من الكتاب والسنة، وعلى ذلك جرى المسلمون فى مجال الاهتمام بالقرآن من كتابته وتنقيطه، وإعراب كلمه وجمله، وعدّ آياته وتمييزها بالنقاط الحمر، وأخيراً طباعته ونشره، وتقدير حفاظه وتكريمهم والاحتفال بهم، إلى غير ذلك من الأُمور الّتى كلها دعم لحفظ القرآن وتثبيته وبقائه، وإن لم يفعله رسول اللّه ولا الصحابة ولا التابعون، إذ يكفى وجود أصل له فى الأدلة . ۴- الدفاع عن بيضة الإسلام وحفظ استقلاله وصيانة حدوده من الأعداء أصل ثابت فى القرآن الكريم، قال سبحانه: (وَأعدّوا لَهُم ما اسْتَطَعْتُم مَنْ قُوّة)(۲)، وأما كيفية الدفاع ونوع السلاح ولزوم الخدمة العكسرية _____

۱ . سورة الحجر: الآية ۹ .

۲ . سورة الأنفال: الآية ۶۰ . (۹۶)

فالكل تطبيق لهذا المبدأ وتجسيد لهذا الأصل، فما ربما يرمى التجنيد العمومى إلى أنّه بدعة، غفلة عن حقيقة الحال، وإنّ الإسلام يتبنّى الأصل، ويترك الصور والألوان والأشكال إلى مقتضيات الظروف . هذا هو الأصل الّذى به نميز «البدعة» عن «التطبيق»، و«الابتداع» عن «الاتّباع» وإليك بعض الكلمات من المخالفين للذكريات وغيرهم حول ما هو بدعة وما ليس ببدعة، والكل يؤكد ما قلناه: قال ابن رجب: قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: «وإيّاكم ومحدثات الأُمور فإنّ كل بدعة ضلالة» تحذير للأُمة من اتّباع الأُمور المحدثة المبتدعة، وأكد ذلك بقوله: «كل بدعة ضلالة» والمراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له فى الشريعة يدل عليه، وأمّا ما له أصل فليس ببدعة، وإن كان بدعة لغةً، وفى صحيح مسلم: «عن جابر رضى اللّه عنه أن النبى كان يقول فى خطبته: «إن خير الحديث كتاب اللّه، وخير الهدى هدى محمد، وشرّ الأُمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة...» وقوله: «كل بدعة ضلالة» من جوامع الكلم لا يخرج عنه شىء، وهو أصل عظيم من أُصول الدين، وهو شبيه بقوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ» فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين برىء منه(۱). وقال ابن حجر فى شرح قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: «إنّ أحسن الحديث كتاب اللّه» والمحدثات ـ بفتح الدال ـ جمع محدثة، والمراد ما أُحدث وليس له اصل فى الشرع، ويسمى فى عرف الشرع بدعة، وما كان له اصل يدل عليه الشرع، فليس ببدعة فالبدعة فى عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة، فإنّ كل شىء أُحدث على غير مثال يسمى بدعة، سواء أكان محموداً أم مذموماً، وكذا القول فى المحدثة(۲) .

۱ . جوامع العلوم والحکم ص ۲۳۳ .

۲ . فتح الباری ج ۱۳ ص ۲۵۳ . (۹۷)

ومن راجع القرآن والسنة یقف علی أصل رصین فی الإسلام فی حق النبی الأکرم، وهو لزوم تکریم النبی وتعظیمه حیاً ومیتاً، وهو أصل لا یمکن لمسلم إنکاره، وإذا ثبت ذلک الاصل یقع الکلام فی أن هذه الاحتفالات هل هی تجسید لهذا الأصل أو لا؟ فیلزم البحث فی موردین: الأول: لزوم تکریم النبی حیاً ومیتاً

من أمعن فی القرآن الکریم یقف علی أنه یحثّ المسلمین علی تکریم النبی وتعظیمه، وأنه لا یصحّ للمسلمین أن یعاملوه معاملة الإنسان الاعتیادی، وإلیک ما یمکن استنباط هذا الأصل منه . ۱- قال سبحانه: (الّذینَ آمَنُوا بِهِ وَعَزّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتّبَعُوا النُّورَ الّذی أُنْزِلَ مَعَهُ أُلئِکَ هُمُ المُفْلِحُونَ)(۱) . إن الکلمات الواردة فی هذه الآیة هی: ۱- «آمنوا به» ۲- «عزروه» ۳- «نصروه» ۴- «اتبعوا النور الّذی أُنزل معه» . فالآیة تدعو إلی الإیمان بالنبی وتعزیره ونصرته واتّباع النور الّذی أُنزل معه، والمراد من التعزیر، لیس مطلق النصرة، لأنه ذکره بقوله «نصروه» ولا حاجة لتکراره ;ولا مطلق منع الأعداء عنه، بل المراد هو توقیره وتعظیمه(۲)، أو نصرته مع التعظیم (۳) . وعلی کل تقدیر فالمفهوم من الآیة هو تعزیر النبی واحترامه، ومن المعلوم أنّ احترامه لیس إلاّ لأجل کونه سراجاً منیراً للأُمة وهادیاً إلی الشریعة ودینه سبحانه . ۲- أشار سبحانه إلی مکانته المرقومه ولزوم توقیره وتکریمه بقوله: (یَا أَیُّها الّذینَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النّبی وَ لاَ تَجْهَرُوا لَهُ بَالْقَولِ _____

۱ . سورة الأعراف: الآیة ۱۵۷ .

۲ . تفسیر الجلالین ص ۲۲۵ مجمع البیان ج ۲ ص ۴۸۸ .

۳ . المیزان ج ۸ ص ۲۹۶، مجمع البحرین مادة «عزر» . (۹۸) کَجَهْرِ بَعْضِکُم لِبَعْض أنْ تَحْبَطَ أعْمَالُکُم وَ أنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ)(۱)، فجعل رفع الصوت فوق صوته والجهر له کجهر بعضکم بعضاً، سبباً لحبط الأعمال فما أعظم شأنه وأجلّ قدره .

۳- وقال سبحانه: (لا تَجعَلُوا دُعَاءَ الرّسُولِ بَیْنَکُمْ کَدُعاءِ بَعْضِکُم بَعْضاً)(۲) . ۴- وأشار إلی حرمة التسرّع فی إبداء الرأی بقوله: (یَا أَیُّها الّذینَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَیْنَ یَدَیِ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللّهَ إنّ اللّهَ سَمِیعٌ عَلِیمٌ)(۳) . ۵- إنّه سبحانه قرن طاعة النبی بطاعته وقال: (أَطِیعُوا اللّهَ وَ أَطِیعُوا الرّسُولَ)(۴)، وجعل طاعته طاعة نفسه وقال: (مَنْ یُطِعِ الرّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّه)(۵)، وجعل اتّباع الرسول آیة لحب اللّه سبحانه، وقال: (قُلْ إنْ کُنْتُمْ تُحبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونی یُحْبِبْکُمُ اللّه)(۶)، وندّد بمن قدّم حبّ الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشیرة والأموال والتجارة والمساکن علی حب الرسول، وقال: (قُلْ إنْ کَانَ آبَاؤُکُم وَ أَبنَاؤُکُم وَ إخْوانُکُم وَ أَزواجُکُم وَعَشیرَتُکُم وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ کَسَادَهَا وَمَساکِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبّ إلَیْکُم مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ أبناؤکُم وَجِهَاد فِی سَبیلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّی یَأتِیَ اللّهُ بِأَمْرِهِ)(۷). وروی أنس أنَّ رسول اللّه قال: «لا یؤمن أحدکم حتّی أکون أحب إلیه من ولده ووالده والناس أجمعین»، وروی أنّ رسول اللّه قال: «ثلاث من کن فیه وجد بهن الإیمان، أن یکون اللّه ورسوله أحب إلیه مما سواهما...»(۸) . _____

۱ . سورة الحجرات: الآیة ۲ .

۲ . سورة النور: الآیة ۶۳ .

۳ . سورة الحجرات: الآیة ۱ .

۴ . سورة النساء: الآیة ۵۹ .

۵ . سورة النساء: الآیة ۸۰ .

۶ . سورة آل عمران: الآیة ۳۱ .

۷ . سورة التوبة: الآیة ۲۴ .

۸ . مسند أحمد، مما أسند أنس بن مالك ج ۳ ص ۱۰۳ و ۱۷۴ و ۲۳۰، انظر صحیح البخاری ج ۱ ص ۸ «باب حب الرسول من الإیمان» والروایات حول حب النبی وعترته کثیرة، لاحظ جامع الأصول، وکنز العمال. (۹۹)

۶- إنّه سبحانه أمر بالصلاة والتسلیم علی النبی وقال: (إِنَّ اللّهَ وَ مَلائِکَتَهُ یُصلُّونَ عَلَی النبِیّ یَا أَیُّها الّذینَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَیهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِیماً)(۱) . وروی أنّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ قال: «البخیل من ذُکِرتُ عنده فلم یصلّ علیّ» وقال: «من صلّی علیّ واحدة صلّی اللّه علیه بها عشراً»(۲) . والصلاة علیه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أحد أرکان الصلاة، من ترکها عامداً بطلت صلاته، والدعاء له بالوسیلة والفضیلة والمقام المحمود عقیب الأذان أمر محمود، وفیه فضل کبیر . ۷- أشار إلی کیفیة معاشرة المؤمنین معه ومع أزواجه بعد وفاته، فقال: (یَا أَیُّهَا الّذِینَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُیُوتَ النّبِیَّ إِلاّ أن یُؤْذَنَ لَکُمْ إلی طَعَام غَیْرَ نَاظِرِینَ إناهُ، ولَکِن إذَا دُعِیتُم فَادْخُلُوا فَإذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا، وَ لَا مُستَأنِسِینَ لِحَدیث إِنَّ ذَلِکُم کَانَ یُؤذِی النَّبِیّ فَیَسْتَحِی مِنکُم وَاللّهُ لا وَلَا یَسْتَحیِی مِنَ الحَقّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنّ مَتاعاً فَاسْأَلُوهُنّ مِنْ وَراء حِجَاب ذَلِکُم أَطْهَرُ لِقُلُوبِکُم وَقُلُوبِهِنّ وَمَا کَانَ لَکُم أنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّه وَلَا تَنْکِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إنّ ذَلِکُم کَانَ عِنْدَ اللّه عَظیماً)(۳) .

ومن وقف علی خصائص النبی الّتی ذکرها الفقهاء فی الکتب الفقهیة، یقف علی مکانته عند اللّه، وعظمته عند المسلمین، ولزوم توقیره وتکبیره وتعظیمه. هذه الآیات والأحادیث تفید بأنه سبحانه فرض محبة النبی ومودته علی _____

۱ . سورة الأحزاب: الآیة ۵۶ .

۲ . مسند أحمد، مما أسند إلی علی بن الحسین ج ۱ ص ۲۰۱، والدر المنثور ج ۵ ص ۲۱۷ فی تفسیر قوله: «إن اللّه وملائکته»، ورواه الترمذی فی ج ۵، فی کتاب الدعوات .

۳ . سورة الأحزاب: الآیة ۵۳ . (۱۰۰)

المؤمنین، وأنّ المؤمن لا یتم له إیمان حتّی یکون ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أحب إلیه من نفسه وماله وأهله، ومن شک فی ذلک فهو شاک فی البدیهیات الدینیة. وهنا یقع الکلام فی المقام الثانی، وهو ما یتحقق به التکریم، وما یمکن الاستقلال به علی أنه صادق فی حبّ النبی، وإلیک البحث فیه. الثانی: الاحتفال تجسید لتکریم النبی

أذا دلّت الآیات والأحادیث علی لزوم تکریم النبی وتعظیمه أولا، وحبه ومودته ثانیاً، فعندئذ یقع الکلام: فیما یتحقق به ذلک الأصل، وتتجسم به هذه الفریضة . لا شک أنّ لتکریم الإنسان وتعظیمه طرقاً مختلفة مألوفة للناس، ولکن صاحب الشخصیة العالمیة إذا أراد الشعب المسلم تکریمه وتعظیمه، فالاحتفال بولادته وإقامة العزاء یوم رحلته، تکریم وتعظیم له، وتجسید لذلک الأصل الّذی نطق به الکتاب والسنة، ولیس ذلک أمراً خفیاً علی الناس فإنّ العقلاء بفطرتهم یحتفلون بذکری شخصیاتهم ولادة ووفاة، تکریماً واحتراماً لهم، والفرق بین تکریم النبی وتکریم تلک الشخصیات أنّ تکریمهم من قبیل التقالید والآداب الشعبیة، فلو لم یرد حظر منه کفی فی جواز ذلک عدم الحظر . وأمّا تکریم النبی الأکرم فله أصل فی الشریعة الغرّاء، وله تجلیات فی الظروف المختلفة، فلو احتفل المؤمنون فی کل دورة وکورة بمیلاد النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ من دون اقتراف المعاصی والمنکرات، وأقاموا احتفالا ـ حاشداً یبهر العیون ویحیر العقول، فقام الخطباء فیه بإلقاء الکلم حول فضائله ومناقبه، وما نزل فی حقه من الآیات والآثار، وما ضحّی بنفسه ونفیسه فی طریق هدایة أُمته، وقام الشعراء بإنشاء القصائد الّتی تُستلهم من الکتاب والسنة خالیة عن الغلو والإفراط، ثم قاموا بإطعام الإخوان و المحبین لرسول اللّه من مال اللّه الّذی جعل الناس فیه مستخلِفین،... فلا ـ شک أنهم جسدوا ذلک الأصل الرصین (تکریم النبی وتعظیمه) بعملهم المشرق، کما أظهروا بذلک محبتهم وولاءهم لصاحب الرسالة. (۱۰۱)

وعند ذلک کیف یمکن أن توصف تلکم الاحتفالات الباهرة بالبدعة؟ أولیست البدعة هی إدخال ما لیس من الدین فی الدین؟ وهل المسلمون أدخلوا فی الدین ما لیس منه؟ أولیس تکریمه وتوقیره هو الأصل الرصین؟ أوَلیس الإحتفال الباهر تحقیقاً عملیاً لذلک المبدأ عند جمیع العقلاء، فأین البدعة یاتری؟ أوَلیس القرآن والسنة ندبا المسلمین إلی حب النبی، وهل الحب یجب أن یبقی کامناً

فى مكـامن النفس، ولو تظاهر به الإنسان كان عاصـياً، أو أن المحبـة والمودة لها مظاهر ومجال، وإظهار الفرح يوم ولادته والحزن يوم رحلته دليل على الحب الأصيل والمودة المكنونة فى القلب . ولسنا ننكر أن لإظهار المودة وتوقيره طرقاً أُخرى، منها التمسك بسة قولا وعملاـ وتعلماً وتعليماً وإيثاراً، أو التأسّى بأخلاقه وآدابه، ونشر سنته وأحاديثه، إلى غير ذلك مما يمكن أن يكون مظاهر للحب، ـ ولكن أيها الأخ العزيز ـ لا ينحصر إظهار الحب والتكريم فى هـذه الأُمور، فإنّها من الوظائف الدينية الّتى يجب على المسلم القيام بها فى كـل يوم وليلـة، وهى فى الوقت نفسه مظاهر لتوقير النبى وتكريمه وإظهار المودة والحب له، ولكن الاحتفال بمولـده وإقامـة العزاء فى يوم رحلته أيضـاً مظهر آخر للتوقير والتكريم وإظهـار المودة، فلماذا نؤمن ببعض ونكفر ببعض؟ . فكيف تقام الاحتفالات فى نفس المملكـة السـعودية لأبنـاء عائلتهـا وتغفـل عن النبى الأكرم وأهل بيته، وإن كنت فى شك من ذلك فانظر إلى العـدد (۱۰۲) من مجلة «الفيصـل» الّتى تصـدر فى طباعـة أنيقـة جـداً فى السـعودية، فهو يحتوى على تقرير مبسوط عن الاحتفال الكبير الّـذى أقامته السـلطات السـعودية بمناسـبة عودة «الأمير سـلطان» من الرحلـة الفضائيـة فى مركبة «ديسـكفرى»، ويحتوى هذا العدد على صور كثيرة تحكى عن حجم المبالغ الطائلة الّتى صـرفت فى ذلك الاحتفال، وقد نشرت الكلمات والقصائد الّتى أُلقيت فيه، وقرىء فيها المدح المفرط والثناء المسـرف على آل سـعود عامة والأمير العائد من الرحلة الفضائية خاصة... ألا يسـتحق رسول الإسـلام أن تخلَّد ذكرى مولده الشـريف، وتنشر مناقبه (۱۰۲)

وفضائله وإنجازاته العظيمـة، وعطاؤه الزاخر، وخـدماته الجليلة، وجهاده وجهوده وغير ذلك، حتّى يعرف الصديق والعدو ما أسداه هذا النبى العظيم من خدمة، وما قدمه من عطاء، وما تحمّل من عناء وعذاب فى سبيل هداية البشر، وهل التكريم إلّا الاحتفال به، ونشر قِيَمهِ الفاضـلة، والحث على الاقتـداء به والأخـذ بهـديه، والمحافظـة على آثـاره؟ ما هـذا التناقض بين القول والعمل؟ تقيمون الاحتفال لأمير البلـد، وتحرّمون الاحتفال للنبى الأكرم؟ . فلو أُقيم احتفال فى أىّ بلـد من بلاد اللّه تبارك وتعالى، سواء أكان فى ميلاد النبى أم غيره، وقرأ المقرىء الآيـات النازلـة فى حقه، أو تليت قصـيدة حسـان بن ثابت الّـذى قال رسول اللّه بأنّ لسانه على المشـركين أشـد وقعاً من السيوف على رقابهم، كقوله فى قصيدة رثى بها النبى بعد رحلته، يقول فيها: بطيبة رسمٌ للرسول ومعهد * منير وقد تعفو الرسوم وتهمد يدل على الرّحمن من يقتدى به * وينقذ من هول الخزايا ويرشد إمام لهم يهديهم الحق جاهداً * معلِّم صدق إن يطيعوه يسعدوا(۱) أو ألقى فيها شـعر كعب بن زهير الّـذى يمـدح به النبى ويقول: بانت سـعاد فقلبى اليوم متبول * متّيم إثرها لم يُفْد مكبول نُبّئتُ أنّ رسول اللّه أوعـدنى * والعفـو عنـد رسـول اللّه مـأمول مهلاـ هـداك الّـذى أعطـاك نافلـة القرآن فيهـا مواعيـظ و تفصـيل * إن الرسول لَنورٌ يسـتضاءيه مهنّدٌ من سيوف اللّه مسلول(۲) أو مـا أنشأه عبـداللّه بن رواحه ويقول فيه: خلّوا بنى الكفار عن سبيله * خلّوا فكل الخير فى رسـوله يـارب إنّى مـؤمن بِقيلِه * أعرف حق اللّه فى قبوله(۳) أو قرأ فيهـا قصـيدة البوصـيرى الّتى أنشأها عن إيمان وإخلاص بالرسول لغاية التكريم والاحترام مستهلها:

أمِن تذكُّر جيران بذى سَلَم * مَزجْتَ دمعاً جرى من مقلة بدم _____

۱ . السيرة النبوية لابن هشام ج ۲ ص ۶۶۶، والقصيدة .

۲ . السيرة النبوية لابن هشام ج ۲ ص ۵۱۳ .

۳ . السيرة النبوية لابن هشام ج ۲ ص ۳۷۱ . (۱۰۳)

أم هبت الريـح من تلقاء كاظمةً * وأومض البرق فى الظلماء من أضم(۱) فهل يتصور أن يعـد ذلك أمراً محرماً وبدعة؟ وكأنّ الرسول يجب أن يكون خامل الـذكر. ولو هتف به هاتف بالتكريم يكون آثماً، يجب أن يجلد أو يقتل لأجل البدعة أو الشـرك: سـبحانك يا رب مـا أعظم جرأتهم على الحـط من كرامـة الرسول وعظمته!! نرى أنه سـبحانه خَلَّدَ ذكره ورفع مقامه بمنْحِهِ النبوة وقال: (وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ)(۲) فلنفترض أن الآية: «رفعنا لك ذكرك» تشير إلى منح منصب النبوة، ومقام الرسالة له، ولكن يستفاد من الآية أن رفع النبى أمر مطلوب للّه سبحانه، وأن تتويجه بالنبوة سبب لـذلك الرفع المحمود، فالاحتفال بمولـده ليس إلّا تجسيداً لذلك الرفع المطلوب،

وليس لقائل أن يقول: إنّ المطلوب هو رفعه بمنح النبوة له فقط، فلا يسوغ ترفيعه وتخليد ذكراه فى المجتمع عن طريق آخر، فإنّ ذلك يأباه الذوق السليم . هذا هو معنى البدعة، وهذا تحديدها، فاتخذه مقياساً تميز به المبتدع عن المتشرع، والبدعة عن السنة، وبذلك تقف على أن أكثر ما يصفونه بالبدعة له أصل فى القرآن والسنة، ولأجل أن يكون البحث مترامى الأطراف نردفه بالبحث عن التبرك، حتّى يكون الوقوف على حقيقته معيناً على حل عقدهم ومشاكلهم، وسيوافيك البحث مستقلا عن الاحتفال بالمواليد .

---

١ . جواهر الأدب، أحمد الهاشمى، ص ۴۶۷ والقصيدة لشرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى صاحب «البردة» و «الهمزية» ولهذه القصيدة شروح.

٢ . سورة الإنشراح: الآية ۴ . (١٠۴) (١٠۵)

التبرك بآثار النبى الأكرم والصالحين

التبرك بآثار النبى الأكرم والصالحين

جرت سيرة الموحدين على التبرّك بآثار الأنبياء والصالحين، وجرت سيرة المسلمين على التبرّك بآثار النبى الأكرم، والتبرك بالآثار إمّا تطبيقاً لمبدأ الحب والمودة لرسول اللّه، وإمّا طلباً لأثر معنوى وضعه اللّه سبحانه فى الشىء المتبرّك به، كما فى التبرك بماء زمزم، وماء ميزاب الكعبة وكسوتها، وماء الفرات وسؤر المؤمن، إلى غير ذلك مما وردت الأحاديث فى التبرك به. فسواء أكان تجسيداً للمحبة والمودة كتقبيل الأضرحة والمنبر والأبواب، أم كان لطلب الآثار الخاصة الّتى وردت النصوص فيها، فلا يمت ذلك إلى الشرك فى العبادة بصلة، وقد عرفت أن العنصر المقوّم لتحقق مبدأ الشرك هو الاعتقاد بـ«الألوهية» والربوبية، أو كون المدعو مبدأً لأفعال إلهية، وأمّا إظهار المودة والمحبة لآثار المحبوب على حد قول الشاعر : أمرّ على الديار ديار ليلى * أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا وما حب الديار شغفن قلبى * ولكن حب من سكن الديارا أو طلب الشفاء من الأسباب الّتى ورد الحديث بأن فيها الشفاء، فليس عبادة ;فإنّ الشافى هو اللّه سبحانه، وماء زمزم وماء ميزاب الكعبة أسباب له، فهذه الأسباب المعنوية كالأدوية الكيمياوية الّتى عمّت العالم، يأوى إليها كل مريض من موحد ومشرك، غير أنّ الموحّد يستعملها بما أنها السبب، والشافى هو اللّه سبحانه، وهو الّذى أعطى السببية لها، ولو أراد لسلبها عنها . (١٠۶)

فالمهم فى المقام دراسة ما ورد فى الشرع حول التبرك بآثار الأنبياء والأولياء، وتبيين موضع الصحابة من آثار الرسول الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ وقبل أن نسرد بعض ما وقفنا عليه، نشير إلى كتابين كريمين فى ذلك المجال: ١- «تبرك الصحابة» للشيخ محمد طاهر مكى، من علماء الحرم الشريف، طبع مكة المكرمة . ٢- «التبرك» تأليف الأستاذ الفذ الشيخ على الأحمدى، وقد استقصى فيه جل ما ورد فى التبرك، ولا اظن أن من قرأ هذين الكتابين يبقى له الشك فى جوازه، إن كان ممن يستمع القول فيتّبع أحسنه، وإلّا يزيده إلّا خساراً. التبرّك فى القرآن الكريم

إنّ القرآن الكريم يذكر أنّ يوسف أمر البشير أن يذهب بقميصه إلى ابيه، وقال: القوا بقميصى هذا على وجهه فيعود بصيراً، واللّه سبحانه يحكى عن يوسف هكذا: (اذهَبُوا بِقَميصى هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجهِ أبى يَأتِ بَصيراً وَ أْتونى بِأهْلِكُم أجْمَعين)(١) (فَلَمّا جَاءَ البَشيرُ أَلْقاهُ عَلَى وَجهِهِ فارتَدّ بَصيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إنّى أعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)(٢) فالآيات صريحة فى أن يعقوب تبرّك بقميص ابنه يوسف، ولا شك أن قميص يوسف كان من القطن، والقطن كالحديد الّذى يصنع منه الأضرحة والأبواب، والقطن والحديد لا يؤثران فى رفع المرض وكشف الكربة، ولكنّه سبحانه تكريماً للنبى يمنّ على المريض بالشفاء بعد التبرك به، وكأنّ هناك صلة معنوية غير مرئية ولا ملموسة ولا مدركة فى المختبرات بين التبرك بالقميص وآثار الأنبياء ونزول الشفاء من اللّه سبحانه، كما نرى تلك الرابطة بين استعمال الدواء وحصول البرء بعده، ومن المعلوم أنّه سبحانه هو مسبب الأسباب، وجاعل السببية للسبب. _____

۱ . سورة یوسف: الآیة ۹۳ .

۲ . سورة یوسف: الآیة ۹۶ . (۱۰۷)

إنّ هیئة الآمرین بالمعروف والناهین عن المنکر حول الضریح النبوی الشریف والمسجد الحرام یرفعون عقیرتهم بأنّ هذا (الضریح) حدید، والحدید لا یفید، فلیستمعوا إلی قول اللّه سبحانه: (اذهبوا بقمیصی هذا)، فعلی ضوء کلامهم قمیص یوسف من القطن، والقطن کالحدید، ولکنّه سبحانه منح الشفاء لعین نبیه غِبّ تبرکه بقمیص ولده لصموده فی سبیل اللّه . وأمّا الأحادیث والآثار الواردة حول التبرک فحدّث عنها ولا حرج، فإنها تتجاوز المائة، ومن أراد فلیرجع إلی الکتابین الجلیلین اللذین نوهنا بهما، وقبل أن نورد بعض الآثار، نذکر بعض الکلمات فی هذا المجال من کبار العلماء : قال ابن حجر: «کل مولود فی حیاة النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ یُحکم بأنّه رآه، وذلک لتوفّر دواعی إحضار الأنصار أولادهم عند النبی للتحنیک والتبرک، حتّی قیل: لمّا افتتحت مکة، جعل أهل مکة یأتون إلی النبی بصبیانهم لیمسح علی رؤوسهم، ویدعو لهم بالبرکة»(۱) . یقول مؤلف تبرک الصحابة: «لا شک أنّ آثار رسول اللّه ـ صفوة خلق اللّه وأفضل النبیین ـ أثبت وجوداً وأشهر ذکراً، فهی أولی بذلک التبرک وأحری، وقد شهده الجم الغفیر من الصحابة، وأجمعوا علی التبرک بها والاهتمام بجمعها، وهم الهداة المهدیون والقدوة الصالحون، فتبرکوا بشعراته وفضل وضوئه وبعرقه وثیابه، وبمس جسده الشریف، وغیر ذلک مما عرف من آثاره الشریفة الّتی صحت بها الأخبار عن الأخیار» (۲) . ولنقدم بعض ما ذکره الشیخان (البخاری ومسلم) لکون صحیحیهما من أتقن الکتب عند أهل السنة وأصحها: ۱- هذا الشیخ البخاری یروی أنّ الصحابة کانوا یتبرکون بفضل وضوئه، قال: _____

۱ . الإصابة فی تمییز الصحابة ج ۱ ص ۵ .

۲ . تبرک الصحابة ص ۵ . (۱۰۸)

«لما خرج علینا رسول اللّه بالهاجرة، فأتی بوضوء فتوضأ، فجعل الناس یأخذون من فضل وضوئه ویتمسحون به»(۱). ۲- إنّ الصحابة کانوا یتبرکون بشعره، فروی أنس أنّ رسول اللّه لما حلق رأسه کان أبو طلحة أول من أخذ شعره(۲) . ۳- إنّ الصحابة کانوا یتبرکون بالإناء الّذی شرب منه ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ، قال أبو بردة: قال لی عبداللّه بن سلام: ألا اسقیک فی قدح شرب النبی فیه؟(۳) . ویفهم من الروایة أنّ عبداللّه بن سلام کان یحتفظ بذلک القدح للتبرک، لشرب رسول اللّه منه. ۴- کان الصحابة یتبرکون بیدیه الشریفتین، فعن أبی حجیفة: خرج رسول اللّه بالهاجرة إلی البطحاء فتوضأ ثم صلی الظهر رکعتین والعصر رکعتین ـ إلی أن قال ـ : وقام الناس فجعلوا یأخذون یدیه فیمسحون بهما وجوههم، قال: فأخذت بیده فوضعتها علی وجهی، فإذا هی أبرد من الثلج، وأطیب رائحة من المسک(۴) . لا أظن أنّ الوهابی یجترء علی ردّ أحادیث البخاری، لأنّه أصحّ الکتب وأتقنها، خصوصاً أنّ هذه الروایات جاءت فیها متواترة، وهم القائلون: وما من صحیح کالبخاری جامعاً * ولا مسند یلفی کمسند أحمد هذا بعض ما رواه البخاری، وهلم معی ندرس ما ذکره مسلم فی صحیحه: ذکر مسلم أنّ الصحابة کانوا یأتون بصبیانهم إلی النبی للتبرک والتحنیک، قال: إنّ رسول اللّه کان یؤتی إلیه بالصبیان، فیبارک علیهم ویحنکهم(۵) . _____

۱ . صحیح البخاری ج ۱ ص ۵۹، فتح الباری ج ۱ ص ۲۵۶ .

۲ . صحیح البخاری ج ۱ ص ۵۴ .

۳ . صحیح البخاری ج ۱ ص ۱۴۷، فتح الباری ج ۱۰ ص ۸۵ .

۴ . صحیح البخاری ج ۴ ص ۱۸۸ .

۵ . صحیح مسلم ص ۱۶۹۱ . (۱۰۹)

کما روی فی حق شعره: «أنّ رسول اللّه أتی منی، فأتی الجمرة فرماها، ثم اتی منزله بمنی، ثم قال للحلاق: خذ، وأشار إلی جانبه الأیمن ثم الأیسر، ثم جعل یعطیه الناس(۱) . هذا بعض ما رواه الشیخان، وأمّا ما رواه غیرهم فحدّث عنه ولا حرج، وقد عقد البخاری

فى صحيحه باباً سماه: «باب ما ذكر من درع النبى وعصاه وسيفه وقدحه وخاتمه، وما استعمل الخلفاء بعده من ذلك، مما لم يذكر قسمته، ومن شعره ونعله وآنيته، مما يتبرك به أصحابه وغيرهم بعد وفاته»(۲) . إنّ فاطمة ـ عليها السَّلام ـ الّتى لا شك أنها من أهل البيت الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً حضرت قبر أبيها، وأخذت قبضة من تراب القبر تشمه وتبكى وتقول: ماذا على من شمّ تربة أحمد * أن لا يشم مدى الزمان غواليا صُبّت علىّ مصائبٌ لو أنها * صُبّت على الأيام صرن لياليا وفى لفظ: فجعلتها على عينيها ووجهها(۳) . نعم، كانت بنو أُمية وأذنابهم يمنعون الناس عن التبرك بقبر رسول اللّه وآثاره، فمن منع التبرك فإنما هو على خطهم. روى الحاكم فى المستدرك: «أقبل مروان يوماً فوجد رجلا واضعاً وجهه على القبر، فأخذ برقبته، ثم قال: هل تدرى ما تصنع؟ فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب الأنصارى، فقال: إنّى لم آت الحجر، وإنما جئت رسول اللّه، سمعت رسول اللّه يقول: لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله، ولكن ابكوا على الدين إذ وليه غير أهله(۴) . _____

۱ . صحيح مسلم ج ۳ ص ۹۴۷ .

۲ . صحيح البخارى ج ۴ ص ۸۲ .

۳ . وفاء الوفاء: ج ۲ ص ۴۴۴، صلح الإخوان، ص ۵۷ وغيرهما من المصادر .

۴ . مستدرك الصحيحين للحاكم ج ۵ ص ۵۱۵، ومجمع الزوائد ج ۴ ص ۲، باب وضع الوجه على قبر سيدنا رسول اللّه . (۱۱۰)

قال العلامة الأمينى : «إنّ هذا الحديث يعطينا خبراً بأنّ المنع عن التوسل بالقبور الطاهرة إنما هو من بدع الأمويين وضلالاتهم، منذ عهد الصحابة، ولم تسمع أُذن الدنيا قط صحابياً ينكر ذلك، غير وليد بيت أُمية، مروان الغاشم . نعم... «الثور يحمى انفه بروقه»(۱) . نعم... لبنى أُمية عامة، ولمروان خاصة ضغينة على رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ منذ يوم لم يُبقِ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى الأسرة الأموية حرمة إلاّ هتكها، ولا ناموساً إلاّ مزقه، ولا ركناً إلاّ أباده، وذلك بوقيعته ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فيهم، وهو لا «ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ ـ وحى يوحى، علّمه شديد القوى» فقد صحّ عنه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ قوله: «إذا بلغت بنو أُمية أربعين، اتّخذوا عباد اللّه خولا، ومال اللّه نحلا وكتاب اللّه دغلا»(۲) . نعم تبع مروان بن الحكم ـ الوزغ ابن الوزغ ـ ابن طريد رسول اللّه من بعده الحجاج بن يوسف، هذا هو المبرّد ينقل فى كامله، قال: ومما كفرت به الفقهاء الحجاج بن يوسف والناس يطوفون بقبر رسول اللّه منبره. لقوله: «إنما يطوفون بأعواد ورمّة»(۳) ومراد الحجاج من الأعواد: المنبر، ومن الرّمة: عظام رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فيستسخر من المسلمين ويهينهم بكلامه، وهذا يعرب عن أنّ المسلمين كانوا يطوفون حول قبر رسول اللّه . قال ابن أبى الحديد: خطب الحجاج بكوفة، فذكر الذين يزورون قبر _____

۱ . الروق: القرن، وهو مثل يضرب لمن يدافع عن شخصيته وعرضه .

۲ . الغدير: ج ۵ ص ۱۴۹ .

۳ . التبرك ص ۱۶۱ . (۱۱۱)

رسول اللّه بالمدينة، فقال: تبّاً لهم، إنهم يطوفون بأعودا ورمّة بالية. هلا طافوا بقصر أميرالمؤمنين عبدالملك؟ ألا يعلمون أنّ خليفة المرء خير من رسوله؟(۱) . هذا بعض ما يمكن أن يقال حول التبرك، ومن أراد التفصيل والتبسط فليرجع إلى كتاب «التبرك» فقد بلغ الغاية فى ذلك المجال . * * * * *

هذا وقع عقد العلامة الأمينى فصلا أسماه «التبرك بالقبر الشريف بالتزام وتمريغ وتقبيل» وذكر هناك نصوصاً كثيراً تحكى عن جريان السيرة على التبرك بالقبر الشريف، فمن أراد فليرجع إلى الجزء الخامس: ص ۱۴۶ ـ ۱۶۴ . _____

۱ . شرح نهج البلاغة ج ۱۵ ص ۲۴۲ .

عقائد ابن تيمية

عقائد ابن تیمیة

عقائد ابن تیمیة عقائده و آراؤه

إنّ الآراء والمعتقدات، مقیاس شخصیة الإنسان، ومستوی عقلیته وثقافته، کما أنّ ما یمت منها الی الإسلام بصلة، مقیاس عرفانه بالکتاب والسنة، وسلامة ذوقه وصفاء ذهنه، وقد حان تقییم شخصیة ابن تیمیة عن طریق عرض آرائه علی المصادر الإسلامیة، لیعلم مدی صحتها وانطباقها علی المصدرین وحدّ سلامة ذوقه وصفاء ذهنه فی مقام الاستضاءة بهما، وإلیک البیان : (۱۱۴)

ابن تیمیة ورأیه فی الصفات الخبریة(۱)

ابن تیمیة ورأیه فی الصفات الخبریة(۱)

إنّ المحنة الأُولی لابن تیمیة بدأت ممّا نشره باسم «العقیدة الحمویة» حیث أجاب فیها عن سؤال أهل «حماه» فی آیات الصفات، مثل قوله: (الرَّحمنُ عَلی العَرْشِ استوی) وقوله: (ثُمّ اسْتَوَی إلی السّماءِ)، وأحادیث الصفات، کقوله ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : «إنّ قلوب بنی آدم بین إصبعین من اصابع الرحمن»، وقوله: «یضع الجبار قدمه فی النار» بما هذا نصه: «فهذا کتاب اللّه من أوله إلی آخره، وسنة رسوله ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ من أولها إلی آخرها، ثم عامة کلام الصحابة والتابعین، ثم کلام سائر الائمة مملوء بما هو إمّا نص وإمّا ظاهر فی أنّ اللّه سبحانه وتعالی فوق کل شیء، وعلی کل شیء، وأنّه فوق السماء، مثل قوله: (إلَیْهِ یَصْعَدُ الکَلِمُ الطَّیّبُ، وَ العَمَلُ الصّالِحُ یَرْفَعُهُ)، (إنّی مُتَوَفِّیکَ وَرَافِعُکَ إلیَّ)، (أمِنْتُم مَنْ فِی السّماءِ أنْ یَخسِفَ بِکُمُ الأرْضَ...)، (أمِنْتُم مَنْ فی السّماءِ أنْ یُرسِلَ عَلَیْکُم حَاصباً...)، (بَلْ رَفَعَهُ اللّهُ إلَیْهِ...)(إلَیْهِ تَعْرُجُ...وَالرُّوحُ...)(یَخَافُونَ رَبَّهم مِنْ فَوْقِهِم...)(ثُمَّ استَوی عَلی العَرْشِ)(فی ستة مواضع). (الرّحمنُ عَلَی العَرْشِ استَوی)، (یا هَامَانُ ابْنِ لی صَرْحاً لَعَلّی أبْلُغُ الأسبابَ، أسْبَابَ السَّمواتِ، فأطَّلِعَ إلی إله _____

۱ . الصفات الخبریة، هی الصفات الّتی أخبر عنها القرآن والسنة، مقابل ما یدل علیه العقل کالعلم والقدرة . (۱۱۵) موسی وَ إنِّی لَاَظُنّهُ کاذِباً...)، (تَنزیلٌ مِنْ حکیم حمید)، (مُنَزّلٌ مِنْ رَبِّک) إلی أمثال ذلک مما لا یکاد یحصی إلّا بکلفة .

وفی الأحادیث الصحاح والحسان ما لا یحصی، مثل قصة معراج الرسول ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ إلی ربّه، ونزول الملائکة من عنداللّه وصعودهم إلیه، وقوله فی الملائکة: «الذین یتعاقبون باللیل والنهار، فیعرج الذین باتوا فیکم إلی ربهم، فیسألهم وهو أعلم بهم»، وفی الصحیح فی حدیث الخوارج: «ألا تأمنونی وأنا أمین من فی السماء، یأتینی خبر السماء صباحاً ومساء» وفی حدیث الرقیة الّذی رواه أبو داود وغیره: «ربنا اللّه الّذی فی السماء تقدس اسمک. أمرک فی السماء کما رحمتک فی السماء، اجعل رحمتک فی الأرض. اغفر لنا حوبنا وخطایانا، أنت ربّ الطیبین»، وقال ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : «إذا اشتکی أحد منکم أو اشتکی أخ من إخوانه فلیقل: «ربنا اللّه الّذی فی السماء ذکره»، وقوله فی حدیث الأعمال: «والعرش فوق ذلک، واللّه فوق عرشه، وهو یعلم ما أنتم علیه» وقوله فی حدیث قبض الروح: «حتّی یعرج به إلی السماء الّتی فیها اللّه» . وقول عبداللّه بن رواحة الّذی أنشده للنبی وأقره علیه: شهدت بأنّ وعد اللّه حقٌ * وأنّ النار مثوی الکافرینا وأنّ العرش فوق الماء طاف * وفوق العرش ربّ العالمینا وقول أُمیة بن أبی الصلت الّذی أنشده للنبی، فاستحسنه، وقال: آمن شعره وکفر قلبه . مجّدوا اللّه فهو للمجد أهل * ربّنا فی السماء أمسی کبیراً بالبناء الأعلی الّذی سبق النا * س وسویّ فوق السماء سریرا شرجعاً(۱) ما یناله بصر الـ * ـعین ترری دونه الملائک صوراً(۲) إلی أمثال ذلک مما لا یحصیه إلّا اللّه، مما هو من أبلغ التواترات اللفظیة والمعنویة الّتی تورث علماً یقینیاً من أبلغ العلوم الضروریة، إنّ الرسول المبلغ

---

۱ . الشرجع: الطویل .

۲ . الصور، جمع أصور: المائل العنق. (۱۱۶)

عن اللّه ألقی إلی أمته المدعوین: أنّ اللّه سبحانه علی العرش استوی وأنّه فوق السماء، کما فطر اللّه علی ذلک جمیع الأمم عربهم وعجمهم فی الجاهلیة والإسلام، إلاّ من اجتالته الشیاطین عن فطرته . ثم عن السلف فی ذلک من الأقوال ما لو جمع لبلغ مئین أو أُلوفاً، ثم لیس فی کتاب اللّه ولا فی سنة رسول اللّه، ولا عن أحد من سلف الأُمة ولا من الصحابة والتابعین، ولا عن الأئمة الذین أدرکوا زمن الأهواء والاختلاف، حرف واحد یخالف ذلک لا نصاً ولا ظاهراً، ولم یقل أحد منهم قط إنّ اللّه لیس فی السماء ولا أنه لیس علی العرش، ولا أنه لیس فی کل مکان، ولا أن جمیع الأمکنة بالنسبة إلیه سواء، ولا أنه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل ولا منفصل، ولا أنه لا تجوز الإشارة الحسیة إلیه بالأصابع ونحوها، بل قد ثبت فی الصحیح عن جابر أن النبی لما خطب خطبته العظیمة یوم عرفات، فی أعظم مجمع حضره رسول اللّه، جعل یقول: ألا هل بلّغت؟ فیقولون: نعم، فیرفع إصبعه إلی السماء وینکبها إلیهم فیقول: اللّهمّ اشهد، غیر مرة، وأمثال ذلک کثیرة(۱) . وقد کرر ابن تیمیة ما اختاره فی باب الصفات الخبریة فی غیر واحد من آثاره، فقال فی العقیدة الواسطیة: «وما وصف الرسول به ربه من الأحادیث الصحاح الّتی تلقّاها أهل المعرفة بالقبول وجب الإیمان بها، کذلک مثل قوله: «ینزل ربنا إلی سماء الدنیا کل لیلة، حین یبقی ثلث اللیل الآخر فیقول: «من یدعونی فأستجیب له؟ من یسألنی فأعطیه؟ من یستغفرنی فأغفر له» وقوله ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ : «یضحک اللّه إلی رجلین أحدهما یقتل الآخر، کلاهما یدخل الجنة» . وقوله: «لا تزال جهنم یلقی فیها وتقول هل من مزید؟ حتّی یضع رب العزة فیها قدمه» وقوله ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ فی رقیة المریض: «ربنا اللّه الّذی فی السماء ـ تقدس اسمک ـ أمرک فی السماء والأرض...» . _____

۱ . العقیدة الحمویة الکبری ـ الرسالة الحادیة عشرة ـ من مجموع الرسائل الکبری لابن تیمیة ص ۴۲۹ ـ ۴۳۲ . (۱۱۷)

وقوله: «والعرش فوق ذلک، واللّه فوق ذلک، واللّه فوق عرشه، وهو یعلم ما أنتم علیه» وقوله ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ للجاریة: «أین اللّه؟ قالت: فی السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول اللّه. قال: أعتقها فأنها مؤمنة» وقوله: «إذا قام أحدکم إلی الصلاة فإنّ الله قِبَلَ وجهه، فلا یبصق قبل وجهه ولا عن یمینه، ولکن عن یساره أو تحت قدمه»، وقوله: «إنکم سترون ربکم کما ترون القمر لیلة البدر لا تضامون فی رؤیته» . وقد دخل فیما ذکرناه من الإیمان باللّه، الإیمان بما أخبر اللّه به فی کتابه، وتواتر عن رسوله، وأجمع علیه سلف الأُمة من أنّه سبحانه فوق سماواته علی عرشه، علیٌّ علی خلقه، وهو معهم سبحانه أینما کانوا»(۱) . وقال: «وقد سألوه ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ : هل نری ربنا یوم القیامة؟ فأجابهم: نعم، وسأله أبو رزین: أیضحک ربنا؟ فقال ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ : نعم، فقال: لن نعدم من رب یضحک خیراً. ثم إنهم لما سألوه عن الرؤیة، قال: إنکم سترون ربکم کما ترون الشمس والقمر، فشبه الرؤیة بالرؤیة(۲) . وقال رداً علی نُفاة الصفات(۳): إمّا أن یکون اللّه یحب منّا أن نعتقد قول النفاة، أو نعتقد قول أهل الإثبات، أو نعتقد واحداً منهما ;فإن کان مطلوبه منّا اعتقاد قول النفاة، وهو أنّه لا داخل العالم ولا خارجه، وأنّه لیس فوق السماوات ربٌّ ولا علی العرش إله، وأنّ محمداً لم یعرج به إلی اللّه، وإنما عرج به إلی السماوات فقط، لا إلی اللّه، فإنّ الملائکة لا تعرج إلی اللّه بل إلی ملکوته، وإنّ اللّه لا ینزل منه شیء ولا یصعد إلیه شیء، وأمثال ذلک. وإن کانوا یعبّرون عن ذلک بعبارات مبتدعة فیها إجمال وإبهام وإیهام، کقولهم: لیس بمتحیز، ولا جسم، ولا جوهر، ولا هو فی جهة، ولا مکان، وأمثال هذه _____

۱ . العقیدة الواسطیة، الرسالة التاسعة، من مجموع الرسائل الکبری، ص ۳۹۸ ـ ۴۰۰ بتلخیص .

۲ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۰۳، طبع لجنة التراث العربی .

۳ . المراد: الصفات الخبریة کالید والوجه . (۱۱۸)

العبارات الّتی تفهم منها العامة تنزیه الرب تعالی عن النقائص، ومقصدهم أنّه لیس فوق السماوات ربّ ولا علی العرش إله یعبد، ولا عُرج بالرسول إلی اللّه، ولو کان هذا هو المطلوب کان من المعلوم أنه لا بد أن یبینه الرسول، وقد علم بالاضطرار أنّ الرسول وأصحابه لم یتکلموا بمذهب النفاة(۱) . وقال: «إنّ المالکیة وغیر المالکیة نقلوا عن مالک أنّه قال: اللّه فی السماء، وعلمه فی کل مکان، ولأنّ علماءهم حکموا إجماع السنة والجماعة علی أنّ اللّه بذاته فوق عرشه»(۲) . وقال ـ نقلا عن ابن أبی حنیفة ـ «أنّه سئل عمن یقول: لا

أعرف ربّی فی السماء أو فی الأرض؟ قال: کفر، لأنّ اللّه یقول: (الرَّحمن علی العرش استوی) وعرشه فوق سبع سماواته، فقال السائل: إنّه یقول علی العرش، ولکن لا أدری العرش فی السماء أو فی الأرض؟ فقال: إنّه إذا أنکر أنّه فی السماء کفر، لأنّه تعالی فی أعلی علیین، وإنّه لیدعی من أعلی لا من أسفل(۳) . ونقل عن عبداللّه بن المبارک أنّه سئل: بماذا تعرف ربنا؟ قال: بأنّه فوق سماواته علی عرشه، بائن عن خلقه قلت بحد لا یعلمه غیره. ثم نقل عن کثیر من أئمة الحدیث کالثوری، ومالک، وابن عیینة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زید، وابن المبارک، وفضیل بن عیاض، وأحمد، وإسحاق، عن کون اللّه سبحانه فوق العرش بذاته، وأنّ علمه بکل مکان(۴). إلی غیر ذلک مما نقله وأرسله علی نسق واحد، والکل یهدف إلی أن الصفات الخبریة یجب أن تجری علی اللّه سبحانه بحرفیتها وظهورها التصوری، من دون تفصیل وتأویل، بإرجاعها إلی المعانی المجازیة أو الکنائیة . _____

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۰۳ .

۲ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۰۳ .

۳ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۰۷ .

۴ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۰۸ ـ ۲۰۹ . (۱۱۹) الآراء المتضاربة حول الصفات الخبریة

إنّ للمتکلمین وأهل الحدیث فی تفسیر الصفات الخبریة مذاهب نشیر إلیها: ۱- جریها علی اللّه سبحانه کجریها علی المخلوقین، وهذا ما یعبّر عنه بالتکییف، وعلیه المجسمة وأصحاب الجهة والتشبیه ـ خذلهم اللّه سبحانه ـ وهو یستلزم أن یکون سبحانه جسماً، أو جسمانیاً جالساً علی کرسی جسمانی، ناظراً من عرشه إلی تحته کنظر الملک الجبار إلی عبیده وغلمانه . ۲- جریها علی اللّه سبحانه بنفس المفاهیم اللغویة والمعانی الابتدائیة، والمدلولات التصوّریة، بلا تصرف وتعلیل وتدخّل فیها، واللّه سبحانه یتّصف بها لکن بلا تکلیف، والفرق بین هذا القول و القول الأوّل هوأنّ القول الأوّل یثبت المعانی مع الکیفیة، وهذا القول یثبتها بنفس المعانی لکن بلا تکییف، وهذا هو الّذی اختاره ابن تیمیة، ویذکر ذلک فی رسائله ویقول: «والقول الفاصل هو ما علیه الأُمة الوسط من أنّ اللّه مستو علی عرشه استواءً یلیق بجلاله ویختص به، فکما أنّه موصوف بأنّه بکل شیء علیم، وعلی کل شیء قدیر، وأنّه سمیع بصیر، ولا یجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض الّتی لعلم المخلوقین وقدرتهم، فکذلک هو سبحانه فوق العرش، ولا نثبت لفوقیته خصائص فوقیة المخلوق علی المخلوق، ولوازمها»(۱). ویقول ایضاً: «ومذهب السلف بین التعطیل والتمثیل، فلا یمثلون صفات اللّه بصفات خلقه، کما لا یمثلون ذاته بذات خلقه، ولا ینفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، فیعطّلون أسماءه الحسنی یحرّفون الکلم عن مواضعه. أمّا المعطّلون، فإنهم لم یفهموا من أسماء اللّه وصفاته إلاّ ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا فی نفی تلک المفهومات، فقد جمعوا بین التمثیل والتعطیل، مثلوا أولا وعطلوا آخراً، وهذا تشبیه وتمثیل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطیل لما یستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة باللّه سبحانه»(۲) . _____

۱ . العقیدة الحمویة ص ۴۲۸ ـ ۴۴۰ .

۲ . المصدر نفسه . (۱۲۰)

۳- جریها علی اللّه سبحانه بمفاهیمها التصدیقیة، بعد الإمعان فی القرائن الموجودة فی نفس الآیات والروایات الصحیحة وأمّا غیرهما، فأکثر ما ورد فی ذلک من وضع الأحبار والرهبان الذین دسّوا هذه الأحادیث بین المسلمین بخداع خاص . وعلی ضوء ذلک فالکل قائلون باستوائه علی العرش، لکن الطائفة الأُولی یفسرونه بالجلوس والاستقرار علی العرش کاستقرار الإنسان علی عرشه، الّذی له قوائم أربع. والطائفة الثانیة یفسرونه بنفس هذه المفاهیم، ولکن یقولون: استقراراً وجلوساً لائقاً بحاله سبحانه، وعرشاً لائقاً بساحته، فهو مستقر وجالس لا کجلوس الإنسان وله عرش لا کعروشه، بل الکل ما یلیق بساحته، من غیر تکییف ولا تمثیل. والطائفة الثالثة یفسرونه بالاستیلاء، أخذاً بالقرائن الموجودة فی نفس الآیات، وما ورد فی کلمات البلغاء والفصحاء فی استعمال نظیره فی کلماتهم ومحاوراتهم. ۴- وهناک طائفة رابعة یقولون بالتفویض، وأنّه لیس لنا تفسیر الآیة، بل نفوّض معانیها إلیه سبحانه . قال الشهرستانی:

«اعلم إنَّ جماعة کثیرة من السلف، کانوا یثبتون للّه صفات خبریة مثل الیدین والوجه، ولا یؤوّلون ذلک، إلّا أنّهم یقولون: إنَّا لا نعرف معنی اللفظ الوارد فیه، مثل قوله: (الرَّحمن علی العرش استوی) ولسنا مکلفین بمعرفة هذه الصفات»(۱) . وقال الرازی: «إنّ هذه المتشابهات یجب القطع بأنّ مراد اللّه منها شیء غیر ظواهرها، کما یجب تفویض معناها إلی اللّه تعالی، ولا یجوز الخوض فی تفسیرها»(۲) . _____

۱ . الملل والنحل ج ۱ ص ۹۳ بتلخیص .

۲ . أساس التقدیس ص ۲۲۳ . (۱۲۱)

إلی غیر ذلک من الکلمات الّتی نقلناها فی هذه الموسوعة(۱) . ثم إنّ أصحاب التنابز بالألقاب وصفوا الطائفة الثالثة بالمعطّلة تارة، والمؤوّلة أُخری، ولکنهم غیر معطلة أبدا، لأنهم لم یعطلوا فی مقام توصیفه سبحانه شیئاً مما ورد فی الکتاب، غیر أنهم قاموا بتعیین المراد من هذه الصفات فأجروها علیه، وأمّا المؤولّة، فإنما یصحّ توصیفهم بهذا الوصف إذا أُرید منها المعانی التصوریة الابتدائیة، وأمّا المعانی التصدیقیة الّتی تدل علیها القرائن، فلا یؤوّلون شیئاً منها، والملاک فی صدق التأویل هو المعانی التصدیقیة، لا التصوریة . هذه هی الأقوال المعروفة فی باب الصفات علی وجه الإجمال، هلمّ معی ندرس نظریة ابن تیمیة فیها، حتّی یتجلّی الحق بأجلی مظاهره .

نظریة ابن تیمیة تلازم الجهة والتجسیم

لا یشک من نظر إلی ما نقلناه عن ابن تیمیة فی مواضع متعددة من رسائله وکتبه فی أنه صریح فی التجسیم والتشبیه، خصوصاً أنه یصرح بأنه تصحّ الإشارة الحسیة بالأصابع إلیه، ولا هدف له من جمع کل ما ورد فی ذلک المجال من غثّ وسمین وصحیح وزائف. إلاّ إثبات أن هذه الصفات تجری علیه سبحانه بمعانیها اللغویة، غیر أنّ تذرعه بلفظ «بلا کیف» أو «بلا تمثیل» أو ما یقاربهما ربما یوجب عدم عدّه من المجسّمة والمشبهة، لأنّه یقول بأنّ له سبحانه هذه الصفات لا کصفات المخلوقین، ولکن هذا التذرّع واجهة یرید به تبریر توصیفه سبحانه بها بمعانیها اللغویة، وعدم اتهامه بالقول بالتجسیم والتشبیه، ولکنها لا تفید شیئاً وذلک: إنّ هذه الصفات کالید والرجل والنزول والجلوس موضوعة لغةً علی معانیها المتکیفة بکیفیات جسمانیة، فالید هی الجارحة المعروفة من الإنسان والحیوان، وهکذا الرجل والقدم، ومثلها النزول، فإنها موضوعة للحرکة من العالی إلی السافل، والحرکة من صفات الجسم، فالکیفیة مقوّمة لمعانی هذه _____

۱ . راجع الجزئین الثانی والثالث . (۱۲۲)

الألفاظ والصفات، فالید والرجل بلا کیفیة لیستا یداً ورجلا بالمعنی اللغوی المتبادر عرفاً، وعلی ضوء ذلک فلیس هنا إلاّ سلوک أحد طریقین: ۱- جریها بنفس معانیها اللغویة الّتی تتبادر منها المفاهیم المتکیفة، فهو نفس القول بالتجسیم . ۲- جریها بمفاهیمها المجازیة، ککون الید کنایة عن القدرة، کما فی قوله سبحانه: (بَلْ یَدَاهُ مَبْسوطَتَانِ یُنْفِقُ کَیفَ یَشاء)(۱)، فهذا هو قول المؤوّلة، أو المعطلة باصطلاح ابن تیمیة، ولیس ههنا معنی ثالث ینطبق علی ما یتبنّاه ابن تیمیة، وهو إجراؤها علی اللّه بنفس مفاهیمها، لکن من غیر تکییف، وذلک لما عرفت أنّ مفاهیمها متقوّمة بالتکییف والتمثیل، فلو حذفنا الهیئة والکیفیة من الید، فلا یبقی منها شیء، کما أنّا لو حذفنا الحرکة الحسیة من النزول لا یبقی منه شیء، إلاّ إذا حملا علی الکنایة والتأویل، وهو ما لا یقبله ابن تیمیة وأتباعه . ولو صحّ حمل هذه المفاهیم علیه سبحانه بالتذرّع بـ«بلا تکیف» و «لا تمثیل» لصحّ توصیفه سبحانه بکل شیء فیه أدنی کمال، ونقول: إنّه جسم لا کالأجسام، وله قلب لا کهذه القلوب، وله لسان ناطق لا کهذه الألسنة. وخلاصة القول: إنّ ابن تیمیة یری نفسه بین أمرین: أحدهما: القرآن بظواهره الحرفیة حجة لا یصحّ لأحد تأولیها أو حملها علی الکنایة والمجاز . ثانیهما: إنَّ القرآن صریح فی أنّه لیس کمثله شیء، وأنّ المشرکین ما قدروا اللّه حق قدره، إلی کثیر من آیات التنزیه.

فعند ذلک یرید أن یجمع بین الأمرین باللجوء إلی أنّ المقصود ما یناسب ساحته، زاعماً بأنّه ینجیه عن القول بالجهة والتجسیم، مع أنّه لیس لنا إلاّ اختیار أحد الأمرین: الأخذ بالمفاهیم اللغویة بلا تأویل ومرجعه إلی _____

۱ . سورة المائدة: الآیة ۶۴ . (۱۲۳)

التجسیم، أو الإمعان فی الآیات والآثار الصحیحة وتفسیرها حسب الدلالة التصدیقیة، بالمعانی الکنائیة أو المجازیة أو غیر ذلک . وأمّا ما ادّعاه من أنّ ما ذکره نفس معتقد السلف فقد أجاب عنه العلامة الشیخ سلامة القضاعی العزامی الشافعی (ت ۱۳۷۹ هـ) قال: «إذا سمعت فی بعض عبارات بعض السلف: إنما نؤمن بأنّ له وجهاً لا ـ کالوجوه، ویداً لا کالأیدی، فلا تظن أنهم أرادوا أنّ ذاته العلیة منقسمة إلی أجزاء وأبعاض، فجزء منها ید وجزء منه وجه، غیر أنه لا یشابه الأیدی والوجوه الّتی للخلق . حاشاهم من ذلک، وما هذا إلاّ التشبیه بعینه، وإنما أرادوا بذلک أنّ لفظ الوجه والید قد استعمل فی معنی من المعانی وصفة من الصفات الّتی تلیق بالذات العلیة، کالعظمة والقدرة، غیر أنهم یتورعون عن تعیین تلک الصفة تهیباً من التهجم علی ذلک المقام الأقدس، وانتهز المجسمة والمشبهة مثل هذه العبارة فغرروا بها العوام، وخدعوا بها الأغمار من الناس، وحملوها علی الأجزاء فوقعوا فی حقیقة التجسیم والتشبیه، وتبرأوا من اسمه، ولیس یخفی نقدهم المزیف علی صیارفة العلماء وجهابذة الحکماء»(۱) . وقد صرح بما ذکرنا ـ الأخذ بالمفاهیم اللغویة یلازم الجهة والتجسیم ـ ناصر ابن تیمیة فی جمیع المواقف (إلاّ ـ فی موقف أو موقفین) الشیخ محمد أبو زهرة حیث لم یستطع أن یستر الحقیقة، فقال: «ولا تتسع عقولنا لإدراک الجمع بین الإشارة الحسیة بالأصابع والإقرار بأنه فی السماء، وأنه یستوی علی العرش، وبین تنزیهه المطلق عن الجسمیة والمشابهة للحوادث. وإن التأویل (حملها علی المجاز و الکنایة) بلا ـ شک فی هذا یقرب العقیدة الی المدارک البشریة، ولا یصح أن یکلف الناس ما لا یطیقون، وإذا کان ابن تیمیة قد اتسع عقله للجمع بین الإشارة الحسیة وعدم الحلول فی مکان والتنزیه المطلق، فعقول الناس لا تصل إلی سعة أُفقه إن کان کلامه مستقیماً»(۲) . یقول أیضاً: «ومهما حاولوا نفی التشبیه فإنّه لاصق بهم، فإذا جاء ابن _____

۱ . فرقان القرآن ص ۸۰ - ۸۱ .

۲ . ابن تیمیة، حیاته وعصره ص ۲۷۰ . (۱۲۴)

تیمیة من بعدهم بأکثر من قرن فقال: «إنّه اشتراک فی الإسم لا فی الحقیقة» فإن فسّروا الاستواء بظاهر اللفظ فإنه الإقعاد والجلوس، والجسمیة لازمة لا محالة، وإن فسروه بغیر المحسوس فهو تأویل، وقد وقعوا فیهما نهوا عنه، وفی الحالین قد خالفوا التوقف الّذی سلکه السلف»(۱) . أقول: لیس ابن تیمیة فریداً فی هذا الباب، بل المذهب الّذی أرسی قواعده شیخه ابن حنبل من التعبد بالظواهر بحرفیتها ومعانیها التصوریة لا ینفک عن التجسیم والتشبیه، ومهما حاولوا الفرار عنه وقعوا فیه من حیث لا یشعرون. نعم حاول ابن الجوزی أن یدافع عن أُستاذ مذهبه فوجّه اللوم إلی تلامیذه، فقال: «رأیت من أصحابنا من تکلم فی الأُصول بما لا یصلح، وانتدب للتصنیف ثلاثة: أبو عبداللّه بن حامد(۲) وصاحبه القاضی (أبو یعلی) (۳) وابن الزاغوانی(۴)، فصنّفوا کتباً شانوا بها المذهب، ورأیتهم قد نزلوا إلی مرتبة العوام فحملوا الصفات علی مقتضی الحس ;فسمعوا أنّ اللّه سبحانه وتعالی خلق آدم ـ علیه السَّلام ـ علی صورته، فأثبتوا له صورة ووجهاً زائداً علی الذات، وعینین وفماً ولهوات وأضراساً وأضواءً لوجهه، ویدین وأصابع وکفاً وخنصراً وإبهاماً وصدراً وفخذاً وساقین ورجلین، وقالوا ما سمعنا بذکر الرأس . وقد أخذوا بالظاهر فی الأسماء والصفات، فسموها بالصفات تسمیة مبتدعة، ولا دلیل لهم فی ذلک من النقل ولا من العقل، ولم یلتفتوا إلی _____

۱ . ابن تیمیة حیاته وعصره ص ۲۷۲ - ۲۷۳ .

۲ . شیخ الحنابلة فی عصره، البغدادی، الوراق، المتوفی سنة ۴۰۳ له کتاب فی أصول الإعتقاد سماه «شرح أُصول الدین» وفیه أقوال تدل علی التشبیه والتجسیم.

۳ . القاضی أبو یعلی محمد الحسین بن خلف بن الفراء الحنبلی المتوفی سنة ۴۵۸ وقد تکلم فی أُصول الإعتقاد کلاماً تبع أُستاذه ابن حامد وأکثر من التشبیه والتمثیل حتّی قال فیه بعض العلماء:

«لقد شان أبویعلی الحنابلة شیئاً لا یغسله ماء البحار» .

۴ . هو أبو الحسن علی بن عبیداللّه بن نصر الزاغوانی الحنبلی المتوفی سنة ۵۲۷ وله کتاب فی أصول الإعتقاد اسمه «الإیضاح» قال فیه بعض العلماء: «إنّ فیه من غرائب التشبیه ما یحار فیه النبیه» . (۱۲۵)

النصوص الصارفة عن الظواهر إلی المعانی الواجبة للّه تعالی، ولا إلی إلغاء ما توجبه الظواهر من سمات الحدث، ولم یقنعوا أن یقولوا صفة فعل حتّی قالوا: صفة ذات، ثم لمّا أثبتوا أنها صفات، قالوا: «لا نحملها علی توجیه اللغة، مثل ید علی نعمة وقدرة، ولا مجیء وإتیان علی معنی بر ولطف، ولا ـ ساق علی شدة، بل قالوا: نحملها علی ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو المعهود من نعوت الآدمیین»، والشیء إنّما یحمل علی حقیقته إذا أمکن، فإن صرفه صارف حمل علی المجاز. ثم یتحرجون من التشبیه ویأنفون من إضافته إلیهم، ویقولون نحن أهل السنة، وکلامهم صریح فی التشبیه، ولقد تبعهم خلق من العوام، وقد نصحت التابع والمتبوع وقلت لهم: یا أصحابنا أنتم أصحاب نقل واتّباع، وإمامکم الأکبر أحمد بن حنبل ـ رحمة اللّه ـ یقول وهو تحت السیاط: «کیف أقول ما لم یقل به» فإیاکم أن تبتدعوا فی مذهبه ما لیس منه . ثم قلتم فی أن الأحادیث تحمل علی ظاهرها، فظاهر القدم: الجارحة، ومن قال استوی بذاته المقدسة فقد أجراه سبحانه مجری الحسیات، وینبغی أن لا ـ یحمل ما لا یثبته الأصل وهو العقل، فإنّا به عرفنا اللّه وحکمنا له بالقدم، فلو أنکم قلتم نقرأ الأحادیث ونسکت، لما أنکر علیکم، وإنما حملکم إیاه علی الظاهر قبیح، فلا تُدخلوا فی مذهب هذا الرجل الصالح السلفی ما لیس فیه»(۱) . أقول: عزب عن ابن الجوزی الحنبلی أنّ إمامه هو الّذی دعم هذه الفکرة فی کتبه، وأنّه هو الّذی حشا کتبه بأحادیث التجسیم والتشبیه، ومن اراد الوقوف علیها، فلیرجع إلی کتاب السنة الّذی رواه عنه ابن عبداللّه، وقد روینا قسماً وافراً من روایاته فی الجزء الأول(۲) . نعم، قسَّم عز بن عبدالسلام الحشویة وقال بأنهم علی ضربین: _____

۱ . ابن تیمیة، حیاته وعصره، ص ۲۷۳ ـ ۲۷۴ نقلا عن دفع شبهة التشبیه لابن الجوزی، ونقله ملخصاً الشیخ سلامة فی فرقان القرآن ص ۸۲ .

۲ . بحوث فی الملل والنحل ج ۱ ص ۱۳۰ ـ ۱۴۳ . (۱۲۶)

أحدهما «یتحاشی عن الحشو والتشبیه والتجسیم، والآخر تستّر بمذهب السلف، ومذهب السلف إنما هو التوحید والتنزیه دون التشبیه والتجسیم»(۱) . والحق أنّ الحشویة بأجمعهم مجسّمة، والتمسک بمذهب السلف واجهة ستروا بها قبح عقیدتهم، ولو رفع الستر لبان أنهم مجسمة ومشبهة،وفی هذاالصدد یقول الزمخشری : ولو حنبلیاً قلت قالوا بأننی * ثقیل حلولیٌّ بغیض مجسم ویقول أبوبکر ابن العربی فی حقهم: قالوا الظواهر أصل لا یجوز لنا * عنها العدول إلی رأی ونظر بینوا عن الخلق لستم منهم أبداً * ما للأنام ومعلوف من البقر(۲) نعم، الظواهر هی الأصل ولا یجوز لأحد العدول عنه: ولکن الظواهر منها ظاهر حرفی، ابتدائی، تصوری، فهو لیس بحجة أبداً، ومنها ظاهر جملی تصدیقی استمراری، وهو الحجة قطعاً، فإذا قلت: رأیت أسداً فی الحمام، فالظهور الإبتدائی التصوری الحرفی للفظ الأسد هو الحیوان المفترس، ویقابله الظهور التصدیقی الجملی الاستمراری وهو الرجل الشجاع، وهؤلاء الذین یضلون العوام یغترون بالقسم الأول من الظاهر، دون الثانی. وإذا قال المحققون: ظواهر الکتاب والسنة حجة لا یصح العدول عنها ولا یجوز لأحد تأویلها، یریدون الظهورات التصدیقیة الّتی تنعقد للکلام بعد الإمعان فی القرائن المتصلة أو المنفصلة، ولکن من یتبع الظواهر الحرفیة فقد ضل، وغفل عن أن کلام العرب والبلغاء والفصحاء ملیء بالمجازات والکنایات . وحصیلة البحث أن الجمود علی الظواهر عبارة عن الجمود علی ظواهرها الحرفیةو ولا شک أنه یجر إلی الکفر أحیاناً، فمن جمد علی ظاهر قوله سبحانه: (لیس کمثله شیء) یجب علیه أن یقول: إنّ للّه مثلا ولیس کهذا المثل شیء، کما أنّ التأویل ضلال، والمراد منه هو العدول عن الظواهر _____

۱ . نقض المنطق ص ۱۱۹، کما فی کتاب «ابن تیمیة» لمحمد أبی زهرة.

۲ . فرقان القرآن ص ۹۸ . (۱۲۷)

التصدیقیة الّتی تتبادر إلی أذهان أهل اللغة بعد الإمعان فی سیاق الکلام، والتأمّل فی نظائره فی کلمات العرب. فلو استقرّ ظهور جملة فی شیء بهذا الشرط، فالعدول عنه یوجب مسخ کلام اللّه ومحو الشریعة. فعلی العالم الباحث أن یمعن النظر فی الصفات الخبریة الّتی

جاءت فى الكتاب والسنة، ويتلقاها آيات متشابهة، ويمعن فى الآيات المحكمة حتّى يزيل عنها التشابه. «ومن تتبّع براهين القرآن واستقرأ آياته العظام وجد كثيراً مما تشابه فيه، ورأى كثيراً منه محكماً، وهو ما كان من المجاز البيّن الشائع فى لغة العرب، وعلى قدر الرسوخ فى العلم يكون زوال التشابه أو أكثره عن الكثير من المتشابه، ولما كان الراسخون فى العلم متفاوتين لا- جرم تفاوتت أنصباؤهم فى زوال التشابه عنهم...»(۱) . وفى الختام نذكر أُموراً: الأول: إنّ ابن تيمية وإن تستّر بقوله (بما يناسب ساحته) ونظيره، ولكنّه أظهر عقيدته الواقعية فى مجالات خاصة، وهذا ابن بطوطة ينقل فى رحلته: «وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقى الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم فى الفنون، إلّا أنه كان فى عقله شىء، وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم، ويعظهم على المنبر، وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء.. ورفعوه إلى الملك الناصر فأمر بإشخاصه إلى القاهرة، وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر، وتكلم شرف الدين الزوادى المالكى وقال: إنّ هذا الرجل قال كذا وكذا، وعدّد ما أنكر على ابن تيمية، وأحضر الشهود بذلك ووضعها بين يدى قاضى القضاة.

قال قاضى القضاة لابن تيمية: ما تقول؟ قال: لا إله إلّا اللّه، فأعاد عليه فاجاب عليه بمثل قوله، فامر الملك الناصر بسجنه، فسجن أعواماً، وصنّف فى السجن كتاباً فى تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط . ثم إنّ أُمه تعرضت للملك الناصر، وشكت إليه فأمر بإطلاقه إلى أن _____

۱ . كلام الإمام ابن دقيق العيد، كما فى فرقان القرآن ص ۹۷ . (۱۲۸)

وقع منه مثل ذلك ثانية، وكنت إذ ذاك بدمشق. فحضرته يوم الجمعة، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكّرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: إنّ اللّه ينزل إلى سماء الدنيا كنزولى هذا، ونزل درجة من درج المنبر، فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء، وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه، وضربوه بالأيدى والمنال ضرباً كثيراً»(۱). * * * الثانى: إنّ ابن تيمية ومن لفّ لفّه يستدلون على مقالتهم بالقياس، ويقولون: إنّ الوجه، والعين، واليدين، والقدمين والساق صفات مثل سائر الصفات، كالحياة والعلم والإرادة، فكما أنّ له سبحانه حياة لا كحياة الإنسان، فهكذا صفاته الخبرية، فله وجه لا كالوجوه، ويد لا كالأيدى، ورجل لا كالرجل .

يلاحظ عليه: أنّ الاستدلال بالقياس فى مجال العقائد أشد خطأ من الاستدلال به فى المسائل الفقهية، وعلى فرض الصحة فالقياس مع الفارق، وذلك أنّ كلا- من العلم والقدرة موضوع لمعنى غير متقيد بالجسم والمادة، فالعلم من ينكشف لديه المعلوم، والقادر من يستطيع على الفعل عن اختيار، فلأجل ذلك لكل واحد منهما مراتب ودرجات، فمنه حصولى ومنه حضورى، فمنه زائد على الذات، ومنه عين الذات، وأمّا الصفات الخبرية كالوجه فإنها موضوعة على الموجود المادى الّذى له شكل خاص، ولو كانت له مصاديق متفاوتة كوجه الإنسان والفرس والأسد فإنما هى فى إطار الجسم المادى، فالوجه بأى نحو أطلق يجب أن يكون موجوداً مادياً متهيئاً بهيئة خاصة، فالوجه الفاقد للمادة والهيئة، ليس وجهاً لغة، ومثله الرجل واليد، فالقول بأنّ له سبحان يداً لا كالأيدى، إن أُريد منه التأويل، أى تأويله بالقدرة، فهذا هو الّذى ذهب إليه أهل التنزيه، وإن أُريد به المعنى اللغوى بلا تدخل ولا تصرف، ومع ذلك فهو يفقد المادة والهيئة والشكل فهذا أشبه بالتناقض. * * * _____

۱ . ابن بطوطة: الرحلة ص ۹۵ ـ ۹۶ طبع دار صادر (۱۳۸۴ هـ). (۱۲۹) الثالث: إنّ ابن تيمية ينسب إلى السلف بأنّهم لا يؤوّلون ظواهر الكتاب فى مجال الصفات الخبرية، ثم يستنتج منه أنهم يحملونها على ظواهرها اللغوية، ويقولون: إنّ للّه وجهاً ويداً ورجلا، ونزولا ونقلة بنفس معانيها اللغوية، غاية الأمر أنّ الكيف مجهول .

يلاحظ عليه: أنّ ما نسب إلى السلف إذا كان صحيحاً يهدف إلى توقّفهم فى تعيين المراد وتفويض الأمر إلى اللّه، إذ فى الأخذ بالظاهر اليدوى مغبة الجهة والتجسيم، وفى تعيين المراد مظنة التفسير بالرأى، فكانوا لا يخوضون فى هذه الأبحاث الخطرة، وأمّا أنهم يحملونها على ظواهرها ويفسرونها بنفس معانيها الابتدائية التصورية، كما زعمه ابن تيمية، فهو افتراء على المثبتين منهم . نعم، كان أهل التحقيق يخوضون فى هذه المباحث ويعينون المعنى المراد، وهذا ما يطلق عليه التأويل، ولكن التأويل صحيح على وجه، وباطل

علی وجه آخر، فإن کان هناک شاهد علیه فی نفس الآیة والحدیث، أو کان التأویل من قسم المجاز البیّن الشائع، فالحق سلوکه من غیر توقف، وإن لم یکن فی النصوص علیه شاهد، أو کان من المجاز البعید، فهذا هو التأویل الباطل، وهو یلازم الخروج عن الملة والدخول فی الکفر والإلحاد. کما أنّ التأویل بلا قید و شرط کفر وضلال، کما علیه الباطنیة، فهکذا التعبد بالظواهر الابتدائیة والمعانی التصوریة، وعدم الاعتناء بالقرائن المتصلة أو المنفصلة أیضاً کفر وضلال وتعبّد بالتجسیم والتشبیه. إنّ المتحرّی للحقیقة یتبع الحق ولا یخاف من الإرهاب والإرعاب، ولا من التنابز بالألقاب، فلا یهوله ما یسمع من ابن تیمیة وابن عبدالوهاب من تسمیة المنزهین للحق عن الجهة والمکان، معطّلة وجهمیة، وتلقیب القائلین ببدع الیهود والنصاری بالموحدین والمثبتین، فلا یصرفنّک النبز بالألقاب إلی الإنحراف عن الحق الصراح، الّذی أرشدک إلیه کتاب اللّه وسنة رسوله القویمة، والعقل الّذی به عرفت اللّه سبحانه، وبه عرفت رسله ومعاجزه وآیاته . (۱۳۰)

ومما یدل علی أنّ السلف لا یحملون الصفات الخبریة علی ظواهرها، بل لا یتکلمون ویفوضون الأمر إلی اللّه، هو ما نقل عن عالم المدینة مالک بن أنس عندما سئل عن قوله سبحانه: (ثمَّ استوی علی العرش)أنّه کیف استوی؟ قال: الإستواء معلوم، والکیف غیر معقول(۱). نعم إنّ ابن تیمیة وأبناء الوهابیة یحکون عنه أنّه قال: «الکیف مجهول»، والفرق بین العبارتین واضح، فالأول یهدف إلی التنزیه، والثانی یناسب التجسیم، إذ معناه أنّ لاستوائه علی العرش کیفیة من الکیفیات ولکنها مجهولة لنا. ویدل علی أن الوارد هو «غیر معقول» ما جاء فی ذیل الروایة أنّ مالک بعدما سمع السؤال وأجاب بما ذکرناه، علته الرحضاء، أی العرق الکثیر وقال: «ما أظنک إلاّ صاحب بدعة» وما ظنّه کذلک إلاّ لأنّ سؤاله کان عن الکیفیة، فأحس أن السائل یرید إثبات الکیفیة لاستوائه سبحانه، فأخذته الرحضاء من سؤاله واعتقاده . * * * الرابع: إنّ ابن تیمیة یکرر کثیراً استواءه سبحانه علی العرش، ویعتمد علی ظاهره، ویتخیل أنّ الإستواء بمعنی الاستقرار أو الجلوس، ولکنّه تستراً لمذهبه، یضیف إلیه «بلا تکییف» ولأجل رفع الستر عن معنی الآیة نأتی بکلام شیخ السلف من المفسرین أبی جعفر الطبری، ولا یشک أحد فی أنّه سلفی، فهو یقول:

الاستواء فی کلام العرب منصرف علی وجوه: ۱- انتهاء شباب الرجل وقوته، ویقال: إذا صار کذلک قد استوی الرجل . ۲- استقامة ما کان فیه أود من الأُمور والأسباب. یقال: استوی لفلان أمره إذا استقام له بعد أود، ومنه قول الطرماح: _____

۱ . نقله الذهبی فی کتابه «العلو» عن مالک وشیخه ربیعة، کما نقله أیضاً بالسند عن أبی عبداللّه الحاکم وابن زرعة، لاحظ فرقان القرآن ص ۱۴ ـ ۱۵ ونقله عن الإلکائی فی شرح السنة. (۱۳۱)

طال علی رسم محدد أبده * وعفا واستوی به بلده یعنی استقام به . ۳- الإقبال علی الشیء بالفعل، کما یقال: استوی فلان علی فلان، بما یکرهه ویسوءه بعد الإحسان إلیه . ۴- الاختیار والاستیلاء، کقولهم: استوی فلان علی المملکة، أی احتوی علیها وحازها. ۵- العلو والارتفاع، کقول القائل: استوی فلان علی سریره، یعنی به علوه علیه . ثم قال: وأولی المعانی بقول اللّه جلّ ثناؤه: (ثمّ استوی إلی السماء فسوّاهنّ): علا علیهن وارتفع، قد برهن بقدرته وخلقهن سبع سماوات(۱) . وهذا الشیخ السلفی لا یفسر الاستواء علی العرش، بالجلوس ولا بالاستقرار، بل بعلو الملک والسلطان، کما هوالمراد من قوله سبحانه:(وَهُوَ العَلِیّ العَظِیمُ)(۲)، والعرب الذین نزل القرآن بلغتهم لا یفهمون من الاستواء إذا وقع وصفاً لموصوف بالقدرة والعظمة، سوی العلوّ، قال الشاعر: قد استوی بِشْرٌ علی العراقِ * من غیر سیف ودم مهراق وقال الآخر: ولما علونا واستوینا علیهم * ترکناهم مرعیً لنسر وکاسر والأسف أنّ ابن تیمیة وأتباعه إذ فسروا الاستواء بالعلو، یفسرونه بالعلو بالمکان، ولا یدرون أن الفضیلة والکرامة فی العلو المعنوی لا العلو المکانی، فما قیمة العلو فی المکان إذا لم یکن هناک علو معنوی، وهذا هو القرآن یرکّز علی العلو المعنوی، ویقول: (وَلاَ تَهِنُوا وَ لاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَونَ إن کُنْتُمْ مُؤْمِنِینَ)(۳)، وقال سبحانه: (ألاّ تَعْلُوا عَلَیّ وَ أْتُونی _____

۱ . تفسیر الطبری ج ۱ ص ۱۵۰، سورة البقرة الآیة ۲۹ ط دارالمعرفة .

۲ . سورة البقرة: الآیة ۲۵۵ .

۳ . سورة آل عمران: الآية ۱۳۹ . (۱۳۲) مُسْلِمينَ)(۱) وقال سبحانه: (إنّ فِرْعَوْنَ عَلا فى الأرْضِ وَجَعَلَ أهْلَهَا شِيَعاً)(۲) وقال تعالى: (وَ أنْ لاَ تَعْلُوا عَلَى اللّه إنّى آتِيكُم بِسُلطَان مُبِين)(۳) وقال: (لاَ تَخَفْ إنّكَ أَنْتَ الأعْلَى)(۴) .

هـذا كلّه حـول الاسـتواء، وأمّـا العرش فهو سـرير الملـك الّـذى يجلس عليه للحكم، وهـذا هو أصـل الوضع، ثم يكنّى به عن السـلطة والسـيطرة، حتّى صار يسـتعمل فى هذا المعنى ولا ينصرف إلى المعنى اللغوى، فإذا كان الملك آخذاً بزمام الأُمور ومسيطراً على البلد وأهله يقال: اسـتوى على العرش، أو هو مستو عليه، وإذا كان ضعيفاً فى الإدارة غير نافذ أمره فى البلد وأهله، وكان هناك انتفاضة بعد انتفاضة، يقال: إنّه غير مسـتو على عرشه . ومن تتبّع القرآن الكريم وأمعن النظر فى الموارد الّتى ورد فيها اسـتواؤه سـبحانه على العرش فى موارد متعـددة يجـد أنّه ذكر مقروناً بفعل من أفعاله، دال على غناه المطلق، مثل رفع السـماوات بغير عمـد، قال سـبحانه: (اللّهُ الّذى رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَها، ثُمَّ استَوى عَلَى العَرْشَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ)(۵)، أو (خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أيّام) . وإليـك الآيـات الّتى جـاء فيهـا هـذا الأمر، قال سـبحانه: (إنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذى خَلَقَ السَّمواتِ وَ الأرضَ فى سِتَّةِ أيّام، ثُمَّ اسْتوى عَلَى العَرْشِ، يُغشى اللَّيلَ النَّهارَ)(۶) وقال سبحانه: (اللّهُ الَّذى خَلَقَ السَّمواتِ وَ الأرضَ فِى سِتَّةِ أيّام، ثُمّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأمرَ، ما مِنْ شَفِيع إلاّ مِنْ بَعْدِ إذنِهِ)(۷)، وقال سبحانه: (اللّهُ الّذى خَلَقَ السّمواتِ وَ الأرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا _____

۱ . سورة النمل: الآية ۳۱ .

۲ . سورة القصص: الآية ۴ .

۳ . سورة الدخان: الآية ۱۹ .

۴ . سورة طه: الآية ۶۸ .

۵ . سورة الرعد: الآية ۲ .

۶ . سورة الأعراف: الآية ۵۴ .

۷ . سـورة يونس: الآيـة ۳ . (۱۳۳) فى سِتَّةِ أيّـام، ثُمّ اسْـتَوَى عَلَى العَرْشِ الرّحمنُ فَسْـئَلْ بِهِ خَبِيراً)(۱) وقال سـبحانه: (اللّهُ الّذى خَلَقَ السّـمواتِ وَ الأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فى سِتَّةِ أيّام ثُمّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَ لاَ شَفِيع أفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ)(۲) وقال سبحانه: (هُوَ الّذى خَلَقَ السَّمواتِ وَ الأرْضَ فِى سَـتَّةَ أيّام ثُمّ استَوى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْها وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيها)(۳) .

والناظر فى هـذه الآيات يرى أنّه سبحانه عنـدما يذكر اسـتواءه على العرش يذكر آثار قدرته وعظمته من خلق السـماوات والأرض فى ستـة أيام، وتـدبيره الأمر «يـدبّر الأمر»، وأنّه لا مؤثّر ولا موجـد إلاّ بإذنه «ما من شـفيع إلاّ من بعـد إذنه»، ومن علمه الوسـيع بما يلج فى الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السـماء وما يعرج فيها. كلّ ذلك يعرب عن أنّ الآيـة فى جميع الموارد تهـدف إلى علوّه سبحانه على عالم الوجود الإمكانى، وأنّه بجملته فى سلطانه وقـدرته، ولا يخرج شـىء من حيطـة قـدرته، وأين هذا من تفسـيره بالجلوس على العرش فوق السماوات ناظراً إلى ما دونه.(تَعَالَى عَمّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً). ولو تتّبع المعاصرون المنتمون إلى السلف يجدون خير السلف كالطبرى(۴) يفسـر «الواسع» فى قوله: (واللّهُ وَاسِعٌ عَلِيم)(۵) ويقول: واللّه واسع الفضـل، جواد بعطايـاه، فزوّجوا إماءكم فإنّ اللّه واسع يوسع عليهم من فضـله إن كانوا فقراء، كما أنّ الشـيخ البخارى يفسر الوجه فى قوله: (كُلُّ شَىء هَالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ) بالملك(۶) . * * *

---

۱ . سورة الفرقان: الآية ۵۹ .

۲ . سورة السجدة: الآية ۴ .

۳ . سورة الحديد: الآية ۴ .

۴ . تفسير الطبرى ج ۱۸ ص ۹۸ .

۵ . سورة النور: الآية ۳۲ .

۶ . صحيح البخارى ج ۶ ص ۱۱۲، تفسير سورة القصص، الآية ۸۸ . (۱۳۴) الخامس:إنّ الفرقة المشبهة ليست وليدة عصرنا هذا، بل لها عرق ممتدّ إلى زمن التابعين، الّذى كثرت فيه مسلمة اليهود والنصارى، فأدخلوا فى الأحاديث ما يروقهم من العقائد، فتأثر بهم السذّج من المسلمين والمحدثين، فأولئك هم المعروفون بالحشوية نسبة إلى الحشو (بسكون الشين) وهو اللغو الّذى لا اعتبار له، فضلا عن أن يكون منسوباً إلى اللّه ورسوله، أو مذهباً يدان اللّه به، وما زال أهل الحق لهم بالمرصاد.

وقد كان القول بالتجسيم والتشبيه ردّ فعل لما كان عليه علىّ ـ عليه السَّلام ـ وأولاده من الدعوة إلى التنزيه، والاجتناب عن التشبيه، فى مجال الحق وذاته وصفاته، نعم حكى عن الإمام أبى حنيفة أنه قال: «أتانا من المشرق رأيان خبيثان، جهم معطّل ومقاتل مشبّه، فأفرط جهم فى النفى (نفى الصفات الجسمانية) حتّى قال: «وإنّ اللّه ليس بشىء» وافرط مقاتل فى الإثبات، حتّى جعل اللّه تعالى مثل خلقه»(۱) . ولكن الإمام أبا حنيفة تسامح فى نسبة التجسيم إلى مقاتل، بل لها جذور فى الأحاديث المروية فى الصحاح والمسانيد التى دسها مسلمة اليهود والنصارى فى الأحاديث، وكثير من المحدثين راقتهم تلك الأحاديث، وبما أنّ علياً وابناء بيته الطاهر كانوا على التنزيه، وهذه خُطَبهُ الرفيعة الرائعة فى تنزيه الحق، حاولت السلطة الأموية أنْ تُروّج كل حديث يتضمّن ضدّ ما كان عليه علىّ، ويُحترم كل محدث يجنح إلى بثّ هذه الخرافات . السادس: إنّ أتباع ابن تيمية ومن كان على ذاك الخطّ قبله من الحشوية، يفرّون من الاستدلال والبرهنة وعلم الكلام والمناظرة، ويحرّمون الاستماع إلى البراهين العقلية والمجادلة بالتى هى أحسن، ولكنّه من تمويهاتهم الّتى يريدون بها دعم مبادئهم وصيانتها عن النقد والإشكال، وكأنهم لم يسمعوا قول اللّه سبحانه: (...قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إنْ كُنْتُم صَادِقين)(۲) أو قوله سبحانه: _____

۱ . تهذيب التهذيب ج ۱۰ ص ۲۸۱ ترجمة مقاتل .

۲ . سورة البقرة: الآية ۱۱۱ . (۱۳۵) (الّذين يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَه...)(۱) أو قوله سبحانه: (ادعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بَالْحِكْمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتى هِىَ أحسنُ)(۲).

والكل يهدف إلى أنّ المسلم الواعى إنّما يتّبع البرهان ولا يعرض عنه، ولا يعطّل عقله حتّى يميّز الأحسن عن غيره، ويجادل المخالف بالبرهان والدليل. نعم لو أُريد من علم الكلام، المراء والجدال وكسب العظمة والمقام، فلا شك أنّه مرغوب عنه . نعم، ليس لهم هدف من تحريم البحث والنظر إلّا الستر لعوار بدعهم، وعقائدهم الباطلة، ولا يجحد النظر فى العقائد إلّا أحد رجلين: رجل غبىّ يشق عليه سلوك أهل التحصيل والناس أعداء ما جهلوا، ورجل يعتقد بمذاهب فاسدة يخاف من ظهور عوار مذهبه وفضائح عقيدته . هذا قليل مما ذكره ابن تيمية وأتباعه فى الصفات الخبرية، ولو أردنا أن نستقصى كلمات الرجل فى المقام لطال بنا الكلام، ولنكتف بهذا المقدار، وقد عرفت الحق، والحق أحق أن يتّبع . _____

۱ . سورة الزمر: الآية ۱۸ .

۲ . سورة النحل: الآية ۱۲۵ . (۱۳۶)

ابن تيمية وشد الرحال إلى زيارة النبى ـ صلَّى الله

ابن تيمية وشد الرحال إلى زيارة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ

ذهب ابن تيمية إلى أنّ شد الرحال إلى زيارة قبر رجل صالح حرام، وقال: ثبت فى الصحيحين عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ أنّه قال: «لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا» ثم قال: ولو نذر السفر إلى قبر الخليل ـ عليه السَّلام ـ أو قبر النبى لم يجب الوفاء بهذا النذر بإتفاق الأئمة الأربعة، فإنّ السفر إلى هذه المواضع منهّى عنه لنهى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : «لا تشد الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد...» فإذا كانت المساجد الّتى هى من بيوت اللّه، الّتى أمر فيها بالصلوات الخمس،

قد نهی عن السفر إلیها، فإذا کان مثل هذا ینهی عن السفر إلیه، فما ظنک بغیرها؟ فقد رخص بعض المتأخرین فی السفر إلی المشاهد ولم ینقلوا ذلک عن أحد من الأئمة، ولا احتجوا بحجة شرعیة ـ إلی أن قال ـ: وکل حدیث یروی فی زیارة قبر النبی فإنه ضعیف، بل موضوع، ولم یرو أهل الصحاح والسنن والمسانید، کمسند أحمد وغیره من ذلک شیئاً، ولکن الّذی فی السنن ما رواه أبو داود عن النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ أنه قال: «ما من رجل یسلّم علیّ إلاّ ردّ اللّه علیّ روحی حتّی أرد علیه السلام، فهو یردّ السلام علی من سلم علیه عند قبره ویبلغ [إلیه] سلام من سلم علیه من البعید، کما فی النسائی عنه أنّه قال: «إنّ اللّه وکل بقبری ملائکة یبلغون لأمتی السلام» وفی السنن عنه أنه قال: «أکثروا علی من الصلاة یوم الجمعة (۱۳۷)

ولیلة الجمعة، فإن صلاتکم معروضة علیّ(۱) . أقول: إن هنا مسألتین: الأولی: شد الرحال إلی زیارة الأنبیاء والصالحین . الثانیة: حکم زیارة قبر الصلحاء والأنبیاء والنبی الأعظم، وإن لم یکن هناک شد للرحال، ونحن ندرس کلتا المسألتین فی ضوء الکتاب والسنة، فنقول:

أفتی ابن تیمیة بتحریم شدّ الرحال إلی زیارة الصلحاء والأنبیاء والأئمة مستدلا بما ورد من النهی من شد الرحال إلی غیر المساجد الثلاثة، والاستدلال بهذا یتوقف علی الإمعان فی سند الحدیث ودلالته، فنقول: روی الحدیث بصور ثلاث، والّذی یصحّ الإستدلال به إنّما هو الصورة الأولی والثانیة لا الثالثة، وإلیک البیان: ۱- لا تشد الرحال إلاّ إلی ثلاثة مساجد: مسجدی هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصی. ۲- إنما یسافر إلی ثلاثة مساجد: مسجد الکعبة، ومسجدی، ومسجد إلیاء. ۳- تشد الرحال إلی ثلاثة مساجد(۲). فلو قلنا بأنّ لفظة «إنما» تفید الحصر، تکون الصورة الثانیة مثل الصورة الأُولی فی إفادة الحصر، وإلاّ فینحصر الاستدلال بالصورة الأُولی، فلنفترض أنّ الحدیث ورد علی نمط الصورتین الأُولیین، فنقول: إنّ الاستثناء _____

۱ . مجموعة الرسائل الکبری ج ۲ ص ۵۷ ـ ۶۵ الرسالة الثالثة فی زیارة بیت المقدس .

۲ . أورد مسلم هذه الأحادیث فی صحیحه ج ۴ ص ۱۲۶، کتاب الحج باب (لا تشد الرحال) وذکره أبو داود فی سننه ج ۱ ص ۴۶۹ کتاب الحج، وکذلک النسائی فی سننه المطبوع مع شرح السیوطی ج ۳ ص ۳۷ و ۳۸ وقد ذکر السبکی صوراً أُخری للحدیث هی أضعف دلالة علی مقصود المستدل، لاحظ شفاء السقام ص ۹۸ . (۱۳۸)

لا یستغنی عن وجود المستثنی منه، وحیث لم یذکر فی کلامه، فیلزم تقدیره وهو أحد الأمرین: أ ـ لا تشد الرحال إلی مسجد من المساجد إلاّ إلی ثلاثة . ب ـ لا تشد الرحال إلی مکان من الأمکنة إلاّ إلی ثلاثة مساجد . أمّا الأول فیجب علینا ملاحظة الأمور التالیة: الأول: إنّ الحدیث لو دلّ علی شیء فإنما یدلّ علی النهی عن شدّ الرحال إلی مسجد سوی المساجد الثلاثة، وأمّا شد الرحال إلی الأماکن الأُخری فالحدیث ساکت عنه، غیر متعرّض لشیء من أحکامه، بل النفی والإثبات یتوجّهان إلی المسجد، فالمساجد ینهی عن شد الرحال إلیها غیر المساجد الثلاثة، والاستدلال به علی حکم شد الرحال إلی المنتزهات و المراکز العلمیة أو الصناعیة أو مقابر الأولیاء والشهداء أو الصدیقین والصلحاء فهو ساکت عنه، ومن العجیب أن نستدل به علی تحریم شد الرحال إلیها . الثانی: إنّ النهی عن شد الرحال إلی غیر هذه المساجد لا یعنی تحریمه بل یعنی نفی الفضیلة فیه، وذلک لأنّ المساجد سوی الثلاثة، لمّا کانت متساویة فی الفضیلة والثواب فلا ملزم لتحمّل العبء بشد الرحال إلیها، فالمساجد الجامعة متساویة فی الفضیلة فی عامة البلاد، فلا وجه لشد الرحال إلی مسجد لإقامة الصلاة فیه، ولکنّه إذا شدّ الرحال بقصد الصلاة فیه والعبادة لربّه، لا یعد عمله محرماً، بل غایة الأمر لا یترتب علیه ثواب خاص .

وبذلک یتبین بطلان ما ذکره ابن تیمیة من الاستدلال بالأولویة بأنّه إذا حرم شد الرحال إلی غیر هذه الثلاثة مع أنه من بیوت اللّه الّتی أمر فیها بالصلوات الخمس یکون شد الرحال إلی زیارة القبور حراماً بطریق أولی، إذ لیست ساحة القبور مراکز للعبادة، فهی أقل درجة من سائر المساجد . وجه الضعف أنّ الإستدلال مبنی علی أنّ التحریم تحریم مولوی تعبدی، وأما علی ما استظهرناه من أن النهی إرشادی إلی أنه لا وجه لتحمل العبء فی هذا الطریق، لتساوی المساجد فی الفضیلة والکرامة، فلا وجه للإستدلال، لترتب

الثواب على زيارة القبور . (۱۳۹) الثالث: إنّ الحديث نص أو ظاهر فی الحصر، مع أنّه ورد فی الصحيح أنّ النبی كان يأتی مسجد قبا راكباً وماشياً يصلّی فيه(۱) فكيف يجتمع هذا العمل مع هذا الحصر، ولسان الحديث لسان الإباء عن التخصيص؟ فلا يصحّ لنا أن نقول إنّ النهی خصّص بعمل النبی، وهذا ربما يكشف عن كون الحديث غير صحيح من رأس، أو أنّه نقل محرّفاً، خصوصاً أنّه نقل عن طريق أبی هريرة، والاستدلال بمتفرداته أمر مشكل، وقد تنبّه ابن تيمية لهذا الإشكال فحاول أن يرفع التناقض بين الحصر، فقال: «إنّه يستحب لمن كان بالمدينة أن يذهب إلى مسجد قبا» ولكنّه لا يرفع الإشكال، فإنّ الكلام فی تخصيص النص الدال على الحصر، وأنّه لا يشد إلى غيره أبداً، سواء المقيم والمسافر.

هذا كله على فرض كون المستثنى منه هو المسجد، وقد عرفت كونه أجنبياً عن السفر إلى غير المساجد، وبما أنّ المستثنى منه هو المسجد فالمناسب هو كون المستثنى من هذا القبيل . وأمّا على التقدير الثانی وهو تقدير الأماكن وما يقاربه ويعادله، فلازم ذلك أن تكون كافة الأسفار محرّمة غير السفر إلى المساجد الثلاثة، وهل يلتزم بذلك مسلم، وهل يفتی به أحد؟ كيف ولو كان الحديث بصدد منع كافة الأسفار المعنوية، فكيف كان النبی والمسلمون يشدّون الرحال فی موسم الحج إلى عرفات والمشعر ومنى، وهذا دليل على أنّ المستثنى منه هو المساجد لا ـ الأماكن . أضف إلى ذلك أنّ الذكر الحكيم والأحاديث الصحيحة حثّا على السفر إلى طلب العلم، والجهاد فی سبيل اللّه، وصلة الرحم، وزيارة الوالدين، قال سبحانه: (فَلَوْلاَ ـ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٌ مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِی الدّينَ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِم لَعَلَّهُم يَحْذَرُونَ)(۲) . _____

۱ . صحيح مسلم ج ۴ ص ۱۲۷ وصحيح البخاری ج ۲ ص ۱۷۶ السنن للنسائی، المطبوع مع شرح السيوطی ج ۲ ص ۱۲۷ .

۲ . سورة التوبة: الآية ۱۲۲ . (۱۴۰)

مضافاً إلى ما ورد فی السفر لطلب الرزق، فلو كان الحكم عاماً، فما معنى هذه التخصيصات الكثيرة الوافرة الّتی تنافی البلاغة، والّتی تزلزل الحصر، وهناك كلمة قيّمة للغزالی فی إحياء العلوم يقول: «القسم الثانی هو أن يسافر لأجل العبادة إمّا لحج أو جهاد.. ويدخل فی جملة زيارة قبور الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ وزيارة قبور الصحابة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يتبرك بمشاهدته فی حياته، يتبرك بزيارته بعد وفاته، ويجوز شد الرحال لهذا الغرض، ولا يمنع من هذا قوله ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ : «لا تشدّ الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: مسجدی هذا والمسجد الحرام و المسجد الأقصى» لان ذلك فی المساجد، فإنّها متماثلة (فی الفضيلة) بعد هذه المساجد، وإلّا فلا فرق بين زيارة قبور الأنبياء والأولياء والعلماء فی أصل الفضل، وإن كان يتفاوت فی الدرجات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند اللّه(۱) . تحليل آخر للنهی عن السفر

ولنفترض أنّ المستثنى منه هو الأمكنة، ولكن المتبادر من الحديث أن يكون الدافع إلى السفر هو تعظيم ذلك المكان، فيختص النهی بما إذا أُريد من شد الرحال إلى مكان، تعظيمه ولو بإيقاع العبادة فيه، وعندئذ يخرج السفر إلى زيارة النبی عن منطوق الحديث، لأنّه لا يسافر لتعظيم بقعته، وإنما يسافر لزيارة من فيها مثل ما لو كان حياً. ويؤيد ذلك أمران: ۱- روی عن بعض التابعين أنّه سأل ابن عمر أنّه يريد أن يأتی الطور، فأجابه: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد... ودع الطور فلا تأته(۲) . ۲- أفتى الجمهور بأنّه لو نذر أن يأتی مسجداً من المساجد سوى الثلاثة _____

۱ . كتاب إحياء علوم الدين للغزالی ج ۲ ص ۲۴۷، كتاب آداب السفر، طبعة دار المعرفة بيروت .

۲ . الفتاوى الكبرى ج ۲ ص ۲۴ . (۱۴۱)

فلا ينعقد النذر، فإنّه ليس فی قصد مسجد بعينه غير الثلاثة قربة مقصودة، وما لا يكون قربة ولا عبادة فهو غير ملزم بالنذر . كل ذلك يحدد مصب الحديث وهدفه، وأنّ المقصود هو المنع عن تعظيم مكان تشد الرحال إليه، وأمّا إذا كانت الغاية تعظيم من عظّمه اللّه سبحانه وأكرمه ورزقه فضلا كبيراً ـ كما قال -: (وَ كانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)(۱)، فهو خارج عن مورد الحديث . ومع ذلك فإنّ النهی عن شد الرحال إلى مكان خاص ليس لغاية تحريمه، وإنما هو إرشاد إلى نفی الفضيلة. قال ابن قدامة الحنبلی: «إن سافر لزيارة

القبور والمشاهد فقال ابن عقيل لا يباح له الترخص لأنه منهى عن السفر إليها، قال النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: لا تشد الرحال إلاّ ـ إلى ثلاثة مساجد، والصحيح إباحته وجواز القصر فيه، لأنّ النبى كان يأتى قبا ماشياً وراكباً، وكان يزور القبور، وقال: زوروها تذكركم الآخرة، وأمّا قوله ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد، فيحمل على نفى الفضيلة، لا على التحريم، فليست الفضيلة شرطاً فى إباحة القصر ولا يضر انتفاؤها(۲) . هذا كله حول الحديث وتحديد مضمونه، وقد عرفت أنّ شد الرحال إلى زيارة النبى خارج عن موضوع الحديث على كلا التقديرين، فالاستدلال به على التحريم باطل جداً . الدليل على جواز السفر إلى زيارة القبور

ثم إنّ هنا سؤالا يثار فى المقام، وهو أنّ الحديث وإن كان قاصراً عن إثبات التحريم، ولكن ما هو الدليل على جواز السفر لزيارة قبر النبى أو سائر _____

۱ . سورة النساء: الآية ۱۱۳ .

۲ . المغنى لابن قدامة المتوفى سنة ۶۲۰، ج ۲ ص ۲۱۷ ـ ۲۱۸، وذكر فى ج ۳ ص ۴۹۸ استحباب الزيارة، وكيفية زيارة النبى فلاحظ، وما نقله عن ابن عقيل غير ثابت، لأنّ السبكى نقل عنه خلافه، لاحظ شفاء السقام ص ۱۱۳ . (۱۴۲)

القبور، خصوصاً إذا كان السفر دينياً ومنسوباً إلى الشرع، فإنّ الإفتاء بجوازه بما أنّه عمل يؤتى به لأجل كونه أمراً دينياً يحتاج إلى الدليل، وإلى الجواب: يدل على جواز السفر لفيف من الدلائل، وإليك بيانها: الأول: ما ورد من الحث على زيارة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وستوافيك نصوصها فإنّها بين صريح فى جواز السفر أو مطلق يعم المقيم والمسافر، فقول النبى وفعله حجتان، أمّا قوله: فقد روى عن عبداللّه بن عمر أنّه قال: قال النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: من جاءنى زائراً لا تعمله (تحمله) إلاّ زيارتى كان حقاً علىّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة. روى أيضاً عن عبداللّه بن عمر عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ أنّه قال: من حجّ فزار قبرى بعد وفاتى كان كمن زارنى فى حياتى . والثانى صريح فى جواز السفر، والأول مطلق يعم المسافر والمقيم فى المدينة، وستوافيك هذه النصوص عن أعلام المحدثين . وأمّا فعله، فقد روى عن طلحة بن عبداللّه قال: خرجنا مع رسول اللّه يريد قبور الشهداء ـ إلى أن قال ـ : فلمّا جئنا قبور الشهدا، قال: هذه قبور إخواننا(۱) . الثانى: الإجماع، لإطباق السلف والخلف، لأنّ الناس لم يزالوا فى كل عام إذا قضوا الحج يتوجهون إلى زيارته ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ، وإن منهم من يفعل ذلك قبل الحج، قال السبكى: هكذا شاهدناه، وشاهده من قبلنا وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة، وكلهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه وإن لم يكن طريقهم، ويقطعون فيه مسافة بعيدة، وينفقون فيه الأموال، ويبذلون فيه المهج، معتقدين أنّ ذلك قربة وطاعة، وإطباق هذا الجمع العظيم من _____

۱ . أخرجه أبو داود فى سننه ج ۱ ص ۳۱۱، والبيهقى فى السنن الكبرى ج ۵ ص ۲۴۹ والمراد من الشهداء شهداء أحد، كما هو مورد الحديث . (۱۴۳)

مشارق الارض ومغاربها على مرّ السنين وفيهم العلماء والصلحاء وغيرهم، يستحيل أن يكون خطأ، وكلهم يفعلون ذلك على وجه التقرب به إلى اللّه عزّوجلّ، ومن تأخر فإنّما يتأخر بعجز أو تعويق المقادير مع تأسفه عليه، وودّ لو تيسّر له، ومن ادّعى أنّ هذا الجمع العظيم مجمع على خطأ فهو المخطىء . وما ربما يقال من أنّ سفرهم إلى المدينة لأجل قصد عبادة أُخرى وهى الصلاة فى المسجد، باطل جداً. فإنّ المنازعة فيما يقصده الناس مكابرة فى أمر البديهة، فمن عرف الناس أنهم يقصدون بسفرهم الزيارة من حين يعرجون إلى طريق المدينة، ولا يخطر غير الزيارة من القربات إلاّ ببال قليل منهم، ولهذا قلّ القاصدون إلى بيت المقدس مع تيسّر إتيانه، وإن كان فى الصلاة فيه من الفضل ما قد عرفت، فالمقصود الأعظم فى المدينة، كما أنّ المقصود الأعظم فى مكة، الحج أو العمرة، وصاحب هذا السؤال إن شك فى نفسه فليسأل كل من توجّه إلى المدينة ما قصد بذلك(۱) . الثالث: إنّه إذا كانت الزيارة قربة وأمراً مستحباً على الوجه العام والخاص، فالسفر وسيلة القربة، والوسائل معتبرة بالمقاصد، فيجوز قطعاً. الرابع: ما نقله المؤرخّون عن بعض الصحابة والتابعين .

۱- قال ابن عساكر فى ترجمة بلال: إنّ بلالا رأى فى منامه رسول اللّه وهو يقول له: ما هذه الجفوة يا بلال، اما آن لك أن تزورنى يا بلال؟ فانتبه حزيناً، وجلا، خائفاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فجعل يبكى عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين - رضى اللّه عنهما ـ فجعل يضمّهما ويقبّلهما، فقالا له: نشتهى نسمع أذانك الّذى كنت تؤذن به لرسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ففعل، فعلا سطح المسجد، فوقف موقفه الّذى كان يقف فيه، فلمّا أن قال: «اللّه أكبر، اللّه أكبر» ارتجّت المدينة، فلمّا أن قال: «أشهد أن لا إله إلاّ اللّه»، ازدادت رجّتها، فلمّا أن قال: «أشهد أنّ محمداً رسول اللّه» خرجت العواتق من _____

۱ . شفاء السقام، فى زيارة خير الأنام لتقى الدين السبكى ص ۸۵ ـ ۸۶ ط بولاق مصر . (۱۴۴)

خدورهن فقالوا: أبعث رسول اللّه؟ فما رئى يوماً أكبر باكياً بالمدينة بعد رسول اللّه من ذلك اليوم(۱) . ۲- إنّ عمر بن عبد العزيز كان يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقرىء النبى السلام، ثم يرجع، قال السبكى: إنّ سفر بلال فى زمن صدر الصحابة، ورسول عمر بن عبدالعزيز فى زمن صدر التابعين من الشام إلى المدينة لم يكن إلّا للزيارة والسلام على النبى، ولم يكن الباعث على السفر غير ذلك من أمر الدنيا، ولا من أمر الدين، ولا من قصد المسجد، ولا غيره . ۳- إنّ عمر لمّا صالح أهل بيت المقدس، وقدم عليه كعب الأحبار وأسلم، وفرح عمر بإسلامه، قال عمر له: هل لك أن تسير معى إلى المدينة وتزور قبر النبى وتتمتّع بزيارته؟ فقال لعمر: أنا أفعل ذلك، ولما قدم عمر المدينة أول ما بدأ بالمسجد، سلم على رسول اللّه(۲) . ۴- ذكر ابن عساكر فى تاريخه وابن الجوزى فى مثير الغرام الساكن بأسانيدهما إلى محمد بن حرب الهلالى قال: دخلت المدينة، فأتيت قبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وزرته وسلمت بحذائه، فجاءه أعرابى فزاره، ثم قال: يا خير الرسل، إنّ اللّه أنزل إليك كتاباً صادقاً قال فيه: (وَلَوْ أَنّهمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرَوا اللّه واستَغفَرَ لَهُمُ الرّسُولُ لَوَجَدُوا اللّه تَوّاباً رَحيماً) وإنّى جئتك مستغفراً ربك من ذنوبى، مستشفعاً فيها بك إلى ربى، ثم بكى وأنشأ يقول: يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم نفسى الفداء لقبر ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم وقد ذيّله أبو الطيب أحمد بن عبدالعزيز بأبيات وقال: وفيه شمس التقى والدين قد غربت من بعد ما أشرقت من نورها الظلم _____

۱ . شفاء السقام ص ۴۴ ـ ۴۷ وقد نقله من مصادر كثيرة، قال: وذكره الحافظ أبو محمد عبدالغنى المقدسى فى «الكمال فى ترجمة بلال».

۲ . المصدر نفسه . (۱۴۵)

حاشا لوجهك أن يبلى وقد هديت فى الشرق والغرب من أنواره الأُمم(۱) وبذلك تعرف قيمة ما ذكره ابن تيمية حول السفر إلى المشاهد وقال: وقد رخّص بعض المتأخرين فى السفر إلى المشاهد، ولم ينقلوا ذلك عن أحد من الأئمة، ولا احتجّوا بحجّة شرعية(۲) . وبما أنّك تعرّفت على الحجج الشرعية على الجواز، هلمّ معى ندرس نصوص الأعلام من علماء الإسلام لنعرف موقف ابن تيمية فى التثبّت والأمانة، وإليك نصوصهم حول السفر للزيارة نقتطف موضع الحاجة من كلماتهم: نصوص الأعلام على جواز السفر لزيارة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ

لعل القارىء يتصوّر أنّ لما ذكره ابن تيمية من عدم الإفتاء بجواز السفر، مسحة من الحق والصدق، ولكنّه إذا أمعن النظر فيما وصل إلينا من فتاواهم، يقف على أنّ الحق على ضد ما نسب إليهم، وإليك البيان: ۱- قال أبو الحسن أحمد بن محمد المحاملى الشافعى المتوفّى سنة (۴۲۵ هـ) فى «التجريد»: ويستحب للحاج إذا فرغ من مكة أن يزور قبر النبى . ۲- وقال أبو الحسن الماوردى المتوفّى سنة (۴۵۰ هـ)، فى الأحكام السلطانية، ص ۱۰۵: «فإذا عاد (ولى الحاج) سار بهم على طريق المدينة لزيارة قبر رسول اللّه، ليجمع لهم بين حج بيت اللّه عزّوجلّ وزيارة قبر رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ، رعاية لحرمته، وقياماً بحقوق طاعته(۳) . ۳- وقال أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الفقيه البغدادى الحنبلى المتوفّى سنة (۵۱۰ هـ) فى كتاب الهداية: «فإذا فرغ من الحج استحب له زيارة قبر

النبی وقبر صاحبیه». ۴- قال القاضی عیاض المالکی،المتوفّی سنة (۵۴۴ هـ) فی «الشفاء»، نقلا _____

۱ . شفاء السقام ص ۵۲ .

۲ . نفس المصدر .

۳ . مجموعة الرسائل الکبری ج ۲ ص ۶۰ . (۱۴۶)

عن إسحاق بن إبراهیم الفقیه: «ممّا لم یزل من شأن من حج، المزور(۱) بالمدینة والقصد إلی الصلاة فی مسجد رسول اللّه، والتبرک برؤیة روضته ومنبره وقبره ومجلسه، وملامس یدیه، ومواطن قدمیه، والعمود الّذی استند إلیه، ومنزل جبرئیل بالوحی فیه علیه، ومن عمره وقصده من الصحابة وائمة المسلمین . ۵- قال أبو محمد عبدالکریم بن عطاء اللّه المالکی المتوفی سنة (۶۱۲ هـ) فی مناسکه: فصل: إذا کمل لک حجک وعمرتک علی الوجه المشروع، لم یبق بعد ذلک إلّا إتیان مسجد رسول اللّه للسلام علی النبی والدعاء عنده، والسلام علی صاحبیه، والوصول إلی البقیع وزیارة ما فیه من قبور الصحابة والتابعین . ۶- وقال نجم الدین بن حمدان الحنبلی المتوفی سنة (۵۹۵ هـ) فی الرعایة الکبری فی الفنون الحنبلیة: «ویسن لمن فرغ من نسکه، زیارة قبر النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وقبر صاحبیه، وله بعد فراغ حجه، وإن شاء قبل فراغه» . ۷- قال القاضی الحسین: «إذا فرغ من الحج... ثم یأتی المدینة ویزور قبر النبی» . ۸- قال الإمام ابن الحاج محمد بن محمد العبدری القیروانی المالکی، المتوفی سنة (۷۳۷ هـ) فی (المدخل) فی فصل زیارة القبور (۱: ۲۵۷): وأمّا عظیم جناب الأنبیاء والرسل ـ صلوات اللّه وسلامه علیهم أجمعین ـ فیأتی إلیهم الزائر، ویتعیّن علیه قصدهم من الأماکن البعیدة. ۹- قال الشیخ تقی الدین السبکی الشافعی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ) فی «شفاء السقام فی زیارة خیر الأنام»: «ومن روی عنه السفر إلی زیارة النبی، بلال بن أبی رباح» ثم ذکر قصته. لاحظ الباب الثالث من کتاب شفاء السقام فقد عقده فی ما ورد فی السفر إلی زیارته . ۱۰- ذکر شیخ الإسلام أبو یحیی زکریا الأنصاری الشافعی المتوفی _____

۱ . مصدر میمی بمعنی الزیارة . (۱۴۷)

سنة (۹۲۵ هـ) فی «أسنی المطالب» (۱/۵۰۱) «فیما یستحب لمن حج»: ثم یزور قبر النبی ویسلم علیه وعلی صاحبیه بالمدینة المشرفة.. ۱۱- أفتی الشیخ محمد بن الخطیب الشربینی المتوفی سنة (۹۷۷ هـ) فی مغنی المحتاج (۱/۳۵۷) باستحباب زیارة النبی مطلقاً، وأنّ تخصیص بعض باستحبابه بعد الفراغ عن الحج لأجل التأکید، وأنّه یتأکد للحاج أکثر من غیره . ۱۲- وقال الشیخ زین الدین عبد الرؤوف المناوی المتوفی سنة (۱۰۳۱ هـ) فی شرح الجامع الصغیر، ج ۶ ص ۱۴۰: وزیارة القبر الشریف من کمالات الحج . ۱۳- عقد الشیخ حسن بن عمار الشرنبلالی فی «مراقی الفلاح بإمداد الفتاح» فصلا فی زیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وقال: زیارة النبی من أفضل القربات فإنّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ حرض علیها وبالغ فی الندب إلیها فقال: من وجد سعة فلم یزرنی فقد جفانی . ۱۴- وقال القاضی شهاب الدین الخفاجی الحنفی المصری المتوفی سنة (۱۰۶۲ هـ) فی شرح الشفاء (۳/۵۶۶) واعلم أنّ هذا الحدیث «لا تشدّ الرحال إلّا إلی ثلاثة مساجد...» هو الّذی دعا ابن تیمیة ومن معه کابن القیم إلی مقالته الشنیعة الّتی کفّروه بها، وصنّف فیها السبکی مصنفاً مستقلا وهی منعه من زیارة قبر النبی وشد الرحال إلیه، وهو کما قیل: لمهبط الوحی حقاً ترحل النجب * وعند ذاک المرجّی ینتهی الطلب فتوهمّ أنّه حمی جانب التوحید بخرافات لا ینبغی ذکرها. ۱۵- قال الشیخ عبدالرحمن شیخ زاده المتوفی سنة (۱۰۸۷ هـ) فی مجمع الأنهر فی شرح ملتقی الأبحر (۱/۱۵۷): «من أحسن المندوبات، بل یقرب من درجة الواجبات زیارة قبر نبینا وسیدنا محمد، وقد حرض ـ علیه السَّلام ـ علی زیارته وبالغ فی الندب إلیها، ثم قال: فإن کان الحج فرضاً فالأحسن أن یبدأ به إذا لم یقع فی طریق الحاج المدینة المنورة، ثم یثنی بالزیارة. (۱۴۸)

۱۶- قال أبو الحسن السندی محمد بن عبدالهادی الحنفی المتوفی سنة (۱۱۳۸هـ) فی شرح سنن ابن ماجة ج ۲ ص ۲۶۸ قال الدمیری: فائدة: زیارة النبی من أفضل الطاعات وأعظم القربات، لقوله من جاءنی زائراً لا تحمله حاجة إلّا زیارتی کان حقاً علیّ أن أکون له شفیعاً یوم القیامة . ۱۷- قال الشیخ إبراهیم الباجوری الشافعی المتوفی سنة (۱۲۷۷ هـ) فی حاشیته علی شرح ابن الغزی علی متن الشیخ

أبى شجاع فى الفقه الشافعى، (۱/۳۴۷): ويسن زيارة قبره ولو لغير حاج ومعتمر كالذى قبله، ويسن لمن قصد المدينة الشريفة لزيارته أن يكثر من الصلاة والسلام عليه فى طريقه . ۱۸- قال الشيخ عبدالمعطى السقاء فى الإرشادات السنية ص ۲۶۰: زيارة النبى إذا أراد الحاج أو المعتمر الانصراف من مكة ـ أدام اللّه تشريفها وتعظيمها ـ طلب منه أن يتوجّه إلى المدينة المنورة للفوز بزيارته عليه الصلاة والسلام . ۱۹- وقال الشيخ محمد زاهد الكوثرى فى تكملة السيف الصقيل ص ۱۵۶ : ولم يخف ابن تيمية من اللّه فى رواية عدّ السفر لزيارة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ سفر معصية لا تقصر فيه الصلاة عن الإمام ابن الوفاء ابن عقيل الحنبلى ـ وحاشاه عن ذلك ـ راجع كتاب التذكرة له تجد فيه مبلغ عنايته بزيارة المصطفى والتوسل به، كما هو مذهب الحنابلة، ثم ذكر كلامه وفيه القول باستحباب قدوم المدينة وزيارة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وكيفية زيارته(۱) . وهذه النصوص تدل على أنّ شد الرحال إلى زيارة النبى الأكرم كان أمراً متسالماً عليه، وقد شذّ من حرّمه وسعى فى منع الناس من زيارته . ۲۰- ثم إنّ تقى الدين السبكى ذكر فروعاً فقهية عن أئمة المذاهب، _____

۱ . قد أخذنا هذه النصوص برمتها من كتاب الغدير للمحقق الأمينى من ج ۵ ص ۱۰۹ ـ ۱۲۵ وقد نقل أربعين كملة عن أعلام المذاهب الأربعة حول زيارة النبى الأقدس، ونحن اقتطفنا منه ذلك، ويدل على استحباب السفر فقط، وأما استحباب زيارته فسيوافيك فى فصل آخر . (۱۴۹)

تدل على محبوبية شد الرحال إليها من أرجاء الدنيا، فمن أراد فليرجع إليه(۱). وفيما ذكرنا من النصوص غنى، كما أنّ فيما ذكرنا من الحجج كفاية لمن أراد الحق وتجنب عن العصبية، فحان حين البحث حول نظريته فى نفس الزيارة، وما أثار حولها من شبهات . * * * (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ افْتَرَى عَلَى اللّه كَذِباً أَوْ كَذّبَ بآياتِهِ إنّهُ لاَ يُفْلِحُ الظّالِمُونَ)(۲) . _____

۱ . شفاء السقام ص ۴۲ .

۲ . سورة الأنعام: الآية ۲۱ .

ابن تيمية ورأيه فى زيارة النبى ـ صلَّى الله عليه

ابن تيمية ورأيه فى زيارة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ

المعروف من ابن تيمية وأبناء الوهابية هو جواز زيارة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وتحريم السفر إليها، لكن ما نقلناه فى البحث الثانى ينافى ذلك، فإنّ الظاهر أنّه يحرّم أصل الزيارة وقد عرفت أنّه قال: كل حديث يروى فى زيارة قبر النبى فإنّه ضعيف، بل موضوع، ولم يرو اهل الصحاح والسنن والمسانيد كمسند أحمد وغيره من ذلك شيئاً(۱). وقال السبكى: قد يتوهم أنّ نزاع ابن تيمية قاصر على السفر للزيارة دون أصل الزيارة، وليس كذلك، بل نزاعه فى الزيارة أيضاً كما سنذكره من الشبهتين وهما: ۱- كون الزيارة على هذا الوجه المخصوص بدعة . ۲- كون الزيارة من تعظيم غير اللّه المفضى إلى الشرك . وما كان كذلك، كان ممنوعاً، وعلى هاتين الشبهتين بنى كلامه، وقد نقل السبكى فتياً بخط ابن تيمية ولكن كلامه فيها مضطرب، ففى صدرها ما يشعر بمنع الزيارة مطلقاً، وفى ذيلها ما يقتضى أنّه إذا كانت الزيارة بمعنى السلام عليه والدعاء له، جازت، ويطابق ذلك ما نقلناه عن الرسالة الثالثة. والحاصل أنّه يقسم الزيارة إلى الزيارة البدعية والزيارة الشرعية فيجوّز _____

۱ . مجموعة الرسائل الكبرى ج ۲ ص ۶۵ الرسالة الثالثة . (۱۵۱)

الثانية ويقصرها فى السلام على الميت والدعاء له إن كان مؤمناً، يقول: فالزيارة لقبر المؤمن، نبياً كان أو غير نبى من جنس الصلاة على جنازته، يدعى له كما يدعى إذا صلى على جنازته(۱). فاللازم البحث عن زيارة القبور أولا، وزيارة قبر النبى الأعظم بشخصه ثانياً . * * * زيارة القبور فى السنة

لا ـ شك أنّ زيارة القبور تنطوى على آثار أخلاقية وتربوية هامة، لأنّ مشاهدة هذا الوادى الهادى ـ الّذى يضم فى أعماقه مجموعة

کبیرة من الذین عاشوا فی هذا الحیاة الدنیا ثم انتقلوا إلی الآخرة ـ تخفّف روح الطمع والحرص علی الدنیا، ولربما یغیّر الإنسان سلوکه فی هذه الحیاة، فیترک الجرائم والمنکرات، ویتوجّه إلی اللّه والآخرة . ولذا یقول الرسول الأعظم: ۱- «زوروا القبور فإنها تذکرکم الآخرة»(۲) . ودل بعض الأحادیث علی أنّ النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ نهی عن زیارة القبور فی أول الأمر، ولعل النهی کان لأجل أن الأموات یوم ذاک کانوا مشرکین وعبدة للأصنام، فنهی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ عن زیارة الأموات، ولمّا کثر الشهداء بین المسلمین وماتت مجموعة کبیرة من المسلمین فی المدینة وأطرافها، رخّص النبی بإذن من اللّه سبحانه وقال: ۲- «کنت نهیتکم عن زیارة القبور، فزوروها فإنها تزهد فی الدنیا وتذکر الآخرة»(۳) . _____

۱ . شفاء السقام ص ۱۰۷.

۲ . سنن ابن ماجة ج ۱ ص ۱۱۳.

۳ . السنن لابن ماجة ج ۱ ص ۱۱۴ طبعة الهند ـ باب ما جاء فی زیارة القبور، وصحیح الترمذی، أبواب الجنائز ج ۳ ص ۲۷۴ . (۱۵۲)

۳- وروی مسلم فی صحیحه: «زار النبی قبر أُمّه فبکی وأبکی من حوله... وقال: استأذنت ربّی أن أزورَ قبرها فأذن لی، فزوروا القبور فإنّها تذکرکم الموت»(۱) . ۴- وقالت عائشة: «إنّ رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ رخّص فی زیارة القبور»(۲) . ۵- وقالت: إنّ النبی قال: أمرنی ربی أن آتی البقیع فأستغفر لهم. قلت: کیف أقول یا رسول اللّه؟ قال: قولی: السلام علی أهل الدیار من المؤمنین والمسلمین، یرحم اللّه المستقدمین منّا والمستأخرین، وإنّا إن شاء اللّه بکم لاحقون(۳) . وجاء فی أحادیث أُخری نص الکلمات الّتی کان رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ یقولها عند زیارة القبور، وهی: ۶- «السلام علیکم دار قوم مؤمنین، وإنّا وإیاکم متواعدون غدا ومواکلون، وإنّا إن شاء اللّه بکم لاحقون، اللّهمّ اغفر لأهل بقیع الغرقد»(۴) . وجاء فی حدیث آخر نص الکلمات بما یلی: ۷- «السلام علیکم أهل الدیار من المؤمنین والمسلمین، وإنّا إن شاء اللّه بکم لاحقون، أنتم لنا فرط ونحن لکم تبع، أسأل الله العافیة لنا ولکم»(۵) . وفی حدیث ثالث: _____

۱ . صحیح مسلم ج ۳ ص ۶۵ باب استئذان النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ ربه عزّوجلّ فی زیارة قبر أُمه .

۲ . صحیح ابن ماجة ج ۱ ص ۱۱۴ .

۳ . صحیح مسلم ج ۳ ص ۶۴، باب ما یقال عند دخول القبور، السنن للنسائی ج ۳ ص ۷۶.

۴ . السنن للنسائی ج ۴ ص ۷۶ ـ ۷۷ .

۵ . السنن النسائی ج ۴ ص ۵۶ ـ ۷۷ . (۱۵۳)

۸- «السلام علیکم دار قوم مؤمنین، وإنّا إن شاء اللّه بکم لاحقون»(۱) . ویستفاد من حدیث عائشة أن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ کان یخرج إلی البقیع فی آخر اللیل من کل لیلة، ویقول: ۹- «السلام علیکم دار قوم مؤمنین، وآتاکم ما توعدون، غداً مؤجلون وإنّا إن شاء اللّه بکم لاحقون، اللّهمّ اغفر لأهل بقیع الغرقد»(۲) . ویستفاد من حدیث آخر أنّ النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ کان یزور المقابر مع جماعة من أصحابه، ویعلمهم کیفیة الزیارة: ۱۰- «کان رسول اللّه یعلمهم ـ إذا خرجوا إلی المقابر ـ فکان قائلهم یقول: السلام علی أهل الدیار ـ أو ـ السلام علیکم أهل الدیار من المؤمنین والمسلمین، وإنّا إن شاء اللّه لاحقون، أسأل اللّه لنا ولکم العافیة»(۳) . النساء وزیارة القبور

ولعل هنا من یتوهم أن الزیارة تسوغ للرجال دون النساء، لما روی عن النبی: لعن رسول اللّه زوارات القبور(۴) . ویناقض هذا الحدیث ما نقله مسلم فی صحیحه والنسائی فی سننه أنّ النبی زار البقیع مع حلیلته عائشة، وعلّمها کیفیة الزیارة کما مرّ فی الرقم (۵) من الروایات، ولأجل ذلک یجب أن یعالج هذا الحدیث بشکل خاص وهو التفریق بین زائرات القبور وزواراتها، ولعل الثانی کان مقروناً بأُمور محرّمة کالتبرّج المنهی عنه، أو البکاء بما یقترن بالنوح المحرم، أو غیر ذلک من الوجوه الّتی یمکن الجمع بها بین المتعارضین، وإلاّ فأیّ فرق بین الرجل والمرأة فی هذا الأمر حتّی تکون لأحدهما جائزة وللأُخری محرّمة، لولا المحذورات الخاصة؟

۱ . السنن لأبی داود ج ۲ ص ۱۹۶ .

۲ . صحیح مسلم ج ۳ ص ۶۳ باب ما یقال عند القبور .

۳ . صحیح مسلم ج ۳ ص ۱۱، باب ما یقال عند دخول القبر .

۴ . صحیح ابن ماجة ج ۱ ص ۴۷۸، کتاب الجنائز الطبعة الأولی بمصر . (۱۵۴)

أضف إلی ذلک جریان السیرة بین المسلمین حتّی فی نفس عصر الصحابة والتابعین علی زیارة السیدات لقبور أعزائها، فهذه السیدة فاطمة الزهراء ـ علیها السَّلام ـ کانت تخرج إلی زیارة قبر عمها حمزة فی کل جمعة، أو أقلّ من ذلک، وکانت تصلّی عند قبره وتبکی(۱) . وهذه عائشة زوجة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ لما جاءت إلی مکة خرجت لزیارة قبر أخیها عبدالرحمن بن أبی بکر، وأنشدت بیتین من الشعر فی رثائه(۲) . هذا کله فی زیارة قبور المسلمین، وأمّا زیارة أولیائهم من النبی والأئمة والشهداء والصالحین فلا شک أنّ لزیارتهم نتائج بنّاءة، نشیر إلیها: إنّ زیارة مراقد هذه الشخصیات هو نوع من الشکر والتقدیر لتضحیاتهم، وإعلام للجیل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الذین یسلکون طریق الحق والهدی والفضیلة، والدفاع عن المبدأ والعقیدة، وهذا لا یدفعنا إلی زیارة قبورهم وحدها، بل یدفعنا إلی إبقاء ذکریاتهم حیّة ساخنة، والمحافظة علی آثارهم، وإقامة المهرجانات فی ذکری مواالیدهم، وعقد المجالس وإلقاء الخطب المفیدة فی أیام رحلاتهم، وهذا شیء مما یدرکه کل ذی مسکة، فلأجل ذلک نری أنّ أبناء الأُمم الحیة یتسابقون فی زیارة مدافن رؤسائهم وشخصیاتهم الذین ضحوا أنفسهم و أموالهم فی سبیل إحیاء الشعب و اسقلاله، و نجاته من ید المستعمرین والظالمین، ویقیمون الذکریات المئویة لإحیاء معالمهم وآثارهم وأسمائهم، ولا یخطر ببال أحد أنّ هذه الأُمور عبادة لهم، فأین التعظیم والتعزیز للشخصیات من عبادتهم؟ فإنّ التعظیم تقدیر لجودهم، والعبادة رمز لألوهیتهم وربوبیتهم، فهل منّا من یخلط بین الأمرین؟ إذا وقفت علی الآثار البنّاءة لزیارة مطلق القبور، وزیارة قبور الأولیاء والصالحین، وتعرّفت علی مجموعة من الروایات الحاثّة علی زیارة قبور دار

۱ . مستدرک الصحیحین للحاکم ج ۱ ص ۲۷۷ .

۲ . صحیح الترمذی ج ۴ ص ۲۷۵، کتاب الجنائز باب ما جاء فی زیارة القبور . (۱۵۵)

المؤمنین، فلنذکر خصوص ما ورد من الروایات الّتی فیها الحث علی زیارة قبر النبی الأعظم ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ . قد نقل قاضی القضاة تقی الدین أبو الحسن عبدالکافی السبکی ۱۵ حدیثاً فی ذلک المجال وتکلم فی أسنادها و صحّح کثیراً منها (۱) . کما قام العلامة السمهودی المتوفّی سنة (۹۱۱ هـ) فی کتابه القیم (وفاء الوفاء بأحوال دار المصطفی) بنقل روایات کثیرة فی ذلک المجال(۲) . کما أنّ فقهاء المذاهب الأربعة فی مصر العزیزة فی العصر الحاضر أفتوا بأن زیارة قبر النبی أفضل المندوبات. ورد فیها أحادیث. وقد اعتمدوا علی روایة عبداللّه بن عمر عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أنه قال: (من زار قبری وجبت له شفاعتی)(۳). وبما أنّ العلامة الأمینی قد تحمّل جهوداً جبارة فی جمع الأحادیث الواردة حول زیارة النبی الأکرم، والفحص عن مظانّها ومصادرها من أقدم العصور إلی عصرنا هذا، فنحن ـ تقدیراً لجهوده الجبارة ومثابرته الجلیلة فی هذا الطریق ـ ننقل عن تلک الموسوعة نفس الروایات ومصادرها. قال قدس سره: (۱)

عن عبداللّه بن عمر مرفوعاً: «من زار قبری وجبت له شفاعتی». أخرجته أُمة من الحفاظ وأئمة الحدیث، منهم: ۱- عبید بن محمد أبو محمد الوراق النیسابوری المتوفی سنة (۲۵۵ هـ) . ۲- ابن أبی الدنیا أبو بکر عبدالله بن محمد القرشی المتوفی سنة (۲۸۱ هـ).

۱ . شفاء السقام فی زیارة خیر الأنام، ص ۳ ـ ۳۴، الباب الأول: فی الأحادیث الواردة فی الزیارة .

۲ . وفاء الوفاء ج ۴ ص ۱۳۳۶ .

۳ . الفقه علی المذاهب الأربعة ج ۱ ص ۵۰۵ . (۱۵۶)

۳- الدولابی أبو بشر محمد الرازی المتوفی سنة (۳۱۰ هـ) فی الکنی والأسماء ج ۲ ص ۶۴ . ۴- محمد بن إسحاق أبو بکر النیسابوری المتوفی سنة (۳۱۱ هـ) الشهیر بابن خزیمة، أخرجه فی صحیحه . ۵- الحافظ محمد بن عمرو أبو جعفر العقیلی المتوفی سنة (۳۲۲ هـ) فی کتابه . ۶- القاضی المحاملی أبو عبداللّه الحسین البغدادی المتوفی سنة (۳۳۰ هـ) . ۷- الحافظ أبو أحمد بن عدی المتوفی سنة (۳۶۵ هـ) فی الکامل. ۸- الحافظ أبو الشیخ أبو محمد عبداللّه بن محمد الأنصاری المتوفی سنة (۳۶۹ هـ) . ۹- الحافظ أبو الحسن علی بن عمر الدارقطنی المتوفی سنة (۳۸۵ هـ) فی سننه . ۱۰- أقضی القضاة أبو الحسن الماوردی المتوفی سنة (۴۵۰ هـ) فی «الأحکام السلطانیة» ص ۱۰۵ . ۱۱- الحافظ أبوبکر البیهقی المتوفی سنة (۴۵۸ هـ) فی «السنن» وغیره . ۱۲- القاضی أبو الحسن علی بن الحسن الخلعی الشافعی المتوفی سنة (۴۹۲ هـ) فی فوائده . ۱۳- الحافظ إسماعیل بن محمد بن الفضل القرشی الإصبهانی المتوفی سنة (۵۳۵ هـ) . ۱۴- القاضی عیاض المالکی المتوفی سنة (۵۴۴ هـ) فی «الشفاء» . ۱۵- الحافظ أبو القاسم علی بن عساکر المتوفی سنة (۵۷۱ هـ)، فی تاریخه فی باب (من زار قبره ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وهذا الباب أسقطه المهذب من الکتاب فی طبعه، واللّه یعلم سر تحریفه هذا وما أضمرته سریرته . ۱۶- الحافظ أبو طاهر أحمد بن السلفی المتوفی سنة (۵۷۶ هـ) . ۱۷- أبو محمد عبدالحق بن عبدالرحمن الأندلسی المتوفی سنة (۱۵۷)

(۵۸۱ هـ) الأحکام الوسطی والصغری(۱). ۱۸- الحافظ ابن الجوزی المتوفی سنة (۵۹۷ هـ) فی «مثیر الغرام الساکن» . ۱۹- الحافظ علی بن مفضل المقدسی الإسکندرانی المالکی المتوفی سنة (۶۱۱ هـ) . ۲۰- الحافظ أبو الحجاج یوسف بن خلیل الدمشقی المتوفی سنة (۶۴۸ هـ) . ۲۱- الحافظ أبو محمد عبدالعظیم المنذری المتوفی سنة (۶۵۶ هـ). ۲۲- الحافظ أبو الحسین یحیی بن علی القرشی الأموی المالکی المتوفی سنة (۶۶۲ هـ). فی کتابه «الدلائل المبینة فی فضائل المدینة». ۲۳- الحافظ أبو محمد عبدالمؤمن الدمیاطی المتوفی سنة (۷۰۵ هـ). ۲۴- الحافظ أبو الحسین هبة اللّه بن الحسن . ۲۵- أبو الحسن یحیی بن الحسن الحسینی فی کتاب «أخبار المدینة» . ۲۶- أبو عبداللّه محمد بن محمد العبدری الفاسی المالکی الشهیر بابن الحاج المتوفی سنة (۷۳۷ هـ)، فی «المدخل» ج ۱ ص ۲۶۱ . ۲۷- تقی الدین علی بن عبدالکافی السبکی الشافعی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، بسط القول فی ذکر طرقه فی شفاء السقام، ص ۳ ـ ۱۲ وقال فی ص ۸: والرواة جمیعهم إلی موسی بن هلال ثقاة لا ریبة فیهم، وموسی بن هلال، قال ابن عدی: أرجو أنه لا باس به، هو من مشایخ أحمد، وأحمد لم یکن یروی إلّا عن ثقة، وقد صرح الخصم بذلک فی الرد علی البکری . ثم ذکر شواهد لقوة سنده فقال: وبذلک تبین أن اقل درجات هذا الحدیث أن یکون حسناً إن نوزع فی دعوی صحته، إلی أن قال: وبهذا بل ــــــــــــــــــــــ

۱ . قال فی خطبة الأحکام الصغری: أنه تخیرها صحیحة الأسناد معروفة عند النقاد، قد نقلها الإثبات وتداولها الثقاة، وقال فی خطبة الوسطی: إنَّ سکوته عن الحدیث دلیل علی صحته... الخ راجع (شفاء السقام) ص ۹ . (۱۵۸)

بأقل منه یتبین افتراء من ادّعی أن جمیع الأحادیث الواردة فی الزیارة موضوعة، فسبحان اللّه! أما الستحی من اللّه ومن رسوله فی هذه المقالة الّتی لم یسبقه إلیها عالم ولا جاهل، لا من أهل الحدیث ولا من غیرهم؟ ولا ذکر أحد موسی بن هلال ولا غیره من رواة حدیثه هذا بالوضع، ولا اتهمه به فیما علمنا، فکیف یستجیز مسلم أن یطلق علی کل الأحادیث الّتی هو واحد منها موضوعة، ولم ینقل إلیه ذلک عن عالم قبله، ولا ظهر علی هذا الحدیث شیء من الأسباب المقتضیة للمحدثین للحکم بالوضع، ولا حکم متنه بما یخالف الشریعة، فمن أی وجه یحکم بالوضع علیه لو کان ضعیفاً؟ فکیف وهو حسن وصحیح . ۲۸- الشیخ شعیب عبداللّه بن سعد المصری، ثم المکی الشهیر بالحریفیش المتوفی سنة (۸۰۱ هـ) فی «الروض الفائق» ج ۲ ص ۱۳۷ . ۲۹- السید نور الدین علی بن عبداللّه الشافعی القاهری السمهودی(۱) المتوفی سنة (۹۱۱ هـ) فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۴ . ۳۰- الحافظ جلال الدین عبدالرحمن السیوطی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ) فی «الجامع الکبیر» کما فی ترتیبه: ج ۸ ص ۹۹ . ۳۱- الحافظ أبو العباس شهاب الدین القسطلانی(۲) المتوفی سنة (۹۲۳ هـ)، فی «المواهب اللدنیة» من طریق الدارقطنی، وقال: رواه عبد الحق فی أحکامه الوسطی والصغری وسکت عنه، وسکوته عن

الحديث فيه دليل على صحته . ۳۲- الحافظ ابن الديبغ أبو محمد الشيبانى المتوفى سنة (۹۴۴ هـ)، فى «تمييز الطيب من الخبيث» ص ۱۶۲ . ۳۳- الشيخ شمس الدين محمد الخطيب الشربينى المتوفى سنة (۹۷۷ هـ)، فى «المغنى» ج ۱ ص ۴۹۴ عن صحيح ابن خزيمة . ۳۴- زين الدين عبد الرؤوف المناوى المتوفى سنة (۱۰۳۱ هـ)، فى «كنوز _____

۱ . السمهود قرية كبيرة غربى نيل مصر .

۲ . نسبة إلى قسطلة بلدة بالأندلس . (۱۵۹)

الحقائق» ص ۱۴۱، وشرح الجامع الصغير للسيوطى ج ۶ ص ۱۴۰ . ۳۵- الشيخ عبدالرحمن شيخ زاده المتوفى سنة (۱۰۷۸ هـ)، فى «مجمع الأنهر» ج ۱ ص ۱۵۷. ۳۶- أبو عبداللّه محمد بن عبدالباقى الزرقانى المصرى المالكى المتوفى سنة (۱۱۲۲ هـ) فى «شرح المواهب» ج ۸ ص ۲۹۸ نقلا عن أبى الشيخ وابن أبى الدنيا . ۳۷- الشيخ إسماعيل بن محمد الجراحى العجلونيى المتوفى سنة (۱۱۶۲ هـ)، فى «كشف الخفاء» ج ۲ ص ۲۵۰ نقلا عن أبى الشيخ، وابن أبى الدنيا، وابن خزيمة. ۳۸- الشيخ محمد بن على الشوكانى المتوفى سنة (۱۲۵۰ هـ)، فى «نيل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۵ نقلا عن غير واحد من أئمة الحديث . ۳۹- الشيخ محمد بن السيد درويش الحوت البيرونى المتوفى سنة (۱۲۷۶ هـ) فى «حسن الأثر» ص ۲۴۶ . ۴۰- السيد محمد بن عبداللّه الدمياطى الشافعى المتوفى سنة (۱۳۰۷ هـ)، فى «مصباح الظلام» ج ۲ ص ۱۴۴ . ۴۱- عدة من فقهاء المذاهب الأربعة فى مصر اليوم فى «الفقه على المذاهب الأربعة» ج ۱ ص ۵۹۰ (۲) .

عن عبداللّه بن عمر مرفوعاً: «من جاءنى زائراً لا تعمله إلّا زيارتى، كان حقاً على أن أكون له شفيعاً يوم القيامة. وفى لفظ: لا تحمله إلّا زيارتى. وفى آخر: لم تنزعه حاجة إلّا زيارتى وفى رابع: لا ينزعه إلّا زيارتى كان حقاً على اللّه عزّوجلّ، وفى خامس للغزالى: لا يهمه إلاّ زيارتى أخرجه جمع من الحفاظ لا يستهان بهم وبعدتهم منهم: ۱- الحافظ أبو على سعيد بن عثمان السكن البغدادى المتوفى بمصر (۱۶۰)

سنة (۳۵۳ هـ) فى كتابه «السن الصحاح» جعل فى آخر كتاب الحج (باب ثواب من زار قبر النبى) ولم يذكر فى الباب غير هذا الحديث. قال السبكى فى «شفاء السقام» ص ۱۶: وذلك منه حكم بأنه مجمع على صحته بمقتضى الشرط الّذى شرطه فى الخطبة، وابن السكن هذا إمام حافظ ثقة كثير الحديث واسع الرحلة... الخ . قال فى خطبة كتابه: اما بعد: فإنك سألتنى أن أجمع لك ما صحّ عندى من السنن المأثورة الّتى نقلها الأئمة من أهل البلدان، الذين لا يطعن عليهم طاعن فيما نقلوه، فتدبرت ما سألتنى عنه فوجدت جماعة من الأئمة قد تكلفوا ما سالتنى من ذلك وقد وعيت جمع ما ذكروه، وحفظت عنهم أكثر ما نقوله، واقتديت بهم، وأجبتك إلى ما سألتنى من ذلك، وجعلته أبواباً فى جميع ما يحتاج إليه من احكام المسلمين، فأول من نصب نفسه لطلب صحيح الآثار: البخارى وتابعه مسلم، وأبو داود، والنسائى وقد تصفحت ما ذكروه وتدبرت ما نقلوه فوجدتهم مجتهدين فيما طلبوه، فما ذكرته فى كتابى هذا مجملاً فهو مما أجمعوا على صحته، وما ذكرته بعد ذلك مما يختاره أحد من الأئمة الذين سميتهم، فقد بينت حجته فى قبول ما ذكره، ونسبته إلى اختياره دون غيره، وما ذكرته مما يتفرد به أحد من أهل النقل للحديث فقد بينت علته، ودللت على انفراده دون غيره، وباللّه التوفيق . ۲- الحافظ أبوالقاسم الطبرانى المتوفى سنة (۳۶۰ هـ)، أخرجه فى معجمه الكبير . ۳- الحافظ أبو بكر محمد بن إبراهيم المقرى الإصبهانى المتوفى سنة (۳۸۱ هـ)، فى معجمه . ۴- الحافظ أبو الحسن الدارقطنى المتوفى سنة (۳۸۵ هـ)، أخرجه فى أماليه . ۵- الحافظ أبو نعيم الإصبهانى المتوفى سنة (۴۰۲ هـ). ۶- القاضى أبو الحسن على بن الحسن الخلعى الشافعى المتوفى سنة (۴۹۲ هـ) صاحب «الفوائد» . (۱۶۱)

۷- حجة الإسلام أبو حامد الغزالى الشافعى المتوفى سنة (۵۰۵ هـ)، فى «إحياء العلوم» ج ۱ ص ۲۴۶ . ۸- الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة (۵۷۱ هـ)، صاحب «تاريخ الشام» . ۹- الحافظ أبو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقى المتوفى سنة (۶۴۸ هـ) . ۱۰- الحافظ يحيى بن على القرشى الأموى المالكى المتوفى سنة (۶۲۲ هـ) . ۱۱- الحافظ أبو على الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد فى كتابه . ۱۲-

تقی الدین السبکی الشافعی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ) فصل القول فی طرق هذا الحدیث، وأخرجه من طرق شتی وصححه فی «شفاء السقام» ص ۱۳ ـ ۱۶ . ۱۳- السید نور الدین علی بن عبداللّه الشافعی القاهری السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۶، ذکره من طرق شتی، منها طریق الحافظ ابن السکن فقال: ومقتضی ما شرطه فی خطبته أن یکون هذا الحدیث مما أجمع علی صحته ثم قال: قلت: ولهذا نقل عنه جماعة منهم الحافظ زین الدین العراقی أنه صححه... الخ . ۱۴- أبو العباس شهاب الدین القسطلانی المتوفی سنة(۹۲۴ هـ)، فی «المواهب اللدنیة» وقال: صححه ابن السکن . ۱۵- الشیخ محمد الخطیب الشربینی المتوفی سنة (۹۷۷ هـ)، فی «مغنی المحتاج» شرح المنهاج ج ۱ ص ۴۹۴ وقال: رواه ابن السکن فی سننه الصحاح المأثورة . ۱۶- الشیخ عبدالرحمن شیخ زاده المتوفی سنة (۱۰۷۸ هـ)، فی «مجمع الأنهر» ج ۱ ص ۱۵۷. (۳)

عن عبداللّه بن عمر مرفوعاً: «من حج فزار قبری بعد وفاتی کان کمن زارنی فی حیاتی» وفی غیر واحد من طرقه زیادة: وصحبنی. أخرجه جمع من الحفاظ منهم: (۱۶۲)

۱- الحافظ عبد الرزاق أبو بکر الصنعانی المتوفی سنة (۲۱۱ هـ) . ۲- الحافظ أبو العباس الحسن بن سفیان الشیبانی المتوفی سنة (۳۰۳ هـ) . ۳- الحافظ أبو یعلی أحمد بن علی الموصلی المتوفی سنة (۳۰۷ هـ) فی مسنده . ۴- الحافظ أبو القاسم عبداللّه بن محمد البغوی سنة (۳۱۷ هـ) . ۵- الحافظ أبو القاسم الطبرانی المتوفی سنة (۳۶۰ هـ) . ۶- الحافظ أبو أحمد بن عدی المتوفی سنة (۳۶۵ هـ) فی «الکامل» . ۷- الحافظ أبو بکر محمد بن إبراهیم المقری المتوفی سنة (۳۸۱ هـ) . ۸- الحافظ أبو الحسن الدارقطنی المتوفی سنة (۳۸۵ هـ)، فی سننه وغیرها. ۹- الحافظ أبوبکر البیهقی المتوفی سنة (۴۵۸ هـ) فی سننه ج ۵ ص ۲۴۶ . ۱۰- الحافظ ابن عساکر الدمشقی المتوفی سنة (۵۷۱ هـ) فی تاریخه . ۱۱- الحافظ ابن الجوزی المتوفی سنة (۵۹۷ هـ) فی «مثیر الغرام الساکن إلی أشرف الأماکن» . ۱۲- الحافظ أبو عبداللّه بن النجار البغدادی المتوفی سنة (۶۴۳ هـ)، فی کتابه «الدرة الثمینة فی أخبار المدینة» . ۱۳- الحافظ أبو الحجاج یوسف بن خلیل الدمشقی المتوفی سنة (۶۴۸ هـ) . ۱۴- الحافظ أبو محمد عبدالمؤمن الدمیاطی المتوفی سنة (۷۰۵ هـ). ۱۵- أبو الفتح أحمد بن محمد بن أحمد الحداد فی کتابه . ۱۶- الحافظ أبو الحسین المصری . ۱۷- ولی الدین الخطیب التبریزی فی «مشکاة المصابیح» المتوفی سنة (۷۳۷ هـ)، فی باب حرم المدینة فی الفصل الثالث . ۱۸- تقی الدین السبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، بسط القول فی طرقه فی «شفاء السقام» ص ۱۶ - ۲۱ ورواه عن کثیر من هؤلاء الحفاظ المذکورین وغیرهم . (۱۶۳)

۱۹- الشیخ شعیب عبداللّه المصری الحریفیش المتوفی سنة (۸۰۱ هـ)، فی «الروض الفائق» ج ۲ ص ۱۳۷ . ۲۰- السید نور الدین السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فصل القول فی طرقه فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۷ . ۲۱- الحافظ جلال الدین السیوطی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «الجامع الکبیر» کما فی ترتیبه ج ۸ ص ۹۹ . ۲۲- قاضی القضاة شهاب الدین الخفاجی الحنفی المتوفی سنة (۱۰۶۹ هـ)، فی شرح الشفاء للقاضی عیاض ج ۳ ص ۵۶۷ . ۲۳- الشیخ عبدالرحمن شیخ زاده المتوفی سنة (۱۰۷۸هـ)، فی «مجمع الأنهر» ج ۱ ص ۱۵۷ . ۲۴- الشیخ محمد الشوکانی المتوفی سنة (۱۲۵۰ هـ)، فی «نیل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۵ . ۲۵- السید محمد بن عبداللّه الدمیاطی الشافعی المتوفی سنة (۱۳۰۷ هـ)، فی «مصباح الظلام» ج ۲ ص ۱۴۴ . (۴)

عن عبداللّه بن عمر مرفوعاً: «من حج البیت ولم یزرنی فقد جفانی» أخرجه جمع منهم: ۱- الحافظ أبو حاتم محمد بن حبّان التمیمی البستی المتوفی سنة (۳۵۴ هـ)، فی «الضعفاء» . ۲- الحافظ ابن عدی المتوفی سنة (۳۶۵ هـ)، فی «الکامل» . ۳- الحافظ الدارقطنی المتوفی سنة (۳۸۵ هـ)، فی کتابه أحادیث مالک الّتی لیست فی الموطأ . ۴- تقی الدین السبکی المتوفی سنة (۷۶۵ هـ)، من غیر طریق فی «شفاء (۱۶۴)

السقام» ص ۲۲، وردّ حکم ابن الجوزی علی الحدیث بالوضع . ۵- السید نور الدین السمهودی المتوفی سنة (۹۲۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۸. ۶- أبو العباس شهاب الدین القسطلانی المتوفی سنة (۹۲۲ هـ)، فی «المواهب اللدنیة» نقلا عن ابن عدی، وابن حبان، والدارقطنی. ۷- الشیخ اسماعیل الجراحی العجلونی المتوفی سنة (۱۱۶۲ هـ)، فی «کشف الخفاء» ج ۲ ص ۲۷۸ نقلا عن ابن

عـدی، وابن حبان، والدارقطنی . ۸- الشیخ المرتضی الزبیدی الحنفی المتوفی سنة (۱۲۰۵ هـ)، فی «تـاج العروس» ج ۱۰ ص ۷۴ . ۹- الشیخ محمد الشوکانی المتوفی سنة (۱۲۵۰ هـ)، فی «نیل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۵ . (۵)

عن عمر مرفوعاً: «من زار قبری (أو من زارنی) کنت له شـفیعاً (أو شهیداً) ومن مات فی أحد الحرمین بعثه اللّه عزّوجلّ فی الآمنین یوم القیامـة» أخرجه: ۱- الحافظ أبو داود الطیالیسـی المتوفی سـنة (۲۰۴ هـ)، فی مسـنده ج ۱ ص ۱۲ . ۲- الحافظ أبو نعیم الإصـبهانی المتوفی سنة (۴۳۰ هـ) . ۳- الحافظ البیهقی المتوفی سنة (۴۵۸ هـ) فی «السنن الکبری» ج ۵ ص ۲۴۵ . ۴- الحافظ ابن عساکر الدمشقی المتوفی سنة (۵۷۱ هـ)، فی «تاریخ الشام» . ۵- الحافظ أبو الحجاج یوسف بن خلیل الدمشقی المتوفی سنة (۶۴۸ هـ) . (۱۶۵)

۶- تقی الدین السبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، فی «شفاء السقام» ص ۲۲ . ۷- نور الدین السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۹ . ۸- أبوالعباس القسـطلانی المتوفی سنة (۹۲۳ هـ)، فی «المواهب اللدنیـة». ۹- الحافظ ابن الدبیع المتوفی سـنة (۹۴۴ هـ)، فی «تمییز الطیـب» ص ۱۶۲ . ۱۰- زین الدین عبدالرؤوف المناوی المتوفی سـنة (۱۰۳۱ هـ)، فی «کنوز الحقائق» ص ۱۴۱ . ۱۱- الشیخ إسماعیل العجلونی المتوفی سنة (۱۱۶۲ هـ)، فی «کشف الخفاء» ج ۲ ص ۲۷۸ . (۶)

عن حـاطب بن أبی بلتعـة مرفوعـاً: «من زارنی بعـد موتی فکأنمـا زارنی فی حیـاتی، ومن مات فی أحـد الحرمین بعث یوم القیامـة من الآمنین». أخرجه: ۱- الحافظ أبو الحسن الدارقطنی المتوفی سنة (۳۸۵ هـ)، فی «السنن» . ۲- الحافظ أبو بکر البیهقی المتوفی سنة (۴۵۸ هـ) . ۳- الحافظ ابن عساکر الدمشـقی المتوفی سنة (۵۷۱ هـ) . ۴- الحافظ أبو الحجاج یوسف بن خلیل الدمشـقی المتوفی سنة (۶۴۸ هـ) . ۵- الحافظ أبو عبـداللّه عبدالمؤمن الدمیاطی المتوفی سـنة (۷۰۵ هـ) . ۶- أبو عبـداللّه العبدری المالک ابن الحاج المتوفی سـنة (۷۳۷ هـ)، فی «المدخل». ۷- تقی الدین السبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، فی «شفاء السقام» ص ۲۵ . (۱۶۶)

۸- الشـیخ شعیب الحریفیش المتوفی سنة (۸۱۰ هـ)، فی «الروض الفـائق» ج ۲ ص ۱۳۷ . ۹- نور الدین السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفـاء الوفـاء» ج ۲ ص ۳۹۹ . ۱۰- أبو العباس القسـطلانی المتوفی سـنة (۹۲۳ هـ) فی «المـواهب اللدنیـة» عن البیهقی . ۱۱- الجراحی العجلونی المتوفی سـنة (۱۱۶۲ هـ)، فی «کشف الخفـاء» ج ۲ ص ۵۵۱ عن ابن عساکر والـذهبی، وحکی عن الأخیر أنّه قال: إنّ هذا الحدیث من أجود أحادیث الباب إسناداً. ۱۲- الشیخ محمد الشوکانی المتوفی سنة (۱۲۵۰ هـ) فی «نیل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۵ . ۱۳- الشیخ محمد بن درویش الحوت البیرونی المتوفی سنة (۱۲۷۶ هـ)، فی «حسن الأثر» ص ۲۴۶ . (۷)

عن عبـداللّه بن عمر مرفوعاً: «من حـج حجـة الإسـلام وزار قبری، وغزا غزوة وصـلی علیّ فی بیت المقـدس لم یسأل اللّه عزوجل فیما افترض علیه» . أخرجه الحافظ محمـد بن الحسین بن أحمـد أبو الفتـح الأزدی المتوفی سـنة (۳۷۴ هـ)، فی فوائـده، ورواه عنه الحـافظ السـلفی أبو طاهر الإصبهانی المتوفی سنة (۵۷۶ هـ) بإسـناده، وأخرجه بالطریق المذکور تقی الدین السبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ) فی «شـفاء السـقام» ص ۲۵، وذکره السـید السـمهودی المتوفی سـنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفـاء الوفـاء» ج ۲ ص ۴۰۰ والشیخ محمـد بن علی الشوکانی المتوفی سنة (۱۲۵۰ هـ)، فی «نیل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۶ . (۸)

عن أبی هریرة مرفوعاً: «من زارنی بعد موتی فکأنما زارنی وأنا حی، (۱۶۷)

ومن زارنی کنت له شـهیداً وشـفیعاً یوم القیامة» أخرجه: ۱- الحافظ أبو بکر أحمـد بن موسـی بن مردویه المتوفی سـنة (۴۱۶ هـ). ۲- الحافظ أبو سـعد أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسن الإصـبهانی المتوفی سنة (۵۴۰ هـ). ۳- أبو الفتوح سـعید بن محمد الیعقوبی فی فوائده المتوفی سنة (۵۵۲ هـ) . ۴- الحافظ أبو سـعد عبدالکریم السمعانی الشافعی المتوفی سنة (۵۶۲ هـ) . ۵- ابن الأنماطی إسماعیل بن عبداللّه الأنصاری المالکی المتوفی سـنة (۶۱۹ هـ) . ۶- تقی الدین السـبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ) فی «شـفاء السقام» ص ۲۶ . ۷- السید نور الدین السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۰ . (۹)

عن أنس بن مالک مرفوعاً: «من زارنی بالمدینة محتسباً کنت له شـفیعاً». وفی روایة أُخری عنه أیضاً: «من مات فی أحد الحرمین بعث من الآمنین یوم القیامة، ومن زارنی محتسباً إلی المدینة کان فی جواری یوم القیامة». وفی لفظ ثالث له زیادة: وکنت له شهیداً وشفیعاً

یوم القیامة. أخرجته أَمة من الحفاظ منهم: ۱- ابن أبی فدیک محمد بن إسماعیل المتوفی سنة (۲۰۰ هـ) . ۲- ابن أبی الدنیا أبو بکر القرشی المتوفی سنة (۲۸۱ هـ) . ۳- الحافظ أبو عبداللّه الحاکم النیسابوری المتوفی سنة (۴۰۵ هـ) . ۴- الحافظ أبو بکر البیهقی المتوفی سنة (۴۵۸ هـ) فی «شعب الإیمان» . ۵- القاضی عیاض المالکی المتوفی سنة (۵۴۴ هـ) فی «الشفاء» . (۱۶۸)

۶- الحافظ علی بن الحسن الشهیر بابن عساکر المتوفی سنة (۵۷۱ هـ) . ۷- الحافظ ابن الجوزی المتوفی سنة (۵۹۷ هـ) فی «مثیر الغرام الساکن» . ۸- الحافظ عبد المؤمن الدمیاطی المتوفی سنة (۷۰۵ هـ) . ۹- أبو عبداللّه العبدری المالکی ابن الحاج المتوفی سنة (۷۳۷ هـ) فی «المدخل» ج ۱ ص ۲۶۱ . ۱۰- شمس الدین أبو عبداللّه الدمشقی الحنبلی المعروف بابن القیم الجوزیة المتوفی سنة (۷۵۱ هـ)، فی «زاد المعاد ج ۲ ص ۴۷» . ۱۱- تقی الدین السبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، فی «شفاء السقام» ص ۲۷ . ۱۲- السید نور الدین السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۰ . ۱۳- أبو العباس شهاب الدین القسطلانی المتوفی سنة (۹۲۳ هـ) فی «المواهب اللدنیة» . ۱۴- جلال الدین السیوطی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «الجامع الکبیر» کما فی ترتیبه ج ۸ ص ۹۹ . ۱۵- الشیخ عبدالرحمن شیخ زاده المتوفی سنة (۱۰۷۸ هـ)، «مجمع الأنهر» ج ۱ ص ۱۵۷ بلفظ: «من زارنی فی المدینة متعمداً کان فی جواری إلی یوم القیامة» . ۱۶- الشیخ محمد الشوکانی المتوفی سنة (۱۲۵۰ هـ)، فی «نیل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۶ . ۱۷- أبو عبداللّه الزرقانی المالکی المتوفی سنة (۱۱۲۲ هـ)، فی «شرح المواهب» ج ۸ ص ۲۹۹ . ۱۸- الجراحی العجلونی المتوفی سنة (۱۱۶۲ هـ)، فی کشف «الخفاء» ج ۲ ص ۲۵۱ . (۱۶۹)

۱۹- السید أحمد الهاشمی فی مختار الأحادیث النبویة، ص ۱۶۹ . ۲۰- السید محمد بن عبداللّه الدمیاطی الشافعی المتوفی سنة (۱۳۰۷هـ)، فی «مصباح الظلام» ج ۲ ص ۱۴۴ . ۲۱- الشیخ منصور علی ناصف فی «التاج» ج ۲ ص ۲۱۶ . (۱۰)

عن أنس بن مالک مرفوعاً: «من زارنی میتاً فکأنما زارنی حیاً، ومن زار قبری وجبت له شفاعتی یوم القیامة، وما من أحد من أمتی له سعة ثم لم یزرنی فلیس له عذر» أخرجه: ۱- الحافظ أبو عبدالله محمد بن محمود ابن النجار المتوفی سنة (۶۴۳ هـ)، فی کتابه «الدرة الثمینة فی فضائل المدینة». ۲- تقی الدین السبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، فی «شفاء السقام» ص ۲۸ . ۳- الحافظ زین الدین العراقی المتوفی سنة (۸۰۶ هـ)، أشار إلیه کما فی «المواهب» . ۴- السید نور الدین السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ)، فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۰ . ۵- أبو العباس شهاب الدین القسطلانی المتوفی سنة (۹۲۳ هـ) فی «المواهب اللدنیة» . ۶- العجلونی المتوفی سنة (۱۱۶۲ هـ)، فی «کشف الخفاء» ص ۲۷۸ . (۱۱)

عن ابن عباس مرفوعاً: «من زارنی فی مماتی کان کمن زارنی فی حیاتی، ومن زارنی حتّی ینتهی إلی قبری کنت له یوم القیامة شهیداً، أو قال: شفیعاً». أخرجه الحافظ أبو جعفر العقیلی المتوفی سنة (۳۲۲ هـ)، فی کتاب (۱۷۰)

«الضعفاء» فی ترجمة فضالة بن سعید المازنی، والحافظ ابن عساکر المتوفی سنة (۵۷۱ هـ) کما فی «شفاء السقام» ص ۲۱، و«وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۱، و«نیل الأوطار» للشوکانی ج ۴ ص ۳۲۵ ـ ۳۲۶ . (۱۲)

عن علی أمیرالمؤمنین مرفوعاً وغیر مرفوع: «من زار قبری بعد مماتی فکأنما زارنی فی حیاتی، ومن لم یزر قبری فقد جفانی» أخرجه: ۱- أبو الحسین یحیی بن الحسن بن جعفر الحسنی فی کتابه «أخبار المدینة» . ۲- أبو سعید عبدالملک بن محمد النیسابوری الخرکوشی المتوفی سنة (۴۰۶ هـ)، فی «شرف المصطفی» . ۳- الحافظ ابن عساکر المتوفی سنة (۵۷۱ هـ) . ۴- الحافظ أبو عبداللّه ابن النجار المتوفی سنة (۶۴۳ هـ) فی کتاب «الدرة الثمینة» . ۵- الحافظ عبد المؤمن الدمیاطی المتوفی سنة (۷۰۵ هـ) . ۶- تقی الدین السبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، فی «شفاء السقام» ص ۲۹ . ۷- الشیخ شعیب الحریفیش المتوفی سنة (۸۰۱ هـ)، فی «الروض الفائق» ج ۲ ص ۱۳۷ . ۸- السید نور الدین السمهودی المتوفی سنة (۹۱۱ هـ) فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۱ . ۹- زین الدین عبد الرؤوف المناوی المتوفی سنة (۱۰۳۱ هـ) فی «کنوز الحقائق» ص ۱۴۱ . (۱۳)

عن بکر بن عبداللّه مرفوعاً: «من أتی المدینة زائراً لی وجبت له شفاعتی (۱۷۱)

یوم القیامـة، ومن مات فی أحـد الحرمین بعث آمناً». أخرجه أبو الحسـین یحیی بن الحسن الحسـنی فی کتابه «أخبار المدینـة» کما فی «شفاء السقام» للسبکی ص ۳۰، و «وفاء الوفاء» للسمهودی، ج ۳ ص ۴۰۲ . (۱۴)

عن عبـداللّه بن عمر مرفوعـاً: «من زارنی بعـد موتی فکأنما زارنی فی حیاتی» أخرجه: ۱- الحافظ سـعید بن منصور النسائی أبو عثمان الخراسانی المتوفی سنة (۲۲۷ هـ). ۲- الحافظ أبو القاسم الطبرانی المتوفی سنة (۳۶۰ هـ) . ۳- الحافظ أبو أحمد ابن عدی المتوفی سنة (۳۶۵ هـ) . ۴- الحافظ أبو الشـیخ الأنصاری المتوفی سـنة (۳۶۹ هـ) . ۵- الحافظ أبو الحسن الـدارقطنی المتوفی سـنة (۳۸۵ هـ) . ۶- الحافظ أبو بکر البیهقی المتوفی سنة (۴۵۸ هـ) . ۷- القاضـی عیاض المالکی المتوفی سـنة (۵۴۴ هـ) . ۸- قاضـی القضاة الخفاجی الحنفی المتوفی سنة (۱۰۶۹هـ)، فی شرح الشفاء ج ۳ ص ۵۶۵ نقله عن البیهقی، والـدارقطنی، والطبرانی، وابن منصور. ۹- زین الدین عبد الرؤوف المناوی المتوفی سـنة (۱۰۳۱ هـ)، فی «کنوز الحقـائق» ص ۱۴۱ بلفظ: «من زار قبری بعـد موتی». ۱۰- العجلونی المتوفی سنة (۱۱۶۲ هـ) فی «کشف الخفاء» ج ۲ ص ۲۵۱، نقلا عن أبی الشیخ، والطبرانی، وابن عدی، والبیهقی . (۱۵)

عن ابن عباس مرفوعاً: «من حـجّ إلی مکـة ثم قصدنی فی مسـجدی کتبت له حجتان مبرورتان» . أخرجه الفردوس فی مسـنده کما فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۴۰۱ و«نیل الأوطار» ج ۴ ص ۳۲۶ . (۱۷۲) (۱۶)

عن رجل من آل الخطاب مرفوعاً: «من زارنی متعمداً کان فی جواری یوم القیامة، ومن مات فی أحد الحرمین بعثه اللّه فی الآمنین (من الآـمنین)». وزاد الشـحامی عقب قوله «یوم القیامـة»: «ومن سـکن المدینـة وصبر علی بلائهـا کنت له شـهیداً وشـفیعاً یوم القیامـة» روی بأسـناده. فیه من الحفاظ. : ۱- الحافظ أبو جعفر العقیلی المتوفی سـنة (۳۲۲ هـ) . ۲- الحافظ أبو الحسن الدارقطنی المتوفی سـنة (۳۸۵ هـ) . ۳- الحافظ أبو عبداللّه الحاکم المتوفی سنة (۴۰۵ هـ) . ۴- الحافظ أبو بکر البیهقی المتوفی سنة (۴۵۸ هـ)، فی «شعب الإیمان» . ۵- الحافظ ابن عساکر الدمشـقی المتوفی سنة (۵۷۱ هـ) . ۶- الحافظ أبو محمد بن المؤمن الدمیاطی المتوفی سـنة (۷۰۵ هـ)، وأخرجه من طریق هؤلاء الحفاظ . ۷- ولی الدین الخطیب العمری التبریزی فی «مشکاة المصابیح» المتوفی سنة (۷۳۷ هـ) فی باب حرم المدینة فی الفصل الثالث . ۸- تقی الدین السـبکی المتوفی سنة (۷۵۶ هـ)، فی «شـفاء السقام» ص ۲۴ وقال: مرسل جید، ورواه عنه السـید نور الدین السمهودی فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۹ . (۱۷)

عن عبداللّه بن عمر مرفوعاً: «من زارنی بالمدینة کنت له شـهیداً وشـفیعاً»، أخرجه الحافظ الدارقطنی بأسناده فی «السنن» کما فی «وفاء الوفاء» ج ۲ ص ۳۹۸ . (۱۷۳) (۱۸)

روی عن رسول اللّه ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلم ـ، قال: «من وجد سعة ولم یفد «یغد» إلی فقد جفانی». ذکره ابن فرحون فی مناسکه، والغزالی فی «الإحیاء» ج ۱ ص ۲۴۶، والقسطلانی فی «المواهب اللدنیة»، والعجلونی فی «کشف الخفاء» ج ۲ ص ۲۷۸ . (۱۹)

قال رسول اللّه ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلم ـ: «من زارنی بعد وفاتی وسـلم علیّ رددت علیه السـلام عشـراً، وزاره عشـرة من الملائکة، کلهم یسـلمون علیه، ومن سـلم علیّ فی بیته رد اللّه تعالی علی روحی حتّی أسـلم علیه» . ذکره الشـیخ شـعیب الحریفیش المتوفی سنة (۸۰۱ هـ) فی «الروض الفائق» ج ۲ ص ۱۳۷ . (۲۰)

عن أبی عبـداللّه محمـد بن العلاء رحمه اللّه قال: دخلت المدینـة وقـد غلب علی الجوع، فزرت قبر النبی ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلم ـ وسـلمت علیه وعلی الشـیخین رضـی اللّه عنهمـا وقلت: یـا رسـول اللّه جئت وبی من الفاقـة والجوع مـا لاـ یعلمه إلاّـ اللّه عزّوجـلّ، وأنا ضیفک فی هذه اللیلة، ثم غلبنی النوم فرأیت النبی ـ صـلَّی الله علیه وآله وسـلم ـ فی المنام فأعطانی رغیفاً فأکلت نصـفه ثم انتبهت من المنام وفی یدی نصـفه الآخر، فتحقق عندی قول النبی ـ صـلَّی الله علیه وآله وسلم ـ: «من رآنی فی المنام فقد رآنی حقاً، فإنّ الشیطان لا یتمثل بی». ثم نودیت: یا أبا عبداللّه: «لا یزور قبری أحد إلاّ غفر له ونال شـفاعتی غداً». ذکره الشـیخ شـعیب الحریفیش فی «الروض الفائق» ج ۲ ص ۱۳۸ فقال فی المعنی من زار قبر محمـد * نال الشـفاعة فی غد باللّه کرر ذکره * وحدیثَهُ یا منشدی واجعل صـلاتک دائماً * جهراًعلیه تهتدی (۱۷۴)

فهو الرسول المصطفی * ذو الجود والکف الندی وهو المشفع فی الوری * من هول یوم الموعد والحوض مخصوص به * فی الحشر عذب المورد صلی علیه ربنا * ما لاح نجم الفرقد (۲۱)

مرفوعاً عنه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : «لا عذر لمن کان له سعة من أُمتی ولم یزرنی». رواه الشیخ عبدالرحمن شیخ زاده فی «مجمع الأنهر» فی شرح ملتقی الأبحر ص ۱۵۷، وَعَدّهُ من أدلة الباب من دون غمز فیه. (۲۲)

عن أمیرالمؤمنین علیّ ـ علیه السَّلام ـ : «من زار قبر رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ کان فی جواره» أخرجه ابن عساکر کما فی «نیل الأوطار» للشوکانی ج ۴ ص ۳۲۶ . * * *

وبعد هذه النصوص المتضافرة لا حاجة إلی نقل کلمات أعلام المذاهب الإسلامیة حول زیارة النبی الأقدس، وهی وافرة، وقد نقلنا شطراً منها عند البحث عن شدّ الرحال إلی زیارته، فمن أراد أن یقف علی تلک النصوص فلیرجع إلی الأثر القیم «الغدیر» للعلامة الأمینی(۱) . وأخیراً نذکر کلام محمد بن عبدالوهاب، مجدد مذهب ابن تیمیة فی المقام قال: «تسن زیارة النبی إلّا أن لا تشد الرحال إلّا إلی زیارة المسجد والصلاة فیه» (۲) . انظر کیف یسیر إثر أُستاذه فی المنهج حذو النعل بالنعل. إلی هنا اتضح الحق بأجلی مظاهره، وبقی هنا أمر وهو دفع ما أثار ابن

۱ . الغدیر ج ۵ ص ۱۰۹ ـ ۱۲۹ .

۲ . الهدیة السنیة، الرسالة الثانیة.. (۱۷۵)

تیمیة من الشبهة فی زیارة النبی الأکرم الّتی أشرنا إلیها فی صدر البحث وهی: ۱- کون الزیارة علی هذا الوجه المخصوص بدعة. ۲- کون الزیارة من تعظیم غیر اللّه المفضی إلی الشرک . أمّا الشبهة الأُولی فهی باطلة من رأس، وذلک لأنّ البدعة هی إدخال ما لیس من الدین فی الدین، فهل یمکن لأحد بعد هذه النصوص المتضافرة، التقوّل بأنّه لم یرد فی الدین شیء حول زیارة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ لم یامر بها؟ کیف وقد أمر هو بزیارة القبور؟ فهل یُتصوّر أنه لا یعادل زیارته زیارة قبر مسلم؟ (کَبُرَت کَلِمةٌ تَخْرُجُ مِنْ أفواهِهِم)وقد أمر النبی بزیارة قبور المؤمنین . وأمّا الشبهة الثانیة فنقول: کیف تکون زیارة النبی مفضیة إلی الشرک مع أنّ زیارة قبر نبی التوحید، استشعار لحقیقته، وتقدیس لمعناه؟ فإنّ التقدیس الّذی یتصل بالرسل إنما هو من فکرتهم وهدایتهم. فالتقدیس لمحمد ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ تقدیس للمعانی الّتی دعا إلیها وَحَثَّ علیها، فکیف یتصوّر من مؤمن عرف حقیقة الدعوة المحمدیة أن یکون مضمراً لأی معنی من معانی الوثنیة، وهو یستعبر ویستبصر ببصیرته عند الحضرة الشریفة والروضة المنیفة؟ فإذا کان خوف ابن تیمیة من أن یؤدی ذلک إلی الوثنیة بمضی الأعصار والدهور فإنه خوف من غیر جهة، لأنّ الناس کانوا یزورون قبر الرسول إلی أول القرن الثامن، ثم باتوا إلی العصور من بعده إلی یومنا هذا، ومع ذلک لم ینظر أحد إلیه نظر عبادة أو وثنیة، ولو أفرط بعض العوام فذلک لا یمنع تلک الذکریات العطرة، بل یجب إرشادهم وتفهیمهم لا منعهم من الزیارة ولا تکفیرهم . قال الشیخ محمد زاهد الکوثری : «إنّ سعی ابن تیمیة فی منع الناس من زیارته یدل علی ضغینة کامنة فیه نحو الرسول ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وکیف یتصوّر الإشراک بسبب الزیارة، (۱۷۶)

والتوسل فی المسلمین الذین یعتقدون فی حقّه أنّه عبده ورسوله، وینطقون بذلک فی صلاتهم نحو عشرین مرة فی کل یوم علی أقل تقدیر، إدامة لذکری ذلک، ولم یزل أهل العلم ینهون العوام عن البدع فی کل شؤونهم، ویرشدونهم إلی السنة فی الزیارة وغیرها إذا صدرت منهم بدعة فی شیء، ولم یعدّوهم فی یوم من الأیام مشرکین بسبب الزیارة أو التوسل، وأول من رماهم بالإشراک بتلک الوسیلة هو ابن تیمیة، وجری خلفه من أراد استباحة أموال المسلمین ودماءهم لحاجة فی النفس»(۱) . ثم إنّ آخر ما فی کنانة ابن تیمیة وأتباعه فی عدّ الزیارة بدعة وتقسیمها إلی قسمین، ما رواه أحمد فی مسنده، وهو أنّ النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ قال: أللّهمّ لا تجعل قبری وثناً یعبد(۲). وسیوافیک الکلام فی معنی الحدیث عند البحث عن الاحتفال بمیلاد النبی، ولا صلة لهذا الحدیث بالزیارة، والزائر المسلم لا یعبد النبی ولا یعبد قبره، کما هو واضح، بل یعبد اللّه سبحانه، وإنما یزور قبر نبیه کما یزور قبور آبائه

وأجدادهم من غير فرق، غير أنّه يترتب على زيارة قبر نبى التوحيد ما لا يترتب على غيره . * * * (أُولَئِكَ الَّذينَ هَدَى اللّه فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه)(۳) . _____

۱ . تكملة السيف الصقيل ص ۱۵۸ .

۲ . مسند أحمد ج ۳ ص ۲۴۸ .

۳ . سورة الأنعام: الآية ۹۰ .

ابن تيمية والبناء على القبور

ابن تيمية والبناء على القبور

إنّ إبن تيمية هو أول من أفتى بحرمة البناء على القبور، سواء أكان صاحب القبر صالحاً أم طالحاً، وإليك نصه: قال: وقد اتفق أئمة الإسلام على: ۱- أنّه لا يشرع بناء هذه المشاهد الّتى على القبور . ۲- ولا يشرع اتخاذها مساجد . ۳- ولا تشرع الصلاة عندها . ۴- ولا يشرع قصدها لأجل التعبد عندها بصلاة واعتكاف، أو استغاثة وابتهال، ونحو ذلك، وكرهوا الصلاء عندها، ثم كثير منهم قال: الصلاة باطلة لأجل النهى عنها... إلى أن قال: وإنما دين اللّه تعالى تعظيم بيوت اللّه وحده، وهى المساجد التى تشرع فيها الصلاة جماعة وغير جماعة، والاعتكاف وسائر العبادات البدنية والقلبية من القراءة والذكر والدعاء له.. وذكر بعض الآيات الواردة فى تعظيم المساجد، وعدّ منها قوله تعالى: (فى بُيُوت أذنَ اللّهُ أنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فيها اسْمُهُ، يُسَبّحُ لَهُ فيها بِالغُدُوِّ والآصالِ* رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهم تِجارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ وَإقامِ الصّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلّبُ فِيه القُلُوبُ وَ الأبْصَارُ)(۱) . _____

۱ . سورة النور: الآية ۳۶ ـ ۳۷ وقد أفتى فى كلامه هذا بحرمة أمور اربعة، سنبحث عنها واحداً بعد واحد إلّا مسألة قصد المشاهد، لما استوفينا الكلام فيه عند البحث عن قصد السفر إلى زيارة النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ . (۱۷۸)

وأمّا اتّخاذ القبور أوثاناً فهو من دين المشركين(۱) . يقول تلميذه ابن القيم: يجب هدم المساجد الّتى بنيت على القبور، ولا يجوز إبقاؤها بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً(۲) . وعلى هذا الأصل لمّا استولى السعوديون على الحرمين الشريفين هدموا المراقد المقدسة فى البقيع، وبيوت أهل البيت، بعدما رفعوا سؤالا إلى علماء المدينة المنورة، وإليك السؤال والجواب: السؤال: ما قول علماء المدينة المنورة ـ زادهم اللّه فهماً وعلماً ـ فى البناء على القبور، واتخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟ وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهى عنه نهياً شديداً، فهل يجب هدمها، ومنع الصلاة عندها أم لا؟.

وإذا كان البناء فى مسبلة كالبقيع، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبنى عليه، فهل هو غصب يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا؟ الجواب: أمّا البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً، لصحة الأحاديث الواردة فى منعه، ولذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه، مستندين بحديث علىّ (رضى اللّه عنه) أنّه قال لأبى الهياج:

«ألا ابعثك على ما بعثنى عليه رسول اللّه، أن لا تدع تمثالا إلّا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلّا سويته»(۳) . والامعان فى الاستفتاء يعرب عن أنه لم تكن الغاية منه الوقوف على حكم _____

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۵۹ ـ ۶۰ طبع مصر، تحت إشراف السيد محمد رشيد رضا .

۲ . زاد المعاد فى هدى خير العباد، ابن القيم ص ۶۶۱ .

۳ . جريدة أم القرى،وقد نشرت نص الإستفتاء وجوابه فى العدد الصادر بتاريخ ۱۷ شوال سنة ۱۳۴۴ هـ . (۱۷۹)

اللّه، سواء أكان جائزاً أم حراماً، وإنما كانت الغاية هى أخذ الاعتراف منهم على الحظر، ولأجل ذلك أدرج المستفتى الجواب فى السؤال وقال: «بل هو ممنوع منهى عنه نهياً شديداً» وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن المستفتى قام على رأس المفتين فأخذ منهم الجواب بالتخويف والتهديد. ثم إنّ المستفتى أى الشيخ النجدى المعروف بسليمان بن بليهد، يقول فى مقال نشرته جريدة «أم

القری» فی عددها الصادر فی شهر جمادی الآخرة من شهور سنة ۱۲۴۵ هجریة: «إنّ بناء القباب علی مراقد العلماء صار متداولا منذ القرن الخامس الهجری» . وهذا ما یکرره علماء الوهابیة فی دعایاتهم، ویضیفون إلی حدیث «أبی الهیاج» حدیث «جابر» عن النبی الّذی سیوایک بیانه ونقده سنداً ومتناً. ولأجل إیضاح الحال، نحلل ما جاء فی الجواب، من الاستدلال بالإجتماع تارة، والحدیث ثانیاً، فنقول: هل هناک إجماع علی التحریم؟

إنّ للإجماع الوارد فی کلامه احتمالات: ۱- الإجماع التقدیری، بحجة وجود الحدیث الصحیح فی الصحاح، بمعنی أنه لو وقف العلماء علیه لأفتوا بمضمونه کما أفتی به المجیب، ولا یخفی أنه غیر مفید، إذ هو فرع کون الحدیث صحیحاً سنداً وکاملا من حیث الدلالة علی مقصوده عند غیرهم، وکلا الأمرین غیر ثابت، بل ثبت خلافهما کما سیوافیک بیانه . ۲- الإجماع المحقق، وأنّ العلماء أفتوا فی کتبهم بالتحریم حدوثاً وبقاءً، وهذا خلاف نصوصهم ;ونکتفی بالنص الوارد فی الفقه علی المذاهب الأربعة الّذی اتفق علیه علماء أهل السنة فی العصر الحاضر، حیث قالوا بکلمة واحدة: (۱۸۰)

«یکره أن یبنی القبر ببیت أو قبة أو مدرسة أو مسجد»(۱) : وهذا شارح صحیح مسلم یقول فی شرح حدیث أبی الهیاج: أمّا البناء فإن کان فی ملک البانی فمکروه، وإن کان فی مقبرة مسبلة فحرام، نص علیه الشافعی والأصحاب(۲) . وتحریم البناء ـ عندئذ ـ لأجل عنوان عرضی لا ذاتی، وهو المزاحمة لأهداف الواقف وأغراضه . ۳- سیرة المسلمین وعملهم منذ أن ارتحل النبی الأکرم إلی یومنا هذا، سوی الوهابیین . أما سیرة المسلمین فحدّث عنها ولا حرج، فقد دفن النبی الأکرم فی بیته الرفیع، ولم یخطر ببال أحد من الصحابة الحضور أن البناء علی القبر حرام، وأنه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ نهی عنه نهیاً شدیداً، ولما کان البیت متعلّقاً بزوجته (عائشة) جعلوا فی وسطه ساتراً، ولما توفی الشیخان أوصیا بدفنهما فی حجرة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ تبرّکاً بذاته ومکانه، ولم تسمع من أیّ ابن أُنثی نعیرة أنّه حرام ولا مکروه، وعلی ذلک استمرت سیرة المسلمین فی حق الصلحاء والأولیاء والعلماء، یدفنونهم فی البیوت المعدة لذلک، أو یرفعون لمراقدهم قواعد وسقفاً بعد الدفن تکریماً لهم وتقدیراً لتضحیاتهم، ولم یخطر ببال أحد أنه علی خلاف الدین والشرع . وهذا عمل المسلمین وسیرتهم القطعیة فی جمیع الأقطار والأمصار، ملء المسامع والأبصار علی اختلاف نزعاتهم، من بدء الإسلام إلی هذا العصر من الشیعة والسنة، وأیّ بلاد من بلاد الإسلام من مصر أو العراق أو الحجاز أو سوریا، وتونس ومراکش وإیران، وهلمّ جرّاً لیس فیها قبور مشیدة، وضرائح منجدة وهؤلاء أئمة المذاهب: الشافعی فی مصر، وأبو حنیفة فی بغداد، ومالک بالمدینة، وتلک قبورهم من عصرهم إلی الیوم شاهقة القباب، _____

۱ . الفقه علی المذاهب الأربعة ج ۱ ص ۴۲۱ .

۲ . صحیح مسلم بشرح النووی ج ۷ کتاب الجنائز طبع مصر . (۱۸۱)

شامخة المبانی غیر أنّ الوهابیین لما استولوا علی المدینة هدموا قبر مالک. وهذه القبور قد شیدت وبنیت فی الأزمنة الّتی کانت حافلة بالعلماء وأرباب الفتاوی، وزعماء المذهب، فما أنکر منهم ناکر، ولیس هذا رائجاً بین المسلمین فقط، بل جری علی هذا جمیع عقلاء العالم، بل یعد تعمیر قبور الشخصیات من غرائز البشر ومقتضیات الحضارة وشارة الرقی، فکل هذا دلیل علی الجواز لو لم نقل یفوق ذلک، ولو لم تکن تلک السیرة المسلمة بین المسلمین والعقلاء عامة غیر مفیدة فی المقام، فلا یصحّ الاستناد إلی أیة سیرة قاطعة بین المسلمین أو الناس . ولیس یصحّ فی الأذهان شیء * إذا احتاج النهار إلی دلیل النتائج المحمودة لحفظ الآثار الإسلامیة

إنّ المحافظة علی آثار الأنبیاء وخاصة آثار النبی الأکرم من قبره وقبور زوجاته وأولاده وأصحابه والشهداء الذین ضحوا بانفسهم فی سبیل دینه، نتائج محمودة لا تستغنی عنها الأُمة الإسلامیة فی وقت من الزمن، فإنّ الشریعة الإسلامیة خاتمة الشرائع، وکتابه خاتم الکتب، ونبیه خاتم الأنبیاء، فهی حجة علی الناس إلی قیام الساعة الّتی لا یحیط بوقتها إلاّ اللّه تعالی، قال سبحانه: (قُلْ إنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّی، لَا یُجَلِّیها لِوَقْتِهَا إلاّ هُوَ)(۱) .

فمن الممکن أن تمر علی عمر الدنیا، وبالتالی علی عمر الشریعة الإسلامیة آلاف السنین، فالقضاء علی آثار الشریعة ومعالم وجود نبیها

یجعلها فی معرض التشکیک والتردد، وأنه هل لما یدّعیه المسلمون من الرجة الکبری ببعث النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ ومواقفه وقضایاه وتشریعاته مسحة حق؟ بل ربما تحولها بعد مدة إلی أُسطورة تاریخیة، حیث لا یجد الناس بعد حقب من الدهر آثاراً ملموسة من صاحب الشریعة، ولیس هذا شیئاً غریباً، وهذه هی المسیحیة قد مضی من عمرها عشرون قرناً، وقد تحول المسیح وأُمه العذراء

---

۱ . سورة الأعراف: الآیة ۱۸۷ . (۱۸۲)

وکتابه الإنجیل وتلامیذه إلی أساطیر تاریخیة، وصار بعض المستشرقین یشککون مبدئیاً فی وجود رجل اسمه المسیح واسم أُمه مریم وکتابه الإنجیل، وکادوا یعتبرونه أُسطورة خیالیة تشبه أُسطورة (المجنون العامری ولیلاه) وما هذا إلا لعدم وجود أثر ملموس منه، ولا من کتابه الواقعی وأصحابه وحوارییه . وأمّا المسلمون فهم یواجهون العالم مرفوعی الرؤوس، ویقولون: یا أهل العالم قد بعث نبی فی ارض الحجاز قبل ألف وأربعمائة سنة، وقدحقق نجاحاً فی مهمته، وهذه آثار وجوده وحیاته، فهذه هی الدار الّتی ولد فیها، وهذا هو غار حراء، مهبط وحیه فی بدء الأمر، وهذا هو البیت الّذی دفن فیه، وهذه مدارس أولاده و... فالإبقاء علی الآثار الإسلامیة وصیانتها من الزوال، صغیرة أو کبیرة، دعم لاستمرار رسالة هذا الدین وبقائه علی مدی العصور والأزمان، وتدمیرها سبب رئیس لتعریضها للشک والإنکار، وإعانة علی أهداف المخالفین . وقد اهتمّ المسلمون اهتماماً کبیراً بشأن آثار النبی وسیرته وسلوکه، حتّی أنهم سجلوا دقائق أُموره وخصائص حیاته و ممیزات شخصیته إلی درجة أنهم سجلوا حتّی ما یرتبط بخاتمه وحذائه، وسواکه وسیفه، ودرعه، ورمحه، وجواده وإبله وغلامه، والآبار الّتی شرب منها الماء، والأراضی التی وقفها لوجه اللّه سبحانه، و مشیته، وأکله، وشربه، وما یرتبط بلحیته المقدسة وخضابه لها وغیر ذلک، ولا زالت آثار البعض باقیة إلی یومنا هذا . ولو کان ابن تیمیة موجوداً فی تلک الأعصار، وکان ینظر إلی الموضوع بالفکرة التی نشأ علیها، لرمی الصحابة الأجلاء والسلف الصالح بالشرک والوثنیة، وزعم أنهم اتخذوا نبیهم وثناً یعبد، ولکن من حسن الحظ أنه لم یکن موجوداً فیها، ولکن کتب السیر حافلة بذکرها فلیقض علیهم بالحق. وما أشبه عمل من یدمر الآثار النبویة تحت واجهة قلع الشرک بعمل الصبیان النوکی الذین یتلاعبون بمیراث آبائهم بالتمزیق والتدمیر، أوالبیع بثمن بخس . (۱۸۳)

ولأجل أن تعرف مدی شیوع هذه السیرة فارجع إلی ما یکتبه أحد الکتاب الوهابیین ویقول: «وهذا أمر عمّ البلاد، وطبق الأرض شرقاً وغرباً، بحیث لا بلدة من بلاد الإسلام إلّا فیها قبور ومشاهد، بل مساجد المسلمین غالباً لا تخلو من قبر ومشهد، ولا یسع عقل عاقل أن هذا منکر یبلغ إلی ما ذکرت من الشناعة ویسکت علماء الإسلام»(۱) . فلو کانت هذه سیرة المسلمین، فما معنی ادّعاء الإجماع علی حرمة البناء ووجوب هدمه؟ فلو کان الهدم واجباً فلماذا لم یأمر الخلیفة عمر بهدم قبور الأنبیاء عندما فتح المسلمون بیت المقدس؟. فهل الخلیفة تسامح فی هذا الأمر الخطیر، أم أنه وسائر الصحابة الحضور فی الواقعة، وجدوه أمراً مطابقاً للفطرة والشریعة الإسلامیة، فلأجل ذلک أبقوها علی حالها، وقام المسلمون بصیانتها وحفظها طوال القرون؟ . إلی هنا تبین أنه لا إجماع فی المسألة، بل لم تکن المسألة خلافیة إلی عصر ابن تیمیة، وقد خالف هو وحده وتبعه تلمیذه ابن القیم، وکانت الفتوی مدفونة فی الکتب إلی أن أحیاها تلمیذه فی المنهج محمد بن عبدالوهاب، فنبش تلک الدفائن واستخرج هاتیک الکوامن والبذور المهلکة، فأثمرت قتل النفوس، وقطع الرؤوس کما سیوافیک تفصیل هذه الکوارث . وقد استند ابن تیمیة وأتباعه فی ادّعاء الحرمة لحدیث أبی الهیاج، ونحن نذکر متن الحدیث بالسند الّذی رواه مسلم فی صحیحه. «حدیثنا یحیی بن یحیی، وأبوبکر بن أبی شیبة، وزهیر بن حرب، قال یحیی: أخبرنا وقال الآخران: حدثنا وکیع عن سفیان، عن حبیب بن أبی ــــــــــــــــ

۱ . تطهیر الاعتقاد ص ۱۷ طبع مصر. ثم إنه حاول أن یجیب عن هذا الأمر بما الإعراض عن ذکره أحسن . (۱۸۴)

ثابت، عن أبی وائل عن أبی الهیاج الأسدی قال: قال لی علیّ بن أبی طالب: ألا ابعثک علی ما بعثنی علیه رسول اللّه، أن لا تدع تمثالا إلّا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلّا سوّیته(۱) . زعم المستدل أن معناه: ولا قبراً عالیاً إلّا سوّیته بالأرض. والاستدلال به باطل، لأنه ضعیف السند، قاصر الدلالة. وأمّا السند فیکفی أن علماء الرجال ضعفوا هؤلاء الأربعة الواقعین فی السند: ۱- وکیع. ۲- سفیان الثوری . ۳-

حبیب بن أبی ثابت . ۴- أبو وائل الأسدی(۲). ویکفی فی ضعف الحدیث أنه رواه أبو الهیاج ولیس له فی الصحاح والمسانید حدیث غیر هذا، فکیف یستدل بسند یشتمل علی المدلسین والمضعفین والذین لا یحتج بحدیثهم، کما ذکره ابن حجر فی ترجمة هؤلاء الأربعة . وإلیک نقل اقوال العلماء فی حقهم: ۱- وکیع: هو وکیع بن الجراح بن ملیح، الرواسی، الکوفی، روی عن عدة منهم سفیان الثوری، وروی عنه جماعة منهم یحیی بن یحیی، وهو مع ما مدحوه نقلوا فیه أیضاً قدحاً کثیراً، قال ابن حجر فی تهذیب التهذیب: قال عبداللّه بن أحمد عن أبیه (أحمد بن حنبل) قال: سمعت أبی یقول: کان وکیع أحفظ من عبدالرَّحمن بن مهدی کثیراً کثیراً، وقال فی

---

۱ . صحیح مسلم، ج ۳ کتاب الجنائز ص ۶۱، السنن للترمذی ج ۲ ص ۲۵۶، باب ما جاء فی تسویة القبور، السنن للنسائی ج ۴ باب تسویة القبر ص ۸۸ .

۲ . لاحظ تهذیب التهذیب للعسقلانی الأجزاء ۳، ۴، ۱۱ ص ۱۷۹، ۱۱۵، ۱۳۰، ۱۲۵ . (۱۸۵)

موضع آخر: ابن مهدی أکثر تصحیفاً من وکیع: ووکیع أکثر خطأ منه . وقال فی موضع آخر: أخطأ وکیع فی خمسمائة حدیث . وقال ابن عماد: قلت لوکیع: عدّوا علیک بالبصرة أربعة أحادیث غلطت فیها، فقال: حدثتهم بعبادان بنحو من ألف وخمسمائة، وأربعة لیس بکثیر فی ألف وخمسمائة. وقال علی بن المدینی: کان وکیع یلحن، ولو حدث بألفاظه لکان عجباً. وقال محمد بن نصر المروزی: کان یحدث بآخره من حفظه، فیغیّر ألفاظ الحدیث کأنه کان یحدث بالمعنی، ولم یکن من أهل اللسان(۱) . وقال الذهبی فی میزان الاعتدال بعدما مدحه: قال ابن المدینی: کان وکیع یلحن، ولو حدث بألفاظه کان عجباً(۲). * * * ۲- سفیان الثوری: وهو سفیان بن سعید بن مسروق الثوری الکوفی، أکثروا المدح فی حقه، وقال الذهبی: مع أنه کان یدلس عن الضعفاء، ولکن کان له نقد وذوق، ولا عبرة بقول من قال: یدلس ویکتب عن الکذابین(۳) .

وقال ابن حجر: قال ابن المبارک: حدث سفیان بحدیث فجئته وهو یدلس، فلما رآنی استحیی، وقال: نرویه عنک؟(۴) . وقال فی ترجمة یحیی بن سعید بن فروخ قال: أبوبکر، وسمعت یحیی یقول: جهد الثوری أن یدلس علی رجلا ـ ضعیفاً فما أمکنه(۵) .

---

۱ . تهذیب التهذیب ج ۱۱ ص ۱۲۳، ۱۳۱ .

۲ . میزان الإعتدال ج ۴ ص ۳۳۶ .

۳ . میزان الإعتدال ج ۲ ص ۱۶۹ برقم ۳۳۲۲ .

۴ . تهذیب التهذیب ج ۴ ص ۱۱۵ فی ترجمة سفیان .

۵ . تهذیب التهذیب ج ۱۱ ص ۲۱۸ . (۱۸۶)

والتدلیس هو أن یروی عن رجل لم یلقه، وبینه وبینه واسطة فلا یذکر الواسطة. وقال أیضاً فی ترجمة سفیان: قال ابن المدینی عن یحیی بن سعید: لم یلق سفیان أبا بکر بن حفص، ولا حیان بن أیاس، ولم یسمع من سعید بن أبی بردة، وقال البغوی: لم یسمع من یزید الرقاشی. وقال أحمد: لم یسمع من سلمة بن کهیل حدیث المسائة، یضع ماله حیث یشاء ولم یسمع من خالد بن سلمة بتاتاً، ولا من ابن عون إلّا حدیثاً واحداً(۱) . وهذا تصریح من ابن حجر بکون الرجل مدلساً، وعندئذ یکون فاقداً لملکة العدالة، لأنه کان یصور غیر الواقع واقعاً. وقال الإمام الذهبی: قال صاحب الحلیة: أخبرنا أبو أحمد الفطریفی، أخبرنا محمد بن أحمد بن مکرم، أخبرنا علی بن عبد الحمید، أخبرنا موسی بن مسعود، أخبرنا سفیان، دخلت علی جعفر بن محمد وعلیه جبة خز وکساء خز دخانی، فقلت: یابن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ لیس هذا من لباس آبائک قال: کانوا علی قدر اقتار الزمان، وهذا زمان قد اسبل عزالیه ثم حسر عن جبّة صوف تحته، وقال: لبسنا یا ثوری هذا للّه وهذا لکم، فما کان للّه أخفیناه وما کان لکم أبدیناه(۲) . إنّ هذا الإعراض یدل علی عدم فهمه للأُمور، وعدم معرفته بها . * * * ۳- حبیب بن أبی ثابت قیس بن دینار: تابعی، وثقه بعض، ولکن قال ابن حبان فی

الثقات: کان مدلساً، وقال العقیلی: غمزه ابن عون، وقال القطان: له غیر حدیث عن عطاء لا یتابع علیه، ولیست محفوظة.

وقال ابن خزیمة فی صحیحة: کان مدلساً. وقال العقیلی: وله عن عطاء أحادیث لا یتابع(۳) . _____ ۱ . تهذیب التهذیب ج ۴ ص ۱۱۵ والمسائیة: العبد المعتق .

۲ . تذکرة الحفاظ ج ۱ ص ۱۶۷ .

۳ . تهذیب التهذیب ج ۲ ص ۱۷۹ . (۱۸۷)

وقال ابن حجر ایضاً فی تقریب التهذیب: حبیب بن أبی ثابت: قیس، ویقال: هند بن دینار الأسدی، مولاهم أبو یحیی الکوفی، ثقة فقیه جلیل، وکان کثیر الإرسال والتدلیس، من الثالثة، مات سنة تسع عشرة ومائة(۱) . ونقل ابن حجر عن کتاب الموضوعات لابن الجوزی من نسخة بخط المنذری أنه نقل فیه حدیثاً عن أبی کعب فی قول جبرئیل: لو جلست معک مثل ما جلس نوح فی قومه ما بلغت فضائل عمر، وقال، ولم یعله ابن الجوزی إلاّ بعبد اللّه بن عامر الأسلمی شیخ حبیب بن أبی ثابت(۲) . * * * ۴- أبو وائل الأسدی: وهو شقیق بن سلمة الکوفی، کان منحرفاً عن علیّ بن أبی طالب، قال ابن حجر: قیل لأبی وائل: أیهما أحب إلیک: علیّ أم عثمان؟ قال: کان علیّ أحبّ إلیّ ثم صار عثمان(۳) .

ولفظة «أحب» هناک لیست صیغة التفضیل بل المراد أنه کنت علویاً ثم صرت عثمانیاً، وکان الحزبان یومذاک یبغض أحدهما الآخر. ویشهد لذلک ما ذکره ابن أبی الحدید حیث قال: ومنهم أبو وائل شقیق بن سلمة، کان عثمانیاً یقع فی علیّ ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ ویقال إنّه کان یری رأی الخوارج، ولم یختلف فی أنّه خرج معهم، وأنّه عاد إلی علی ـ علیه السَّلام ـ منیباً مقلعاً. روی خلف ابن خلیفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربَعة آلاف فخرج إلینا علیّ فما زال یکلّمنا حتّی رجع منّا ألفان . وروی صاحب کتاب «الغارات» عن عثمان بن أبی شیبة، عن الفضل بن دکین، عن سفیان الثوری قال: سمعت أبا وائل یقول: شهدت صفین وبئس الصفوف کانت!.

---

۱ . تقریب التهذیب ج ۱ ص ۱۴۸ تحت رقم ۱۰۶ .

۲ . لسان المیزان ج ۲ ص ۱۶۸ فی ترجمة حبیب بن ثابت .

۳ . تهذیب التهذیب ج ۴ ص ۳۶۲ . (۱۸۸)

قال وقد روی أبوبکر بن عاصم بن أبی النجود قال: کان أبو وائل عثمانیاً(۱). ویکفی أنّه کان من ولاة عبید اللّه بن زیاد لعنه اللّه . قال ابن ابی الحدید: وقال أبو وائل: استعملنی ابن زیاد علی بیت المال بالکوفة(۲) . هذا کله حول سند الروایة، وقد عرفت أنّ سندها یشتمل علی ضعاف، وعلی فرض ورود المدح فی حقهم فو معارض بما عرفت من الجرح، وعند التعارض یقدّم الجارح علی المادح فیسقط الحدیث عن الاعتبار، و یرجع إلی أدلة أُخری، وسیوافیک أنّ الأصل فی المقام الجواز، کما سیأتی ذلک فی آخر البحث . * * *

وأمّا ضعفه دلالةً فإلیک البیان . إنّ تبیین ضعف دلالة الحدیث یتوقف علی توضیح معنی اللفظین الواردین فی الحدیث المذکور: ۱- «قبراً مشرفاً». ۲- «إلاّ سوّیته» . أمّا الأول فقد قال صاحب القاموس: والشرف محرکة: العلو. ومن البعیر سنامه، وعلی ذلک فیحتمل أن یراد منه مطلق العلو، أو العلو الخاص کسنام البعیر ولا یتعین ذلک إلاّ بالقرینة . أمّا الثانی، أعنی قوله: «سوّیته» فهو یستعمل علی وجهین: أ ـ یطلق ویراد منه مساواة شیء بشیء، فیتعدی إلی المفعول الثانی بحرف التعدیة کالباء قال سبحانه (إِذْ نُسَوِّیکُمْ بِرَبِّ العَالَمِینَ)(۳) . _____

۱ . شرح نهج البلاغة لابن أبی الحدید ج ۴ ص ۹۹ .

۲ . شرح نهج البلاغة ج ۱۲ ص ۲۲۳ .

۳ . سورة الشعراء: الآیة ۹۸ . (۱۸۹)

أی نعدّ الآلهة المکذوبة متساوین مع رب العالمین، فنضیف إلیکم ما نضیف إلی رب العالمین. وقال سبحانه حاکیاً عن حال الکافرین یوم القیامة (یَوْمَئِذ یَوَدُّ الّذینَ کَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوّی بِهِمُ الأرْضُ وَ لاَ یَکْتُمُونَ اللّهَ حَدِیثاً)(۱) أی یودّون أن یکونوا تراباً أو میتاً مدفوناً تحت الأرض . ب ـ یطلق ویراد منه ما هو وصف لنفس الشیء، لا ـ بملاحظة شیء آخر، فیکتفی بمفعول واحد، قال سبحانه: (الّذی خَلَقَ فَسَوّی)(۲) وقال سبحانه: (بَلی قادرینَ عَلی أنْ نُسَوِّی بَنانَهُ)(۳) وقال سبحانه: (فَإذا سَوَّیْتُهُ وَنَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ سَاجِدینَ)(۴) فی هذه الموارد وقعت التسویة وصفاً لنفس الشیء بلا إضافة إلی غیره. ویراد منه حسب اختلاف الموارد تارة کمال الخلقة واستقامتها فی مقابل نقصها واعوجاجها، وهذا هو المقصود فی الآیات الکریمة، وأُخری تسطیحه مقابل اعوجاجه، وبسطه مقابل کونه کالسنام . إذا عرفت ذلک فلنعد إلی الحدیث ولنطبق الضابطة علیه، فبما أنّه استعمل مع مفعول واحد فلا یراد منه المعنی الأول، أی مساواته بالأرض، وإلّا کان علیه أن یقول «سویته بالأرض» بل یراد منه ما هو وصف لنفس القبر والمعنی المناسب هو تسطیح القبر فی مقابل تسنیمه، وبسطه فی مقابل اعوجاجه، وهذا هو الّذی فهمه شراح الحدیث، وبما أنّ السنة هی التسطیح، والتسنیم بدعة، أمر علیّ ـ علیه السَّلام ـ بأن تکافح هذه البدعة، ویسطّح کل قبر مسنم . ویؤید ما ذکرناه أنّ المحققین من أهل السنة لم یفهموا من الحدیث إلاّ ما ذکرنا، وإلیک نقل کلماتهم : ۱- قال القرطبی فی تفسیر الحدیث: «قال علماؤنا: ظاهر حدیث أبی

---

۱ . سورة النساء: الآیة ۴۲ .

۲ . سورة الأعلی: الآیة ۲ .

۳ . سورة القیامة: الآیة ۴ .

۴ . سورة الحجر: الآیة ۲۹ . (۱۹۰)

الهیاج منع تسنیم القبور ورفعها وأن تکون واطئة»(۱) . إنّ دلالة الحدیث علی منع تسنیم القبور ظاهرة، وأمّا دلالتها علی عدم ارتفاعها فغیر ظاهر، بل مردود باتفاق أئمة الفقه علی استحباب رفعها قدر شبر(۲) . ۲- قال ابن حجر العسقلانی فی شرحه علی البخاری ما هذا نصه: (مسنَّماً بضم المیم وتشدید النون المفتوحة أی: مرتفعاً. زاد أبو نعیم فی مستخرجه: وقبر أبوبکر وعمر کذلک واستدل به علی أنّ المستحب تسنیم القبور، وهو قول أبی حنیفة ومالک وأحمد والمزنی وکثیر من الشافعیة . وقال أکثر الشافعیة ونص علیه الشافعی: التسطیح أفضل من التسنیم، لأنّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ سطح قبر إبراهیم، وفعله حجة لا فعل غیره، وقول السفیان التمار «رأی قبر النبی مسنّماً فی زمان معاویة» لا حجة فیه، کما قال البیهقی، لاحتمال أنّ قبره ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وقبری صاحبیه لم تکن فی الأزمنة الماضیة مسنّمة ـ إلی أن قال ـ : ولا یخالف ذلک قول علیّ ـ علیه السَّلام ـ أمرنی رسول اللّه أن لا أدع قبراً مشرفاً إلاّ سوّیته، لأنّه لم یرد تسویته بالأرض، وإنّما أراد تسطیحه جمعاً بین الأخبار، ونقله فی المجموع عن الأصحاب(۳) . ۳- وقال النووی فی شرح صحیح مسلم: إنّ السنة أن القبر لا یرفع عن الأرض رفعاً کثیراً، ولا یسنم بل یرفع نحو شبر، وهذا مذهب الشافعی ومن وافقه، ونقل القاضی عیاض عن أکثر العلماء أن الأفضل عندهم تسنیمها، وهو مذهب مالک(۴) . ویؤید ذلک أنّ صاحب الصحیح (مسلماً) عنون الباب بـ (باب تسویة القبور) ثم روی بسنده إلی تمامه قال: کنّا مع فضالة بن عبید بأرض الروم ، ــــــــــــــــــ

۱ . تفسیر القرطبی ج ۲ ص ۳۸۰ تفسیر سورة الکهف .

۲ . الفقه علی المذاهب الأربعة ج ۱ ص ۴۲ .

۳ . إرشاد الساری ج ۲ ص ۴۶۸ .

۴ . صحیح مسلم بشرح النووی ج ۷ ص ۳۶ الطبعة الثالثة ـ دار إحیاء التراث العربی . (۱۹۱)

فتوفی صاحب لنا، فأمر فضال بن عبید بقبره فسوی، قال: سمعت رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ یأمر بتسویتها، ثم أورد بعده فی نفس الباب حدیث أبی الهیاج المتقدم(۱) . وفی الختام نذکر أُموراً: ۱- القول بوجوب مساواة القبر بالأرض مخالف لما اتّفقت

علیه کلمات فقهاء المذاهب الأربعة، وکلهم متّفقون علی أنّه یندب ارتفاع التراب فوق الأرض بقدر شبر(۲) ولو أخذنا بالتفسیر الّذی یرومه الوهابی من حدیث أبی الهیاج من مساواة القبر بالأرض یجب أن یکون القبر لاطئاً مساویاً معه . ۲- لما عجز الوهابیون فی مقابل سیرة المسلمین، حیث دفنوا النبی فی بیته فصار القبر علیه بناء، عمد بعضهم إلی التفریق بین الأمرین فقال: الحرام هو البناء علی القبر لا الدفن تحت البناء، وقد دفنوا النبی تحت البناء ولم یبنوا علی قبره شیئاً(۳) ولکنّه تفریق بلا وجه، لأنّ حدیث أبی الهیاج مطلق یعم الصورتین . ۳- حدیث أبی الهیاج ـ علی فرض صحة سنده ودلالته ـ یهدف إلی تخریب القبر ومساواته بالأرض، لا هدم البناء الواقع علیه، فالاستدلال به علی الثانی استدلال عجیب. * * * ب ـ حدیث جابر وتحلیله سنداً ومتناً

إنّ الوهابیین یستدلون بحدیث جابر علی حرمة البناء علی القبور، وقد ورد بنصوص مختلفة، ونحن نذکر نصاً واحداً منها: روی مسلم فی صحیحه: حدثنا أبوبکر بن أبی شیبة، حدثنا حفص _____

۱ . المصدر السابق .

۲ . الفقه علی المذاهب الأربعة ج ۱ ص ۴۲ .

۳ . ریاض الجنة، بقلم مقبل بن الهادی طبع الکویت . (۱۹۲)

ابن غیاث، عن ابن جریج، عن أبی الزبیر، عن جابر قال: نهی رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ أن یجصّص القبر، وأن یقعد علیه، وأن یبنی علیه(۱) . والاستدلال بحدیث جابر غیر صحیح سنداً ومتناً . أمّا الأول فلأنّ جمیع أسانیده مشتملة علی رجلین هما فی غایة الضعف : ۱- ابن جریج: وهو عبدالملک بن عبدالعزیز بن جریج . ۲- أبو الزبیر. وهو محمد بن مسلم الأسدی . أمّا الأول فإلیک کلمات أئمة الرجال فی حقه: سئل یحیی بن سعید عن حدیث ابن جریج قال: فقال: ضعیف، فقیل له إنّه یقول: أخبرنی قال: لا شیء.. کله ضعیف، وقال أحمد بن حنبل: إذا قال ابن جریج: قال فلان وقال فلان جاء بمناکیر. وقال مالک بن أنس: کان ابن جریج حاطب لیل . وقال الدارقطنی: یجنب تدلیس ابن جریج فإنّه قبیح التدلیس، لا یدلس إلّا فی ما سمعه من مجروح . وقال ابن حبان: کان ابن جریج یدلس فی احادیث(۲). وأمّا الثانی: فإلیک أقوال علماء الرجال فیه: فعن إمام الحنابلة عن أیوب إنّه کان یعتبر أبا الزبیر ضعیف الروایة . _____

۱ . لاحظ للوقوف علی متون الحدیث المختلفة وأسانیده: صحیح مسلم، کتاب الجنائز ج ۳ ص ۶۲، والسنن للترمذی ج ۲ ص ۲۰۸، طبع المکتبة السلفیة، وصحیح ابن ماجة، ج ۱ کتاب الجنائز، ص ۴۷۳، وصحیح النسائی ج ۴ ص ۸۷ إلی ۸۸، وسنن أبی داود ج ۳ ص ۲۱۶، باب البناء علی القبر، ومسند أحمد ج ۳ ص ۲۹۵ و ۳۳۲ ورواه أیضاً مرسلا عن جابر ص ۳۹۹ .

۲ . تهذیب التهذیب ج ۶ ص ۲ ـ ۴ و ص ۵ ـ ۶ طبع دار المعارف العثمانیة. ولاحظ ما ذکرناه فی الجزء الأول ص ۹۶ . (۱۹۳)

وعن شعبة: لم یکن فی الدنیا أحبّ إلیّ من رجل یقدم فأسأله عن أبی الزبیر، فقدمت مکة فسمعت منه فبینا أنا جالس عنده، إذ جاءه رجل فسأله عن مسألة فردّ علیه، فافتری علیه فقلت: یا أبا الزبیر تفتری علی رجل مسلم؟ قال: إنّه أغضبنی، قلت: ومن یغضبک تفتری علیه؟ لا رویت عنک شیئاً. وعن ورقاء قال: قلت لشعبة: مالک ترکت حدیث أبی الزبیر؟ قال: رأیته یزن ویسترجع فی المیزان . وقال ابن أبی حاتم: سألت أبی عن أبی الزبیر، فقال: یکتب ولا یحتج به قال: وسألت أبا زرعة عن أبی الزبیر فقال: یروی عنه الناس قلت: یحتج بحدیثه؟ قال: إنما یحتج بحدیث الثقات(۱) . باللّه علیک أیصحّ الاستدلال بهذا الحدیث؟ أفهل یصحّ هدم آثار النبوة والرسالة والصحابة بهذه الروایة؟ . علی أنّ بعض الأسانید مشتمل علی عبد الرحمن بن أسود المتّهم بالکذب والوضع . هذا کله ما یتعلّق بالسند، وأمّا المتن ففیه ملاحظتان: الأُولی: إنّ الحدیث روی بِصوَر سبع، مع أنّ النبی نطق بصورة واحدة، ولو رجعت إلی متونه المبعثرة فی المصادر الّتی أوعزنا إلیها تری فیها الاضطراب العجیب، وإلیک صورها:

۱- نهی رسول اللّه عن تجصیص القبر والاعتماد علیه . ۲- نهی رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ عن الکتابة علی القبر . ۳- نهی رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ عن تجصیص القبر، والکتابة والبناء علیه، والمشی علیه . _____

۱ . تهذیب التهذیب، ترجمة أبی الزبیر ج ۹ ص ۴۴۲ طبع حیدرآباد ـ دکن عام ۱۳۲۶، ولاحظ: الطبقات الکبری ج ۵ ص ۴۸۱ . (۱۹۴)

۴- نهی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ عن الجلوس علی القبر، وتجصیصه، والبناء والکتابة علیه . ۶- نهی عن رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ عن الجلوس علی القبر، وتجصیصه والبناء علیه . ۷- نهی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ عن الجلوس علی القبر وتجصیصه والبناء علیه، والزیارة علیه، والکتابة علیه(۱). مضافاً إلی اختلافات أُخری فی أداء مقصود واحد، فیعبّر عنه تارة بالاعتماد، وأُخری بالوطء، وثالثة بالقعود. ومن المعلوم إنَّ الاعتماد غیر الوطء، وهما غیر القعود، فمع هذا الاضطراب والاختلاف فی المضمون لا یمکن لأی فقیه أن یعتمد علیه؟!. الثانیة: إنّ الحدیث علی فرض صحته لا یثبت سوی ورود النهی من النبی ولکن النهی منه تحریمی ومنه تنزیهی، وبعبارة أُخری: نهی تحریم، ونهی کراهة، وقد استعمل النهی فی کلمات الرسول فی القسم الثانی کثیراً ولأجل ذلک حمله الفقهاء علی الکراهة، فتری الترمذی یذکر هذا الحدیث فی صحیحة تحت عنوان کراهیة تجصیص القبور، والسندی شارح صحیح ابن ماجة ینقل عن الحاکم النیسابوری أنّه لم یعمل بهذا النهی (بالمضمون التحریمی) أحد من المسلمین، بدلیل أنّ سیرة المسلمین قائمة علی الکتابة علی القبور .

وأمّا الکراهة فربما تکون مرتفعة بالنسبة إلی المصالح العظیمة المترتبة علیه، کما إذا صار البناءعلی القبر سبباً لحفظ الآثار الإسلامیة، وإظهار المودة لصاحب القبر الّذی فرض اللّه مودته علی الناس(۲)، أو یکون لاستظلال الزائر وتمکّنه من تلاوة القرآن وإهداء ثوابه إلی صاحب القبر، إلی غیر ذلک من الأُمور _____

۱ . لاحظ فی الوقوف علی المتون المختلفة للحدیث مضافاً إلی المصادر الّتی أوعزنا إلیها، کتابنا (الوهابیة فی المیزان) ص ۸۸ ـ ۸۹ .

۲ . قال سبحانه: (قل لا أسألکم علیه أجراً الاّ المودة فی القربی) (الشوری/۲۳) . (۱۹۵)

الّتی یتمکّن الإنسان منها تحت الظل لا ـ تحت الشمس ولا فی برد اللیل، فالنهی التنزیهی أشبه بالمقتضیات الّتی ترتفع بأقوی منها .

أحادیث ثلاثة فی المیزان

فقد ورد فی ذلک المجال أحادیث أُخر نذکرها بسندها ومتنها: روی ابن ماجة فی صحیحه ما یلی: ۱- حدثنا محمد بن یحیی، حدثنا محمد بن عبد اللّه الرقاشی، حدثنا وهب، حدثنا عبدالرحمن بن یزید بن جابر، عن القاسم بن مخیمرة، عن أبی سعید أنّ النبی نهی أن یبنی علی القبر(۱) . ویذکر ابن حنبل حدیثاً آخر بسندین هما: ۲- حدثنا حسن، حدثنا برید بن أبی حبیب، عن ناعم مولی أُم سلمة عن أُم سلمة قالت: نهی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أن یبنی علی القبر أو یجصّص . ۳- علی بن إسحاق، حدثنا عبد اللّه بن لهیعة، حدثنی برید بن أبی حبیب عن ناعم مولی أُم سلمة: أنّ النبی نهی أن یجصّص قبر أو یبنی علیه أو یجلس(۲) . فسند الحدیث الأول یشمل علی (وهب) وهو مردد بین سبعة عشر رجلا، وفیهم الوضّاعون والکذّابون(۳) . والحدیث الثانی والثالث لا یحتج بهما لاشتمالهما علی (عبداللّه بن لهیعة) الّذی یقول فیه ابن معین: ضعیف لا یحتج به، ونقل الحمیدی عن یحیی بن سعید أنّه کان لا یراه شیئاً(۴) . _____

۱ . صحیح ابن ماجة ج ۱ ص ۴۷۴ .

۲ . مسند أحمد ج ۶ ص ۲۹۹ .

۳ . میزان الاعتدال ج ۳ ص ۳۵۰ ـ ۳۵۵ .

۴ . میزان الاعتدال ج ۲ ص ۴۷۶، وتهذیب التهذیب ج ۱ ص ۴۴۴ . (۱۹۶)

هذه حال الأحادیث الّتی صارت ذریعة بید الوهابیین لتدمیر الآثار الإسلامیة منذ أن استولوا علی الحرمین الشریفین، حیث لا تمر سنة إلاّ ویدمّر أثر من الآثار الإسلامیة بحجة توسیع الحرم الشریف، حتّی المکتبات وبیوتات بنی هاشم ومدارسهم، وبیت مضیف النبی أبی أیوب الأنصاری، وفی الوقت نفسه یعکفون علی حفظ آثار الیهود فی خیبر وغیرهم باسم الحفاظ علی الآثار التاریخیة. ثم إنّ القاضی

ابن بليهد قد أعوزته الحجة فتمسّك بكون البقيع مسبلة موقوفة، وأنّ البناء على القبور مانع عن الانتفاع بأرضها. سبحان اللّه ما أتقنه من برهان؟ من أين علم أنّ البقيع كانت أرضاً حية وقفها صاحبها على دفن الأموات؟ . ومن أراد أن يقف على حال البقيع، وأنه لم يكن فيها يوم أُعِدَّت للتدفين أى أثر من الحياة، فليرجع إلى كتاب (وفاء الوفاء) . آخر ما فى كنانة المستدل

ذكر البخارى فى صحيحه فى باب كراهة اتّخاذ المساجد على القبور الخبر التالى: لما مات الحسن بن الحسن بن على ضربت امرأته القبة على قبره سنة، ثم رفعت، فسمعوا صالحاً يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا؟ فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا(۱) . إنّ هذا الخبر لو صحّ فهو على نقيض المطلوب أدل، فهو يدل على جواز نصب المظلّة على القبر، ولو كان ذلك حراماً لما صدر من امرأة الحسن بن الحسن ـ عليهما السَّلام ـ لأنه كان بمرأى ومسمع من التابعين وفقهاء المدينة، ولعلها نصبت تلك القبة لأجل تلاوة القرآن فى جوار زوجها وإهداء ثوابها إلى روحه . وأمّا قول الصالح فهو أشبه بقول غير الصالح، كما أنّ الجواب أيضاً _____

۱ . صحيح البخارى كتاب الجنائز ج ۲ ص ۱۱۱، السنن للنسائى ج ۲ كتاب الجنائز ص ۱۷۱. (۱۹۷)

مثله، لأنه بصدد الشماتة على امرأة افتقدت زوجها وهى مستحقة للتعزية والتسلية لا الشماتة، لأنها ليست من أخلاق المسلمين، ولم تكن المرأة تأمل عودة زوجها إلى الحياة حتّى يقال إنها يئست، بل كان نصبها للمظلة للغايات الدينية والأخلاقية . ترى هؤلاء الأغبياء يدمّرون آثار الرسالة وهم يتمسكون فى ذلك بركام من الأوهام، ويسخرون من الذين أظهروا حباً لأهل بيت رسول اللّه الذين أذهب اللّه عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وفرض مودّتهم وولاءهم وقال: (قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى)(۱) . * * *

إلى هنا تبين أنّه ليس للقوم دليل، بل ولا شبهه على حرمة البناء على القبور، وأنهم لم يدرسوا صحاحهم ومسانيدهم حسبما درس السلف الصالح. والآن هلمّ معى أتلو عليك أدلة القائلين بالجواز، سواء أكان صاحب القبر رجلا عادياً أم كان عظيماً من عظماء الدين، وإليك بيانها: عرض المسألة على الأدلة المحكمة

إذا وقفت على ضعف ما استدل به القوم على تحريم البناء على القبور، وسقوطه عن الاعتبار، فيجب عرض المسألة على الأدلة المحكمة الّتى لا يصحّ لأحد النقاش فى اعتبارها وحجيتها . فإذا دلت تلك الأدلة على الجواز، فلا محيص من طرح هذه الأحاديث الضعاف، أوحملها على الكراهة، أو غير ذلك. وإليك بيان تلك الأدلة: ۱- الكتاب والبناء على القبور

يظهر من الكتاب أنّ البناء على القبور، بل بناء المسجد عليها كان جائزاً فى الشرائع السابقة، وأنّ الناس عندما وقفوا على قبور أصحاب الكهف، _____

۱ . سورة الشورى: الآية ۲۳ . (۱۹۸)

اختلفوا على قولين: فمن قائل: (ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً)(۱) . ومن قائل آخر: (لَنَتَّخِذَنّ عَلَيْهِم مَسْجداً)(۲) . والاستدلال بالآية واضح لمن يرى القرآن قدوة وأُسوة. فإنّ القرآن ينقل كلا القولين، من دون أن ينتقدهما أو يعترض عليهما ويردع عنهما بل الظاهر أنّه ينقلهما بصورة التحسين، وأنّ أصحاب الكهف بلغ بهم ثباتهم فى طريق العقيدة إلى حد لما عثر عليهم الناس اجتمعوا على تكريمهم واحترامهم، بل التبرك بهم، فمن قائل بلزوم البناء عليهم. وآخر باتخاذ مراقدهم مسجداً، وليس القرآن كتاب قصة وأُسطورة، وإنما هو كتاب إرشاد وقدوة وإمام. فلو كانوا فى عملهم هذا ضالين لعلق على قولهم بشىء أو عابه، كما هو الحال فيما ينقل عن المشركين، والكافرين، عملا، أو رأياً. قال سبحانه حاكياً كيفية غرق فرعون: (حَتّى إِذَا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنّهُ لاَ إِلهَ اَلاّ الّذى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إسرائيلَ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ)(۳) ولأجل إيقاف المؤمنين على أنّ الإيمان فى هذا الظرف غير مفيد، عقّب عليه بقوله:(ألآن وَقَد عَصَيتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفسِدِينَ)(۴) . فلأجل ذلك يكون القرآن قدوة فى كل ما ينقله من أعمال الماضين، إلاّ إذا عقّب عليه بالرد، أو دلّت القرائن على كونه عملا غير مقبول . ۲- السيرة المستمرة بين المسلمين

لم يزل الإلهيون من أهل الكتاب والمسلمين فى قاطبة الأعصار يهتمون بمقابر الأنبياء والأولياء بالبناء والتعمير، ثم التطهير والتنظيف، حتّى نرى أنّ كثيراً من المتمكّنين يخصصون أموالهم ويوقفونها فى هذا المجال. فهذه القباب الشاهقة، والمنائر الرفيعة، والساحات

الوسيعة حول _____

۱ . سورة الكهف: الآية ۲۱ .

۲ . سورة الكهف: الآية ۲۱ .

۳ . سورة يونس: الآية ۹۰ .

۴ . سورة يونس: الآية ۹۱ . (۱۹۹)

مراقد الأنبياء والأولياء، فى مختلف البلاد شرقها وغربها، وهذا دليل قاطع على أنّ هذه السيرة كانت مرضية عن صاحب الشريعة وخلفائه وأصحابه، وإلاّ كان عليهم رفضها وردها بالبنان والبيان، والسلطة والقوة، فالسكوت فى بعض الفترات ودعمها فى بعض الأحايين أدلّ دليل على كونها سيرة مرضية. نعم، إذا كان اتّخاذ المقابر مساجد على النحو الرائج عند اليهود والنصارى فهو محرّم، وقد نصّ الرسول على تحريمه، كما تأتى الروايات مع توضيحها، وهو مسألة أُخرى غير مجرّد البناء على القبور الّذى هو مسألتنا. هذا هو السلف الصالح قد وقفوا ـ بعد ما فتحوا الشام ـ على قبور الأنبياء ذوات البناء الشامخ... فتركوها على حالها من دون أن يخطر ببال أحدهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب بأنّ البناء على القبور أمر محرّم يجب أن تهدم، وهكذا الحال فى سائر القبور المشيدة عليها الأبنية فى أطراف العالم، وإن كنت فى ريب فاقرأ تواريخهم، وإليك نص ما جاء فى دائرة المعارف الإسلامية: إنّ المسلمين عند فتحهم فلسطين وجدوا جماعة من قبيلة «لخم» النصرانية يقومون على حرم إبراهيم بـ«حبرون» ولعلهم استغلوا ذلك ففرضوا أتاوة على حجاج هذا الحرم.. وربما يكون توصيف تميم الدارى نسبة إلى الدار، أى: الحرم، وربما كان دخول هؤلاء اللخميين للإسلام، لأنّه قد مكّنهم من القيام على حرم إبراهيم الّذى قدّسه المسلمون تقديس اليهود والنصارى من قبلهم(۱) . وجاء أيضاً فى دائرة المعارف الإسلامية فى مادة «الخليل»: ويقول المقدسى، وهو أول من أسهب فى وصف الخليل: إنّ قبر إبراهيم كانت تعلوه قبة بنيت فى العهد الإسلامى، ويقول مجير الدين: إنها شيدت فى عهد الأمويين، وكان قبر إسحاق مغطّى بعضه، وقبر يعقوب قباله، وكان المقدسى أول من ذكر تلك الهبات الثمينة الّتى قدّمها الأُمراء الورعون من أقاصى البلاد إلى هذا الضريح، وذلك الاستقبال الكريم الّذى يلقاه الحجاج من جانب _____

۱ . دائرة المعارف الإسلامية ج ۵ ص ۴۸۴ مادة تميم الدارى . (۲۰۰)

التميميين (۱) . ولو قام باحث بوصف الأبنية الشاهقة الّتى كانت مشيدة على قبور الأنبياء والصالحين قبل ظهور الإسلام، وما بناه المسلمون فى عصر الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يومنا هذا فى مختلف البلدان، لجاء بكتاب فخم ضخم، يعرب عن أنّ السّنة السنية الرائجة فى تلك الأعصار قبل الإسلام وبعده، من عصر الرسول والصحابة والتابعين لهم إلى يومنا هذا، هى مشروعية البناء على القبور، والعناية بحفظ آثار رجال الدين، ولم ينبس أىّ ابن أُنثى حول ذلك ببنت شفة، وما اعترض عليها، بل تلقوها إظهاراً للمحبة والود لأصحاب الرسالات والنبوات وأصحاب العلم والفضل، ومن خالف تلك السنة وعدّها شركاً أو أمراً محرّماً فقد اتّبع غير سبيل المؤمنين قال سبحانه: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّه مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً)(۲) .

وقد وارى المسلمون جسد النبى الأكرم فى بيته المسقف، ولم يزل المسلمون مذ أن ووريَ جثمانه، على العناية بحجرته الشريفة بشتى الأساليب، وقد بنى عمر بن الخطاب حول حجرته جداراً وقد جاء تفصيل كل ذلك مع ذكر وصف الأبنية الّتى توالت عليها عبر القرون فى الكتب المتعلقة بتاريخ المدينة، لا سيما وفاء الوفاء للعلامة السَّمهودى المتوفى عام (۹۱۱ هـ)(۳) والبناء الأخير الّذى شيّد عام (۱۲۷۰ هـ) قائم لم يمسه سوء، وسوف يبقى بفضل اللّه تبارك وتعالى محفوظاً عن الاجتراء . وأمّا المشاهد والقباب المبنية فى المدينة فى العصور الأُولى فحدّث عنها ولا حرج، ولا سيما فى بقيع الغرقد، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب التاريخ وأخبار المدينة . هذا هو المسعودى المتوفى عام (۳۴۵ هـ) يقول: «وعلى قبورهم فى هذا _____

۱ . دائرة المعارف الإسلامية ج ۸ ص ۴۲۰ مادة خليل .

۲ . سورة النساء: الآية ۱۱۵.

۳ . وفاء الوفاء ج ۲ الفصل التاسع ص ۴۵۸ إلى آخر الفصل . (۲۰۱)

الموضع من البقيع رخامة مكتوبه عليها: بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمدللّه مبيد الأُمم ومحى الرمم، هذا قبر فاطمة بنت رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ سيدة نساء العالمين، وقبر الحسن بن علىّ بن أبى طالب، وعلىّ بن الحسين بن أبى طالب، ومحمد بن علىّ و جعفر بن محمد»(۱) . وذكر السبط ابن الجوزى المتوفى عام ۶۵۴ هـ فى تذكرة الخواص ص ۳۱۱ نظير ذلك، وهذا هو محمد بن أبى بكر التلمسانى يصف المدينة الطيبة وبقيع الغرقد فى القرن الرابع بقوله: «وقبر الحسن بن علىّ عن يمينك إذا خرجت من الدرب ترتفع إليه قليلا، عليه مكتوب: هذا قبر الحسن بن علىّ، دفن إلى جنب أُمه فاطمة رضى اللّه عنها وعنه(۲) . ويقول الحافظ محمد بن محمود بن النجار المتوفى عام ۶۴۳ هـ فى أخبار مدينة الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ :.. فى قبة كبيرة عالية قديمة البناء فى أول البقيع، وعليها بابان يفتح أحدهما فى كل يوم للزيارة، رضى اللّه عنهم(۳) . يقول ابن جبير ذلك السائح الطائر الصيت المتوفى عام ۶۱۴ هـ فى رحلته فى وصف بقيع الغرقد: مقابل قبر مالك، قبر السلامة الطاهرة إبراهيم ابن النبى عليه قبة بيضاء وعلى اليمين منها تربة ابن عمر بن الخطاب (رضى الّه عنه)... وبإزائه قبر عقيل ابن أبى طالب (رضى اللّه عنه). وعبداللّه بن جعفر الطيار (رضى اللّه عنه)، وبإزائهم روضة فيها أزواج النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وبإزائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ، ويليها روضة العباس بن عبدالمطلب والحسن بن على (رضى اللّه عنه)، وهى قبة مرتفعة فى الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور، وعن يمين الخارج من، رأس الحسن إلى رجلى العباس (رضى اللّه عنهما)، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مغشيان بألواح ملصقة أبدع، إلصاق، مرصعة بصفائح الصفر، ومكوكبة بمسامير على أبدع صفة وأجمل منظر، وعلى هذا _____

۱ . مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ۲ ص ۲۸۸ .

۲ . مجلة العرب رقم ۵ ـ ۶ المؤرخ ۱۳۹۳ .

۳ . أخبار مدينة الرسول اهتم بنشره صالح محمد جمال ـ طبع مكة المكرمة ۱۳۶۶ . (۲۰۲)

الشكل قبة إبراهيم ابن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ، ويلى هذه القبة العباسية بيت ينسب لفاطمة بنت الرسول ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ، ويعرف ببيت الحزن... وفى آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذى النورين (رضى اللّه عنه)، وعليه قبة صغيرة مختصرة، وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أُم علىّ (رضى اللّه عنها) وعن بنيها(۱). روى البلاذرى أنّه لما ماتت زينب بنت جحش سنة عشرين صلى عليها «عمر» وكان دفنها فى يوم صائف، ضرب «عمر» على قبرها فسطاطاً(۲) ولم يكن الهدف من ضربه تسهيل الأمر لمن يتعاطى دفنها، بل لأجل تسهيله لأهلها حتّى يتفيّأوا بظلّه ويقرأوا ما تيسّر من القرآن والدعاء، فلاحظ . حصيلة البحث إنّ سيرة المسلمين من عصر الصحابة إلى التابعين إلى تابعى التابعين، إلى عصرنا هذا أقوى حجة على الحكم الشرعى ـ فإنّ اتفاق العلماء فى عصر و «إجماعهم على حكم» حجة شرعية عليه، فكيف اتفاقهم عليه طيلة قرون، ولا سيما الصحابة العدول . فالصحابة واروا جسد النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى بيته، ولم يخطر ببال أحد أن البناء على القبور محرّم، ولا أظن أنّ جاهلا متنسّكاً يفرق بين البناء المتقدم على الدفن والمتأخر عنه، فضلا عن عالم، فإنّ كون قبر الميت تحت بناء تكريم له وتعظيم، والقوم يتلقونه شركاء لأنّه تعظيم لغير اللّه، فلا يفرق بين البناء على القبور أو دفن الميت تحت بناء . وليس هذا شىء ينكره أحد من المسلمين . والعجب أنّ الوهابيين لما واجهوا هذه السيرة المستمرة عمدوا إلى تفسير هذه السيرة بأنّ النبى إنما دفن فى بيته، لأجل حديث رواه أبوبكر، قال ابن كثير: إنّ أصحاب النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ لم يدروا أين يقبرون _____

۱ . رحلة ابن جبير، بيروت دار صادر. وقد زار المدينة المنورة عام ۵۷۸ هـ .

۲ . أنساب الأشراف ج ۱ ص ۴۳۶ . (۲۰۳)

رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ حتّی قال أبوبکر: سمعت النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ یقول:: لم یقبر نبیّ إلاّ ـ حیث یموت(۱) . ثم أضاف المؤلف: فعلمنا من هذه الأحادیث أنّ النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ دفن فی بیته کما أمر بذلک، فعلی هذا فلا حجة فیه للقبوریین فی البناء علی القبور، إذ لم یبن علی قبره، وإنّما دفن فی بیته(۲) . ولا یخفی وجود التهافت فی عبارته، فصدرها یدل علی أنّ دفن النبی فی بیته کان بأمره ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ، ولو لم یکن أمره لما دفنوه فیه، لأنّ الدفن فی البناء حرام، وذیل العبارة یدل علی التفریق بین الدفن تحت البناء القائم والبناء علی القبر . فلو أراد الوجه الأول کما هو ظاهره حیث استقصی مصادر الحدیث المذکور قرابة ست صفحات، فهو مردود بدفن الشیخین فی البیت، مع أنّه لم یرد فی حقهما ما ورد فی حق النبی . ولو أراد الثانی فهو تفریق لا یجنح إلیه ذو مسکة، بعد وحدة الملاک والاشتراک فی المفسدة المزعومة. وبعد دلالة الذکر الحکیم والسیرة علی الجواز، لا مناص عن طرح هذه الروایات أو تأولیها. ۳- البناء تعظیم لشعائر اللّه

إنّ تعظیم قبور الأنبیاء والأولیاء وتنظیفها وحفظها عن تطرق الفساد والانهدام مظهر لتعظیم شعائر اللّه قال سبحانه: (ذَلِکَ وَمَنْ یُعَظِّم شَعَائِرَ اللّهِ فإنَّها مِنْ تَقْوی القُلُوبِ)(۳) . _____

۱ . البدایة والنهایة ج ۵ ص ۲۶۶، وقد جاءت مصادر هذه الروایة فی کتاب ریاض الجنة ص ۲۶۴ .

۲ . ریاض الجنة ۲۶۹ .

۳ . سورة الحج: الآیة ۳۲ . (۲۰۴)

والاستدلال بالآیة یتوقف علی ثبوت صغری وکبری: الغصری عبارة عن کون الأنبیاء وأوصیائهم ومن یرتبط بهم أحیاءً وأمواتاً من شعائر اللّه... والکبری عبارة عن کون البناء والتنظیف وصیانة المقابر تعظیم لشعائر اللّه . ولا أظن أنّ الکبری تحتاج إلی مزید بیان، إنما المهم بیان الصغری، وأنّ الأنبیاء والأوصیاء من شعائر اللّه، وبیان ذلک یحتاج إلی نقل ما ورد حول شعائر اللّه من الآیات : ۱- (إنَّ الصّفا وَالمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللّه)(۱) . ۲- (یَا أَیُّها الّذِینَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللّهَ وَلاَ الشّهْرَ الحَرَامِ وَلا الهَدْیَ وَ لاَ القَلاَئِدَ وَ لاَ آمِّینَ البَیْتَ الحَرَامَ یبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَاناً)(۲) . ۳- (وَالبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَکُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللّه لَکُمْ فِیهَا خَیْرٌ)(۳) . ۴- وفی روایة أُخری جعل مکان شعائر اللّه، حرمات اللّه وقال: (ذَلِکَ وَمَنْ یُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللّه فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبّهِ وَأُحِلَّتْ لَکُمُ الأنْعامُ إلاّ مَا یُتْلَی عَلَیْکُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنِ الأوثَانِ...)(۴) .

ما هو المقصود من (شعائر اللّه) ؟ هنا احتمالات: ۱- تعظیم آیات وجوده سبحانه . ۲- معالم عبادته وأعلام طاعته . ۳- معالم دینه وشریعته وکل ما یمتإلیهما بصلة . _____

۱ . سورة البقرة: الآیة ۱۵۸ .

۲ . سورة المائدة: الآیة ۲ .

۳ . سورة الحج: الآیة ۳۶ .

۴ . سورة الحج: الآیة ۳۰ . (۲۰۵)

أمّا الأول فلم یقل به أحد، إذ کل ما فی الکون آیات وجوده، ولا یصحّ تعظیم کل موجود بحجة أنه دلیل علی الصانع . وأمّا الثانی فهو داخل فی الآیة قطعاً، وقد عدّ الصفا والمروة والبدن من شعائر اللّه، فهی من معالم عبادته وأعلام طاعنه، إنما الکلام فی اختصاص الآیة بمعالم العبادة وأعلام طاعته، الظاهر المتبادر هو الثالث، أی معالم دینه سبحانه، سواء أکانت أعلاماً لعبادته وطاعة أم لا، فالأنبیاء والأوصیاء والشهداء والصحف والقرآن الکریم والأحادیث النبویة کلها من شعائر دین اللّه وأعلام شریعته، فمن عظمها فقد عظم شعائر الدین . قال القرطبی: فشعائر اللّه: أعلام دینه، لا سیما ما یتعلق بالمناسک(۱) ولقد أحسن حیث عمّم أولا، ثم ذکر مورد الآیة ثانیاً، ومما یعرب عن ذلک أنّ إیجاب التعظیم تعلق بـ (حرمات اللّه) فی آیة أُخری . قال سبحانه: (وَمَنْ یُعظِّمْ حُرُماتِ اللّه فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ عِنْدَ ربّه)، والحرمات ما لا یحل انتهاکه، فأحکامه سبحانه حرمات اللّه، إذ لا یحل انتهاکها، وأعلام طاعته وعبادته وحرمات اللّه، إذ یحرم

هتكها وأنبياؤه وأوصياؤهم وشهداء دينه وكتبه وصحفه من حرمات اللّه، يحرم هتكهم، فلو عظّمهم المؤمن أحياء وأمواتاً فقد عمل بالآيتين: «وَمَن يَعظّم حرمات اللّه» «ومن يعظّم شعائر اللّه». ۴- الإذن فى ترفيع بيوت خاصة

لقد أذن اللّه تعالى فى ترفيع البيوت الّتى يذكر فيها اسمه فقال: (فى بُيُوت أذِنَ اللّهُ أنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُهُ يُسَبّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوّ وِ الآصَالِ * رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَبَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّه)(۲) وقد عرفت أنّ ابن تيمية جعل الآية دليلا على تكريم المساجد، ولكنّه غفل عن أنّ البيوت غير المساجد، فهناك بيت وهناك مسجد، والبيت هو البناء الّذى يتشكّل من جدران أربعة وعليها

۱ . تفسير القرطبى، طبع دار إحياء التراث العربى، ج ۱۲ ص ۵۶ .

۲ . سورة النور: الآية ۳۶ ـ ۳۷ . (۲۰۶)

سقف قائم، ولأجل ذلك يقال للكعبة بيت اللّه، وللساحة المحيطة به (المسجد الحرام) وأيضاً يستحب أن تكون المساجد غير مسقّفة، وترى المسجد الحرام مكشوفاً تحت السماء من دون سقف يظلّه، دون البيت فالسقف من مقوماته . قال سبحانه: (وَلَوْلاَ أنْ يَكُونَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بَالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِم سُقُفاً مِنْ فِضّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُون)(۱) . فالبيوت غير المساجد، ولو تنزلنا فهى أعمّ منها تشمل المسجد وغيره. هذا كله حول البيوت، وأمّا الرفع الوارد فى الآية الكريمة فسواء أفسّر بالرفع الحسى بإرساء القواعد وإقامة الجدران كما فى قوله سبحانه: (وَإذْ يَرْفَعُ إبْراهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإسماعِيلُ)(۲)، أمْ فسّر بالرفع المعنوى كما هو الحال فى قوله سبحانه: (وَرَفَعْنَاه مَكَاناً عَلياً)(۳). أى منحناه مكانة عالية. فلو فسرّ بالرفع الحسّى يكون دليلا على جواز تشييد بيوت الأنبياء والأولياء، وتعميرها فى حياتهم وبعد وفاتهم حسب إطلاق الآية، وقد كان بيوت كثير من الأئمة الصالحين هى مقابرهم، فتشييد هذه البيوت عمل جائز بنص الآية، وأمّا لو فسّر بالرفع المعنوى، وأنّ من وظائف المسلمين تكريم هذه البيوت كما هو المتبادر، فتعمير بيوتهم من مظاهر ذلك التعظيم المعنوى، كما أنّ تدميرها وجعلها معرضة لما لا يناسب ساحتهم، تجاهل لهذه الآية وتولٍّ عنها . ومن لطيف ما روى فى المقام ما رواه الحافظ السيوطى عن أنس بن مالك، وبريدة، أنّ رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ قرأ قوله: (فى بيوت أذن اللّه أن ترفع) فقام إليه رجل وقال: أى بيوت يا رسول اللّه؟ فقال: «بيوت الأنبياء» فقام إليه أبوبكر وقال: يا رسول اللّه وهذا البيت منها؟ ـ مشيراً إلى بيت علىّ وفاطمة ـ فقال النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ : نعم من أفاضلها(۴) .

۱ . سورة الزخرف: الآية ۳۳ .

۲ . سورة البقرة: الآية ۱۲۷ .

۳ . سورة مريم: الآية ۵۷ .

۴ . الدر المنثور: ج ۵ ص ۵۰ . (۲۰۷)

فهذه الآية وحدها كافية فى جواز تعظيم بيوت الأنبياء والأوصياء وأهل بيت النبى مطلقاً، ومقابرهم ومراقدهم إذا كانت بيوتهم . ۵- إظهار المودة للنبى والقربى

إنّ القرآن الكريم ـ يأمرنا ـ بكل صراحة ـ بحب النبى وأقربائه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ ، ومودّتهم ومحبّتهم فيقول: (وَمَنْ يَتَوَلّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذينَ آمَنُوا فَإنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الغَالِبُونَ)(۱) . (قُل لا أسْالُكُمْ عَلَيْهِ أجْراً إلاّ المَودَّةَ فِى القُرْبَى)(۲) .

ومن الواضح لدى كل من يخاطبه اللّه بهذه الآية أنّ البناء على مراقد النبى وأهل بيته ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ ، وهو نوع من إظهار الحب والمودة لهم، وبذلك يخرج عن كونه بدعة لوجود أصل له فى الكتاب والسنة، ولو بصورة كلية . وهذه العادة متبعة عند كافة الشعوب، والأُمم فى العالم، فالجميع يعتبرون ذلك نوعاً من المودة لصاحب ذلك القبر، ولذلك تراهم يدفنون كبار الشخصيات السياسية والعلمية فى كنائس ومقابر مشهورة، ويزرعون أنواع الأزهار والأشجار حولها . إلى هنا تمّ الكلام حول جواز البناء على القبور مطلقاً، وقبور الأنبياء والأوصياء والصالحين خاصة، على وجه لم يبق لمتدبّر فيه شكّ، ولا لمكابر إنكار، إلاّ من أعمى اللّه بصره وبصيرته . هذه هى الآيات الواضحة الدلالة على جواز البناء، وهذه هى سيرة المسلمين المشرقة طوال القرون .

۱ . سورة المائدة: الآیة ۵۶ .

۲ . سورة الشوری: الآیة ۲۳ . (۲۰۸)

فلو فرضنا تعارض الأدلة من الجانبین، فالأصل هو الإباحة کما سیوافیک . ۶- الأصل هو الإباحة

إنّ القائل بالحرمة یجب أن یستدل علیها، والقائل بالإباحة یکفیه الأصل (عدم الحرمة إلّا ما قام الدلیل علی تحریمه) وقد عرفت أنّه لیس هناک شبه دلیل علی الحرمة، والآیات أدل دلیل علی أنّه سبحانه لا یعذب أُمَّةً إلّا بعد إرسال الرسل و بعثهم، وهو کنایة عن وصول البیان والتشریع إلی الناس، فلو لم یصل ـ وإن بلغه الرسول ـ لا یکون منجزاً فی حق العبد. قال سبحانه: (وَمَا کُنّا مُعَذِّبِینَ حَتّی نَبْعَثَ رَسُولا)(۱) .

وظاهر الآیات یعطی أن وظیفة التشریع تبیین المحرمات لا المباحات. قال سبحانه: (قَلْ تَعَالُوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّکُمْ عَلَیْکُم)(۲) .

وقال: (قُلْ لَا أَجِدُ فی ما أُوحِیَ إلَیّ مُحَرّماً عَلَی طَاعِمٍ یَطْعَمُهُ..)(۳) . فإذا کان صعید التشریع فارغاً عمّا یدل علی التحریم فهو حجة علی کون الشیء مباحاً محللا. وإلیک البحث عن بناء المساجد علی قبور الصالحین، وهو الموضوع الخامس فیما طرحه ابن تیمیة . * * *

---

۱ . سورة الإسراء: الآیة ۱۵.

۲ . سورة الأنعام: الآیة ۱۵۱ .

۳ . سورة الأنعام: الآیة ۱۴۵ .

ابن تیمیة وبناء المساجد علی القبور

ابن تیمیة وبناء المساجد علی القبور

قال ابن تیمیة: «ولا یشرع اتّخاذها ـ أی القبور ـ مساجد»(۱) . وقال أیضاً: «لا یجوز بناء المسجد علی القبور» . وقد استدلّ الوهابیون علی ما یتبنّونه بالحدیث التالی المروی بعبارات مختلفة: ۱- «قاتل اللّه الیهود اتّخذوا قبور أنبیائهم مساجد» . ۲- «لعن اللّه الیهود والنصاری اتّخذوا قبور أنبیائهم مساجد». ۳- «ألا ومن کان قبلکم کانوا یتّخذون قبور أنبیائهم وصالحیهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنّی أنهاکم عن ذلک» . ۴- «أخرجوا أهل الحجاز وأهل نجران من جزیرة العرب، واعلموا أنَّ شرار الناس الذین اتّخذوا قبور أنبیائهم مساجد». ۵- «لعن اللّه الیهود اتخذوا قبور أنبیائهم مساجد»(۲) .

---

۱ . مضی مصدرها .

۲ . راجع للوقوف علی مصادر هذه الأحادیث صحیح البخاری کتاب الجنائز ج ۲ ص ۱۱۱، السنن للنسائی ج ۲ کتاب الجنائز ص ۸۷۱، صحیح مسلم ج ۲ ص ۵۶۸ کتاب المساجد وغیرها، وقد جمع مصادر الحدیث وصوره المختلفة محمد ناصر الدین الألبانی فی کتابه تحذیر الساجد ص ۱۱ ـ ۲۸ فذکر للحدیث ۱۴ صورة کما جمعها أبو عبدالرحمن مقبل بن هادی الوادعی فی کتاب ریاض الجنة ص ۲۷۸ ـ ۲۸۱ . (۲۱۰)

إنّ الوهابیین استغلوا هذا الحدیث وخرجوا بهذه النتیجة بأنّ مفادها: أ ـ حرمة بناء المساجد علی القبور . ب ـ وحرمة قصد الصلاة فیها . حتّی قال ابن تیمیة: إنّ المسجد والقبر لا یجتمعان(۱) . وهذا هو الکلام الّذی یجتره ویکرره کل من جاء بعده، فنظروا إلی الروایات بعقیدة مسبقة، وترکوا إجماع الأُمة ودلالة الکتاب علی الجواز کما بیّناه، فنقول: إنّ لهذه الروایات محتملات: ۱- الصلاة علی القبور بالسجود علیها تعظیماً . ۲- الصلاة باتّجاه القبور واتّخاذها قبلة . ۳- بناء المساجد علی القبور وقصد الصلاة فیها تبرکاً بالمقبور . ۴- إقامة الصلاة عند مراقد الأنبیاء ومقابرهم فقط . فهل للحدیث إطلاق یعم هذه الصورة والمحتملات کما ادّعاه الألبانی تبعاً لشیخه ابن تیمیة، وزعم أنّ هذا الحدیث من جوامع کلمه ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ . أو أنّ الحدیث ینصرف ـ بشهادة القرائن المتصلة

والمنفصلة ـ إلى بعض الصور مما يلازم كون العمل شركاً، والمصلى مشركاً وخارجاً عن الحدود الّتى حددها الكتاب والسنة، كما هو الحق بشهادة القرائن العشر التالية؟ وإليك البيان: ١- إنّ الحديث يركّز على عمل اليهود والنصارى، وأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وينهى المسلمين عن متابعتهم فى ذلك .

١ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٥٩ ـ ٦٠ وزاد المعاد تأليف ابن القيم ص ٦٦١ . (٢١١)

وبما أنّ أهل الكتاب معروفون بالشرك وعبادة غير اللّه طيلة الأجيال والقرون، فالمسيحية تعبد ـ المسيح وأمه ـ كما أنّ كثيراً منهم اتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون اللّه، يحرّمون ما أحلّ اللّه ويحلّلون ما حرّم اللّه . اليهود هم الذين طلبوا من نبيهم أن يجعل إلهاً كما أنّ لغيرهم آلهة، وهم الذين عبدوا العجل، بل عبدوا بعد رحلة الكليم أرباباً وآلهة، فهم كأنهم مفطورون على الوثنية وعبادة البشر ـ فعند ذلك ـ ينصرف الحديث إلى عمل يلحق المسلم بهم، ولا ـ يمكن أن يدّعى أنّ الحديث يعم ما إذا كان عمل اتخاذ القبور مساجد مجرّداً عن أىّ شرك، أو إذا كانت إقامة الصلاة عند قبورهم من باب التبرك بهم . ٢- نرى أنّ رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ يصف هؤلاء الجماعة بكونهم شرار الناس. فقد روى مسلم فى كتاب المساجد أنّ أُم حبيبة وأُم سلمة ذكرتا كنيسة رأتاها فى الحبشة فيها تصاوير، فقال رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ: إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنى على قبره مسجد، وصَوّر فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند اللّه(١) . إنّ توصيفهم بأنهم شرار الخلق عند اللّه، يميط الستر عن حقيقة عملهم، إذ لا ـ يوصف الإنسان بالشر المطلق، إلاّ ـ إذا كان مشركاً. قال سبحانه: (إِنَّ شَرَ الدَّوابِّ عِنْدَ اللّهِ الصُّمُّ البُكْمُ الّذينَ لاَ يَعْقِلُونَ)(٢)، وقال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدّوَابِّ عِندَ اللّهِ الّذينَ كَفَرُوا فَهُم لاَ يُؤْمِنُونَ)(٣) . كل ذلك يكشف عن مرمى الحديث، وأنّ عملهم لم يكن عملا مجرداً مثل صرف بناء المسجد على القبر والصلاة فيه، أو إقامة الصلاة عند القبور، بل كان عملا مقترناً بالشرك بألوانه وصوره المختلفة، كاتخاذ القبر إلهاً ومعبوداً أو قبلة عند الصلاة، أو السجدة عليها بمعنى اتخاذها مسجوداً . ٣- إنّ الروايات الناهية الواردة فى المقام على قسمين:

١ . صحيح مسلم ج ٢ كتاب المساجد ص ٦٦٦ .

٢ . سورة الأنفال: الآية ٢٢ .

٣ . سورة الأنفال: الآية ٥٥ . (٢١٢)

قسم يشتمل على اللعن، وهذا مختص باتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد. وقسم آخر مشتمل على مجرد النهى من دون اقتران باللعن، وقد ورد ذلك فى مطلق القبور . ١- عن أبى مرصد الغنوى قال: قال رسول اللّه: لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها(١) . ٢- عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ: الأرض كلها مسجد إلاّ المقبرة و الحمّام(٢) وغير ذلك . ٣- عن عبداللّه بن عمر: نهى عن الصلاة فى المقبرة(٣) . فعندئذ يجب التأمل فى هذا التفريق، لماذا اقترن الأول (اتخاذ قبور الأنبياء مساجد) باللعن دون الآخر، وإنّما ورد فيه مجرد النهى، (المحمول على الكراهة مطلقاً، أو فى ما إذا كان القبر بحيال المصلى، أو كانت الصلاة بين القبرين) وما هذا إلاّ لأنّ القسم الأول ناظر إلى عمل اليهود والنصارى فى مورد قبور أنبيائهم . وبما أنه كان مقترناً بالشرك بالسجود لها تعظيماً لهم، أو باتخاذها قبلة، استحقوا اللعن، وعرفوا بأنهم شرار الناس، ووهى المسلمون عن اتّباعهم . وأمّا القسم الآخر فلم يكن مقترناً بذلك أبداً، فجاء فيه النهى مجرداً عن اللعن . وبهذا لا يمكن القول بإطلاق الحديث و عموميته لكل الأحوال . ۴- إنّ السيدة عائشة، قالت: قال رسول اللّه: «لعن اللّه اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». قالت: فلولا ـ ذاك لأبرز قبره،

١ . صحيح مسلم ج ٧ ص ٣٨ .

٢ . سنن أبى داود ج ١ ص ١٨۴ .

٣ . موارد الضمآن ص ١٠ كما فى رياض الجنة . (٢١٣)

غير أنّه خشى أن يتّخذ مسجداً (۱) إنّ المسلمين بعدما دفنوا النّبى فى بيته سوّروه بحائط مستدير، لا مربّع، لئلا يشابه الكعبة . ومن المعلوم أنّ التسوير بالجدران وعدم إبراز قبره إنما يمنع عن اتخاذه مسجوداً له أو قبلة، وأمّا الصلاة فى جنبه فلم يكن الجدار مانعاً عن إقامة الصلاة . ومراد السيدة عائشة: إنّ عدم إبراز القبر وستره بالحيطان منع المسلمين عن أن يرتكبوا ما كان اليهود والنصارى يرتكبونه . ومن المعلوم أنّ الجدران منعت عن الصور الشركية كصورة اتخاذه مسجوداً له أو قبلة، لا إقامة الصلاة المجردة من هذه الضمائم . وهذا دليل واضح على أنّ الحديث كان بصدد نهى المسلمين عن اتخاذ القبر مسجوداً له أو قبلة . والعجب من الشيخ الالبانى حيث أراد استغلال الحديث لتأييد مذهبه، وموقفه، وفسّر قولها: «فلولا ذاك لأبرز قبره» بأنّ المقصود هو الدفن خارج بيته، مع أنّ العبارة لا تتحمّل هذا، لانها تركزّ على ا لقبر الموجود، فيكون المقصود: ولو لا ذاك لكشف قبره ولم يتخذ عليه حائط . ۵- قال أبو هريرة: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: أللّهمّ لا تجعل قبرى وثناً، لعن اللّه قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . إنّ العلاقة بين الجملتين تكشف عن أنّ المقصود هو: اتخاذ قبور الأنبياء مساجد على نحو يعود القبر وثناً يعبد، أو يصلى إليه . وأمّا الصلاة للّه تبارك وتعالى وإلى الكعبة عند القبر تبركاً به فلا تجعل القبر وثناً يعبد، وهذا هو قول اللّه تعالى وهو يأمر الحجيج باتّخاذ مقام إبراهيم مصلّى، ويقول: (وَاتَّخِذوا مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلّى)(۲) _____

۱ . البخارى ج ۳ ص ۱۵۹ ومسلم ج ۲ ص ۷۶ .

۲ . سورة البقرة: الآية ۱۲۵ . (۲۱۴)

وليست الصلاة عند القبر إلّا كمثل الصلاة عند مقام إبراهيم . غير أنّ جسد النبى إبراهيم قد لامس هذا المكان مرة أو مرات عديدة، ولكن مقابر الأنبياء احتضنت أجسادهم الّتى لا تبلى دائماً. ۶- إنّ علماء الحديث وجهابذته فهموا من هذه الأحاديث نفس ما قلناه، وإن لم يذكر الألبانى وغيره شيئاً من هذه التفاسير . أ ـ يقول العسقلانى: إنّما صوّروا أوائلهم الصور ليستأنسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أنّ أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها... إلى أن يقول: قال البيضاوى: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشانهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون فى الصلاة نحوها، واتخذوها أوثاناً، لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك. فأمّا من اتخذ مسجداً فى جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه، لا للتعظيم ولا للتوجه نحوه، فلا يدخل فى الوعيد المذكور(۱). ب ـ ويقول النووى فى شرح صحيح مسلم: قال العلماء إنما نهى النبى عن اتخاذ قبره و قبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة فى تعظيمه والافتتان به، فربما أدّى ذلك إلى الكفر، كما جرى لكثير من الأُمم الخالية. ولما احتاجت الصحابة والتابعون إلى زيادة فى مسجد رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ حين كثر المسلمون، وامتدّت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أُمهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة، مدفن رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وصاحبيه، بنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله لئلّا يظهر فى المسجد فيصلى إليه العوام ويعود المحذور. ولهذا قالت عائشة فى الحديث عنه: ولو لا ذلك لأبرز قبره، غير أنّه خشى أن يتّخذ مسجداً(۲) . ج ـ وقال السندى شارح الصحيح للنسائى: اتخذوا قبور أنبيائهم

---

۱ . فتح البارى فى شرح صحيح البخارى ج ۱ ص ۵۲۵ ط دار المعرفة، وقريب منه ما فى إرشاد السارى فى شرح صحيح البخارى ج ۲ ص ۴۳۷ باب بناء المساجد على القبور .

۲ . صحيح مسلم بشرح النووى، ج ۵ ص ۱۳ ـ ۱۴ . (۲۱۵)

مساجد، أى قبلة للصلاة ويصلون إليها، أو بنوا مساجد يصلون فيها، ولعلّ وجه الكراهة أنّه قد يقضى إلى عبادة نفس القبر . إلى أن يقول: يحذّر النبى أُمته أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم من اتخاذ تلك القبور مساجد، إمّا بالسجود إليها تعظيماً لها، أو بجعلها قبلة يتوجهون فى الصلاة إليها(۱). د ـ وقال شارح آخر: إنّ حديث عائشة يرتبط بالمسجد البنوى قبل الزيادة فيه... أمّا بعد الزيادة وإدخال حجرتها فيه فقد بنوا الحجرة بشكل مثلث كى لا يتمكّن أحد من الصلاة على القبر، إنّ اليهود والنصارى

كانوا يعبدون أنبياءهم بجوار قبورهم أو يجعلونهم شركاء فى العبادة(۲) . هـ ـ قال الشيخ على القارى: سبب لعنهم إمّا لأنهم كانوا يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيماً لهم، وذلك هو الشرك الجلى، وإمّا لأنهم كانوا يتخذون الصلاة للّه تعالى فى مدافن الأنبياء، والسجود على مقابرهم، والتوجه إلى قبورهم حال الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة اللّه، والمبالغة فى تعظيم الأنبياء، وذلك هو الشرك الخفى. فنهى النبى أُمته عن ذلك إمّا لمشابهة ذلك الفعل سنة اليهود، أو لتضمنه الشرك الخفى. كذا قال بعض الشراح من أئمتنا ويؤيده ما جاء فى رواية. يحذر مثل الّذى منعوا(۳) . و ـ إنّ المروى عن أئمة أهل البيت هو ما فهمه أولئك الشراح . ۱- روى الصدوق مرسلا قال: وقال النبى: لا تتخذوا قبرى قبلة ولا مسجداً، فإنّ اللّه لعن اليهود حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد(۴). والمراد من قوله «مسجداً» بقرينة «قبلة» هو السجود عليه تعظيماً. روى الشيخ الطوسى بأسناده عن معمر بن خلاد، عن الرضا ـ عليه السَّلام ـ

---

۱ . السنن للنسائى ج ۲ ص ۴۱ طبع الأزهر .

۲ . صحيح مسلم ج ۲۲ ص ۶۶ .

۳ . مرقاة المفاتيح فى شرح مشكاة المصابيح ج ۱ ص ۴۵۶ .

۴ . الوسائل: الجزء الثانى الباب ۶۵ من أبواب الدفن. الحديث ۲ . (۲۱۶)

قال: لا بأس بالصلاة بين المقابر ما لم يتخذ القبر قبلة(۱) . ۳- روى الصدوق فى علل الشرائع بإسناده إلى زرارة عن أبى جعفر (الباقر) ـ عليه السَّلام ـ قال: قلت له: الصلاة بين القبور، قال: بين خللها، ولا تتخذ شيئاً منها قبلة، فإنّ رسول اللّه نهى عن ذلك وقال: لا تتخذوا قبرى قبلة ولا مسجداً، فإنّ اللّه عزّوجلّ لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد(۲) . ولو كان المراد هو اتخاذ القبر قبلة حقيقة، بأن يصلى عليه من كل جانب كالكعبة، يكون حراماً لكونه بدعة، ولو كان المراد كون القبر أمامه وحيال وجهه، فيحمل على الكراهة لجريان سيرة المسلمين على الصلاة فى الصفة فى مسجد النبى، والقبر بحيال المصلى . ۷- روى المفسرون فى تفسير قوله سبحانه: (وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُم وَلاَ تَذَرُنَّ وُدّاً وَلاَ سُواعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً)(۳) . عن ابن عباس: هؤلاء كانوا قوماً صالحين فى قومهم، فلمّا ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، فلمّا طال عليهم الأمد عبودهم . قال القرطبى: روى الأئمة عن أبى مرصد الغنوى قال: سمعت رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ يقول: لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا إليها (لفظ مسلم) أى لا تتخذوها قبلة، فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى(۴) . ۸- روى مسلم فى صحيحه عن النبى الأكرم أنّه قال حينما قالت أُم حبيبة وأُم سلمة بأنهما رأتا تصاوير فى إحدى كنائس الحبشة: إنّ أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصورة، _____

۱ . الوسائل الجزء الثالث، الباب ۲۵ من أبواب مكان المصلى، الحديث ۳ والباب ۲۶ الحديث ۳ .

۲ . نفس المصدر .

۳ . سورة نوح: الآية ۲۳ .

۴ . تفسير القرطبى ج ۱۰ ص ۳۸۰ . (۲۱۷)

أولئك شرار الخلق عند اللّه يوم القيامة(۱) . إنّ الهدف من وضع صور الصالحين بجوار قبورهم إمّا لغاية اتخاذها قبلة أو عبادة ذويها، كالصنم المنصوب، ومعه لا يمكن أن يستدل به على تحريم مطلق اتخاذ القبور، مساجد . ۹- إنّ أقصى ما يدل عليه الحديث لو قلنا بإطلاقه هو أن يتّخذ مدفن الأنبياء مساجد، وأمّا بناء مسجد فى جنب مدافنهم بحيث يكون المسجد وراء المدفن كما هو الحال فى المشاهد المشرفة لأئمة الشيعة فلا يعمه النهى أبداً . ۱۰- وعلى فرض وجود الإطلاق فإذا دار الأمر بين الأخذ بالكتاب(۲) والسنة الرائجة بين المسلمين من عهد التابعين إلى يومنا هذا، حيث يصلون فى مسجد النبى وقبره فى وسطه، وبين إطلاق هذه الرواية فالأول هو المتعين . إذا تبين عدم صلاحية الحديث للاستدلال على التحريم، فيجب علينا عرض المسألة على سائر الأدلة، وإليك البيان.

عرض المسألة على القرآن

كان الواجب على الوهابيين الذين يدمّرون الآثار الإسلامية بهذه الأحاديث عرض المسألة على القرآن الكريم الّذى هو تبيان لكل شيء . قال سبحانه: (وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْياناً لِكُلِّ شيء)(۳) .

والقرآن صادق مصدّق لا يكذب ـ يذكر سبحانه ـ فى قصة أصحاب الكهف أنّ القوم لما عثروا على أجسادهم المطرية فى الغار اختلفوا على قولين: تذكرهما الآية التالية : (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السّاعَةَ لاَ رَيبَ _____

۱ . صحيح مسلم ج ۲ ص ۶۶ كتاب المساجد .

۲ . سيوافيك بيان دلالة الكتاب على الجواز .

۳ . سورة النحل: الآية ۸۹ . (۲۱۸) فيها إذْ يَتنازَعُونَ بَيْنَهُم أمْرَهُم فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَبُّهُم أعْلَمُ بِهِم قَالَ الّذينَ غَلَبُوا عَلَى أمْرِهِم لَنَتَّخِذَنّ عَلَيْهِم مَسْجداً)(۱) .

فالآية صريحة فى أن القوم بعد ما عثروا عليهم اختلفوا فى كيفية تكريمهم وتعظيمهم على قولين: ۱- البناء على قبورهم «ابنوا عليهم بنياناً» . ۲- بناء المسجد على قبورهم «لنتخذن عليهم مسجداً». وكلتا الطائفتين يريدان التعظيم والتكريم على اختلاف منهجهم، والمعروف بين المفسرين أنّ القائلين بالقول الأول كانوا هم المشركين، وأنّ القائلين بالقول الثانى هم الموحدون والمسلمون، وسواء أثبت ذلك أم لا فإنّ العاثرين عليهم اختلفوا فى كيفية تكريمهم وتعظيمهم، وعلى كل تقدير فالآية حجة على جواز بناء المسجد على القبور أولاـ وعلى جواز بناء المسلمين عليها ثانياً، وذلك لأنّ القرآن يذكر القولين من دون رد وطعن، ولو كان كل من القولين ـ وخصوصاً القول الثانى ـ على خلاف الهداية وفى جانب الضلالة، لأشار إلى ردّه وطعنه، وليس القرآن كتاب قصة وإنما هو كتاب هداية، فلو كان يذكر شيئاً من الأُمم السالفة، فإنما هو للعبرة والاعتبار، ولأجل ذلك كثيراً ما يردّ عليهم بعد نقل كلامهم، فسكوت القرآن تجاه هذين القولين ونقلهما عن القوم بصورة كونه عملا مستحسناً، أقوى دليل على جواز العمل المذكور فى الأُمة المحمدية .

قال الطبرى فى تفسير قوله تعالى: (فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـذِه إلى المَدينَةَ): «إنّ المبعوث دخل المدينة فجعل يمشى بين سوقها فيسمع أناساً كثيراً يحلفون باسم عيسى بن مريم، فزاده فزعاً، ورأى أنّه حيران، فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدران المدينة ويقول فى نفسه: أمّا عشية أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلّا قتل، أمّا الغداة فاسمعهم، وكل _____

۱ . سورة الكهف: الآية ۲۱ . (۲۱۹)

إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف، ثم قال فى نفسه: لعل هذه ليست بالمدينة الّتى أعرف...»(۱) . وهذا يعرب عن أنّ الأكثرية الساحقة كانت موحدة مؤمنة متدينة بشريعة المسيح، رغم ما كانوا على ضده قبل ثلاثمائة سنة . وقال فى تفسير قوله تعالى: (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْياناً) فقال الذين أعثرناهم على أصحاب الكهف: ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم يقول: رب الفتية أعلم بشأنهم وقوله: «قَالَ الّذينَ غَلَبُوا عَلَى أمْرِهِم» يقول جلّ ثناؤه: قال القوم الذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف لنتخذنّ عليهم مسجداً . وقد نقل عن عبداللّه بن عبيد بن عمير: فقال المشركون نبنى عليهم بنياناً، فإنهم آباؤنا، ونعبد اللّه فيها. وقال المسلمون: نحن أحق بهم، هم منّاً، نبنى عليهم مسجداً ونعبد اللّه فيه(۲) . وبذلك يعلم أنّ ما ذكره الألبانى فى الرد على الاستدلال بالآية، من أنّ المراد من الغالبين هم أهل السلطة ولا دليل على حجية فعلهم، رجم بالغيب، فإنّ ما ذكره الطبرى يدل على أنّ المراد هو الغلبة فى مجال الدين، وتدهور الوثنية وازدهار التوحيد . وهذا يدلّ على أنّ سيرة العقلاء فى العالم تكريم موتاهم، وأنّ سيرة المؤمنين الموحدين اتخاذ مقابر الصالحين مساجد ليتبركوا بوجودهم وأجسادهم الذين كرسوا حياتهم فى إشادة قوائم التوحيد ورفعوا صرحه، وكيف يتصور ممن قام بتكريم إمام الموحدين وسيدهم، أن ينحرف عن خطه الأصيل (التوحيد) ويعبد غيره سبحانه ويكون مشركاً، إلّا إذا كان منحرفاً وأشرب فى قلبه العجل ـ أعادنا اللّه من وساوسهم . * * * _____

۱ . تفسير الطبرى ج ۱۵ ص ۲۱۹ طبع مصطفى الحلبى بمصر، سورة الكهف الآية ۱۹ .

۲ . تفسير الطبرى ج ۱۵ ص ۲۲۵، ولاحظ تفسير القرطبى والكشاف للزمخشرى وغرائب القرآن للنيسابورى فى ذيل هذه الآية . (۲۲۰)

ابن تيمية وإقامة الصلاة عند قبور الأنبياء

ابن تيمية وإقامة الصلاة عند قبور الأنبياء

هذا هو الموضوع السادس الّذى قال فى حقه ابن تيمية: «ولا تشرع الصلاة عندها، ولا يشرع قصدها لأجل التعبّد عندها بصلاة واعتكاف، أو استغاثة وابتهال ونحو ذلك، وكرهوا الصلاة عندها، ثم كثير منهم قال: الصلاة باطلة لأجل النهى عنها، إلى أن قال: وإنما دين اللّه تعالى تعظيم بيوت اللّه وحدها التى تشرّع فيها الصلوات جماعة وغير جماعة، والاعتكاف، وسائر العبادات البدنية والقلبية من القراءة والذكر والدعاء له(۱) . يقول محمد بن عبد الوهاب: لم يذكر أحد من أئمة السلف أنّ الصلاة عند القبور وفى مشاهدها مستحبّة، ولا أنّ الصلاة والدعاء هناك أفضل، بل اتفق الكل على أنّ الصلاة فى المساجد والبيوت أفضل منها عند قبور الأولياء والصالحين(۲) . وجاء فى الجواب المنسوب إلى علماء المدينة: «أمّا التوجه إلى حجرة النبى عند الدعاء فالأولى منعه، كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب، لأنّ أفضل الجهات جهة القبلة» . وقد تجاوزت هذه المسألة على مر الزمان مرحلة المنع إلى مرحلة الشرك ، _____

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۶۰ .

۲ . زيارة القبور ص ۱۵۹ ـ ۱۶۰ . (۲۲۱)

حتّى أنهم اليوم يعتبرون ذلك شركاً، وكل من فعل ذلك يكون عندهم مشركاً، وإليك توضيح المسألة: ۱- لا شك أنّ إقامة الصلاة عند القبور لغاية عبادة صاحب القبر أو اتخاذه قبلة شرك، ولكن لاتجد على وجه البسيطة مسلماً يفعل ذلك، بل لا يحوم حوله البعداء من الأوساط الإسلامية، فضلا عن المتحضّرين منهم، المتواجدين فى الأوساط الدينية . ۲- إنّ هدف المسلمين من إقامة الصلاة والدعاء عند قبور الأولياء، هو التبرك بالمكان الّذى احتضن جسد حبيب من أحبّاء اللّه، فيتمتع ذلك المكان بمنزلة سامية، فالصلاة والدعاء هناك يعودان بثواب أكثر على فاعلهما. إنّ لمشاهد الأولياء ومراقدهم شرفاً وفضيلة خاصة لا توجد فى غيرها، ولأجل ذلك أوصى الشيخان بدفنهما فى جوار النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ، فالمصلى لدى قبورهم لا يقصد سوى ما قصده الشيخان لا غير. فلو كان قصد التبرك بمكان شركاً فلماذا أوصى الشيخان بالدفن بجوار النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ؟ . ۳- إنّ القرآن الكريم يأمر حجاج بيت اللّه الحرام بإقامة الصلاة عند مقام إبراهيم، وهو الصخرة الّتى وقف عليها إبراهيم لبناء الكعبة، فيقول: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهيمَ مُصَلّىً)(۱) . إنّ الصلاة فى مقام إبراهيم لأجل التبرك بمقام النبى إبراهيم، فلو كانت عبادة اللّه تبارك وتعالى مقرونة بالتبرك بمكان المخلوق شركاً، فلماذا أمر به سبحانه، فهل هناك فرق بين مقامهم ومثواهم؟ . ۴- سأل المنصور العباسى مالك بن أنس وهما فى مسجد رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: يا أبا عبد اللّه، أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول اللّه؟ فقال مالك: لم تصرف عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى اللّه يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك اللّه (۲) . _____

۱ . سورة البقرة: الآية ۱۲۵ .

۲ . وفاء الوفاء ج ۴ ص ۱۳۷۶ . (۲۲۲)

والعجب أنّ الكاتب الوهابى (الرفاعى) حاول أن يكذب القصة، قال: «إنّ أبا جعفر المنصور كان من أعلم علماء عصره، فلا يصح أن يكون جاهلا ـ فيستفسر» . يا للعجب! من أين علم أنه كان مثل مالك بن أنس إمام المدينة المنورة؟ وهل له آثار فى الفقه والحديث مثل مالك؟ ماهذه الكلمة الساقطة؟ وأى دليل على أنه لم يكن جاهلا بهذه المسألة فيستفسر مثله أو من هو أعلم منه ؟ ۵- روى

السيوطى فى أحاديث المعراج أنّ النبى الأكرم نزل فى المدينة وطور وسيناء وبيت لحم، وصلّى فيها، فقال له جبرائيل: يا رسول اللّه أتعلم أين صلّيت؟ إنّك صليت فى طيبة، وإليها مهاجرتك، وصلّيت فى طور سيناء، حيث كلم اللّه موسى تكليماً، وصليت فى بيت لحم حيث ولد عيسى(۱) . ولا أظن أن يتوهم أحد وجود الفرق بين المولد والمرقد بالتجويز فى الأول دون الثانى . ۶- إنّ المسلمين جميعاً يصلّون فى حجر إسماعيل، مع أنّ الحجر مدفنه ومدفن أُمه هاجر، فأىّ فرق بين مرقد النبى ومدفن أبيه إسماعيل؟ ۷- ولقد بلغت هاجر أُم إسماعيل مرتبة عند اللّه بسبب صبرها وتحمّلها المتاعب فى سبيل اللّه سبحانه، فجعل اللّه موضع أقدامها محلا للعبادة، وأوجب على حجاج بيته الحرام أن يسعوا فيها كما سعت هاجر بين جبلى الصفا والمروة، فنسأل إذا كان صبرها على المكاره، وتحمّلها المتاعب فى سبيل اللّه تعالى قد منحا الكرامة لموضع أقدمها، وأوجب اللّه على المسلمين أن يعبدوه سبحانه فى ذلك المكان بالسعى بين الصفا والمروة، فلماذا لا يكون قبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ

۱ . الخصائص الكبرى لجلال الدين السيوطى ج ۱ ص ۱۵۴ . (۲۲۳)

مباركاً ومقدساً، فى حين أنّه تحمّل أنواع المصاعب والمصائب والمكاره من أجل إصلاح المجتمع وإرشاده . قال ابن القيم ـ تلميذ ابن تيمية ـ : «إنّ عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد والوحدة والغربة والتسليم إلى ذبح الولد، آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارهما ومواطىء أقدامهما مناسك لعبادة المؤمنين، ومتعبّدات لهم إلى يوم القيامة، وهذه سنته تعالى فيمن يريد رفعه من خلقه»(۱) . ۸- إذا كانت الصلاة عند القبر محرّمة فى الشريعة الإسلامية، فلماذا قضت عائشة عمرها فى البيت الّذى دفن فيه الرسول؟ . ۹- إنّ السيدة فاطمة الزهراء الّتى قال فى حقها النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : «إنّ اللّه يرضى برضى فاطمة ويغضب بغضبها»(۲) كانت تزور قبر عمّها حمزة فى كل جمعة أو فى كل أسبوع مرتين، وكانت تبكى وتصلّى عند قبره . يقول البيهقى: كانت فاطمة (رضى اللّه عنها) تزور قبر عمّها حمزة كل جمعة، فتصلّى وتبكى عنده(۳) . ۱۰- إنّ مراقد الأنبياء ومشاهدهم تعدّ جزءاً من مطلق الأرض الّتى جعلها اللّه سبحانه محلا لعبادته، وقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : «جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً»(۴) . فما الدليل على إخراج مشاهد الأنبياء والأولياء والصالحين عن إطلاق الحديث المتفق عليه، أفيزعم الوهابى ان الصلاة فى مشاهد الأنبياء ومراقدهم أقل ثواباً من مطلق الأرض؟!

۱ . زاد المعاد فى هدى خير العباد طبع مصطفى البابى الحلبى، القاهرة بإشراف طه عبدالرؤوف ۱۳۹۰ هـ ق .

۲ . صحيح البخارى ج ۵ باب مناقب قرابة رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ص ۲۰ ومستدرك الحاكم ج ۳ ص ۱۵۴ .

۳ . السنن للبيهقى ج ۴ ص ۷۸ مستدرك الصحيحين للحاكم ج ۱ ص ۳۷۷ .

۴ . صحيح البخارى ج ۱ ص ۹۱، مسند أحمد ج ۲ ص ۲۲۲ . (۲۲۴)

وأخيراً نرى أنّ المسلمين يقيمون الصلاة طيلة أربعة عشر قرناً عند قبر النبى والخليفتين، من دون أن يختلج ببال أحد من أنّ إقامة الصلاة عند القبور حرام أو مكروه . كيف، ولو كان مكروهاً أو حراماً لما أوصى الإمام الحسن بن على بدفن جسده المطهر عند قبر جده المصطفى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ حتّى حالت بنو أُمية دون إنفاذ وصيته . هذه الوجوه العشرة كافية لمن أراد اتباع الحق، ولا أظنّ أنّ المنصف المتحرّى للحقيقة ـ إذا تجرّد عن الهوى ـ ينبذ هذه الأدلة وراء ظهره . * * *

وفى الختام نذكر حكم الإضاءة عند القبور، فربّما يحكم بالحرمة لما رواه النسائى عن ابن عباس أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ لعن زائرات القبور والمتّخذين عليها المساجد والسرج(۱) . إنّ هذا الحديث وأمثاله يهدف إلى ما إذا كانت الإضاءة تبذيراً للمال، أو تشبّهاً ببعض الأُمم والشعوب، وإلّا فالإضاءة إذا كانت لغاية قراءة القرآن والدعاء لا تكون محرمة . بل يقول العلامة السندى فى شرحه على الحديث: «والنهى عنه لأنّه تضييع مال بلا نفع»(۲) . أضف إلى ما فى الحديث من لعن زائرات القبور، مع أنّ عائشة زارت البقيع مع النبى، وقد علّمها كيفية الزيارة كما تقدم حديثه .

۱ . السنن للنسائى ج ۳ ص ۷۷ .

۲ . السنن للنسائی ج ۳ ص ۷۷ طبع مصر وج ۴ ص ۹۵ طبع بیروت شرح الجامع الصغیر ج ۲ ص ۱۹۸ . (۲۲۵)

ابن تیمیة والتوسل بالأنبیاء والصالحین

ابن تیمیة والتوسل بالأنبیاء والصالحین

إنّ التوسل بالأنبیاء والصالحین فی حال حیاتهم أو بعد التحاقهم بالرفیق الأعلی من الأُمور الرائجة بین الموحدین فی جمیع الأجیال والقرون، وقد أثارت فتوی ابن تیمیة فیها بالحرمة ضجّة کبری بین المسلمین، فالمسلمون کانوا إلی عصر ابن تیمیة علی جواز التوسل بشروطه المسوغة، إلی أن جاء ابن تیمیة فأفتی بالحرمة، وتبعه الوهابیون، فأقصی ما جاز عندهم من التوسل هو التوسل بدعاء النبی فی حال حیاته، غیر أنّ الشبه والظنون الّتی اعتمدوا علیها فی منع التوسل کانت تقتضی منع هذا القسم أیضاً، لأنّه توسل بالمخلوق لا محالة فی مقام العبادة، لکنّهم لم یجدوا منتدحاً عن القول بجوازه لتصریح القرآن به، حیث حثّ المسلمین علی المجیء إلی النبی وطلب الاستغفار منه، قال سبحانه: (وَلَوْ أَنَّهُم إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جَاءُوکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوّاباً رَحیماً)(۱)، وقال سبحانه: (وَإِذَا قِیلَ لَهُم تَعَالَوا یَسْتَغْفِرْ لَکُم رَسُولُ اللّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُم وَرَأَیْتَهُم یَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَکْبِرُونَ)(۲) وقال سبحانه ناقلا عن أبناء یعقوب (یَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنّا کُنّا خَاطِئِینَ)(۳) . _____

۱ . سورة النساء: الآیة ۶۴ .

۲ . سورة المنافقون: الآیة ۵ .

۳ . سورة یوسف: الآیة ۹۷ . (۲۲۶)

ولأجل الحط من شأن النبی وکرامته یجعلون النبی مساویاً للمؤمنین ویقولون: «إنّ التوسل الجائز هو التوسل بدعاء المؤمن حال حیاته، ولو جاز التوسل بدعاء النبی فلیس هذا إلّا لکونه أحد المؤمنین، ویجوز التوسل بدعاء کل أخ مؤمن من غیر فرق بین النبی وغیره، وأمّا غیر ذلک فکله ممنوع». وستوافیک أقسامه وکلماتهم فیها، وبما أنّ الوهابیین مازالوا یستدلون ضد المتوسلین ببعض الآیات، نقدم البحث عنها ونقول: آیتان علی طاولة التفسیر (قُلِ ادْعُوا الَّذِینَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا یَمْلِکُونَ کَشْفَ الضُّرِّ عَنْکُم وَلَا تَحْوِیلا * أُولئِکَ الّذِینَ یَدْعُونَ یَبْتَغُونَ إِلی رَبِّهِم الوَسِیلَةَ أَیُّهُمْ أَقْرَبُ، وَیَرجُونَ رَحْمَتَهُ وَیَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبّکَ کَانَ مَحْذُوراً)(۱).

یقول محمد نسیب الرفاعی مؤسس الدعوة السلفیة وخادمها فی الریاض: إنّک تری أنّ اللّه تعالی یلفت أنظار المؤمنین إلی أنّ عمل المشرکین بالتزلّف إلی اللّه بأشخاص المخلوقین لا یفیدهم شیئاً، لأنهم لا یملکون کشف الضرّ عنهم ولا تحویلا، فدعاؤهم بالذوات أو التوسل بهم لا ـ یقدّم ولا ـ یؤخّر، ولا ـ یوصلهم، لأنهم أخطأوا الطریق إلی اللّه . إنّ هاتین الآیتین فی سورة الإسراء نزلتا فی نفر من العرب کانوا یعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنّیون، أمّا الإنس الذین کانوا یعبدونهم فلم یشعروا بإسلامهم، فأخبرهم اللّه بوحیه المنزل علی عبده ورسوله محمد ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ: إنّ هؤلاء الذین یزعم المشرکون أنهم یقرّبونهم إلی اللّه زلفی، یتسابقون ویتنافسون فیما بینهم بالتقرّب إلی الله تعالی، ویرجون رحمته و یخشون عذابه، فکیف أیها المشرکون تدعونهم لکشف الضر عنکم وتوسّطونهم، فما الّذی تؤملون منهم وهم علی أشدّ ما یکونون حاجة إلی اللّه تعالی، فالذی لا ـ یملک شیئاً، لا ـ یعطی شیئاً(۲).

---

۱ . سورة الإسراء: الآیة ۵۶ ـ ۵۷ .

۲ . التوصل إلی حقیقة التوسل ص ۱۲ ـ ۱۳ . (۲۲۷)

إنّ الاستدلال بهاتین الآیتین علی رد التوسل الشائع بین المسلمین من عجیب الأُمور، فإنّ التوبیخ فیهما متوجّه إلی المشرکین الذین کانوا معتقدین بألوهیة معبوداتهم، وأنهم یملکون کشف الضر وتحویل السوء عن الدعاة، واللّه سبحانه یرد علیهم بأنّ المدعوین فی أشد الحاجة إلی طلب التقرب إلی اللّه سبحانه، فکیف یمکن لهم کشف الضر عنهم؟ وأیّة صلة بین أولئک المشرکین المعتقدین

بألوهیة المدعوین، والموحدین الذین یعتقدون بأنّه لا یملک کشف الضر إلاّ اللّه، ولکنّهم یوسّطون بینهم وبین ربّهم أحد عباد اللّه الصالحین، الّذی له مکانة عند اللّه، لعلّه سبحانه یجیب دعوته لأجله وحرمته ومقامه، ولیس ذلک ببدعة، فقد أمر بتوسیط دعاء النبی فی طلب المغفرة من اللّه، وأمر العصاة أن یطلبوا منه ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ الاستغفار علی ما عرفت . والقسمان یشترکان فی توسیط المخلوق، سواء أکان ذاته القدسیة أمْ دعاءَهُ المستجاب . ثم إنّه فی ذیل کلامه یقول: «إنّ الذین کان العرب یوسطونهم فی توسلاتهم کانوا یتقربون إلی اللّه بأعمالهم الصالحة، فما بال المسلمین المتوسلین لا یقتدون بهم، ولم لا یفعلون ما یفعلون ما داموا بهم وبصلاحهم واثقین»؟ . وللملاحظة والتدبّر فی کلامه مجال واسع: أمّا أولا ـ فمن أین علم أنّ هؤلاء الذین کان العرب یوسطونهم کانوا یتقربون إلی اللّه بأعمالهم الصالحة؟ فلیس فی الآیة شیء یدل علی ذلک . وثانیاً ـ لو صحّ ذلک فمعنی کلامه أنّ التوسل منحصر فی ذلک، مع أنّه من المجوزین لتوسل المسلم بدعاء النبی فی حال حیاته، بل بدعاء أخیه المسلم، فلماذا صار التخلف هیهنا عن هدیهم ومذهبهم جائزاً مع أنهم لم یکونوا متقربین إلاّ بأعمالهم فقط .

والحق أنّ الکاتب اتّخذ موقفاً مسبقاً فی مجال التوسل، وهو إحیاء ما بذره ابن تیمیة، فلذلک ترى أنّه یقفو فی کتابه أثر شیخه، بلا تخلّف عنه قید شعرة، مع أنه یتظاهر فی بدء کتابه بأنه یرید أن یعالج الموضوع علاجاً محایداً (۲۲۸)

عن کلّ تحیّز(۱) . أقسام التوسل: المشروع والممنوع عند الوهابیین

ثم إنّ الرفاعی لغایة التظاهر بالحیاد فی الکتابة عن التوسل، یقسمه إلی مشروع وممنوع ویقول: وینقسم التوسل المشروع إلی ثلاثة أقسام: ۱- توسل المؤمن إلی اللّه تعالی بذاته العلیة، وبأسمائه الحسنی، وبصفاته العلی . ۲- توسل المؤمن إلی اللّه تعالی بأعماله الصالحة . ۳- توسل المؤمن إلی الّه تعالی بدعاء أخیه المؤمن له . ثم إنّه یقدم الکتابة فی الموضوعات الثلاثة فیما یقرب من مائة وسبعین صفحة، مع أنّ هذه الموضوعات من المسائل البدیهیة لدی الأُمم جمعاء، فضلا عن المسلمین، ولکنّه جاء یصرف القلم والحبر والورق فی هذه الموضوعات لغایة التظاهر بأنه لیس مانعاً من التوسل، لکن التوسل المشروع هو هذه . ثم إنّه خصّ الشطر الآخر من کتابه التوسل الممنوع، وجعله ثلاثة : ۱- التوسل إلی اللّه بذوات النبیین والصالحین، وبالأمکنة الفاضلة کالکعبة والمشعر الحرام، وبالأزمنة المبارکة کشهر رمضان ولیلة القدر وأشهر الحج والأشهر الحرم . ۲- التوسل إلی اللّه بجاه فلان أو حرمته أو ما أشبه ذلک . ۳- الإقسام علی اللّه تعالی بالمتوسل به . ثم إنّه بدأ فی البحث عن أحکام هذه التوسلات الثلاثة، وخرج بالمآل بحرمتها إمّا بالطعن فی أسناد الأحادیث، أو بنقد مضامینها، مع أنّ المأثورات الواردة فی ذلک المقام مستفیضة أو متواترة بالمعنی، فمن العجیب المناقشة فی أسناد المستفیض أو المتواتر. نعم إنّ الشیخ الرفاعی تنازل عن توصیف هذه ــــــــــــــــــــــ

۱ . التوصل إلی حقیقة التوسل ص ۹ . (۲۲۹)

التوسلات بالشرک، وأفتی بحرمتها، مع أنّ المعروف من ابن تیمیة وأذنابه هو توصیفها بالشرک، أو کونها ذریعة له . یقول ابن تیمیة فی بیان مراتب التوسل : أحدها: إنَّ الدعاء لغیر اللّه سواء أکان المدعو حیاً أم میتاً، وسواء أکان من الأنبیاء ـ علیهم السَّلام ـ أمْ غیرهم، فیقال: یا سیدی أغثنی، وأنا مستجیر بک وغیر ذلک، فهذا هو الشرک باللّه . الثانی: أن یقال للمیت أو الغائب من الأنبیاء الصالحین: ادع اللّه وادع لنا ربک ونحو ذلک، فهذا مما لا یستریب عالم فی أنه غیر جائز . الثالث: أن یقول: أسالک بجاه فلان عندک وحرمته ونحو ذلک(۱) . ترى أنّه وصف الصورة الأُولی بالشرک والثانیة والثالثة بعدم الجواز، فقد فرغنا من تبیین معیار التوحید والشرک فلا نعید، وإنّما نتکلم فی الجواز وعدمه، ولنبحث عن الصور الثلاث الّتی جاءت فی کلام الرفاعی، وزعم أنها ممنوعة، فنقول: * * *

---

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۲۲ ـ ۲۳ .

اقسام التوسل:

التوسل بالأنبياء والصالحين أنفسهم

التوسل بالأنبياء والصالحين أنفسهم

احتج الشيخ السلفى المعاصر على التحريم بوجوه واهية مدحوضة، وإليك بيانها: ١- لو كان هذا النوع من التوسل مشروعاً حقيقة لذكره الشارع فى زمرة ما ذكره وحثّ كذلك الناس عليه، وليس معقولا أن يهمله اللّه تعالى ولا يبلّغه رسوله . ٢- إنّ اللّه عاب فى الآية المتقدمة (آية الإسراء) محاولتهم القربى والزلفى إليه تعالى بالأشخاص والعباد المخلوقين، فكلا الأمرين فى الآية عيب وذنب . ٣- إن أرادوا بالواسطة فى جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة فى رزق العباد فهو من أعظم الشرك(١) . يلاحظ على الوجه الأول: أنّ القائلين بالتوسل بالأشخاص يدّعون أنّ النبى ذكره فى كلامه، وقد نقل هو فى نفس الكتاب ستة وعشرين دليلا عنهم، وهو بين حديث مروى عن النبى، وأثر منقول عن الصحابة فى ذلك المجال، وهو وإن ناقش فى أسنادها غالباً، لكنّه غفل ـ بعد تسليم ما ناقشه ـ عن أنّ هذا العدد الهائل من الأخبار، أخبار متواترة بالمعنى، ولا وجه للمناقشة فى

---

١ . التوصل إلى حقيقة التوسل ١٧٧ ـ ١٨٠ . (٢٣٢)

المتواتر، ولو صحّ النقاش فى المتواتر فربما تكون جميع الأسناد زائفة باطلة . ويلاحظ على الوجه الثانى: أنّ اللّه تعالى عاب عليهم بعبادتهم الوسائل الّتى يوسّطونها بينهم وبين اللّه، لا لتوسلهم بالأشخاص والعباد. قال سبحانه نقلا عنهم: (مَا نَعْبُدُهُم إلاّ لِيُقَرّبُونَا إلى اللّهِ زُلْفَى)(١) فكم فرق بين أن يعيب سبحانه توسيط الصالحين فى دعائه سبحانه، وأن يعيب عبادتهم الصالحين ليتوسطوا بينهم وبين اللّه، والآية تهدف إلى الثانى دون الأول، وما هذا الاعوجاج فى الفهم لو لم يكن عناداً؟ . يلاحظ على الوجه الثالث: أنّه فرية واضحة لا تصدر عن مسلم، بل يريدون منهم الدعاء والطلب من اللّه مثل حال حياتهم، أو يطلبون من اللّه سبحانه قضاء حاجتهم، لأجل حرمة الوسائط الذين كرمهم اللّه فى الدنيا والآخرة، فالمدعو الحقيقى هو اللّه سبحانه، وهو الكعبة المقصودة مآلا . إذا وقفت على دلائله الداحضة. هلمّ نقرر أدلة القائلين بجواز هذا النوع من التوسل، وهى أدلة مشرقة لا تبقى لأحد شكاً، وإليك البيان: ١- توسل الضرير بالنبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ

عن عثمان بن حنيف أنه قال: إنّ رجلا ضريراً أتى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: ادع اللّه أن يعافينى . فقال ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت وهو خير . قال: فادعه! فأمره ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ أن يتوضّأ فيحسن وضوءه، ويصلى ركعتين. ويدعو بهذا الدعاء: «أللّهمّ إنّى أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبى الرحمة، يا محمد إنى أتوجه

---

١ . سورة الزمر: الآية ٣ . (٢٣٣)

بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى، أللّهمّ شفّعه فىّ» قال ابن حنيف: واللّه ما تفرّقنا وطال بنا الحديث، حتّى دخل علينا كأن لم يكن به ضر. كلمات حول سند الحديث

قال ابن تيمية: وقد روى الترمذى حديثاً صحيحاً عن النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ أنه علّم رجلا أن يدعو فيقول: «أللّهمّ إنّى أسألك وأتوسل بنبيك... وروى النسائى نحو هذا الدعاء(١) . وقال الترمذى: هذا حديث حق حسن صحيح . وقال ابن ماجة: هذا حديث صحيح . وقال الرفاعى: لا شكّ أنّ هذا الحديث صحيح ومشهور...(٢) . نعم حاول السيد محمد رشيد رضا، مؤلف المنار، الّذى علق على كتاب مجموعة الرسائل والمسائل، تأليف ابن تيمية، أن يضعف الحديث بحجة أنه ورد فى سنده أبو جعفر، وأنه غير أبى جعفر الخطمى(٣) . ولكن المحاولة فاشلة، فإنّ إمام مذهبه أحمد فى مسنده وصفه بالخطمى، ونقل الرفاعى عن نفس ابن تيمية أنّه جزم بأنّه هو أبو جعفر الخطمى، وهو ثقة(۴) ووصفه الحافظ سليمان بن أحمد الطبرانى فى معجمه بـ(الخطمى المدنى) . ولأجل أن يقف القارىء على مظانّ الحديث فى الصحاح نذكره مصادره: ١- سنن ابن ماجة، الجزء الأول، ص ۴۴١ رقم الحديث ١٣٨٥

---

١ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ١٣ .

۲ . التوصل إلی حقیقة التوسل ص ۱۵۸ .

۳ . مجموعة الرسائل والمسائل ص ۱۳ قسم التعلیقة .

۴ . التوصل إلی حقیقة التوسل ص ۲۲۸ . (۲۳۴)

تحقیق محمد فؤاد عبد الباقی، نشر دار إحیاء الکتاب العربی، وقد عرفت تنصیصه بأنه حدیث صحیح . ۲- مسند أحمد، ج ۴ ص ۱۳۸ عن مسند عثمان بن حنیف، طبع المکتب الإسلامی مؤسسة دار صادر، وقد روی هذا الحدیث عن ثلاثة طرق . ۳- صحیح الترمذی ج ۵، کتاب الدعوات، الباب ۱۱۹، الحدیث برقم ۳۵۷۸، وقد عرفت کلمته فی حق الحدیث . ۴- مستدرک الصحیحین للحاکم النیسابوری، الجزء الأول ص ۳۱۳ طبع حیدر آباد الهند . قال بعد ذکر الحدیث: هذا حدیث صحیح علی شرط الشیخین، ولم یخرجاه . ۵- المعجم الکبیر للطبرانی: الجزء التاسع باب (ما أسند إلی عثمان بن حنیف) ص ۱۷ برقم ۸۳۱۱ ، قال المعلق فی ذیل الصفحة: ورواه فی الصغیر ۱/۱۸۳ ـ ۱۸۴ وقال: لم یروه عن روح بن أبی القاسم إلاّ شبیب بن سعید المکی، وهو ثقة، وهو الّذی یحدث یحدث عنه أحمد بن شبیب عن أبیه عن یونس بن یزید الأیلی، وقد روی هذا الحدیث شعبة عن أبی جعفر الخطمی ـ واسمه عمیر بن یزید ـ وهو ثقة، تفرد به عثمان بن عمر بن فارس بن شعبة، والحدیث صحیح . وبعد هذا کله لا مجال للمناقشة فی سند الحدیث أو الطعن فیه، کیف والخصم الّذی یحاول أن یضعف کل صحیح، فشلت محاولته فی حقه، فسلم سنده، ولکن مضی یناقش فی دلالته، وسیوافیک أنها أیضاً محاوله فاشلة . دلالة الحدیث

إنّ الحدیث یدلّ بوضوح علی أنّ الأعمی توسل بذات النبی بتعلیم منه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ فهو وإن طلب الدعاء من النبی الأکرم فی بدء الأمر، ولکنّ النبی علّمه دعاء تضمّن التوسل بذات النبی، وهذا هو المهم فی تبیین معنی الحدیث . (۲۳۵)

وبعبارة ثانیة: الّذی لا ینکر عند الإمعان فی الحدیث أمران: الأول: إنّ الراوی طلب من النبی الدعاء، ولم یظهر منه توسل بذات النبی . الثانی: إنّ الدعاء الّذی علّمه النبی تضمّن التوسل بذات النبی بالصراحة التامة، فیکون دلیلا علی جواز التوسل بالذات، وإلیک الجمل الّتی هی صریحة فی المقصود:

۱-اللّهمّ إنّی أسألک وأتوجّه إلیک بنبیک . إنّ کلمة «بنبیک» متعلقة بفعلین: «أسالک» و «أتوجه إلیک» والمراد من النبی نفسه المقدسة وشخصه الکریم، لا دعاؤه . إنّ من یقدّر کلمة «دعاء» قبل لفظ «بنبیک» ویصوّر أنّ المراد: أسألک بدعاء نبیک، أو أتوجه إلیک بدعاء نبیک، فهو یتحکم بلا دلیل، ویؤوّل بلا جهة، ولو أنّ محدثاً ارتکب مثله فی غیر هذا الحدیث لرموه بالجهمیة والقدریة . ۲- «محمد نبی الرحمة» . لکن یتضح أنّ المقصود هو السؤال من اللّه بواسطة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وشخصیته جاءت بعد کلمة (نبیک) جملة «محمد نبی الرحمة» لکن یتضح الهدف بأکثر ما یمکن . ۳- إنّ جملة «یا محمد إنی أتوجه إلی ربی» تدل علی أنّ الرجل ـ حسب تعلیم الرسول ـ اتخذ النبی نفسه وسیلة لدعائه، أی أنه توسل بذات النبی لا بدعائة . ۴- إنّ قوله: «وشفّعه فیّ»: معناه یا ربّ اجعل النبی شفیعی وتقبّل شفاعته فی حقی، ولیس معناه تقبّل دعاءه فی حقی . ۵- فإنَّه لم یرد فی الحدیث أنّ النبی دعا بنفسه حتّی یکون معناه: استجب دعاءه فی حقی، ولو کان هناک دعاء من النبی لذکره الراوی، إذ (۲۳۶)

لیس دعاؤه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ من الأُمور غیر المهمة حتّی یتسامح الراوی فی حقه . نعم، إنّ الراوی طلب الدعاء من النبی، والنبی وعده بالدعاء حیث قال: إن شئت دعوت، ولکن النبی لمّا علّمه دعاء مؤثراً فی قضاء حاجته، وسکت عن دعاء نفسه، صار هذا قرینة علی أنّ وعده بالدعاء، کان أعم من الدعاء المباشری أو التسبیبی. فالدعاء الّذی وعد به النبی هو نفس الدعاء الّذی علمه الضریر، فکان دعاء له ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ بالتسبیب کما کان دعاء للضریر بالمباشرة . فالنقطة المرکزیة فی هذا التوسل هی شخص رسول اللّه وشخصیته الکریمة، لا دعاؤه، وإن کان دعاؤه ـ فی سائر المواضع ـ أیضاً مؤثراً مثل التوسل بشخصیته، ومن تأمل فی ما ذکرنا من القرائن یجزم بأنّ المتوسل به بعد تعلیم النبی، هو نفس الرسول و شخصیته . ۶- ولنفترض أنّ معنی قوله: «وشفّعه فیّ»: استجب دعاءه فی حقی، ونفترض أنه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ ـ مضافاً إلی ما علّمه من الدعاء ـ قام بنفسه أیضاً بالدعاء، ودعا

الباری سبحانه أن یرد إلیه بصره، ولکن أیّة منافاة بین الدعاءین حتّی یکون أحدهما قرینة علی التصرف فی الآخر . فهناک کان دعاء من النبی ولم یذکر لفظه، ودعاء آخر علمه الرسول للضریر وقد تضمّن هذا الدعاء التوسل بذات النبی وشخصه، ولیس بین الدعاءین أی تزاحم وتعارض حتّی نجعل أحدهما قرینة علی الآخر . تشکیک الرفاعی فی دلالة الحدیث

إنّ الخصم قد عجز عن الدفاع عن مذهبه وهو یواجه هذه الروایة، فإنها بصراحتها تقاومه وتکافحه، فعاد یکرر ما ذکره شیخه فی رسائله، غیر أنّ شیخه: نقله بصورة الاحتمال، ولکن الرفاعی ذکره بحماس. قال ابن تیمیة: «ومن الناس من یقول: هذا یقتضی جواز التوسل بذاته مطلقاً، حیاً ومیتاً، ومنهم من یقول: هذه قضیة عین ولیس فیها إلاّ (۲۳۷)

التوسل بدعائه وشفاعته، لا التوسل بذاته»(۱) . تری أنّ شیخ الرفاعی ینسبه إلی الغیر عن تردد وشک، ولکن الرفاعی عاد یکرر هذا المطلب بثوب جدید، ویدّعی أنّ السائل لم یقصد التوسل بذات الرسول بل بدعائه المستجاب، ویستدل علی ذلک بالعبارات التالیة: ۱- قول الأعمی لرسول اللّه: ادع اللّه أن یعافینی. ۲- جواب الرسول له: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت . ۳- إصرار الأعمی علی طلب الدعاء منه بقوله: فادعه . ۴- قول الأعمی فی آخر دعائه الّذی علمه إیاه رسول اللّه: اللّهمّ شفّعه فیّ. فاستنتج من ذلک کله أنّ المتوسل به هو دعاؤه . ولقد عزب عن المسکین أن الوجوه الثلاثة الأُولی لا تمت إلی مقصوده بصلة، لما عرفت من أنّ الأعمی فی محاورته مع الرسول لم یکن یخطر بباله إلاّ طلب الدعاء، ولأجل ذلک طلب منه الدعاء، وأنّ الرسول لما خیره بین الدعاء والصبر علی الأذی، اختار الدعاء ورفض الصبر، غیر أنّ النقطة المرکزیة للاستدلال لیست هذه المحاورة، وإنّما هو الدعاء الّذی علّمه رسول اللّه الضریر، فإنه ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ علمه دعاء یتضمن التوسل بذات النبی: وبعبارة ثانیة: کانت هناک حالتان: الأُولی: المحاورة الابتدائیة الّتی وقعت بین النبی والضریر، فکان الموضوع هناک دعاء الرسول بلا شک . الثانی: الدعاء الّذی علمه الرسول، فإنه تضمن التوسل بذات النبی، فالتصرف فی هذا النص بحجة أن الموضوع فی المحاورة الأُولی هو الدعاء، تصرف عجیب، فإنّ الأعمی وإن لم یتردد فی خلده سوی دعاء الرسول المستجاب، ولکن الرسول علمه دعاء جاء فیه التوسل بذاته. ونحن نفترض أنه کان من الرسول، دعاء غیر ما علمه للضریر، ولکن أیة ضرورة تقضی بأن نؤوّل ما ورد فی العبارة التی علّمها للسائل؟ _____

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۱۳ . (۲۳۸)

فما هذه الشبه والظنون الّتی یتمسک بها الرفاعی فی سبیل دعم مذهبه؟ باللّه علیک أیها الکاتب الوهابی الّذی یعیش عیشاً رغداً فی الریاض فی ظل الثروة الطائلة للسلطة، لولا أنّک من القائلین بمنع التوسل بذات النبی، هل کان یخلد ببالک أن المراد من الدعاء الّذی علمه للضریر، هو التوسل بدعاء النبی لا ذاته؟ ولولا أنک قد أخذت موقفاً مسبقاً فی الموضوع، هل کان یتردد فی ذهنک تأویل ذلک النص؟ وأنت وأشیاخک ونظراؤک تصبّون القارعات علی الذین یؤوّلون الصفات الخبریة کالید والاستواء والوجه، وتصفونهم بالجهمیة والمؤوّلة وغیر ذلک من الألفاظ الرکیکة، فکیف تسوّغون تأویل هذا النص الّذی لا یرتاب فیه إلاّ من اتخذ رأیاً مسبقاً؟ وأمّا قوله: «وشفّعه فیّ» فقد قلنا إنّ المراد: اجعله شفیعاً لی، ولیس معناه استجب دعاءه فی حقی، وإلاّ لما عدل عن اللفظ الصریح إلی هذا اللفظ الّذی لیس بواضح فی ما یریدون . والعجب أنّ الرفاعی یتمسک بالطحلب ویقول: «لو کان قصده التوسل بشخص الرسول أو بحقه أو بجاهه لکان یکفیه أن یبقی فی بیته، ویدعوا اللّه قائلاـ مثلاـ: اللّهمّ ردّ بصری بجاه نبیک، دون أن یحضر ویتجشم عناء المشی... ولکن لیس هذا بعجیب ممن اتّخذ رأیاً مسبقاً فی الموضوع، وذلک لأنّ الضریر لم یکن متذکراً هذا النوع من التوسل حتّی یجلس فی بیته ویتوسل به ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ وإنّما علّمه النبی الأکرم، وما معنی هذا الترقب من الرجل؟. ثمّ إنّ الکاتب یدّعی أن لفظ الحدیث ومفاهیم اللغة العربیة وقواعدها کلها تشهد بأنّ معناه هو التوسل بدعاء النبی، ماذا یرید من لفظ الحدیث؟ هل یرید المحاورة الأولی الّتی لا تمتّ إلی مرکز الاستدلال وموضعه بصلة، أو یرید الدعاء الّذی علمه الرسول؟ فهو یشهد بخلافه ؟ (۲۳۹)

وماذا یرید من مفاهیم اللغة العربیة وقواعدها، وأیّة قاعدة عربیة تمنع الأخذ بظاهر الدعاء؟ (ما هکذا تورد یا سعد الإبل!) . إنّک إذا

قرأت ما جاء به الكاتب من صخب وهياج فى ذيل كلامه، لتعجبت من عباراته الفارغة وكلماته الجوفاء، الّتى هى بالخطابة أشبه منها بالبرهان. * * * ۲- التوسل بالنبى بتعليم من الصحابى الجليل

روى الطبرانى عن أبى أُمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف: أنّ رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان (رضى اللّه عنه) فى حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته، فلقى ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: ائت الميضأة، فتوضأ، ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل: «أللّهمّ إنّى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ نبىّ الرحمة يا محمد! إنى أتوجه بك إلى ربى فتقضى لى حاجتى، فتذكر حاجتك، ورح حتّى أروح معك. فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان (رضى اللّه عنه) فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفتان (رضى اللّه عنه) فأجلسه معه على الطنفسة، فقال: حاجتك؟ فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكرت حاجتك حتّى كان الساعة؟ وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها، ثم إنّ الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك اللّه خيراً، ما كان ينظر فى حاجتى، ولا يلتفت إلىّ حتّى كلّمته فىّ، فقال عثمان بن حنيف: واللّه ما كلمته، ولكن شهدت رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : فتصبر! فقال يا رسول اللّه. ليس لى قائد فقد شقّ على. فقال النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ائت الميضأة فتوضأ، ثم صل ركعتين، ثم ادع بهذه الدعوات... قال ابن حنيف: فواللّه ما تفرقنا وطال بنا الحديث، حتّى دخل علينا (۲۴۰)

الرجل كأنه لم يكن به ضرّ قط(۱) . ورواه فى المعجم الصغير فقال: لم يروه عن روح بن القاسم إلاّ شبيب بن سعيد، أبو سعيد المكى، وهو ثقة، وهو الّذى يحدث عنه أحمد (ابن أحمد) ابن شبيب عن أبيه عن يونس بن يزيد الأيلى، وقد روى هذا الحديث شعبة عن أبى جعفر الخطمى واسمه عمير بن يزيد، وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر بن فارس عن شعبة، والحديث صحيح، وروى هذا الحديث عون بن عمارة عن روح بن القاسم، عن محمد بن المنكدر، عن جابر (رضى اللّه عنه) وهو فيه عون بن عمار، والصواب شبيب بن سعيد(۲). إنّ دلالة الحديث على جواز التوسل بالنبى أظهر من الشمس وأبين من الأمس، ولكن الكاتب الوهابى أخذ يناقش فى الحديث من جوانب أُخرى. فقال: «إنّ هذا الحديث تتجلى فيه آثار الصنع، ويدل عليه أُمور : ۱- إنّ ما ذكره لا يوافق سيرة عثمان بن عفان لما اشتهر عنه من الرقة واللين . ۲- إنّ معنى التوسل عند الصحابة هو دعاء الشخص المتوسل به إلى اللّه تعالى بقضاء حاجة المتوسل، لا كما يعرفه القوم فى زماننا هذا من التوسل بذات المتوسل به . ۳- لو كان دعاء الأعمى الّذى علّمه رسول اللّه دعاء ينفع لكل زمان ومكان، لما رأينا أىّ أعمى على وجه البسيطة» . يلاحظ عليه: أنّ كل واحد من هذه الوجوه ساقط جداً لا يمكن أن يستدل به على جعل [وضع] الحديث . أمّا الأول: فلأنّ المعروف من الخليفة هو تكريم الأقربين والإحسان إليهم، خصوصاً بنى أبيه، لا تعميمه إلى الجميع. هذا هو التاريخ ضبط عطاءه

۱ . المعجم الكبير، للحافظ أبى القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمى الطبرانى المتوفى سنة ۳۶۰ هـ ج ۹ ص ۱۶ ـ ۱۷، باب ما أسند إلى عثمان بن حنيف برقم ۸۳۱۰ .

۲ . المعجم الصغير للطبرانى ج ۱ ص ۱۸۳ ـ ۱۸۴، طبع دار الفكر . (۲۴۱)

لمروان بن الحكم خمس غنائم افريقية، والحارث بن الحكم ثلاثمائة ألف درهم، وقضى ما استقرضه الوليد بن عقبة من عبد اللّه بن مسعود الّذى كان أمين بيت المال فى عصر ولاية الوليد على الكوفة، إلى غير ذلك من عطاياه إلى بنى أبيه وأقربائه(۱)وفى الوقت نفسه كان أبو ذر يعيش فى الربذة ويعانى من جوع أليم، ويليه فى الفقر وبساطة الحياة عبد اللّه بن مسعود، وعمار بن ياسر، فلا يمكن أن يقال إنّ الخليفة كان ينظر إلى الجميع بعين واحدة، وقد كان عمله هذا هو الّذى أجهز عليه وانتكث عليه فتله. هذا هو الإمام علىّ ـ عليه السَّلام ـ يصف ذلك العصر بقوله: «إلى أنْ قَامَ ثَالِثُ القَوْمِ نافِجاً حِضْنَيْهِ بَيْنَ نَثِيلِهِ وَمُعْتَلَفِهِ وَقَامَ مَعَهُ بَنُو أبِيهِ يَخْضمُونَ مَالَ اللّه خِضْمَةَ الإبِلِ نَبْتَةَ الرّبيعِ»(۲) .

وفى رسالته إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة يقول: (أوْ أبيتَ مِبْطاناً وَحَولى بُطُونٌ غَرْثَى وأكْبادٌ حَرّى، أو أكُونَ كَمَا قَالَ القَائِلُ: وَحَسْبُكَ دَاءً أنْ تَبِيتَ بِبِطْنَةٍ * وَحَوْلَكَ أكْبَادٌ تَحِنُّ إلى القِدّ(۳)

. وهو يشير بذلك إلى الأوضاع السائدة فى عصره وعصر من تقدمه . وأمّا الثانى فهو من: غرائب الكلام، فقد جعل مذهبه دليلا على ضعف الرواية، وهو أنّ معنى التوسل عند الصحابة ـ هو التوسل بدعاء الشخص لا بذاته ـ فمن أين يدّعى أن هذا مذهب الصحابة، وما هو المصدر لذاك الحصر؟ مع أنّ الحديثين المرويين من طريق ذلك الصحابى الجليل، يدلان على خلافه . _____

۱ . لاحظ فى ذلك تاريخ أبى الفداء ج ۱ ص ۱۶۸، والمعارف لابن قتيبة، ص ۸۴، والأنساب للبلاذرى ج ۵ ص ۵۲ ولاحظ الغدير ج ۸ ص ۲۸۶، تجد فيه قائمة من عطايا الخليفة الهائلة لنبى أبيه .

۲ . نهج البلاغة الخطبة ۳ .

۳ . نهج البلاغة قسم الكتب رقم ۴۵ . (۲۴۲)

وأمّا الثالث فهو إطاحة بالوحى وازدراء به، ولو صحّ فلقائل أن يقول: لو صحّ قوله سبحانه: (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونى أسْتَجِب لَكُمْ)(۱) يجب أن لا يبقى على وجه البسيطة ذو حاجة . ولو صحّ قوله: (أمَّن يُجِيبُ المُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوء...)(۲) يجب أن لا يبقى على وجه البسيطة مضطرّ أو فقير، مع أنّ البسيطة مليئة بالمضطر والمحتاج . نعم، إنّ الدعاء سبب لنزول الرحمة ودفع الكربة، ولكن ليس تمام السبب لإنجاح المقصود، بل له شروط ومعدات، وله موانع وعوائق، ولأجل ذلك نرى أنّ كثيراً من الأدعية لا تستجاب مع أنّه سبحانه يحث عباده على الدعاء، وأنّه يستجيب إذا دعاه ويقول:(وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُم). هذا كله حول مناقشاته فى متن الرواية ومضمونه.. هلمّ معى نستمع مناقشته فى السند: يقول: إنّ فى سند هذا الحديث رجلا اسمه (روح بن صلاح) وقد ضعّفه الجمهور، وابن عدىّ، وقال ابن يونس: يروى أحاديث منكرة. يلاحظ عليه: أنّ الطبرانى نقل الرواية بهذا السند: «حدثنا طاهر بن عيسى بن قريش المصرى المقرى، ثنا أصبغ بن الفرج، ثنا ابن وهب عن أبى سعيد المكى، عن روح بن القاسم، عن أبى جعفر الخطمى المدنى، عن أبى أُمامة بن سهل بن حنيف، عن عمّه عثمان بن حنيف»(۳) . كما نقله بهذا السند فى المعجم باختلاف يسير لا يضرّ بوحدة السند . _____

۱ . سورة غافر: الآية ۶۰ .

۲ . سورة النمل: الآية ۶۲ .

۳ . المعجم الكبير للطبرانى ج ۹ ص ۱۷ وفى المعجم الصغير أصبغ بن الفرج مكان (الفرح) . (۲۴۳)

ورواه البيهقى بالسند التالى: «أخبرنا أبو سعيد عبد الملك بن أبى عثمان الزاهد ـ رحمه اللّه ـ أنبأنا الإمام أبوبكر محمد بن على بن إسماعيل الشاشى القفال، قال: أنبأنا أبو عروبة، حدثنا العباس بن الفرج، حدثنا إسماعيل بن شبيب، حدثنا أبى عن روح بن القاسم، عن أبى جعفر المدينى...(إلى آخر السند) (۱) . وأنت ترى أنه ليس فى طريق الرواية «روح بن صلاح» بل الموجود هو روح بن القاسم، والكاتب صرّح بأن الرواية رواها الطبرانى والبيهقى، وهذا يعرب عن أنّ الكاتب لم يرجع إلى المصادر وإنّما اعتمد على تقوّل الآخرين . نحن نفترض أنه ورد فى سند الرواية روح بن صلاح، ولكن ما ذكره من أنّ الجمهور ضعّفوه أمر لا تصدقه المعاجم الموجودة فيما بأيدينا، وإنما ضعّفه ابن عدى، وفى الوقت نفسه وثّقه ابن حبان والحاكم. وسيوافيك الكلام فى حقه فى حديث فاطمة بنت أسد، فانتظر. أهكذا أدب نقد الرواية يا شيخ؟ هداك اللّه إلى النهج القويم . وفى الختام نقول: إنّ السبكى نقل الرواية عن المعجم الكبير للطبرانى بنفس السند الّذى نقلناه، وهذا يكشف عن صحة المطبوع(۲) . * * * ۴- توسل الخليفة بعم النبى

قبل أن نذكر نص توسل الخليفة عمر بعم النبى: نتبّه على أمر وهو: إنّ سيرة المسلمين فى حياة النبى وبعد وفاته تعرب عن أنهم كانوا يتوسلون بأولياء اللّه، من دون أن يتردد فى خلد واحد منهم بأنه أمر حرام أو شرك أبو بدعة، بل كانوا يرون التوسل بدعاء النبى والصالحين رمزاً إلى التوسل بالنبى ومنزلته وشخصيته، فإنه لو كان لدعائه أثر، فإنما هو لأجل قداسة نفسه _____

۱ . دلائل النبوة ج ۶ ص ۱۶۸ .

۲ . لاحظ: شفاء السقام ص ۱۳۹ ـ ۱۴۰ . (۲۴۴)

وطهارة ذاته، ولولاها لما استجيبت دعوته، فما معنى الفرق بين التوسل بدعاء النبى والتوسل بشخصه وذاته؟ حتّى يكون الأول نفس التوحيد، والآخر عين الشرك أو ذريعة إليه؟ لم يكن التوسل بالصالحين والطيبين والمعصومين والمخلصين من عباد اللّه أمراً جديداً بين الصحابة، بل كان ذلك امتداداً للسيرة الموجودة قبل الإسلام، فقد تضافرت الروايات التاريخية على ذلك، وإليك البيان: استسقاء عبدالمطلب بالنبى وهو رضيع

إنّ عبد المطلب استسقى بالنبى الأكرم وهو طفل صغير، حتّى قال ابن حجر: إنّ أبا طالب يشير بقوله: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل إلى ما وقع فى زمن عبدالمطلب حيث استسقى لقريش والنبى معه غلام(۱) . استسقاء أبى طالب بالنبى وهو غلام

أخرج ابن عساكر عن أبى عرفة، قال: قدمت مكة وهم فى قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادى، وأجدب العيال، فهلم فاستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام يعنى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ كأنه شمس دجى تجلت عن سحابة قتماء، وحوله أغيلمة، فأخذ النبى أبوطالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ إلى الغلام وما فى السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وها هنا وأغدق واغدودق، وانفجر له الوادى، وأخصب النادى، والبادى، وفى ذلك يقول أبوطالب: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل(۲) وقد كان استسقاء أبى طالب بالنبى وهو غلام، بل استسقاء عبدالمطلب _____

۱ . فتح البارى ج ۲ ص ۳۹۸ ودلائل النبوة ج ۲ ص ۱۲۶ .

۲ . فتح البارى ج ۲ ص ۴۹۴ والسيرة الحلبية ج ۱ ص ۱۱۶ . (۲۴۵)

به وهو صبى أمراً معروفاً بين العرب، وكان شعر أبى طالب فى هذه الواقعة مما يحفظه أكثر الناس . ويظهر من الروايات أنّ استسقاء أبى طالب بالنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ كان موضع رضا منه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فإنه بعد ما بعث للرسالة استسقى للناس فجاءالمطر وأخصب الوادى فقال النبى: لو كان أبو طالب حياً لقرّت عيناه، ومن ينشدنا قوله؟ فقام علىّ ـ عليه السَّلام ـ وقال: يا رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ كأنك أردت قوله: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل(۱) إنّ التوسل بالأطفال فى الاستسقاء أمر ندب إليه الشارع ;هذا هو الإمام الشافعى يقول فى آداب صلاة الاستسقاء: «وأحب أن يخرج الصبيان، و يتنظفوا للاستسقاء، وكبار النساء، ومن لا هيبة منهن ;ولا أحب خروج ذات الهيبة، ولا آمر بإخراج البهائم(۲). ما هو الهدف من إخراج الصبيان والنساء الطاعنات فى السن، إلّا استنزال الرحمة بهم وبقداستهم وطهارتهم؟ كل ذلك يعرب عن أن التوسل بالأبرياء والصلحاء والمعصومين مفتاح الستنزال الرحمة وكأن المتوسل يقول: ربى وسيدى، الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن فى السن أسيرك فى أرضك، وكلتا الطائفتين أحق بالرحمة والمرحمة. فلأجلهم أنزل رحمتك علينا، حتّى تعمّنا فى ظلّهم . إنّ الساقى ربما يسقى مساحة كبيرة لأجل شجرة واحدة، وفى ظلها تسقى الأعشاب وسائر الخضراوات غير المفيدة. وعلى ضوء ذلك تقدر على تفسير توسل الخليفة بعمّ الرسول: العباس بن عبدالمطلب، الّذى سنتلوه عليك، وأنه كان توسلا بشخصه وقداسته وصلته بالرسول، وأنه كان امتداداً للسيرة المستمرة قبل هذا، ولا _____

۱ . إرشاد السارى ج ۲ ص ۳۳۸ .

۲ . الأم ج ۱ ص ۲۳۰ . (۲۴۶)

يمت إلى التوسل بدعاء العباس بصلة، وإنما هو شىء اخترعه الوهابيون لحفظ موقفهم المسبق فى هذه المباحث . التوسل بعم النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ

ما تعرفت عليه سابقاً كان تقدمة لدراسة هذا الحديث الّذى يرويه البخارى فى صحيحه ويقول: «كان عمر بن الخطاب إذا قحطوا

استسقى بالعباس بن عبدالمطلب (رضى اللّه عنه) وقال: أللّهمّ إنّا كنّا نتوسل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسل إليك بعم نبيّنا فاسقنا. قال: فيسقون»(۱) . هذا نص البخارى، وهو يدل على أنّ عمر بن الخطاب عند دعائه واستسقائه توسل بعم النبى وشخصه وشخصيته، وقداسته وقرابته من النبى، لا ـ بدعائه، ويدل على ذلك أُمور: ۱- قول الخليفة عند الدعاء.. قال: «أللّهمّ إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسل إليك بعم نبيّنا فاسقنا». وهذا ظاهر فى أنّ الخليفة قام بالدعاء فى مقام الاستسقاء، وتوسل بعم الرسول فى دعائه، ولو كان المقصود هو التوسل بدعائه، كان عليه أن يقول: يا عم رسول اللّه كنّا نطلب الدعاء من الرسول فيسقينا اللّه، والآن نطلب منك الدعاء فادع لنا. ۲- روى ابن الأثير كيفية الاستسقاء فقال: استسقى عمر بن الخطاب بالعباس عام الرمادة لما اشتدّ القحط، فسقاهم اللّه تعالى به، وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا واللّه الوسيلة إلى اللّه والمكان منه. وقال حسان: سأل الإمام وقد تتابع جدبنا * فسقى الغمام بغرة العباس عمّ النبى وصنو والده الذى * ورث النبى بذاك دون الناس أَحَيى الإله به البلاد فأصبحت * مخضرة الأجناب بعد إلياس ولما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرمين(۲). _____

۱ . صحيح البخارى، باب صلاة الإستسقاء ج ۲ ص ۳۲ .

۲ . الجزرى: أُسد الغابة ج ۳ ص ۱۱۱ طبع مصر. (۲۴۷)

أمعن النظر فى قول الخليفة: هذا واللّه الوسيلة . ۳- ويظهر من شعر حسان أنّ المستسقى كان هو نفس الخليفة وهو الداعى حيث قال: «سأل الإمام...» وكان العباس وسيلته لاستجابة الدعاء . وأظنّ أنّ هذه الروايات الصحيحة لا تبقى شكاً ولا ريباً فى خلد أحد فى جواز التوسل بالصالحين . تشكيك الرفاعى فى دلالة الحديث

يقول الرفاعى: «لا ريب فى أنّ هذا الحديث صحيح، وما ظنك بحديث يرويه الإمام البخارى» ولكنه بصلافة خاصة به يدَّعى أنه من قبيل توسل المؤمن بدعاء أخيه المؤمن، ويقول: إنّ الحديث يخبرنا أنّ أميرالمؤمنين عمر بن الخطاب (رضى اللّه عنه) كلّف العباس أن يستسقى للمسلمين ويدعو اللّه تعالى أن يستسقيهم الغيث ;وبيّن الأسباب الموجبة لتكليف العباس، فقال: أللّهمّ إنّا كُنّا نتوسل إليك بنبيّنا فتسقينا، وإنّا نتوسل إليك بعم نبيّنا فاسقنا(۱). ثم أضاف: أنّه لو كان قصده ذات العباس لكانت ذات النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ أفضل وأعظم وأقرب إلى اللّه من ذات العباس بلا شك ولا ريب، فثبت أن القصد كان الدعاء ولم تكن ذات الرسول مقصودة عندما كان حياً(۲) . لا أظن أنّ أحداً يحمل شيئاً من الإنصاف تجاه الحقيقة يسوغ لنفسه أن يفسر الحديث بما ذكره، فمن أين يقول: إنّ عمر بن الخطاب كلّف العباس أن يستسقى للمسلمين، بل الخليفة قام بنفسه بالاستسقاء متوسلا بعم النبى _____

۱ . التوصل إلى حقيقة التوسل ص ۲۵۳ .

۲ . التوسل إلى حقيقة التوسل، ص ۲۵۳ و ۲۵۶ وقد أخذه من ابن تيمية حيث قال: «وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسلوا به، ويقولوا فى دعائهم فى الصحراء: نسألك ونقسم عليك بأنبيائك أو نبيك أو بجاههم، مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۱۲ . (۲۴۸)

العباس حيث قال: «أللّهمّ إنّا نتوسل..» فإنّ الاستسقاء وظيفة الإمام، وكان الإمام هو الخليفة نفسه لا العباس وقد عقد البخارى باباً وقال: (باب إذا استشفعوا إلى الإمام يستسقى لهم لم يردهم)(۱) . ويؤيد أنّ المستسقى هو الامام ومن كان معه فى المصلى، ما رواه المؤرخ الكبير ابن الأثير فقال: استسقى عمر بن الخطاب بالعباس، عام الرمادة، لما اشتد القحط، فسقاهم اللّه تعالى به وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا واللّه الوسيلة إلى اللّه والمكان منه. وقال حسان: سأل الإمام وقد تتابع جدبنا * فسقى الغمام بغرة العباس عم النبى وصنو والده الذى * ورث النبى بذاك دون الناس أحيى الإله به البلاد فأصبحت * مخضرة الأجناب بعد الياس ولما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ويقولون: هنيئاً لك ساقى الحرمين(۲) . يقول القسطلانى: إنّ عمر لما استسقى بالعباس قال: أيها الناسن إنّ رسول اللّه يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدو به فى عمه، واتخذوه وسيلة إلى اللّه تعالى . ثم إنّ الاستسقاء وإن كان يتم بصرف الدعاء، ولكن أفضله هو الاستسقاء بركعتين من الصلاة. وروى البخارى أنّ النبى استسقى فصلى ركعتين، وقلب رداءه . وروى أيضاً أنّ النبى

خرج إلى المصلّى يصلّى، وأنّه لمّا دعا أو أراد أن يدعو استقبل القبلة وحوّل رداءه(۳). ولو كان الاستسقاء بإقامة الصلاة، فكانت الإمامة للخليفة، والإئتمام للباقين . _____

۱ . صحيح البخارى ج ۲ ص ۲۰ .

۲ . أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ۳ ص ۱۱۱ طبع مصر.

۳ . صحيح البخارى ج ۲ ص ۳۱، أبواب الإستسقاء . (۲۴۹)

ولو تحقق بصورة الدعاء، فكان الدعاء من الخليفة، و المرافقة بالتأمين من غيره. ولا ينافى ذلك أن يكون لكل من المأمومين دعاء على حدة، وراء الدعاء الّذى يدعو به الإمام، وقد ضبط متن الدعاء الّذى دعا به العباس، وقد نقلوا أنه كان من دعائه : أللّهمّ لم ينزل بلاء إلاّ بذنب، ولم يكشف إلاّ بتوبة، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث(۱) . ولقد ورد فى بعض الروايات عن أئمة أهل البيت استحباب إخراج الصغار الرضّع، والكبار الركّع إلى المصلى، ليكون الحال أنسب لنزول الرحمة الإلهية، فإنّ الصغير معصوم من الذنب، والكبير الطاعن فى السن أسير اللّه فى أرضه، وكلتا الطائفتين، أحق بالرحمة والمرحمة، فببركتهم تنزل الرحمة وتعم غيرهم، وبذلك يظهر الجواب عما ذكره الرفاعى من أنّه لو كان قصد الخليفة ذات العباس لكان النبى أولى وأقرب إلى اللّه من ذات العباس ـ لما عرفت ـ من أنّ الهدف من إخراج عم النبى إلى المصلى وضمه إلى الناس، هو استنزال الرحمة، قائلين بأننا لو لم نكن مستحقين لنزول الرحمة لكن عمّ النبى لها، فأنزل رحمتك إليه لتريحهُ من أزمة القحط والغلاء وبالتالى تعم غيره ;ومن المعلوم أن هذا لا يتحقق إلاّ بالتوسل بإنسان حى يكون شريكاً مع الجماعة فى المصير، وفى عناء العيش ورغده، لا مثل النبى الراحل الخارج عن الدنيا و النازل دار الآخرة، ولو توسل به أيضاً، فإنما هو بملاك آخر، ولم يكن مطروحاً فى المقام . * * * ۴- توسل الأعرابى بالنبى نفسه

روى جمع من المحدثين أنّ أعرابياً دخل على رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وقال: لقد أتيناك وما لنا بعير يئط، ولا صبى يغط، ثم أنشأ يقول: _____

۱ . إرشاد السارى، للقسطلانى، ج ۲ ص ۳۳۸ . (۲۵۰)

أتيناك والعذراء تدمى لبانها * وقد شغلت أُم الصبى عن الطفل ولا شىء مما يأكل الناس عندنا * سوى الحنظل العامى والعلهز الفسل وليس لنا إلاّ اليك فرارنا * وأين فرار الناس إلاّ إلى الرسل؟ فقام رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ يجر رداءه حتّى صعد المنبر، فرفع يديه وقال: أللّهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً... فما رد النبى يديه حتّى ألقت السماء... ثم قال: للّه در أبى طالب، لو كان حياً لقرت عيناه. من ينشدنا قوله؟ فقام علىّ بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ وقال: كأنّك تريد يا رسول اللّه قوله: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل يطوف به الهُلاّك من آل هاشم * فهم عنده فى نعمة وفواضل فقال النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : أجل . فأنشد علىّ ـ عليه السَّلام ـ أبياتاً من القصيدة، والرسول يستغفر لأبى طالب على المنبر، ثم قام رجل من كنانة وأنشد يقول: لك الحمد والحمد ممن شكر * سقينا بوجه النبى المطر(۱) دلالة الحديث

إنّ الإمعان فى مجموع الرواية يعرب عن أنّ الأعرابى توسل بشخص النبى وطلب منه قضاء حاجته، والدليل على ذلك الأُمور التالية: أ ـ أتيناك وما لنا بعير يئط . ب - أتيناك والعذراء تدمى لبانها . ج ـ وليس لنا إلاّ إليك فرارنا . _____

۱ . السيرة الحلبية ج ۱ ص ۱۱۶، لاحظ فتح البارى ج ۲ ص ۴۹۴ والقصيدة مذكورة فى السيرة النبوية لابن هشام ج ۱ ص ۲۷۲ ـ ۲۸۰ . (۲۵۱)

د ـ واين فرار الناس إلاّ ـ إلى الرسل؟ هـ ـ إنشاء علىّ بن أبى طالب شعر والده، وهو يتضمن قوله: «وأبيض يستسقى الغمام بوجهه» . روى ابن عساكر عن أبى عرفة قال: قدمت مكة وهم فى قحط، فقالت قريش: يا ابا طالب! أقحط الوادى وأجدب، فهلم واستسق، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجى، فأخذه ابو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبعه الغلام وما فى السماء قزعة، فأقبل

السحاب من هيهنا وهيهنا وأغدق واغدودق، انفجر له الوادى، وأخصب البادى والنادى، وإلى تلك الحادثة يشير أبوطالب فى شعره: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه * ثمال اليتامى عصمة للأرامل(۱) فمماثلة الحادثتين تحكم بأنّ التوسل كان بذات النبى، كما كان توسل أبى طالب بنفس النبى. و ـ قول رجل من كنانة فى شعره، «سقينا بوجه النبى المطر» . كل ذلك يعرب عن أنّ التوسل كان من الأعرابى وغيره بنفس النبى . نعم إنّ النبى الأكرم قام بالدعاء، فلا يكون دعاء النبى قرينة على أنّ الأعرابى توسل بدعائه، إذ لا منافاة بين أن يكون توسله بشخص النبى وكرامته وفضيلته، وبين أن يقوم النبى بقضاء حاجته (استنزال المطر) بطلبه من اللّه سبحانه . فمن يريد أن يؤوّل هذه النصوص ويجعلها من قبيل التوسل بالدعاء، فهو إنما يحاول دعم رأيه المسبق . نقد ما ذكره الرفاعى

إنّ الشيخ الرفاعى لكونه قد اتخذ موقفاً مسبقاً خاصاً فى التوسل بالأنبياء _____

۱ . مر المصدر. (۲۵۲)

والصالحين، تجشّم عناء تأويل نصوص الأحاديث بما يتبناه، ولما كان الحديث صريحاً فى التوسل بنفس النبى صار يعترض على هذه الدلالة قائلا بأنّ الأعرابى جاء إلى النبى لأن يدعوا اللّه لهم بأن يستسقيهم الغيث، وإلّا لبقى الأعرابى فى منزله، واكتفى أن يقول وهو فى بيته: اللّهمّ اسقنا الغيث بجاه نبيك، أو بذات نبيك، ولما تجشّم المجىء من أهله وبيته إلى النبى فى المدينة(۱) . يلاحظ عليه: أنّه لا ـ منافاة بين الأمرين حتّى يكون أحدهما قرينة على الأُخرى، حتّى يتصرّف فى النصوص بتفسيرها الخاص بالتوسل إلى الدعاء، فالأعرابى توسل بذات النبى، ولا يهمّه سوى قضاء حاجته من اى طريق كان، سواء أتحقق بدعاء النبى أم بإعجازه و كرامته، وأمّا أنه لماذا تجشم عناء المجى من أهله وبيته إلى النبى ولم يكتف بالتوسل نفسه فلأنه كان يرى للمثول أمامه فضيلة وكرامة، أو أنّ توسله بشخصه إذا انضمّ إليه دعاء النبى يوجب قضاء حاجته ولا ـ يتحقق إلاّ ـ بالحضور لديه، فلأجل ذلك جاء إلى النبى وتوسل بشخصه وشخصيته، فصار ذلك سبباً لقيام النبى، ولا يعنى هذا أنه توسل بدعائه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ إذ لا منافاة بين أن يتوسل الأعرابى بشخصه، وبين أن يكون هذا داعياً للنبى أن يقوم بالدعاء، فلا يكون دعاؤه قرينة على كيفية التوسل . وأخيراً يؤاخذ الرفاعى بأنه ذكر متن الحديث بصورة مختصرة، فترك ما ذكرناه من القرائن، ولم يشر إلى المصادر الكثيرة الّتى نقلت هذا الحديث . المناقشة فى سند الحديث

جاء الرفاعى يناقش فى سند هذا الحديث بأنّ فى سنده (مسلم الملائى)، ونقل عن علماء الرجال أنه متروك، وقال أحمد: لا يكتب حديثه. وقال يحيى: ليس بثقة، وقال البخارى: يتكلمون فيه، وقال يحيى أيضاً: زعموا أنه اختلط، وقال النسائى وغيره: متروك، وقال الذهبى: إنّه روى _____

۱ . التوصل إلى حقيقة التوسل ص ۲۹۱ وقد أخذه من شيخه ابن تيمية. لاحظ مجموعة الرسائل والمسائل ج ۱ ص ۱۳ . (۲۵۳)

حديث الطير الّذى أهدته أُم أيمن لرسول اللّه، وحديث الطائر موضوع عند أهل الحديث . أقول: إنّ ذيل العبارة يكشف عن الدافع الّذى دفع هؤلاء إلى تضعيف الرجل، وهو ليس إلاّ كونه ناقلا لفضيلة ساطعة للإمام علىّ بن أبى طالب ـ عليه السَّلام ـ . روى أحمد بن حنبل بسنده عن سفينة مولى رسول اللّه قال: أهدت امرأة من الأنصار إلى رسول اللّه طيرين بين رغيفين، فقدمت إليه الطيرين، فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : أللّهمّ ائتنى بأحب خلقك إليك وإلى رسولك، فجاء علىّ ـ عليه السَّلام ـ فرفع صوته، فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : من هذا؟ قلت: علىّ، قال: فافتح له، ففتحت له فأكل من الطير مع النبى حتّى فنيا(۱) . وعلى ضوء هذا لا تقام لهذا التضعيف قيمة . ۵- توسل المنصور بالنبى بتعليم مالك

إنّ المنصور الدوانيقى سأل مالك بن أنس، إمام المالكية، عن كيفية زيارة رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ والتوسل به، فقال لمالك: يا أبا عبداللّه، أستقبل القبلة وأدعو. أم أَستقبل رسول اللّه؟ فقال مالك فى جوابه: لم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى اللّه يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعه اللّه، قال اللّه تعالى: (ولَو أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنفُسَهُم جاءُوكَ فَاستَغْفَروا اللّهَ واستغفرَ لَهُم الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوّاباً رَحِيماً)(۲) . _____

۱ . فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل ج ۲ ص ۵۶۰ ورواه غيره لاحظ العمدة لابن البطريق ص ۲۴۲ ـ ۲۵۳.

۲ . وفاء الوفاء ج ۲ ص ۲۵۳، النساء: ۶۴ . (۲۵۴)

وقد نقل ابن حجر الهيثمى عن الإمام الشافعى هذين البيتين: آل النبى ذريعتى * وهمُ إليه وسيلتى أرجو بهم أُعطى غداً * بيدى اليمين صحيفتى(۱) هذه النقول و النصوص من أئمة الأمة و مشاهير تكشف عن أمرين: ۱- إنّ التوسل بالصالحين ـ وفى الطليعة الأنبياء العظام ـ كان أمراً رائجاً بين المسلمين، ولم يخطر ببال أحد أنّه شرك، كما لم يخطر ببالهم التفريق بين التوسل باشخاصهم وذواتهم، ولم يصنع هذا التفريق سوى الوهابيين الذين يسعون فى الحط من منزلة الصالحين ومكانتهم، ويجعلون التوسل بدعائهم كالتوسل بدعاء الأخ المؤمن، وإنّه لا فرق بين هذا وذاك، وهم وإن كانوا لا يصرحون بهذه التسوية، لكنهم يكنون ذلك ويضمرونه . ۲- إنّ هذه النصوص تفسّر لنا قوله تعالى: (يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَابْتَغُوا إلَيْهِ الوَسيلَةَ وَجَاهِدوا فى سَبيلِهِ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ)(۲) . فإنّ الوسيلة سواء أفسّرت بمعنى القرابة والمنزلة والدرجة، كما عليه أكثر المفسرين مأخوذاً من قولهم توسلت إليه، أى تقرّبت . قال عنترة بن شداد: إن الرجال لهم إليك وسيلة * أن يأخذوك تلجلجى وتحصنى ويقال: وسل إليه، أى: تقرّب. قال لبيد: بلى كل ذى رأى إلى اللّه واسل. وعليه فمعنى الوسيلة:الوصلة والقربة . أم فسرت بما يتقرب به إلى الغير ويجمع على الوسائل والوسل، كما عليه أهل اللغة، قال الجوهرى فى صحاحه: الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسل والوسائل، وتوسل إليه بوسيلة أى: تقرُّب إليه بعمل . وفى القاموس: الوسيلة والواسلة: المنزلة عند الملك والدرجة والقربة. _____

۱ . الصواعق المحرقة ص ۱۷۸ .

۲ . سورة المائدة: الآية ۳۵ . (۲۵۵)

وفى المصباح: وسلت إلى اللّه بالعمل: رغبت وتقربت، ومنه اشتقاق الوسيلة، وهى ما يتقرب به إلى اللّه، والجمع الوسائل، وعلى أى تقدير: فالتوسل بالصالحين بما لهم من مكانة ومنزلة عند اللّه، إمّا أنّه بذاته تقرب إلى اللّه تعالى، لأنّ إظهار المودة لمن يحبه اللّه محبوب وعمل صالح، أو وسيلة يتقرب به الإنسان إلى اللّه سبحانه، فهذه النقول تعرب عن مصداق للوسيلة فى عرض سائر المصاديق من الأعمال الصالحة والعبادات، خصوصاً الجهاد ضد العدو الداخلى والخارجى الّذى جاء فى ذيل الآية، فتخصيص الوسيلة بالعبادات والاستغفار تخصيص بلا جهة. إلى هنا تم الكلام حول التوسل بالصالحين أنفسهم وذواتهم، وبقى الكلام فى التوسل بمنزلتهم وكرامتهم وحقهم، وإليك البيان: (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُم وَمَا يُعْلِنُونَ)(۱) . _____

۱ . سورة القصص: الآية ۶۹ . (۲۵۶)

التوسل إلى اللّه بحق النبى وحرمته ومنزلته

التوسل إلى اللّه بحق النبى وحرمته ومنزلته

إنّ من التوسلات الرائجة بين المسلمين منذ وقعوا فى إطار التعليم الإسلامى، التوسل بمنازل الصالحين وحقوقهم على اللّه. وليس معنى ذلك أنّ للعباد أو لبعضهم على اللّه سبحانه حقّاً ذاتياً يلزم عليه سبحانه [عدم]الخروج عنه، بل للّه سبحانه الحق كلّه، فله على الناس حقّ العبادة والطاعة إلى غير ذلك، بل المراد المقام والمنزلة الّتى منحها سبحانه عباده تكريماً لهم، وليس لأحد على اللّه حقّ إلّا ما جعله اللّه سبحانه حقّاً على ذمّته لهم تفضّلا وتكريماً، قال سبحانه: (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ المُؤمِنِينَ)(۱) . وسيوافيك تفصيل ذلك عند البحث عن أحلاف اللّه سبحانه بحق المخلوق، فانتظر . إنّ هذا النوع من التوسل لا يفترق عن التوسل بذات النبىّ وشخصه، فإنّ المنزلة والمقام مرآة لشخصه وذاته، فإنّ حرمة الشخص وكرامته ومنزلته نابعة من كرامة ذاته وفضيلتها، فلو صحّ التوسل بالأوّل كما تعرفت عليه من الأحاديث، يصحّ الثانى من دون إشكال أو إبهام . ويدلّ عليه من الأحاديث ما نذكره: _____

۱ . سورة الروم: الآية ۴۷ . (۲۵۷) أ ـ التوسل بحق السائلين

روى عطية بن العوفى عن أبى سعيد الخدرى أنّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللّهمّ إنّى أسألك بحقّ السائلين عليك، وأسألك بحقّ ممشاى هذا، فإنّى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتّقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أن تعيذنى من النار وأن تغفر ذنوبى إنّه لايغفر الذنوب إلاّ أنت. إلاّ اقبل اللّه عليه بوجهه، واستغفر له سبعون ألف ملك»(۱) . فالحديث واضح مضموناً، ويدل على أن للإنسان أن يتوسل إلى اللّه بحرمة أوليائه الصالحين ومنزلتهم وجاههم، فيجعلها وسيلة لقضاء حاجته . إنّ الكاتب الوهابى الرفاعى، حيث لم يجد ضعفاً فى الدلالة، أخذ يضعف سند الحديث، قائلا بأنّ «فى سنده عطية العوفى وهو ضعيف»(۲) . أقول: إنّ الدافع الوحيد لتضعيف عطية، ذلك التابعى الشهير، كما وصفه به الذهبى فى ميزان الاعتدال هو تشيّعه وولاؤه لعلى وآله ـ عليهم السَّلام ـ ، ولأجل ذلك نرى أنّ الذهبى ينقل عن سالم المرادى: «كان عطية يتشيّع»، وإنّ التشيّع أحد وجوه التضعيف لدى القوم، ومع ذلك قال أبو حاتم: يكتب حديثه، ضعيف، وقال ابن معين: صالح . وقال ابن حجر فى تقريب التهذيب: «عطية بن سعد بن جناده العوفى الجدلى الكوفى أبوالحسن صدوق يخطئ كثيراً، كان شيعياً مدلساً»(۳) وقال فى تهذيب التهذيب: قال ابن عدى: قد روى عن جماعة من الثقات، ولعطية عن أبى سعيد أحاديث عدة، وعن غير أبى سعيد، وهو مع ضعفه يكتب حديثه، وكان يعدّ من شيعة أهل الكوفة. قال الحضرمى: توفى سنة إحدى عشرة ومائة. _____

۱ . سنن ابن ماجة، ج ۱ ص ۲۵۶، الحديث برقم ۷۷۸ ومسند الإمام أحمد، ج ۳، ص ۲۱.

۲ . التوصل إلى حقيقة التوسل، ص ۲۱۲ .

۳ . تقريب التهذيب، ج ۲ ص ۲۴، برقم ۲۱۶ . (۲۵۸)

وقال ابن سعد: خرج عطية مع ابن الأشعث فكتب الحجاج إلى محمد بن القاسم أن يعرض عليه سبّ علىّ ـ إلى أن قال ـ وكان ثقة إن شاء اللّه، وله أحاديث صالحة. كان أبو بكر البزار يعده فى التشيع، روى عن جلّة الناس. وقال الساجى: ليس بحجة، وكان يقدّم عليّاً على الكل(۱) . وهذه النصوص تعرب عن تضارب الأقوال فى حقه، كما تكشف عن أنّ الدافع المهم لتضعيفه، تشيّعه وحبّه وولاؤه وتقديمه علياً، وهل هذا ذنب؟ . إنّ لوضع الحديث دوافع خاصة يوجد أكثرها فى أبواب المناقب والمثالب وخصائص البلدان والقبائل، أو فيما يرجع إلى مجال العقائد، كالبدع الموروثة من اليهود والنصارى فى أبواب التجسيم والجهة والجنة والنار، وأمّا مثل هذا الحديث الّذى يعرب بوضوح عن أنه كلام إنسان خائف من اللّه سبحانه، ترتعد فرائصه من سماع عذابه، فبعيد عن الوضع والجعل

. ب ـ توسل النبى بحقه و حق من سبقه من الأنبياء

روى الطبرانى بسنده عن أنس بن مالك رضى اللّه عنه، أنه لمّا ماتت فاطمة بنت أسد أُم على ـ رضى اللّه عنهما ـ دخل عليها رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فجلس عند رأسها، فقال: رحمك اللّه يا أُمى. كنت أُمى بعد أُمى، تجوعين وتشبعيننى، وتعرين وتكسيننى، وتمنعين نفساً طيباً وتطعمينني، تريدين بذلك وجه اللّه والدار الآخرة، ثم أمر أن تغسل ثلاثاً ثلاثاً، فلما بلغ الماء الّذى فيه الكافور، سكبه رسول اللّه بيده، ثم خلع رسول اللّه قميصه فألبسها إياه، وكفّنها ببرد فوقها، ثم دعا رسول اللّه أُسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصارى، وعمر بن الخطاب وغلاماً أسود يحفرون، فحفروا قبرها، فلمّا بلغوا اللحد، حفره رسول اللّه بيده، وأخرج ترابه بيده، فلمّا فرغ دخل رسول اللّه فاضطجع فيه وقال: «اللّه الّذى يحيى ويميت وهو حىّ لا يموت، اغفر لأُمى فاطمة بنت أسد، ولقّنها حجتها، ووسّع عليها مدخلها بحق نبيك _____

۱ . تهذيب التهذيب، ج ۷ ص ۲۲۷، برقم ۴۱۳ . (۲۵۹)

والأنبياء الذين من قبلى، فإنك أرحم الراحمين»، وكبر عليها أربعاً، وأدخلها اللحد هو والعباس وأبوبكر . رواه الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى (۲۶۰ ـ ۳۶۰ هـ) . والاستدلال به مبنى على تمامية الرواية سنداً و مضموناً، وإليك البحث فيهما معاً: ۱- رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط، ص ۳۵۶ ـ ۳۵۷، وقال: لم يروه عن عاصم إلاّ سفيان الثورى، تفرّد به «روح بن صلاح» . ۲- ورواه أبو نعيم من طريق الطبرانى فى حلية الأولياء: ۳/۱۲۱ . ۳- رواه الحاكم فى مستدركه، ج ۳، ص ۱۰۸، وهو لا يروى فى هذا الكتاب إلاّ

الصحیح علی شرط الشیخین (البخاری و مسلم) . ۴- رواه ابن عبد البر فی الإستیعاب. لاحظ هامش الإصابة، ج ۴، ص ۳۸۲ . ۵- نقله الذهبی فی سیر أعلام النبلاء، ج ۲، ص ۱۱۸ ـ برقم ۱۷ . ۶- ورواه الحافظ نور الدین الهیثمی المتوفی سنة ۷۰۸ هـ فی مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج ۹ ص ۲۵۶ ـ ۲۵۷ . وقد جمع فیه زوائد مسند الإمام أحمد، وأبی یعلی الموصلی أبی بکر البزاز، ومعاجم الطبرانی الثلاثة، وقال: رواه الطبرانی فی الکبیر والأوسط، وفیه روح بن صلاح وثقّه ابن حبان والحاکم، وفیه ضعف، وبقیة رجاله رجال الصحیح . ۷- رواه المتقی الهندی فی کنز العمال، ج ۱۳، ص ۶۳۶، برقم ۳۷۶۰۸ . هؤلاء الحفاظ نقلوا الحدیث فی جوامعهم، وصرّحوا بأنّ رجال السند رجال الصحیح، وأنه لو کان هناک ففی روح بن صلاح، وقد وثّقهُ العلمان: ابن حبان والحاکم . (۲۶۰)

وقال الذهبی: روح بن صلاح المصری، یقال له ابن سیابة، ضعّفه إبن عدی، یکنّی أبا الحارث، وقد ذکره ابن حبان فی الثقات، وقال الحاکم: ثقة مأمون(۱) . ولکن الکاتب الوهابی المعاصر یقول فی سند الحدیث: إنّ هذا الحدیث غیر صحیح لأنّ فی سنده رجلا هو روح بن صلاح وقد ضعّفه الجمهور، وقد روی أحادیث منکرة، کما صرح بذلک ابن یونس وابن عدی(۲) . وأنت خبیر بأنّه إنما ضعّفه (ابن عدی) وأین هذا من قوله: وقد ضعّفه الجمهور، ألیس ابن حبان من أعلام الحدیث ورجاله؟ أو لیس الحاکم هو الحافظ الکبیر الّذی استدرک علی صحیحی الشیخین بما ترکاه؟ إنّ الإنسان إذا اتّخذ موقفاً مسبقاً فی الموضوع، یحاول أن یضعف الصحیح والقوی، ویقوی ویصحح الضعیف، وعلی کل تقدیر فلیس لنا ترک هذا الحدیث وعدم العمل به بمجرد تضعیف ابن عدی لتوثیق غیره . وأظن ـ وظن الألمعی صواب ـ أنّ الدافع إلی تضعیف نظراء روح بن صلاح هو ولاؤه ومودته لأهل بیت النبوة، حیث نقل هذه الدرة الباهرة فی حق أُم سید الأوصیاء. هذا کله حول السند، وأمّا الدلالة فلا أظن أنّ من یملک شیئاً من الإنصاف یشک فی دلالة الحدیث علی توسل النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ بحقه وحق أنبیائه . ج ـ توسل آدم بحق النبی

روی البیهقی عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ: لمّا اقترف آدم الخطیئة قال: ربی أسألک بحق محمد لما غفرت لی، فقال اللّه عزّوجلّ: یا آدم. کیف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: لأنک یا _____

۱ . میزان الاعتدال، ج ۲، ص ۸۵، رقم ۲۸۰۱ .

۲ . التوصل إلی حقیقة التوسل، ص ۲۲۷ . (۲۶۱)

رب لمّا خلقتنی بیدک ونفخت فیَّ من روحک رفعت رأسی فرأیت علی قوائم العرش مکتوباً: لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه، فعلمت أنّک لم تضف إلی إسمک إلاّ أحب الخلق إلیک، فقال اللّه ـ عزّوجلّ ـ: صدقت یا آدم. إنه لأحب الخلق إلیَّ وإذ سألتنی بحقه فقد غفرت لک. ولو لا ـ محمد ما خلقتک . قال البیهقی: تفرد به عبدالرحمن بن زید بن أسلم، من هذا الوجه عنه، وهو ضعیف (واللّه أعلم) (۱) . إنّ الشیخ الرفاعی لما رأی صراحة الحدیث فی التوسل بحق النبی أخذ یناقش فی الحدیث من جهات أُخری، وإلیک بیانه: ۱- إنّ الحدیث تضمّن الإقسام علی اللّه بمخلوقاته، وهو أمر خطیر یقرب من الشرک، إن لم یکن هو ذاته، فالإقسام علی اللّه بمحمد وهو مخلوق بل وأشرف المخلوقین لا یجوز، لأنّ الحلف بمخلوق علی مخلوق حرام، وإنه شرک لأنه حلف بغیر اللّه، فالحلف علی اللّه بمخلوقاته من باب أولی . یلاحظ علیه: أنّه سیوافیک جواز الحلف بالمخلوق، سواء حلف بمخلوق علی مخلوق أو بمخلوق علی اللّه، وأن القرآن ملیء بالإقسام بالمخلوقات، فلو کان أمراً حراماً أو ذریعة إلی الشرک أو الشرک نفسه لما حلف سبحانه بمخلوقاته، وسیوافیک توضیحه، ولا یلازم الحلف بالمخلوق جعله فی مرتبة الخالق، بحجة «إنّا نحلف باللّه فلو حلفنا بمخلوقه یلزم من ذلک جعله فی مرتبة الخالق»، کیف ونحن نطیع اللّه سبحانه ونطیع رسوله، أفهل یتصور من ذلک أنّا جعلنا الرسول فی مرتبة الخالق؟ قال سبحانه: (أَطیعوا اللّهَ وَأَطیعُوا الرَّسولَ وأُولی الأمْرِ مِنْکُم...)(۲)، قال سبحانه:(أَنِ اشْکُرْ لی وَلِوالِدَیکَ إلَیَّ المَصیرُ)(۳)، أفیلزم من ذلک أن یکون الوالدان فی رتبة الخالق _____

۱ . دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشریعة، لأبی بکر أحمد بن الحسین البیهقی (ت ۳۸۴ ـ م ۴۵۸ هـ) طبع دار الکتب العلمیة ـ بیروت، ج ۵، ص ۴۸۹ .

۲ . سورة النساء: الآية ۵۹ .

۳ . سورة لقمان: الآية ۱۴ . (۲۶۲)

لأنّه سبحانه أمر بشكر نفسه وشكر الوالدين . إنّ الحلف لا يستلزم أزيد من كون المحلوف به أمراً عظيماً عزيزاً لائقاً بالحلف به، وأمّا كونه فى درجة الخالق فزعم عجيب واستدلال غريب . وأمّا كونه شركاً فقد عرفت أنّ المقصود هو الشرك فى العبادة، والعنصر المقوم لتحققها هو الاعتقاد بكونها إلهاً أو ربّاً أو مفوضاً إليه فعله سبحانه، والمفروض عدمه . ترى أنّ الكاتب يجعل معتقده دليلا على بطلان الحديث وضعفه، أهكذا أدب النقد؟ . ۲- إنّ الحوار الوارد فى الحديث كان بعد اقتراب الخطيئة، ولكنّه قبل أن يخطىء، علّمه اللّه الأسماء كلها، ومن جملة الأسماء كلها اسم محمد ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ وعلم أنه نبى ورسول، وأنه خير الخلق أجمعين، فكان أحرى أن يقول آدم: ربى إنك أعلمتنى به أنه كذلك، لمّا علمتنى الأسماء كلها . يلاحظ عليه: أنَّ المسكين زعم أن المراد من الأسماء أسماء الموجودات، وغفل عن أن المراد هو العلم بحقائق الكون وقوانينه وسننه ورموزه بقرينة قوله سبحانه: «ثم عرضهم على الملائكة» فلو كان المراد الأسماء لكان الأنسب أن يقول: ثم عرضها، على أنّه لا فضيلة رابية فى تعلّم أسماء الموجودات وألفاظها . سلمنا أن المراد ما ذكره، لكن الظاهر من الحديث أنه وقف على ذلك بعد الخلقة ونفخ الروح فيه، قبل أن يحظى بتعلّم الأسماء كلها، حيث قال: لمّا خلقتنى بيدك ونفخت فيَّ من روحك، رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش... والمتبادر من العبارة أن هذا العلم كان علماً خاصاً جزئياً وقف عليه بعد فتح عينيه على الحياة فى الجنة، قبل تعلمه جميع الأسماء، وأمّا هو فقد كان مرحلة أُخرى أوسع من هذا العلم، بل لا يقاس عليه . وبالجملة: إنّ الحديث لا غبار عليه من حيث الدلالة. نعم يقع الكلام (۲۶۳)

فى السند. فقد ورد فيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد ضعّفه الذهبى اعتماداً على تضعيف أحمد وغيره(۱) . ولكن الحاكم النيسابورى أورده فى مستدركه، قائلا بصحته(۲) . وعلى ذلك فليس الخبر على حد يحكم عليه بالوضع والجعل، كما يصر عليه الرفاعى بل هو كسائر الأحاديث الّتى اختلف العلماء فى تصحيحها، فلو لم يكن دليلا على المدعى يكون مؤيداً له، كيف وقد رواه جلال الدين السيوطى فى تفسيره(۳) . وهناك نكتتان ننبه عليهما: الأُولى: إنّ أحاديث التوسل وإن كانت تتراوح بين الصحيح والحسن والضعيف، لكن المجموع يعرب عن تضافر المضمون وتواتره، فعند ذلك تسقط المناقشة فى أسنادها بعد ملاحظة ورود كمية كبيرة من الأحاديث فى هذا المجال، وأنت إذا لاحظت ما مضى من الروايات، وما يوافيك، تذعن بتضافر المضمون أو تواتره . الثانية: نحن نفترض أنّ الحديث الراهن مجعول موضوع، ولكنه يعرب عن أنّ التوسل بالمخلوق والإقسام على اللّه بمخلوقاته ليس شركاً ولا ذريعة إليه، بل ولا ـ حراماً . وذلك لأنّه لو كان شركاً وذريعة إليه أو حراماً، لما رواه الرواة الثقات واحد عن واحد، وهم أعرف بموازين الشرك ومعاييره، ولما أورده الأكابر من العلماء فى المعاجم الحديثية، كالبيهقى فى دلائل النبوة، والحاكم فى مستدركه، والسيوطى فى تفسيره، والطبرانى فى المعجم الصغير، وأكابر _____

۱ . ميزان الاعتدال، ج ۲ ص ۵۶۴ .

۲ . المستدرك على الصحيحين، ج ۲ ص ۶۱۵ .

۳ . الدر المنثور، ج ۱ ص ۵۹، ونقله كثير من المفسرين عند تفسير الآية . (۲۶۴)

المفسرين فى القرون الغابرة، لأنّ الشرك أمر بيّن الغيّ، فلا ـ معنى ولا ـ مسوّغ لنقله بحجة أنه رواية . فكل ذلك يعرب عن الفكرة الخاطئة فى توصيف الحلف على اللّه بمخلوقاته شركاً(۱) . * * * * * (فَبِأَيِّ حَدِيث بَعْدَهُ يُؤمِنونَ)(۲) . _____

۱ . قد تركنا البحث عن التوسل بجاه النبى الوارد فى كلام الرفاعى لأنه ليس قسماً ثالثاً، بل داخلا فى القسم الثانى، أى التوسل بحقه .

۲ . سورة المرسلات: الآية ۵۰ .

التوسل بدعاء النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ

التوسل بدعاء النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ

قد تعرفت فی صدر البحث علی أنّ ابن تیمیة وأتباعه یجوّزون التوسل بدعاء النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ فی حال حیاته، ویجعلونه من التوسلات الجائزة الداخلة فی إطار «التوسل بدعاء الأخ المؤمن» ولکنهم یخصّونه بحال حیاته، ویحرّمونه بعد رحلته، قال ابن تیمیة: «أجمع أهل العلم علی أن الصحابة کانوا یستشفعون به حال حیاته ویتوسلون بحضرته، وأمّا فی مغیبه أو بعد موته فلم ینقل عن أحد من الصحابة والتابعین، بل عمر بن الخطاب ومعاویة ومن کان یحضرهما من الصحابة والتابعین لما أجدبوا استسقوا بمن کان حیاً کالعباس ویزید بن الأسود، ولم ینقل عنهم أنهم فی هذه الحالة استشفعوا بالنبی عند قبره ولا غیره، بل عدلوا إلی خیارهم... ثم إنّ المسلمین بعد موته إنما توسلوا بغیره من الأحیاء بدلا عنه، فلو کان التوسل به ـ حیاً ومیتاً ـ مشروعاً لم یمیلوا عنه وهو افضل الخلق وأکرمهم علی ربه، إلی غیره ممن لیس مثله. فعدولهم عن هذا إلی هذا مع أنهم السابقون الأولون، وهم أعلم منّا برسوله وبحقوق اللّه ورسوله، وما یشرع من الدعاء وما ینفع، وما لا یشرع ولا ینفع، وما یکون أنفع من غیره، وهم فی وقت ضرورة ومخمصة یطلبون تفریج الکربات، وتیسیر العسیر، وإنزال الغیث بکل طریق، دلیل علی أن المشروع ما سلکوه دون ما ترکوه، ولهذا ذکر الفقهاء فی کتبهم فی الاستسقاء ما فعلوه دون ما ترکوه، وذلک أنّ التوسل به حیاً هو الطلب لدعائه وشفاعته، وهو من جنس مسألته أن یدعو، فما زال المسلمون (۲۶۶)

یسألونه لیدعو لهم فی حیاته، وأمّا بعد موته فلم یسأل الصحابة منه ذلک، لا عند قبره ولا عند غیره کما یفعله کثیر من الناس عند قبور الصحالین(۱) . وقد علق السید محمد رشید رضا مؤلف المنار علی هذا الموضوع بقوله: «یزعم بعض الناس فی زماننا أنّه لا فرق فی طلب الدعاء والشفاعة منه بین هذه الحیاة و الممات، لأنّه حی فی قبره وکأنهم یدعون أنهم أعلم من الصحابة وسائر أئمة السلف بذلک، فالصحابة ـ رضی اللّه عنهم ـ فرقوا بین الحالین، وإن شئت قلت بین الحیاتین، والأُمور التعبّدیة لا تشرع بالعقل ولا بالقیاس(۲). یلاحظ علیه: أنّ المعروف أنّ السنّة عبارة عن قول المعصوم وفعله وتقریره، فالحجة عبارة عن أحد هذه الأمور، ونحن نفترض أن الصحابة بأجمعهم من المعصومین. فإنّ أقصی ما یمکن أن یحتج به هو أنّ فعل الصحابة دلیل علی جواز الفعل، وأمّا أنّ ترکهم دلیل علی حرمته، وعدم جوازه، فمن عجائب الأُمور وغرائبها، ولم یعهد هذا الاستدلال من أهل الفتوی والدلیل. وأمّا عدول الصحابة عن التوسل بدعاء النبی فی حال مماته، إلی التوسل ببعض أهل بیته فقد ذکرنا وجهه، وهو: أنّ التوسل بالإنسان الصالح الحی لأجل إظهار أن ذلک الفرد یتّحد مع المتوسلین فی المصیر، وأنه لولا نزول الرحمة لعمَّهُ الهلاک والدمار مثلهم، وبما أنه صالح لنزول الرحمة علیه، فلتنزل رحمتک علیه یا رب فإنه أهل لذلک، وإن کنا غیر مستحقین لها . ومن المعلوم أنّ ترسیم هذا، الّذی هو أحد الأسباب لاستنزال الرحمة، إنما یتحقق بالصالح الحی دون غیره، لأنّ غیر الحی لیس متحداً فی المصیر مع الأحیاء، ولأجل ذلک نری الصحابة یتوسلون بالحی دون غیره، وما هذا إلاّ _____

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل، ج ۱ ص ۱۴ .

۲ . المصدر نفسه . (۲۶۷)

لأجل ذلک. وقد أشار إلی ذلک «السبکی» وقال: لیس فی توسله بالعباس إنکار للتوسل بالنبی أو بالقبر، ولعل توسل عمر بالعباس لأمرین: أحدهما: لیدعو کما حکینا من دعائه . الثانی: إنَّه من جملة من یستسقی وینتفع بالسقیا وهو محتاج إلیه، بخلاف النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ فی هذه الحالة فإنه مستغن عنها، فاجتمع فی العباس الحاجة وقربه من النبی وشیبه، واللّه یستحیی من ذی الشیبة المسلم، فکیف من عم نبیه، ویجیب دعاء المضطر فلذلک استسقی عمر بشیبته(۱) . هذا ویصرح الذکر الحکیم بأنه ما نفع إیمان قوم بعد إشراف العذاب علیهم، إلاّ قوم یونس، قال سبحانه: (فَلَوْلاَ کَانَتْ قَرْیَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إیمَانُها اِلاّ قَوْمَ یُونُسَ لَمّا آمَنُوا کَشَفْنا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْیِ فی الحَیَاةِ الدُّنْیا وَمَتَّعْنَاهُمْ إلَی حِین)(۲) .

ذکر المفسرون: إنّ قوم یونس لما عاینوا العذاب، أشار إلیهم العالم الموجود فیهم بقوله: افزعوا إلی اللّه فلعلّه یرحمکم ویرد العذاب

عنكم، فاخرجوا إلى المفازة وفرّقوا بين النساء والأولاد وبين سائر الحيوان وأولادها، ثم ابكوا وادعوا. ففعلوا فصرف عنهم العذاب(۳) . ولم يكن هذا العمل إلاّ لأجل استنزال الرحمة على النحو الّذى عرفت . نعم، ما ذكره فى آخر كلامه من أنه أمر عبادىّ يحتاج إلى الدليل فهو كلام متقن، ولكنّه ليس معناه أن يكون الدليل المطلوب دليلا بالخصوص، بل لو كان هناك عام أو إطلاق حول التوسل بدعاء النبى فيؤخذ بإطلاقه، سواء أكان النبى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ فى دار التكليف أم فى البرزخ، وإليك البيان:

---

۱ . شفاء السقام: ص ۱۴۳ ـ ۱۴۴ .

۲. سورة يونس: الآية ۹۸ .

۳ . مجمع البيان: ج ۳ ص ۱۳۵ . (۲۶۸)

وهو يتوقف على بيان أُمور: ۱- بقاء الروح بعد الموت

دلّت الآيات القرآنية على بقاء الروح بعد الموت، وأنّ الموت ليس بمعنى فناء الإنسان، بل هو عبارة عن انخلاع الروح عن البدن، وبقائه مستقلا عنه، من غير فرق بين المسلم وغيره، والمقتول فى سبيل اللّه وغيره، والآيات فى ذلك متضافرة . قال سبحانه: (وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْياءٌ ولَكِنْ لا تَشْعُرونَ)(۱)، وهناك آيات نشير إلى مواردها، ومن أراد التوسع فى الموضوع: فليرجع إليها(۲) . ۲- الحقيقة الإنسانية هى الروح

إنّ الإنسان وإن كان بحسب التحليل الظاهرى يتركب من شيئين: المادة والمعنى، والجسم والروح، ولكن الحقيقة الإنسانية عبارة عن نفس الإنسان وروحه، ولأجل ذلك يردّ الوحى الإلهى على من زعم أنّ البدن الإنسانى يضل فى العالم بعد الموت، حيث حكى عنهم قولهم: (وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِى خَلْق جَديد) فردّ عليهم بقوله: (قُلْ يَتَوَفّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)(۳) .

ومعنى التوفّى فى الآية هو الأخذ، ومعنى الآية أنّ تناثر أجزاء البدن فى أجواء العالم وثناياه، لا يضر بالمعاد، فإنّ الحقيقة الإنسانية وواقعيتها محفوظة عند اللّه، وأنّ ملك الموت يأخذكم، وليس المأخوذ إلاّ الروح . ــــــــــــــــ

۱ . سورة البقرة: الآية ۱۵۴ .

۲ . لاحظ: سورة آل عمران: الآية ۱۶۹ ـ ۱۷۱، سورة يس : الآية ۲۵ ـ ۲۶، سورة غافر الآية ۴۶ .

۳ . سورة السجدة: الآية ۱۰ ـ ۱۱ . (۲۶۹) ۳- إمكان الاتصال بالأرواح

إنّ الذكر الحكيم يصدق صحة اتصال الإنسان العائش فى الدنيا بالأرواح المتواجدة فى عالم البرزخ، ويصرّح بأنّ بعض الأنبياء كصالح وشعيب كلّموا أرواح أُممهم الهالكة، ويظهر ذلك بالإمعان فى الآيات التالية: يقول فى حق أُمة شعيب: (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحوا فى دَارِهِمْ جاثِمينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوا فِيها، الَّذينَ كَذَّبوا شُعَيباً كانُوا هُمُ الخَاسِرينَ * فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَقَالَ يا قَوْمِ لَقَد أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلَى قَوْم كافِرينَ)(۱) .

ترى أنّ قوله: «فتولّى عنهم» جاء بعد الإخبار بدمارهم وهلاكهم كما هو صريح سياق الآيات، وعندئذ خاطب الهالكين بقوله: «يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى...» . ويقول فى حق أُمة صالح: (فَعَقَروا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرسَلينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبِحُوا فى دَارِهِمْ جَاثِمينَ * فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحينَ)(۲) .

وكيفية الاستدلال واضحة بعد التدبّر فى ما ذكرناه، فإنّ المخاطبة والمحاورة وقعت بعد هلاكهم، فلا يمكن لنا رفض سياق الآية والقول بأنه كلمهم فى حال حياتهم. إنّ الذكر الحكيم يأمر النبى بسؤال المرسلين ويقول: (وَاسْأَلْ مَنْ ــــــــــــــــ

۱ . سورة الأعراف: الآية ۹۱ ـ ۹۳ .

۲ . سورة الأعراف: الآية ۷۷ ـ ۷۹ . (۲۷۰) أرْسَلنا مِنْ قَبْلِكِ مِنْ رُسُلِنَا أجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ)(۱) .

وتأويل الآية بإرجاعها إلى سؤال علماء أهل الكتاب تأويل بلا دليل، ولا منافاة بينهما حتّى يرجع أحدهما إلى الآخر . إنّ المسلمين جميعاً يخاطبون النبى بالسلام فى حال التشهد، ويقولون: «السلام عليك أيها النبى ورحمة اللّه وبركاته» وقد اتفق الفقهاء على كونه جزءاً من التشهّد(۲) . وفى ضوء هذه الأُمور الثلاثة تثبت إمكانية التوسل بالأرواح المقدسة، فالأولياء والأنبياء من جانب أحياء يرزقون، من جانب آخر، إنّ حقيقة الإنسان هى النفس الباقية بعد الموت أيضاً، ومن جانب ثالث، إنَّ الأنبياء كلّموا أرواح أُممهم الماضية. كل ذلك يدل على إمكانية الاتصال بهم ووقوعه، وأنهم يسمعون كلامنا وسلامنا ومحاورتنا. بقى الكلام فى جواز التوسل شرعاً، حتّى يكون تعبداً مع الدليل . إنّ الذكر الحكيم يحثّ المذنبين على المجيء إلى النبى وطلب الاستغفار منه يقول: (وَلَو أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جَاُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ واسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَحِيماً) (۳) والمتبادر إلى أذهاننا فى هذا الزمان اختصاص الآية بحال حياة النبى، ولكن الصحابة فهموا منه الأعم من حال الحياة والارتحال إلى الرفيق الأعلى، ويدل على ذلك ما نذكر: ۱- روى البيهقى عن مالك قال: أصاب الناس قحط فى زمان عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فقال: يا رسول اللّه. استسق اللّه لأُمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول اللّه فى المنام وقال: ائت عمر _____

۱ . سورة الزخرف: الآية: ۴۵ .

۲ . الخلاف، للشيخ الطوسى، ج ۱ ص ۴۷، وقد نقل صوراً مختلفة للتشهد عن أئمة المذاهب والكل يشتمل على خطاب النبى بالسلام .

۳ . سورة النساء: الآية ۶۴ . (۲۷۱)

فاقرئه السلام وأخبره أنهم مسقون(۱) . فالحديث يعرب عن أنّ التوسل بدعاء النبى بعد رحلته كان رائجاً، ولو كان عملا محرّماً أو بدعة فلماذا توسل هذا الرجل بدعائه؟ ولماذا بكى الخليفة بعد سماع كلامه، كما هو فى ذيل الحديث ؟ يقول السمهودى بعد نقل الحديث: ومحل الاستشهاد طلب الاستسقاء منه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وهو فى البرزخ، ودعاؤه لربه فى هذه الحالة غير ممتنع، وعلمه بسؤال من يسأله قد ورد، فلا مانع من سؤال الاستسقاء وغيره منه كما كان فى الدنيا(۲) . ۲- روى ابن عساكر فى تاريخه، وابن الجوزى فى «مثير الغرام الساكن» وغيرهما بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالى قال: دخلت المدينة فأتيت قبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فزرته وجلست بحذائه، وجاء أعرابى فزاره ثم قال: يا خير الرسل! إنّ اللّه أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: (ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم ـ إلى قوله: رحيماً) وإنى جئتك مستغفراً ربك من ذنوبى متشفعاً بك، وفى رواية: «وقد جئتك مستغفراً من ذنبى مستشفعاً بك إلى ربى» ثم بكى وأنشأ يقول: ياخير من دفنت بالقاع أعظمه * فطاب من طيبهن القاع والأكم نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه * فيه العفاف وفيه الجود والكرم ثم استغفر وانصرف. ۳- وقال السمهودى: قال الحافظ أبو عبداللّه محمد بن موسى بن النعمان فى كتابه «مصباح الظلام»: إنّ الحافظ أبا سعيد السمعانى ذكر فيما روينا عنه عن علىّ بن أبى طالب ـ رضى اللّه عنه - قال: قدم علينا أعرابى بعد ما دفنّا رسول اللّه بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر النبى وحثا من ترابه على _____

۱ . دلائل النبوة، ج ۷ باب ما جاء فى رؤية النبى فى المنام، ص ۴۷ .

۲ . وفاء الوفاء: ج ۴ ص ۱۳۷۱ . (۲۷۲)

رأسه وقال: يا رسول اللّه. قلت فسمعنا قولك، ووعيت من اللّه سبحانه منا وعينا عنك، وكان فيما أنزل عليك: (ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءُوكَ فاستغفروا اللّه...) وقد ظلمت وجئتك تستغفر لى(۱) . شبهات للكاتب الوهابى

إنّ للكاتب الوهابى، الرفاعى صخباً وهياجاً حول الحديث، فقد أشكل عليه بوجوه ستة لا يهمنا ذكرها والإجابة عن جميعها، لأنه غفل عن كيفية الاستدلال بهذه النقول، وسنشير إليها. نعم، يهمنا أن نذكر بعض اعتراضاته: ۱- يقول: إنّ التوسل بدعاء النبى بعد موته رهن أن يسمع الرسول أو يتكلم، أو يصدر عنه أى عمل بعد موته، مع أنه قد انقطع عمله نهائياً كما قال هو ـ عليه السَّلام ـ : «إذا مات ابن

آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له» ولا شك أنّ رسول اللّه يشمله هذا الحديث . عزب عن المسكين مفاد الحديث، فإنه بصدد بيان انقطاع ابن آدم عن العمل الّذى يترتب عليه الثواب، بقرينة استثناء الأُمور الثلاثة، وقال أميرالمؤمنين فى هذا المجال: «وإنّ اليوم عمل ولا حسابن، وغداً حساب ولا عمل»(۲) . وقال أيضاً: «الا وإنّ اليوم المضمار، وغداً السباق، والسبقة الجنة، والغاية النار، أفلا تائب عن خطيئة قبل منيته، ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه؟»(۳) . فكيف يمكن القول بانقطاع عمل الميت نهائياً مع أنّ الشهداء فى سبيل _____

۱ . وفاء الوفاء: ج ۴ ص ۱۳۶۱ .

۲ . نهج البلاغة ;الخطبة ۴۲ .

۳ . نهج البلاغة ;الخطبة ۲۸ . (۲۷۳)

اللّه يقومون بأعمال ينوّه بها الذكر الحكيم ويقول: (فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِم أَلاّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَة مِنَ اللّهِ وَفَضْل وَأَنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤمِنِينَ)(۱). أو ليس الفرح بما أوتوا من فضله سبحانه، والاستبشار بالذين لم يلحقوا بهم، والاستشعار بعدم الخوف والحزن، والاستبشار بنعم اللّه سبحانه، أفعالا للراحلين إلى دار الآخرة؟ مضافاً إلى ما ورد من أنهم يرزقون عند ربهم(۲) . ۲- يقول: إنّ الحياة البرزخية حياة لا يعلمها إلاّ اللّه، فهى حياة مستقلة نؤمن بها ولا نعلم ماهيتها، وإنّ بين الأحياء والأموات حاجزاً يمنع الاتصال فيما بينهم قطعياً، وعلى هذا فيستحيل الاتصال بينهم، لا ذاتاً ولا صفاتاً واللّه سبحانه يقول: (وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَومِ يُبْعَثُونَ)(۳) . عجيب واللّه أمر هذا الرجل، إنه يأتى بالشُّبه والأوهام بصورة البرهان، ويجتهد فى مقابل النص، وقد تعرفت على الآيات الّتى تحدثت عن محاورة الأنبياء أرواح أممهم الهالكة، وقد تعرفت على أنه سبحانه أمر النبى بالسؤال عن الأنبياء. فما هذا الاجتهاد فى مقابل النص؟ لقد تناسى الرجل حديث تكلم النبى مع أصحاب القليب المقتولين من كفرة قريش، وقد ذكره أصحاب الحديث والتاريخ، وإليك نص صحيح البخارى فى ذلك: وقف النبى على قليب بدر وخاطب الذين قُتلوا وأُلقيت أجسادهم فى القليب: لقد كنتم جيران سوء لرسول اللّه، أخرجتموه من منزله وطردتموه، ثم اجتمعتم عليه فحاربتموه، وقد وجدتُ ما وعدنى ربى حقاً. _____

۱ . سورة آل عمران: الآية ۱۷۰ ـ ۱۷۱ .

۲ . سورة آل عمران: ۱۶۹ .

۳ . التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ۲۶۷، سورة المؤمنون: الآية ۱۰۰ . (۲۷۴)

فقال له رجل: يا رسول اللّه ما خطاب لِهام سديت؟ فقال ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ : واللّه ما أنت بأسمع منهم، وما بينهم وبين أن تأخذهم الملائكة بمقامع من حديد إلاّ أن أعرض بوجهى ـ هكذا ـ عنهم(۱) . وروى ابن هشام عن أنس بن مالك، قال: لما سمع أصحاب رسول اللّه كلام رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ من جوف الليل وهو يقول: يا أهل القليب، وياعتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أُمية بن خلف، ويا أبا جهل بن هشام ـ فعدّد من كان منهم فى القليب ـ هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فقال المسلمون: يا رسول اللّه. أتنادى قوماً قد جيفوا؟(۲) قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى(۳) . لما وقعت الفتنة بالبصرة، خرج كعب بن سور، وكان قاضى البصرة لحرب خليفة رسول اللّه وإمام زمانه، ولما كان النصر حليفاً له ـ عليه السَّلام ـ مرّ على جسد كعب بن سور، فقال لمن حوله: أجلسوا كعب بن سور، فأجلسوه بين شخصين يمسكانه، فقال ـ عليه السَّلام ـ : يا كعب بن سور قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً، فهل وجدت ما وعدك ربك حقاً؟ ثم قال: أضجعوه، وسار قليلا حتّى مرّ بطلحة بن عبيد اللّه، فقال: أجلسوا طلحة، فكلّمه بمثل ما كلّم كعب بن سور، فقال له رجل: يا أميرالمؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك؟ فقال ـ عليه السَّلام ـ : يا رجل واللّه لقد سمعا كلامى، كما سمع أهل القليب كلام رسول اللّه(۴) . ۳- يقول إنّ القرآن يخبر بأنّ النبى لا يستطيع إسماع الموتى ويقول: (إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى)(۵)، وقال (وَمَا أَنْتَ بِمُسمِعٍ مَنْ فِى _____

۱ . صحيح البخارى: ج ۵، باب قتل أبى جهل، ص ۷۶ ـ ۷۷ .

۲ . قد جيفوا: أى قد صاروا جيفة .

۳ . السيرة النبوية لابن هشام، ج ۲ ص ۲۹۴، طبع دار إحياء التراث العربى ـ بيروت .

۴ . الجمل، للشيخ المفيد، ص ۲۱۰ ط النجف، حق اليقين للسيد شبر، ج ۲، ص ۷۳ .

۵ . سورة النمل: الآية ۸۰ . (۲۷۵) القُبُورِ)(۱)، والرسول بعد أن توفّاه اللّه هو من الموتى ومن أهل القبور، فثبت انه لا يسمع دعاء أحد من أهل الدنيا(۲) .

ولكنّه غفل عن أنّ طرف المحاورة ليس الأجساد الخالية عن الأرواح، بل أرواح هذه الأبدان، فإنّ لها عيشة برزخية مقترنة مع بدن برزخى. وأمّا الوقوف على القبر ـ مع أنّ التكلّم مع أرواحهم لا ـ مع أجسادهم ـ فإنما هو لأجل تحصيل حالة نفسانية يستطيع معها الإنسان التوجه إلى أرواحهم، والالتفات إليهم حتّى يكلمهم بما يقصد . ومن عجيب الأمر أنه يقول: إنّ قوله سبحانه:(ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم...) يختص بالمنافقين، فعلى ما ذكره يكون المنافق أعز عند اللّه من المؤمن، حيث يجوز للأول، طلب الاستغفار منه دون المؤمن، فهو أشمل لرحمة اللّه من الثانى «فاقض ما أنت قاض» مع أنّ مورد الآية لا يخصّص إطلاقها، بل الآية عامة لكل من ظلم نفسه سواء أكان منافقاً أم غيره. هذا عمدة ما استدل به الكاتب على عدم صحة الاحتجاج بالرواية، وأمّا الإشكال على سنده، أو اشتمال متنه على الشذوذ فلا يضر أبداً، فلنفترض نحن أنّ السند ضعيف، وأنّ فى المتن بعض الإشكال، لكن لو كان التوسل بدعاء النبى بعد رحلته شركاً يوجب الخروج عن الدين، أو أمراً محرّماً يجب أن يتوب عنه المسلم، فلماذا قامت جموع كثيرة من المحدثين بنقله والاحتجاج به، أوَ ليس عاراً على محدّث إسلامى أن ينقل فى جامعه وكتابه أثراً يشتمل على الشرك والأمر المحرّم الواضح، ولا يعود عليه بشىء. ولنفترض أنّ الراوى وضع هذا الحديث ولم يكن له حقيقة، ولكن الواضع إنما يضع الحديث لأجل إلفات الناس إليه، فلو كان ذلك الأمر موجباً للشرك أو ما يقارنه، فالدواعى تكون عن وضعه مصروفة. كل ذلك يعرب _____

۱ . سورة فاطر: الآية ۲۲ .

۲ . التوصل إلى حقيقة التوسل، ص ۲۶۸ . (۲۷۶)

عن أنّ هذا العمل كان أمراً مباحاً فجاء هذا الراوى ينقل هذا الأمر على عفو الخاطر . والاستدلال بهذه الرواية وما يأتى بعده بهذا الوجه، ولأجل ذلك لم نحاول أن نصحح السند . ۴- روى السمهودى عن الإمام محمد بن موسى بن النعمان فى كتابه «مصباح الظلام فى المستغيثين بخير الأنام» عن محمد بن المنكدر: أودع رجل أبى ثمانين ديناراً وخرج للجهاد، وقال لأبى: إنّ احتجت أنفقها إلى أن أعود. وأصاب الناس جهد من الغلاء، فأنفق أبى الدنانير، فقدم الرجل وطلب ماله، فقال أبى: عد إلىَّ غداً، وبات بالمسجد يلوذ بقبر النبى مرة وبمنبره مرة، حتّى كاد أن يصبح يستغيث بقبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فبينما هو كذلك فإذا بشخص فى الظلام يقول: دونكها يا أبا محمد. فمدّ أبى يده، فإذا بصرّة فيها ثمانون ديناراً، فلمّا أصبح جاء الرجل فدفعها إليه(۱) . وقد نقل السمهودى فى هذا الفصل قصصاً كثيرة عن شخصيات إسلامية، فمن أراد فليرجع إليه(۲) . وقد تعرّفت أنّ كيفية الاستدلال بهذه القصص ليس على أساس صحة إسنادها أو خلو متونها عن الشذوذ، وإنما هو على أساس أنه لو كان هذا الأمر شركاً أو أمراً محرماً لما اهتم المحدثون والمؤرخون بنقلها، بل ولما قام الوضّاعون بوضعها، فإن الغرض من وضع الحديث هو بثّه بين المحدثين الواعين، ومن المعلوم أنه إذا كان التوسل بدعاء النبى بعد رحلته شركاً وبدعة على ما تدعيه الوهابية، لكانت الدواعى عن وضعها ونقلها مصروفة جداً، وهذا يعرب عن ان العمل كان مشروعاً وسائغاً بين المسلمين، فلأجل ذلك قام هؤلاء بنقل _____

۱ . وفاء الوفاء: ج ۴ ص ۱۳۸۰ .

۲ . نفس المصدر: ج ۴ ص ۱۳۸۰ ـ ۱۳۸۷ . (۲۷۷)

هذه الأحاديث، وقام المتوسلون ـ على فرض الصحة ـ بهذا العمل، أو قام الوضاعون على احتمال، بوضعها. إلى هنا تبيّنت أحكام

التوسل بأقسامه الثلاثة : * التوسل بذوات الصالحين وأنفسهم . * التوسل بحقهم ومنزلتهم ومكانتهم . * التوسل بدعائهم بعد رحلتهم ووفاتهم . وأرى أن بسط الكلام فى هذه المواضع أزيد من ذلك ضياع للوقت، ومن أراد الحق فيكفيه ما حررناه، فطوبى لمن يستمع القول ويتبع أحسنه، وتبّاً لقوم «نبذوا كتاب اللّه وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون» . (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَابْتَغُوا إِلَيهِ الوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(۱) . _____

۱ . سورة المائدة: الآية ۳۵ . (۲۷۸) (۲۷۹)

إبن تيمية وطلب الشفاعة ممن ثبت كونه شفيعاً

إبن تيمية وطلب الشفاعة ممن ثبت كونه شفيعاً

إتفق المسلمون عامة على شفاعة النبى الأكرم يوم القيامة، وإن اختلفوا فى معنى الشفاعة بين كونها سبباً لغفران الذنوب كما عليه الأشاعرة والإمامية وأهل الحديث، أو لترفيع الدرجة كما عليه المعتزلة. إنما الكلام فى طلب الشفاعة من النبى فى حال حياته ومماته، فالمسلمون إلى عهد ابن تيمية اتفقوا على جوازه حياً وميتاً، وهو من فروع طلب الدعاء من المشفوع له، إلى أن جاء ابن تيمية فى القرن الثامن الهجرى ورفع راية الخلاف بين المسلمين، وقال: «لا يجوز طلب الشفاعة من النبى الأكرم ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ فهو يسلم بأن نبى الإسلام وسائر الأنبياء لهم حق الشفاعة فى الآخرة، ولكن يقول: لا يطلب الشفاعة إلاّ من اللّه، يقول ابن تيمية: «قد ذكر العلماء وأئمة الدين الأدعية المشروعة وأعرضوا عن الأدعية المبتدعة، ثم بيّن مراتب الأدعية المبتدعة على النحو التالى»: ۱- الدعاء لغير اللّه سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً، وسواء أكان من الأنبياء ـ عليهم السّلام ـ أم غيرهم فيقال: يا سيدى فلان أغثنى، وأنا مستجيرك ونحو ذلك، فهذا هو الشرك باللّه... ۲- أن يقول للميت أو الغائب من الأنبياء: ادع اللّه لى، أو ادع لنا ربك ونحو ذلك، فهذا لا يستريب عالمٌ أنه غير جائز... ۳- أن يقول: أسألك بجاه فلان عندك أو بحرمته ونحو ذلك، فهو (۲۸۰)

الّذى تقدم عن أبى محمد أنه أفتى بأنه لا يجوز فى غير النبى، وأفتى أبو حنيفة وأبو يوسف وغيرهما أنه لا يجوز فى حق أحد من الأنبياء، فكيف بغيرهم...؟(۱) يلاحظ على مجموع ما ذكره:

أمّا القسم الأول، فإنّ عدّه شركاً، عجيب جداً، هذا هو القرآن الكريم يذكر عن شيعة موسى قوله: (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيهِ)(۲)، ومعه كيف يقول: إنّ قول القائل «يا سيدى فلان أغثنى» شرك سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً، أوَ لم يكن موسى حياً حين استغاثه الّذى من شيعته؟ ولو خصّ الشرك بصورة كون المدعو ميتاً ـ فمع أنه مخالف لصريح كلامه ـ لا يكون سبباً للشرك، إذ لا معنى لكون خطاب فى حال، عين التوحيد، وفى أُخرى نفس الشرك، نعم، الموت والحياة يؤثران فى الجدوائية وعدمها. وأمّا القسم الثالث، أعنى قول القائل: أسألك بجاه فلان عندك أو بحرمته، فهو داخل فى القسم الثانى من التوسل الّذى قدمنا الكلام فيه، وذكرنا هناك توسل شخص النبى بحقه وحق الأنبياء . نعم، الكلام فى القسم الثانى، وهو أن يخاطب الأنبياء والصالحين بقوله: «ادع اللّه لى، أو ادع لنا ربك» وهذا هو الّذى ذكر فى حقه «أنه لا يستريب عالم فى أنه غير جائز» مع أنّ طلب الشفاعة هو طلب الدعاء من الشافعين فى حال حياتهم ومماتهم . ثم إنّ لأتباع محيى مسلك ابن تيمية فى القرن الثانى عشر، أعنى محمد بن عبدالوهاب، تعبيراً واضحاً فى ذلك المجال يقول: «إنّ طلب الشفاعة يجب أن يكون من اللّه لا من الشفعاء بأن يقول:

---

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۲۲ .

۲ . سورة القصص: الآية ۱۵ . (۲۸۱)

اللّهمّ شفّع نبيّنا محمداً فينا يوم القيامة، أو اللّهمّ شفّع فينا عبادك الصالحين، أو ملائكتك أو نحو ذلك مما يطلب من اللّه لا منهم، فلا يقال: يا رسول اللّه أو يا ولى اللّه أسألك الشفاعة أو غيرها مما لا يقدر عليه إلاّ اللّه، فإذا طلبت ذلك فى أيام البرزخ كان ذلك من

أقسام الشرک(۱) . هکذا نری أنّ الاتهام بالشرک أرخص وأوفر شیء فی کتب الوهابیة وشیخها ابن تیمیة، ولتحقیق الحال نرکّز علی أمرین یبتنی علیهما جواز طلب الشفاعة عن الأنبیاء والصالحین فی هذه الدنیا وهما: ۱- إنّ طلب الشفاعة هو طلب الدعاء . ۲- إنّ طلب الدعاء من الصالحین أمر مستحب فی الاسلام، وقد جوّزته الوهابیة إذا کان المدعو حیاً، وإلیک بیانهما: أ ـ طلب الشفاعة هو طلب الدعاء

إنّ شفاعة النبی وسائر الشفعاء هی الدعاء إلی اللّه وطلب المغفرة منه سبحانه للمذنبین، واللّه سبحانه أذن لهم فی الدعاء فی ظروف خاصة، فیستجاب فیما أذن، وهم لا ـ یدعون فی غیر ما أذن اللّه لهم . نعم، نحن لا نحیط بکنه الشفاعة فی یوم القیامة، ولعلّ لها فی ذلک الیوم مرتبة أُخری، ولکن الدعاء إلی اللّه من مراتبها ومن أوضح مصادیقها، فقول القائل مقابل قبر النبی «یا وجیهاً عند اللّه اشفع لنا عند اللّه» لا یقصد إلاّ هذا المعنی. هذا هو المفسر المعروف النیسابوری یذکر عن مقاتل فی تفسیر قوله تعالی: (مَنْ یَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً یَکُنْ لَهُ نَصیبٌ مَنْهَا، وَمَنْ یَشْفَعْ شَفَاعَةً سَیِّئَةً یَکُنْ لَهُ کِفْلٌ مِنْهَا)(۲):... الشفاعة إلی اللّه إنما هی دعوة اللّه لمسلم(۳) .

---

۱ . الهدیة السنیة، الرسالة الثانیة: ص ۴۲ والرسالة لأحد أتباعه .

۲ . سورة النساء: الآیة ۸۵ .

۳ . تفسیر النیسابوری: ج ۵ ص ۱۱۸ بهامش تفسیر الطبری . (۲۸۲)

وهذا هو الإمام الرازی یفسر الشفاعة بالدعاء والتوسل إلی اللّه، فقد قال فی تفسیر قوله سبحانه: (وَیَسْتَغْفِرون لِلَّذینَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ کُلَّ شَیء رَحْمَةً) هذه الآیة تدل علی حصول الشفاعة من الملائکة للمذنبین، وإذا ثبت هذا فی حق الملائکة فکذلک فی حق الأنبیاء، لا ـ نعقاد الإجماع علی أنه لا فرق(۱) . وقال أیضاً قال تعالی لمحمد ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ : (وَاسْتَغْفِرْ لَذَنبِکَ وَلِلمُؤمِنینَ وَالْمُؤمِنَات) فأمر محمداً أن یذکر أوّلا الاستغفار لنفسه، ثم بعده یذکر الاستغفار لغیره، وحکی عن نوح ـ علیه السَّلام ـ أنه قال: (رَبِّ اغْفِرْلی وَلِوالِدَیَّ وَلِمَن دَخَلَ بِیتِیَ مُؤمِناً وَلِلْمُؤمِنینَ وَالمُؤمِنات)(۲) . وعلی هذا فالشفاعة هی دعاء الشفیع للمذنب، وطلب الشفاعة منه هو طلب الدعاء منه، وقد سمی فی الأحادیث: دعاء المسلم لأخیه المسلم شفاعة له، روی مسلم فی صحیحه عن ابن عباس عن النبی أنه قال: ما من رجل مسلم یموت فیقوم علی جنازته أربعون رجلا لایشرکون باللّه إلاّ شفّعهم اللّه فیه(۳) . فلو أنّ رجلا أوصی فی حال حیاته أربعین رجلا من أصدقائه الأوفیاء علی أن یقوموا بالدعاء له بعد موته وفوته، فقد طلب الشفاعة منهم . وقد أفرد البخاری فی صحیحه باباً بعنوان «إذا استشفعوا إلی الإمام لیستسقی لهم لم یردهم» وأفرد باباً آخر بعنوان «إذ استشفع المشرکون بالمسلمین عند القحط»(۴) . کل ذلک یدل علی أنّ الشفاعة بمعنی الدعاء إلی اللّه، وطلبها هو طلب الدعاء . _____

۱ . مفاتیح الغیب: ج ۷ ص ۲۸۶ ـ طبع مصر، سورة غافر: الآیة ۷ .

۲ . مفاتیح الغیب: ج ۸ ص ۲۲۰، سورة محمد: الآیة ۱۹ و سورة نوح: الآیة ۲۸ .

۳ . صحیح مسلم: ج ۳ ص ۵۴ .

۴ . صحیح البخاری ج ۲ ص ۲۹ ـ أبواب الاستسقاء . (۲۸۳) ب ـ طلب الدعاء من المؤمن لیس شرکاً ولا حراماً

لا ـ یتصور أن یکون طلب الدعاء من المؤمن أو الصالح أو الأنبیاء العظام شرکاً سواء أکانوا أحیاءً أمْ أمواتاً، أمّا الأحیاء فقد صرح القرآن الکریم بجوازه، وأمر الظالمین بالمجیء إلی النبی وطلب الاستغفار منه. قال سبحانه: (وَلَو أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جَاءُوکَ فَاسْتَغْفَرو اللّهَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدوا اللّهَ تواباً رحیماً)(۱). وحکی عن ولد یعقوب أنهم قالوا لأبیهم (یَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إنّا کُنَّا خَاطِئِینَ * قَالَ سَوفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ رَبِّی)(۲) .

کما أنه لا ـ یکون شرکاً، لا ـ یکون حراماً أیضاً، ونحن ننقل مجموعة من الأحادیث مما ورد فیه طلب الشفاعة: ۱- هذا هو الترمذی یروی فی صحیحه عن أنس أنه قال: سألت النبی أن یشفع لی یوم القیامة فقال: أنا فاعل. قلت: فأین أطلبک؟ قال: علی الصراط(۳) .

والعجب من الشیخ الرفاعی الّذی یأتی بکل ما ذکره ابن تیمیة ومحمد بن عبدالوهاب حرفاً بحرف، لکن بثوب جدید وصبغة جدیدة، استشکل علی الاستدلال بهذا الحدیث بقوله: ۲- إنّه لیس من قبیل التوسل بالمخلوق، بل من قبیل التوسل إلی ربه بدعاء أخیه المؤمن له . ۳- طلب أنس من الرسول أن یشفع له یوم القیامة، یفید أن أَنَساً _____

۱ . سورة النساء: الآیة ۶۴ .

۲ . سورة یوسف: الآیة ۹۷ ـ ۹۸ .

۳ . سنن الترمذی: ج ۴ ص ۴۲، باب ما جاء فی شأن الصراط . (۲۸۴)

یقصد أن یدعو له اللّه تعالی أن یشفّعه به یوم القیامة، أی یجعله فی جملة الحد الّذی یحده له فیشفع فیهم(۱) . یلاحظ علیه: أنّ الهدف من الاستدلال بالحدیث هو إثبات جواز طلب الشفاعة من المخلوق، لا التوسل بذوات المخلوقین، فإنه بحث آخر، وله حجج أُخری قدمناها. هذا حول الإشکال الأول . وأمّا الثانی فهو تأویل لظاهر الحدیث دعماً للمذهب الّذی تبناه، فإنّ المتبادر من قوله: «سألت النبی أن یشفع لی یوم القیامة» أی قلت له یا رسول اللّه اشفع لی یوم القیامة، وأین هو من التأویل الّذی یذکره الرفاعی من أنه قصد أن یدعو اللّه تعالی أن یشفّعه به یوم القیامة؟ ولو کان المقصود هذا فإنّ أنساً من العرب العرباء، کان له أن یفصح عن مراده ویقول: یا رسول اللّه ادع اللّه تعالی أن یشفعک فیّ، یوم القیامة . ولیس هذا التاویل وأمثاله الّذی ارتکبه ذلک الکاتب إلّا تحریفاً للکلم لیروج متاعه . ثمّ إنه استشکل علی الحدیث بضعف السند، فقال: «إنّ فی سنده أبا الخطاب حرب بن میمون وهو ضعّف ووثّق» وإلیک ما ذکره الذهبی فی حقه: حرب بن میمون، ابو الخطاب الأنصاری، بصری صدوق یخطیء، قال أبو زرعة: لیّن، وقال یحیی بن معین: صالح وثّقه علی بن المدینی وغیره. وأمّا البخاری فذکره فی الضعفاء(۲) . وقال ابن حجر: «قال الخطیب فی المتفق والمفترق: کان ثقة . وقال الساجی فی حرب بن میمون: الأصغر، ضعیف عنده مناکیر، والأکبر ثقة، والوارد فی سند الروایة هو الأکبر، وقال ابن حبان: فی الثقات، یخطیء . _____

۱ . التوصل إلی حقیقة التوسل: ص ۳۲۰ .

۲ . میزان الإعتدال: ج ۱ ص ۴۷۰، رقم ۱۷۷۳ . (۲۸۵)

وقرأت بخط الذهبی: وثّقه ابن المدینی ومات فی حدود الستین والمائة»(۱) . تری أنّ الأکثریة الغالبة وثّقته غیر البخاری، وهو ذکره فی الضعفاء، ومن المعلوم أنه لا یمکن ترک حدیثه بمجرد ذکر البخاری إیاه فی الضعفاء، ولم یعلم وجه کونه ضعیفاً عنده، ولعله لأجل کونه قدریاً کما یظهر من ابن حجر فی تهذیب التهذیب، أی قائلا بالاختیار الّذی هو علی طرف النقیض من القول بالجبر، وهو موجب لقوّته لا لضعفه، فالروایة حجة بلا إشکال. کیف لا یجوز طلب الشفاعة من الصالحین وهذا هو الطبرانی روی فی المعجم الکبیر أنّ سواد بن قارب ـ رضی اللّه عنه ـ أنشد قصیدته: وأشهد أنّ اللّه لا ربّ غیره * وأنّک مأمون علی کل غائب وأنّک أدنی المرسلین وسیلة * إلی اللّه یابن الأکرمین الأطائب فمرنا بما یأتیک یا خیر مرسل * وإن کان فیما فیه شیب الذوائب وکن لی شفیعاً یوم لا ذو شفاعة * بمغن فتیلا عن سواد بن قارب(۲) والشاهد هو البیت الأخیر حیث طلب الشفاعة من النبی ـ صلّی اللّه علیه وآله وسلم ـ . إنّ الکاتب الوهابی الرفاعی لم یجد بداً عن التسلیم لما یفیده البیت الأخیر وقال: «إنّ سواد بن قارب یخاطب رسول اللّه ویرجوه أن یدعو اللّه تعالی أن یکون له شفیعاً یوم القیامة، والخطاب هذا لا شک کان فی حیاته، وطلب الشفاعة منه فی حیاته لا بأس به، لأنه طلب لدعائه لأن یکون سواد فی جملة من _____

۱ . تهذیب التهذیب: ج ۲ ص ۲۲۵ ـ ۲۲۶، رقم ۴۱۸ .

۲ . دلائل النبوة: ج ۲ ص ۲۴۸ ونقله الطبرانی فی المعجم الکبیر، ج ۷ ص ۱۰۹ ـ ۱۱۱ ورواه الحاکم فی مستدرکه، وابن کثیر فی تاریخه ج ۱ ص ۳۴۴ والهیثمی فی مجمع الزوائد ج ۸ ص ۲۵۰ . (۲۸۶)

یشفعه فیهم یوم القیامة(۱) . أقول: الّذی اعتذر به الرفاعی هو الّذی وصفه بالشرک شیخ منهجه أحمد بن تیمیة، قال: الدعاء لغیر اللّه

سواء أكان المدعو حياً أم ميتاً... فهذا هو الشرك باللّه(۲) . فما هذا التناقض بين كلامه وكلام شيخه، فالذى يجيزه، هو الّذى يصفه شيخه بالشرك، أبهذه المناقضات تكفّرون المسلمين وتدعون الناس إلى نهج الحق ومعين التوحيد؟ ثم إنّه نقل عن بعض الوهابيين أعنى إسماعيل الأنصارى أنه ضعّف سند الحديث، وذكر وجوهاً للضعف، وقد سبقه معلق مجمع الزوائد، غير أنه غفل عن وجه الاستدلال و هو ما ذكرناه فيما سبق: إنَّ هذا الحديث ونظائره على فرض الصدق وعدمه حجة على ما فى مدلوله، إذ لو كان صادقاً فهو وإن كان مجعولا فلماذا ذكره المحدّثون الكبار فى جوامعهم كالطبرانى فى معجم الكبير، والبيهقى فى دلائل النبوة وغيرهما؟ ولا يعنى من هذا أنهم لا يذكرون الأحاديث الضعاف فى جوامعهم حتّى يقال إنّ المحدثين بين ملتزم بنقل الصحيح وغيره، بل المقصود أنّه إذا كان طب الشفاعة شركاً على ما ذكره أحمد بن تيمية، أو مما لا يستريب عالم فى أنه غير جائز، فلماذا نقلوا الحديث الباطل من دون أن يناقشوا فى مضمونه ومتنه؟ إذ لا يصحّ لهؤلاء أن يمروا على خرافة شركية فى كتبهم، أو أمر محرّم لا يستريب فيه عالم، مرور الكرام . كل ذلك يعرب عن أنّ المضمون ليس عليه غبار، وأمّا ضعف السند فلا يكون دليلا على كذبه، فإليك السند الّذى رواه الطبرانى به، فقد ورد فيه هؤلاء: _____

۱ . التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ۳۹۹ .

۲ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۲۲ . (۲۸۷)

حدثنا محمد بن محمد التمارة البصرى، ثنا: بشر بن حجر الشامى، ثنا على بن منصور، عن الأنبارى، عن عثمان بن عبدالرحمن الوقاصى، عن محمد بن كعب القرظى . ۳- كيف يكون شركاً وقد جاء فى التاريخ أنّ رجلا اسمه «تبع» قد بلغه أنّ نبى آخر الزمان سوف يظهر من مكة ويهاجر إلى المدينة، فكتب كتاباً ودفعه إلى بعض أقربائه كى يسلّموه إلى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وذكر فيه إسلامه وإيمانه، وأنّه من أُمة رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ و مما جاء فى هذه الرسالة: «فإن لم أدرككَ فاشفع لى يوم القيامة ولا تنسنى» ومات الرجل، وكان الكتاب ينتقل من واحد إلى آخر، فلما قدم النبى المدينة دفعوا إليه الكتاب فقال: مرحباً بالأخ الصالح»(۱) . فهل يصحّ للنبى أن يصف المشرك بالأخ الصالح؟ أو أن تقرأ عليه الرسالة ويقف على ما طلبه منه من الأمر المحرم دون أن يرد عليه؟ كل ذلك يعرب عن أنّ طلب الدعاء وطلب الشفاعة من الصالحين والأنبياء ليس شركاً فى العبادة، ولا أمراً محرماً، ما هذا الجمود فى فهم الإسلام؟ وما هذه الظنون والشبه الّتى تعتمدون عليها؟ فإنّ الإسلام دين حنيف سهل . نعم لهم اعتراض على ما ذكرناه من الأدلة، بأنها ترجع إلى طلب الشفاعة من الأحياء، وأن البحث إنما هو فى طلبه من غيرهم، والجواب من وجهين: الأوّل: قد عرفت فى البحث السابق بوجوه قيمة من أنّ الطلب متوجه إلى الأرواح المقدسة الّتى لم تنقطع صلتها بنا، وقد جرت السنة على ذلك، وقد عرفت الأدلة على جواز التكلم مع الأرواح المؤمنة والمشركة، كما عرفت أنّ الأنبياء العظام كصالح وشعيب، والنبى الأكرم كلّموا قومهم بعد هلاكهم ودمارهم، غير أنّه تكميلا للبحث نذكر بعض ما ورد من الأثر فى ذلك _____

۱ . المناقب، لابن شهر آشوب: ج ۱ ص ۱۶ . (۲۸۸)

المجال، أى طلب الدعاء بعد الالتحاق إلى رحمة اللّه . هذا ابن عباس يقول: لما فرغ أميرالمؤمنين ـ عليه السَّلام ـ من تغسيل النبى، قال: «بأبى أنت وأُمى، اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك»(۱) . ويروى أهل السنة أنه لما توفّى رسول اللّه جاء أبوبكر من سلع، ووقف على فوته وكشف عن وجهه وقبله وقال: بأبى أنت وأُمى طبت حياً وميتاً واذكرنا عند ربك»(۲) . فما معنى المعارضة مع هذه النصوص ومعاكستها؟ (فَبِأَيِّ حَدِيث بَعْدَهُ يُؤمِنُونَ)(۳) . أدلة الوهابيين على حرمة طلب الشفاعة

لقد تعرّفت فيما مضى على أنّ طلب الشفاعة يساوق طلب الدعاء، ولا يتصوّر أن يكون من أقسام الشرك فى العبادة، أو يكون طلبه من المخلوق عبادة له، إلاّ أن يكون طلب الدعاء من مخلوق شركاً وعبادة، وهو مما لم يقل به أحد حتّى الوهابيون . نعم لهم شبهة ربما يغتر بها البسطاء، وهى أنّ المشركين كانوا يطلبونها من أصنامهم، فسمّاه اللّه عبادة لهم وقال: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُم وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤلاءِ شُفَعَاؤنَا عِنْدَ اللّه قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّه بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى السَّمواتِ وَلاَ فِى الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)(۴) .

والشاهد فی قوله: «ویعبدون من دون اللّه» مع ملاحظة ما فی ذیل ــــــــــــــــــــ

۱ . نهج البلاغة: الخطبة رقم ۲۳۵ ونقل السید الأمین فی کشف الإرتیاب، ص ۲۶۵ أنه قال: بأبی أنت وأمی اذکرنا عند ربک واجعلنا من همک، نقلا عن مجالس المفید .

۲ . السیرة الحلبیة: ج ۳ ص ۳۹۲ .

۳ . سورة الأعراف: الآیة ۱۸۵ .

۴ . سورة یونس: الآیة ۱۸ . (۲۸۹)

الآیة: «ویقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه» وکان وجه عبادتهم لهم هو قولهم: «هؤلاء شفعاؤنا»(۱) . إنّ الاستدلال بالآیة علی کون طلب الشفاعة شرکاً من غرائب الاستدلال وعجائبه، فإنّ الآیة لو لم تدل علی أنّ طلب الشفاعة یغایر عبادتهم لها، لا تدل علی أنّ طلب الشفاعة عبادة للمدعو، وذلک أنه ورد فی الآیة جملتان نسبتهما إلی المشرکین: ۱- ویعبدون من دون اللّه ما لا یضرّهم ولا ینفعهم . ۲- ویقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه . والعطف یدل علی المغایرة، وأنّ هنا عبادة، وأنّ هناک أمراً آخر وهو طلب الشفاعة، وما هذا الخلط؟ ولنفترض أنّ طلب شفاعتهم کان عبادة لمعبوداتهم، وأنّ الجملة الثانیة من قبیل عطف العام علی الخاص ولکن أین طلب شفاعة المسلم الموحّد من سید الموحدین، من طلب شفاعة عبدة الأصنام والأوثان، فالمشرکون کانوا یعتبرون الأوثان مالکة للشفاعة والمغفرة، فکان اللّه فی معزل عنهما تماماً، ولا شک أنّ طلب الشفاعة من أیّ موجود مقروناً بهذا الاعتقاد یعد شرکاً، لأنّ هذا الطلب مقرون بألوهیة المدعو وربوبیته، فی حین أنّ الإنسان المسلم یطلب الشفاعة والدعاء من الشفیع باعتباره عبداً مقرباً إلی اللّه، وإنساناً وجیهاً عنده، أذن اللّه تعالی له فی شفاعة المجرمین، وادّخرها النبی لأهل الکبائر من أُمته، کما ورد عن النبی الأکرم، ورواه الفریقان . والمصدر لهذه التهمة هو أنّ القوم لم یضعوا حداً منطقیاً جامعاً ومانعاً للعبادة حتّی یمیزوا به الدعاء العبادی عن غیره، فجعلوا یخبطون خبط عشواء لا یمیزون بین الصحیح والسقیم . نعم، إنّ الشفاعة حق خاص باللّه دل علیه الذکر الحکیم وقال: (أَمِ ــــــــــــــــــــ

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۱۵ . (۲۹۰) اتَّخَذُوا مِنْ دونِ اللّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ کَانُوا لاَ یَمْلِکُونَ شَیئاً وَلاَ یَعْقِلُونَ * قُلْ للّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِیعاً)(۱) .

ولأجل کونه حقاً مختصاً باللّه، لا یشفع النبی الأکرم ولا الشفعاء الأُخر لأحد إلّا بإذنه سبحانه، ولکن قوله «للّه الشفاعة جمیعاً» لیس معناه أنه سبحانه هو الشفیع دون غیره، لبداهة أنّ اللّه لا یشفع لأحد عند أحد، بل معناه أنه مالکٌ لمقام الشفاعة، لا یملکه غیره ولا یشفع إلاّ بإذنه . هذا وإنّ المشرکین کانوا علی خلاف ذلک کما یعرب عنه قوله سبحانه: «قل أو لو کانوا لا یملکون شیئاً» . وفی الختام نذکر النقطة الأخیرة من کلامهم، وهی أنّ النبی الأکرم بعد التحاقة بالرفیق الأعلی لا یسمع بدلیل قوله سبحانه (إِنَّکَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَی وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إذا وَلَّوْا مُدْبِرِینَ)(۲) . وقوله: (إِنَّ اللّه یُسْمِعُ مَنْ یَشاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مِنْ فی القُبُورِ)(۳)، ولکنّک عرفت أنّ الآیتین لا تمتّان إلی طلب الشفاعة عن الأنبیاء بصلة، فإنّ الأجساد الراقدة تحت التراب، غیر قادرة علی الإدراک والسماع، ولکن المخاطب هو الروح الطاهرة والحیة الّتی تعیش بالجسد البرزخی فی عالم البرزخ، والخطاب لتلک الأرواح النورانیة والشفاعة تطلب منها، وأمّا السعی إلی الحضور فی مقابرهم ومراقدهم فلأجل أنّ الحضور فیها یهیّیء أنفسنا للاتصال بأرواحهم المقدسة، وعند ذلک نجد فی أنفسنا دافعاً إلی التحدّث معهم وهم یستمعون إلینا. هذا هو الإمام الصادق ـ علیه السَّلام ـ أحد الأئمة یعلّم شیعته کیفیة زیارة أئمة أهل البیت بقوله: ــــــــــــــــــــ

۱ . سورة الزمر: الآیة ۴۳ ـ ۴۴ .

۲ . سورة النمل: الآیة ۸۰ .

۳ . سورة فاطر: الآیة ۲۲ . (۲۹۱)

«عالماً أنّک تسمع کلامی وترد سلامی... فکن لی إلی اللّه شفیعاً، فما لی وسیلة أوفی من قصدی إلیک وتوسّلی بک إلی اللّه»(۱) .

وجاء فی کلام آخر له ـ علیه السَّلام ـ : «اللّهمّ... وأعلم أنّ رسولک وخلفاءک ـ علیهم السَّلام ـ أحیاء عندک یرزقون، یرون مقامی ویسمعون کلامی ویردون سلامی، وأنک حجبت عن سمعی کلامهم، وفتحت باب فهمی بلذیذ مناجاتهم»(۲) . هذا وقد قال ابن تیمیة: وفی سنن أبی داود عن النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أنّه قال: ما من رجل مسلم سلّم علیّ إلاّ ردّ اللّه علیّ روحی حتّی أردّ علیه السلام، وفی موطأ الإمام مالک أنّ عبداللّه بن عمر ـ رضی اللّه تعالی عنهما ـ کان یقول: السلام علیک یا رسول اللّه، السلام علیک یا أبا بکر، السلام علیک یا أبه، ثم ینصرف، وکذلک أنس بن مالک وغیره من الصحابة رضی اللّه عنهم، نقل عنهم السلام علی النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ (۳) . فأیّ فرق بین التسلیم علی المیت وبین طلب الدعاء منه؟ وإذا کان قادراً علی رد السلام، یکون قادراً علی الدعاء إلی اللّه، والشفاعة للداعی، ولو فرضنا أنّه قادر علی شیء واحد وهو رد السلام، ولیس قادراً علی الدعاء، یکون طلبه عندئذ لغواً، لا ـ شرکاً ولا محرماً، ویکون أشبه باعتقاد أثر فی نبات مع کونه خطأ. أو کون شخص قادراً علی إنجاز عمل ولم یکن کذلک. ولم یقل أحد بکون هذا النوع من الاعتقاد شرکاً . _____

۱ . بحارالأنوار: ج ۹۷، ص ۲۹۵ .

۲ . عدة الداعی لابن فهد الحلی، ۸۴۱ .

۳ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۲۳ .

ابن تیمیة والنذر لأهل القبور

ابن تیمیة والنذر لأهل القبور

قال ابن تیمیة: وإذا کان الطلب من الموتی ـ ولو کانوا أنبیاء ـ ممنوعاً خشیة الشرک، فالنذر للقبور أو لسکان القبور نذر حرام باطل یشبه النذر للأوثان . ویقول: ومن اعتقد أنّ فی النذر للقبور نفعاً أو أجراً فهو ضالّ جاهل، ثم یقرر: إنّ ذلک نذر فی معصیة، وإنّ من یعتقد أنها باب الحوائج إلی اللّه، وأنها تکشف الضر وتفتح الرزق وتحفظ العمر، فهو کافر مشرک یجب قتله(۱). أقول: إنّه قد ذیل کلامه بشیء لا یعتقد به أحد من المسلمین، حتّی یجعل ذلک ذریعة لقبول صدر کلامه. فأیّ مسلم یعتقد أن النبی یکشف الضرر ویفتح الرزق ویحفظ العمر؟ بل معتقَدُ جماهیر المسلمین هو أنّ کل الأُمور بیده سبحانه، وأنّ الناس هم الفقراء واللّه هو الغنی الحمید، قال سبحانه: (یَا أَیُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَراءُ إِلَی اللّهِ وَاللّهُ هُوَ الغَنِیُّ الحَمِیدُ)(۲) . ولو اعتقد أحد من المسلمین أن الأنبیاء والصالحین ربما یقومون بأُمور خارجة عن السنن العادیة فهو نفس الاعتقاد بأنهم أصحاب المعاجز والکرامات، وقد تواترت النصوص علی ذلک وأنهم یبرئون الأکمه والأبرص _____

۱ . قاعدة جلیلة فی التوسل والوسیلة، ص ۱۰۳ .

۲ . سورة فاطر: الآیة ۱۵ . (۲۹۳)

ویحیون الموتی بإذن اللّه(۱) . ومن یصف أحداً من الصالحین بباب الحوائج فإنما یصفه بهذا المعنی، یعنی أنه سبحانه یستجیب دعاءه إذا دعاه، أو أنّه سبحانه أعطاه مقدرة کبیرة مثل ما أعطی لمن کان عنده علم من الکتاب(۲) . فإذا صحّ ما فی القرآن من أنّ أُناساً من الأنبیاء وغیرهم کانوا أصحاب مقدرة کبیرة یقومون بخوارق العادات وعجائب الأعمال بإذن اللّه، لصحّ التصدیق فی غیرهم ممن لم یجیء عنهم ذکر فی القرآن، فما معنی الإیمان ببعض والکفر ببعض؟ وأمّا النذر للأموات، فتحقیقه یتوقف علی بیان مقدمة: النذر معناه أن یلزم الإنسان نفسه بأداء شیء معیّن إذا تحقق هدفه وقضیت حاجته، فیقول: للّه علیَّ أن أفعل کذا، إذا کان کذا. مثلا یقول: للّه علیَّ أن اختم القرآن إذا نجحت فی الامتحانات الدراسیة . هذا هو النذر الشرعی، ویجب أن یکون للّه، فإذا قال الناذر: نذرت لفلان، ففی قوله مجاز لغایة الاختصار، والمعنی نذرت للّه علی أن أفعل شیئاً یکون ثوابه لفلان، وثواب النذر یقع علی ثلاثة أقسام: ۱- أن یکون الثواب لنفس الإنسان الناذر . ۲- أن یکون لشخص میت . ۳- أن یکون لشخص حی . وهذه الأقسام الثلاثة کلها جائزة،

ويجب على الناذر الوفاء بنذره إذا قضيت حاجته، وقد مدح اللّه سبحانه أهل البيت، لأجل الوفاء بالنذر. قال ـــــــــــــــــــ

۱ . سورة آل عمران: الآية ۴۹ وسورة المائدة: الآية ۱۱۰ .

۲ . قال سبحانه: (قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ... قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدّ إلَيكَ طَرفُكَ)سورة النمل: الآية ۳۹ ـ ۴۰ . (۲۹۴)

تعالى: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً)(۱)، هذا هو النذر . وقد تعارف بين المسلمين أنّ النذر للّه وإهداء ثوابه لأحد أولياء اللّه وعباده الصالحين، وكانت عليه السيرة بين المسلمين، إلى أن جاء الدهر بابن تيمية فحرّم ذلك كما عرفت من عبارته، وقد نقل عنه أيضاً العبارة التالية، وقال: «من نذر شيئاً للنبى أو غيره من النبيين والأولياء من أهل القبور، أو ذبح ذبيحة، كان كالمشركين الذين يذبحون لأوثانهم وينذرون لها، فهو عابد لغير اللّه، فيكون بذلك كافراً»(۲) . عجيب جداً حكم ابن تيمية وتكفيره المسلمين بحجة أنّ عمل الناذر يشبه عمل المشركين، أيصحّ فى ميزان النصفة الحكم بتكفير المسلمين الذين أرسوا قواعد التوحيد، وحملوه جيلاً بعد جيل إلى عصر ابن تيمية، بمجرد أنّ عمل الذابح والناذر يشبه عمل المشركين . فلو كان هذا ملاكاً للتكفير فابن تيمية والوهابيون وحماة هذه البدع من أعظم المشركين! فإنّ كثيراً من مناسك الحج و فرائضه (الّتى يقوم بها المسلمون من غير فرق بين الوهابى وغيره) تشبه فى ظاهرها أعمال عبدة الأصنام، فقد كانوا يطوفون حول أصنامهم ويقبّلونها، ونحن أيضاً نطوف حول الكعبة المشرفة ونقبّل الحجر الأسود، ونذبح الذبائح ونقرّب القرابين فى منى يوم عيد الأضحى، كما كانوا يذبحون لأصنامهم، أفيصح تكفير الجميع لأجل هذه المماثلة؟ أو المقياس هو النية القلبية، وأنّ المعيار هو النية والضمائر دون المشابهة والظواهر، وقد قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : إنما الأعمال بالنيات(۳) . ـــــــــــــــــــ

۱ . سورة الإنسان: الآية ۷ .

۲ . نقله عنه شهاب الدين ابن حجر الهيثمى فى كتاب «الجوهر المنظم فى زيارة القبر الشريف النبوى المكرم» كما فى فرقان القرآن للعزامى القضاعى، ص ۱۳۲ .

۳ . صحيح البخارى: ج ۱، كتاب الإيمان ص ۱۶ . (۲۹۵)

ولا يصحّ التسرّع فى الحكم بمجرد المماثلة، لأنّ كل من ينذر لأحد من الأولياء فإنما يقصد النذر للّه، وإهداء الثواب للولى الصالح ليس إلاّ، ولا تجد فى أديم الأرض من يسجّل اسمه فى ديوان المسلمين إلاّ وينوى ذلك، نعم شذّ عنهم ابن تيمية ومن أحيى مسلكه حيث اتّهموا المسلمين بغير ذلك . يقول الشيخ الخالدى رداً على ابن تيمية: «إنّ المسألة تدور مدار نيات الناذرين، وإنما الأعمال بالنيات، فإن كان قصد الناذر الميت نفسه، والتقرّب إليه بذلك، لم يجز ـ قولا واحداً ـ وإن كان قصده وجه اللّه تعالى وانتفاع الأحياء بوجه من الوجوه به، وإهداء ثوابه لذلك المنذور له، وسواء عيّن وجهاً من وجوه الإنتفاع، أو أطلق القول فيه، وكان هناك ما يطرد الصرف فيه فى عرف الناس، أو أقرباء الميت، أو نحو ذلك، ففى هذه الصورة يجب الوفاء بالنذور»(۱) . قال العزامى: «...ومن استخبر حال من يفعل ذلك من المسلمين، وجدهم لا يقصدون بذبائحهم ونذورهم للأموات ـ من الأنبياء والأولياء ـ إلاّ الصدقة عنهم، وجعل ثواباها لهم، وقد علموا أنّ إجماع أهل السنة منعقد على أن صدقة الأحياء نافعة للأموات، واصلة إليهم، والأحاديث فى ذلك صحيحة مشهورة. فمنها: ما صحّ عن سعد أنّه سأل النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ قال: يا نبىّ اللّه إنّ اُمّى قد افتلتت، وأعلم أنها لو عاشت لتصدّقت أفإن تصدّقتُ عنها أينفعها ذلك؟ قال ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : نعم. فسأل النبى: أىّ الصدقة انفع يا رسول اللّه؟ قال: الماء . ـــــــــــــــــــ

۱ . صلح الأخوان: للخالدى، ص ۱۰۲ وما بعده . (۲۹۶)

فحفر بئراً وقال: هذه لأُم سعد(۱) . وقد أخطأ محمد بن عبدالوهاب فادّعى أن المسلم إذا قال: «هذه الصدقة للنبى أو للولى: فاللام بنفسها هى اللام الموجودة فى قولنا: «نذرت للّه» يراد منها الغاية» . بل العمل للّه، بينما لو قال: للنبى، يريد بها الجهة التى يصرف فيها

الصدقة من مصالح النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ فی حیاته ومماته. وفی هذا الصدد یقول العزامی ـ بعد ذکر قصة سعد ـ : «اللام فی هذه لأُم سعد»، هی الام الداخلة علی الجهة الّتی وجهت إلیها الصدقة لا ـ علی المعبود المتقرب إلیه، وهی کذلک فی کلام المسلمین، فهم سعدیون لا وثنیون، وهی کاللام فی قوله تعالی: (إنّما الصّدقات للفرقاء) لا کاللام فی قوله سبحانه: (رَبِّ إِنِّی نَذَرْتُ لَکَ مَا فی بَطْنی مُحرَّراً)(۲) أو فی قول القائل: صلّیت للّه ونذرت للّه، فإذا ذبح للنبی أو الولی أو نذر الشیء له فهو لا یقصد إلاّ أن یتصدق بذلک عنه، ویجعل ثوابه إلیه، فیکون من هدایا الأحیاء للأموات، المشروعة، المثاب علی إهدائها، والمسألة محرّرة فی کتب الفقه وفی کتب الردّ علی الرجل ومن شایعه»(۳) . وهکذا ظهر لک ـ أیها القارىء ـ جواز النذر للأنبیاء والأولیاء من دون أن تکون فیه شائبة شرک، فیثاب به الناذر إن کان للّه وذبح المنذور باسم اللّه: فقول القائل «ذبحت للنبی» لا یرید أنه ذبحه للنبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ بل یرید أن الثواب له، کقول القائل: ذبحت للضیف، بمعنی أن النفع له والفائدة له، فهو السبب فی حصول الذبح . ویوضح ذلک ما روی عن ثابت بن الضحاک قال: _____

۱ . لاحظ: فرقان القران ص ۱۳۳ .

۲ . سورة آل عمران: الآیة ۳۵ .

۳ . فرقان الفرقان: ص ۱۳۳ . (۲۹۷)

«نذر رجل عهد رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أن ینحر إبلا بـ «بوانة» فأتی رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ فأخبره، فقال النبی: هل کان فیها من یعبد من أوثان الجاهلیة؟ قالوا: لا . قال: فهل کان فیها عید من أعیادهم؟ قالوا: لا . قال ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ للسائل: أوف بنذرک، فإنّه لا وفاء فی معصیة اللّه، ولا فیما لا یملک ابن آدم»(۱) . وروی أیضاً: «إنّ امرأة أتت النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ فقالت: یا رسول اللّه... إنی نذرت أن أذبح بمکان کذا وکذا، کان یذبح فیه أهل الجاهلیة . فقال النبی: الصنم؟ قالت: لا . قال: الوثن؟ قالت: لا. قال: فی بنذرک»(۲) . وعن میمونة بنت کردم أنّ أباها قال لرسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : یا رسول اللّه إنی نذرت إن ولد لی ذکر، أن أنحر علی رأس بوانة «فی عقبة من الثنایا» عدة من الغنم.. قال «الراوی عنها»: لا أعلم إلاّ أنها قالت: خمسین . _____

۱ . سنن أبی داود: ج ۲ ص ۸۰ .

۲ . سنن أبی داود: ج ۲ ص ۸۱ . (۲۹۸)

فقال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : هل من الأوثان شیء. قالت: لا . قال: فأوف بما نذرت به لله...»(۱) . أرأیت أیّها القارىء ـ کیف یکرر النبی ـ ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ السؤال عن جود الأصنام فی المکان الّذی تذبح فیه الذبائح؟ إنّ هذا دلیل علی أنّ النذر الحرام هو النذر للأصنام، حیث کان ذلک عادة أهل الجاهلیة، کما قال تعالی: (وَمَا ذُبِحَ عَلَی النُّصُبِ... ذَلِکُمْ فِسْقٌ)(۲) .

ومن اطّلع علی أحوال الزائرین للعتبات المقدسة ومراقد أولیاء اللّه الصالحین یعلم جیداً أنهم ینذرون لله تعالی ولرضاه، ویذبحون الذبائح باسمه عزّوجلّ، بهدف انتفاع صاحب القبر بثوابها، وانتفاع الفقراء بلحومها، وبذلک تعرف سقوط کلمة محمد بن عبدالوهاب فی اتّهام المسلمین بأنهم ینحرون للنبی، وزِانَ النحر لله سبحانه، حیث یلقّن أتباعه الحجة ویقول: «فقل: فإذا عملت بقول اللّه تعالی: «فصل لربک» وأطعت اللّه ونحرت له هل هذا عبادة؟ فلا بد أن یقول: نعم، فقل له: فإن نحرت لمخلوق: نبی أو أجنبی أو غیرهما، هل أشرکت فی هذه العبادة غیر اللّه؟ فلابد أن یقرّ ویقول: نعم» (۳) . والمسلمین تخیّل أنّ اللام فی «هذا للنبی» نفس اللام فی «نذرت لله» وقد عرفت أن إحداهما للغایة، والأُخری للإنتفاع . وختاماً لهذا الفصل نذکر کلمة للخالدی ـ بعد أن ذکر ما رواه أبو داود فی سننه ـ قال: _____

۱ . سنن أبی داود: ج ۲ ص ۸۱ .

۲ . سورة المائدة: الآیة ۳ .

۳ . صلح الإخوان للخالدی، ص ۱۰۹ . (۲۹۹)

«وأمّا استدلال الخوارج بهذا الحدیث علی عدم جواز النذر فی اماکن الأنبیاء والصالحین. زاعمین بأنّ الأنبیاء والصالحین أوثان ـ والعیاذ باللّه ـ وأعیاد من أعیاد الجاهلیة، فهو من ضلالاتهم وخرافاتهم وتجاسرهم علی أنبیاء اللّه وأولیائه، حتّی سمّوهم أوثاناً، وهذا غایة التحقیر لهم، خصوصاً الأنبیاء، فإنّ من انتقصهم ولو بالکنایة ـ یکفر ولا تقبل توبته ـ فی بعض الأقوال ـ وهؤلاء المخذولون بجهلهم، یسمّون التوسل بهم عبادة، ویسمونهم أوثاناً، فلا عبرة بجالهة هؤلاء وضلالاتهم، واللّه أعلم»(۱) . (یُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَیَخَافُونَ یَوْمَاً کَانَ شَرُّهُ مُسْتَطیراً * وَیُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَی حُبِّهِ مِسکیناً وَیَتیمَاً وَأَسیراً * إِنَّمَا نُطْعِمُکُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لاَ نُرِیدُ مِنْکُمْ جَزَاءً وَلاَ شُکُوراً)(۲) .

---

۱ . کشف الشبهات، ص ۸ .

۲ . سورة الإنسان: الآیة ۷ - ۹ . (۳۰۰)

ابن تیمیة والحلف بغیر اللّه تعالی

ابن تیمیة والحلف بغیر اللّه تعالی

إنّ من المسائل المهمة عند الوهابیین هو الحلف بغیر اللّه، وذهب ابن تیمیة إلی کونه شرکاً، اعتماداً علی ما رواه الترمذی: «من حلف بغیر اللّه فقد أشرک» وتحقیق الحق یتوقف علی توضیح الأُمور التالیة: ۱- هل الیمین الفاصل فی الدعاوی هو الحلف باللّه، أو یعمه وغیره؟ ۲- هل ینعقد الیمین بالحلف بالنبی مثلاً بحیث لو حنث لزمته الکفارة أو لا؟ ۳- هل یجوز الحلف بغیر اللّه سبحانه أولاً؟ وإلیک نقل أقوال أئمة المذاهب الفقهیة فی المجالات المتقدمة: أ - ما هو الحلف الفاصل فی الخصومات؟

أمّا فقهاء الشیعة فقد اتفقت کلمتهم علی أن الیمین الفاصل فی الخصومات هو الحلف باللّه وأسمائه. قال المحقق الحلی: لا یستحلف أحد إلّا باللّه ولو کان کافراً، فلا یجوز الإحلاف بغیر أسماء اللّه سبحانه، کالکتب المنزلة، والرسل المعظمة، والأماکن المشرفة(۱) وأمّا السنّة فلم أجد لهم نصاً فی خصوص هذه المسألة فی الکتب الفقهیة، نعم یعلم حکمها مما سنذکره عنهم فی المسألتین التالیتین .

---

۱ . جواهر الکلام، فی شرح شرائع الإسلام، ج ۴۰ ص ۲۲۵ . (۳۰۱) ب ـ هل ینعقد الحلف بغیره سبحانه؟

قال ابن تیمیة: وقد اتفق العلماء علی أنّه لا ینعقد الیمین بغیر اللّه، ولو حلف بالکعبة أو بالملائکة أو بالأنبیاء ـ علیهم السَّلام ـ لم تنعقد یمینه، ولم یقل أحد إنه ینعقد الیمین بأحد من الأنبیاء، فإنّ عن أحمد فی انعقاد الیمین بالنبی روایتین، لکن الّذی علیه الجمهور کمالک والشافعی، وأبی حنیفة أنه لا ینعقد الیمین به، کإحدی الروایتین عن أحمد، وهذا هو الصحیح(۱) . وقال ابن قدامة فی المغنی: ولا تنعقد الیمین بالحلف بمخلوق کالکعبة والأنبیاء وسائر المخلوقات، ولا تجب الکفارة بالحلف فیها... وهو قول أکثر الفقهاء، وقال أصحابنا: الحلف برسول اللّه یمین موجبة للکفارة، وروی عن أحمد أنه قال: إذا حلف بحق رسول اللّه وحنث فعلیه الکفارة. قال أصحابنا: لأنه أحد شرطی الشهادة، فالحلف به موجب للکفارة، کالحلف باسم اللّه(۲) . وبالإمعان فی کلام ابن قدامة یظهر عدم صحة ما ذکره ابن تیمیة من أنه «اتفق العلماء علی أنه لا ینعقد الیمین بغیر اللّه» وأین هو من قول ابن قدامة: «قال أصحابنا: الحلف برسول اللّه یمین موجبة للکفارة؟ وهو وابن قدامة کلاهما حنبلیان، وبما أن المسألة فقهیة لا نستعرضها أزید من ذلک، وإنما نرکز البحث علی المسألة الثالثة . ج ـ هل یجوز الحلف بغیر اللّه أو لا؟

هذه المسألة هی الّتی عقدنا الفصل لبیان حکمها. قال ابن تیمیة: «لا یشرع ذلک بل ینهی عنه إمّا نهی تحریم وإمّا نهی تنزیه، وإنّ للعلماء فی ذلک قولین، والصحیح أنه نهی تحریم، وفی الصحیح عنه (صلی اللّه علیه وآله) أنه قال: من کان حالفاً فلیحلف باللّه أو لیصمت، وفی الترمذی أنه قال: من _____

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۲۰۹ .

۲ . المغنی لابن قدامة: ج ۱۱ ص ۱۷ . (۳۰۲)

حلف بغیر اللّه فقد أشرک(۱) . وقال الصنعانی: إنّ الحلف بغیر اللّه شرک صغیر(۲)، وقال ابن قدامة: ولا یجوز الحلف بغیر اللّه وصفاته، نحو أن یحلف بأبیه أو الکعبة أو صحابی أو إمام. قال الشافعی: أخشی أن یکون معصیة. قال ابن عبد البر: وهذا أصل مجمع علیه، وقیل ;یجوز ذلک لأنّ اللّه تعالی أقسم بمخلوقاته فقال: «والصّافّات صفّاً، والمرسلات عرفاً، والنازعات غرقاً»، وقال النبی للأعرابی السائل عن الصلاة: «أفلح وأبیه إن صدق» وفی حدیث أبی الشعراء: «وأبیک لو طعنت فی فخذها لأجزاک» ثم إن لم یکن الحلف بغیر اللّه محرّماً فهو مکروه، فإن حلف فلیستغفر اللّه تعالی، أو لیذکر اللّه تعالی، کما قال النبی: من حلف باللاّت والعزّی فلیقل: لا إله إلاّ اللّه(۳) . أنت تری أنّ ابن تیمیة وتلمیذ منهجه الشیخ الصنعانی أفتیا بالحرمة، ولکن الظاهر من عبارة ابن قدامة أن المسألة مما اختلف فیه الفقهاء، فهم بین محرّم ومجوّز، حتّی أنّ الشافعی قال: أخشی أن یکون معصیة، وإذ کانت المسألة علی هذا المستوی من الاختلاف، فهل یجوز تکفیر الحالف بمثل هذه المسألة؟ مع أنّ أکثر الفقهاء قائلون بالجواز. قال فی الفقه علی المذاهب الأربعة: «إذا قصد الحالف إشراک غیر اللّه معه فی التعظیم ففیه تفصیل فی المذاهب، ثم ذکر التفصیل بالنحو الآتی»: «الحلف بالطلاق نحو: علیّ الطلاق: إن فعلت کذا، جائز بدون کراهة، ویلزمه الطلاق إذا کان الغرض منه الوثیقة، أی وثوق الخصم بصدق الحالف، جاز بدون کراهة. وإذا لم یکن الغرض منه ذلک، أو کان حلفاً علی الماضی فإنه یکره، وکذلک الحلف (بنحو وأبیک ولعمرک) . وقالت الشافعیة: یکره الحلف بغیر اللّه إذا لم یقصد شیئاً مما ذکر فی أعلی الصحیفة، ویکره الحلف بالطلاق . _____

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۱۷ .

۲ . تطهیر الاعتقاد، ص ۱۴ .

۳ . المغنی لابن قدامة: ج ۱۱ ص ۱۶۳ (کتاب الأیمان) طبع دارالکتاب العربی ـ بیروت . (۳۰۳)

وقالت الحنابلة: یحرم الحلف بغیر اللّه وصفاته، ولو بنبی أو ولی، ویکره الحلف بالطلاق والعتاق والمشهور الحرمة»(۱) . فعلی ضوء هذا فقد أفتی الحنابلة من بین المذاهب الأربعة بالحرمة، وذهبت الحنفیة والشافعیة إلی الجواز وللمالکیة قولان . هذه هی الأقوال فی المسألة، وإلیک تحلیلها فقهیاً واجتهاداً: عرض المسألة علی القرآن

إنّ القرآن الکریم هو الثقل الأکبر والقدوة العلیا والمثل الحی لکل مسلم، نری فیه الحلف بغیر اللّه فی غیر واحد من السور، فقد أقسم تعالی فی سورة الشمس وحدها بغیر ذاته وصفاته، أعنی الشمس وضحاها، والقمر والنهار واللیل، والسماء والأرض، والنفس الإنسانیة، وأقسم سبحانه فی سورة النازعات بأمرین: المرسلات والناشرات، کذلک ورد الحلف بغیر اللّه فی سورة «الطارق» و «القلم» و «العصر» و «البلد» وغیرها. وإلیک نماذج من آیات الحلف بغیر اللّه سبحانه الواردة فی غیر هذه السور: (وَالتِّینِ وَالزَّیتُونِ * وَطُورِ سِینِینَ * وَهَذَا البَلَدِ الأمینِ)(۲) . (وَاللیلِ إذَا یَغْشَی * وَالنَّهارِ إذَا تَجَلّی)(۳) . (وَالفَجْرِ * ولَیال عَشْر * والشَّفْعِ وَالوَتْرِ * وَاللیلِ إذَا یَسْرِ)(۴) . (وَالطُّورِ * وَکِتاب مَسْطُور * فِی رَقٍّ مَنْشور * وَالبَیتِ المَعْمُورِ * والسَّقْفِ المَرفُوعِ * وَالبَحْرِ المَسجُورِ)(۵) . _____

۱ . الفقه علی المذاهب الأربعة، ج ۲ (کتاب الیمین)، ص ۷۵ .

۲ . سورة التین: الآیة ۱-۳ .

۳ . سورة اللیل: الآیة ۱-۲ .

۴ . سورة الفجر: الآیة ۱-۴ .

۵ . سورة الطور: الآیة ۱-۶ . (۳۰۴)

إذا کان القرآن کتاب هدایة للبشر والناس یتخذونه قدوة وأُسوة، فلو کان هذا النوع من الحلف حراماً علی العباد، وأمراً خاصاً باللّه سبحانه، لکان المفروض أن یحذّر منه القرآن، ویذکر بأن هذا من خصائصه سبحانه . ومن هنا یعلم أنّ توصیف الحلف بغیر اللّه بکونه

شركاً صغيراً يستلزم نسبة الشرك إلى اللّه سبحانه، وإذا كانت ماهية الحلف بغير اللّه ماهية شركية فلا يفرق بينه وبين عباده، فإذا كانت ماهية الشيء ظلماً وتجاوزاً على البرىء، فاللّه وعباده فيه سيان، قال تعالى: (قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لا تَعْلَمونَ)(۱) . إنّ الحلف بهذه العظائم كما يتضمن الدعوة إلى التدبّر والدقة فی صنعها، والنواميس السائدة عليها، واللطائف الموجودة فيها، وبالتالی يحتج بها على صانع لها عالم وقادر وحی و...، كذلك يتضمن جواز الحلف بها إذا كان موجوداً مقدساً، كما حلف سبحانه بحياة النبی وقال: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُم لَفِی سَكْرَتِهِمْ يَعْمِهُونَ)(۲) . عرض المسألة على الأحاديث

هذا بالنسبة إلى القرآن، وإليك عرض المسألة على سنة النبی الأكرم، أعنی قوله وفعله وتقريره، فقد حلف بغير اللّه فی موارد عديدة منها: ۱- روى مسلم فی صحيحه: «جاء رجل إلى النبی فقال: يا رسول اللّه أیّ الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: أما وأبيك فلتنبّئنّك: أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل البقاء»(۳) . ۲- روى مسلم أيضاً: _____

۱ . سورة الأعراف: الآية ۲۸ .

۲ . سورة الحجر: الآية ۷۲ .

۳ . صحيح مسلم، ج ۳، كتاب الزكاة ـ باب أفضل الصدقة، ص ۹۴ . (۳۰۵)

«وجاء رجل إلى رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ـ من نجد ـ يسأل عن الإسلام، فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : خمس صلوات فی اليوم والليل . فقال: هل علیّ غيرهن؟ قال: لا... إلّا أن تطّوّع، وصيام شهر رمضان . فقال: هل علیّ غيره؟ قال: لا... إلاّ أن تطّوّع، وذكر له رسول اللّه الزكاة. فقال الرجل: هل علیَّ غيرها؟ قال: لا... إلّا أن تطّوّع . فأدبر الرجل وهو يقول: لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فقال رسول اللّه: أفلح وأبيه(۱) إن صدق . أو قال: دخل الجنة ـ وأبيه ـ إن صدق»(۲) . ۳- وروى الحديث فی مسند أحمد بن حنبل، وفی نهايته: أنّ النبی قال له: «... فلعمری لئن تتكلم(۳) بمعروف و تنهى عن منكر، خير من أن تسكت»(۴) . وهناك أحاديث أُخرى لا يسع الكتاب ذكرها(۵) . وقد أقسم الإمام علیّ ـ عليه السَّلام ـ ـ ذلك النموذج البارع فی التربية

---

۱ . أی حلفاً بأبيه، فالواو واو القسم .

۲ . صحيح مسلم، ج ۱ باب ما هو الإسلام، ص ۳۲ .

۳ . أی تتكلم ـ للمخاطب ـ كما فی قوله تعالى: «فأنت له تصدى» «أی تتصدى» .

۴ . مسند أحمد، ج ۵ ص ۲۲۵ .

۵ . راجع مسند أحمد: ج ۵ ص ۲۱۲، وسنن ابن ماجة: ج ۱ ص ۲۵۵ وج ۴ ص ۵۹۵ . (۳۰۶)

الإسلامية والقيم العالية ـ بنفسه الشريفة مرات فی خطبه ورسائله وكلماته(۱) . وهذا أبوبكر بن أبی قحافة يقول للسارق الّذی سرق حلی ابنته، فقال: «وأبيك ما ليلك بليل سارق»(۲) . ولا أری البحث أكثر من هذا إلاّ تطويلا بلا طائل، وبما أنّ الوهابيين يتمسكون ببعض الأحاديث فلا بأس بدراستها: ۱- إنّ رسول اللّه سمع عمر و هو يقول: وأبی، فقال: إنّ اللّه ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف باللّه أو يسكت(۳) . يلاحظ على الاستدلال: بأنّ وجه النهی عن الحلف بالآباء، أنّ أباءهم فی الغالب كانوا مشركين وعبدة الأصنام، فلم تكن لهم حرمة ولا كرامة حتّى يحلف أحد بهم، ويؤيد ذلك ما روى عن النبی أنه قال: «ولا تحلفوا بآبائكم ولا بأُمهاتكم ولا بالأنداد»(۴) وروى أيضاً: «لا تحلفوا بآبائكم ولا بالطواغيت»(۵) . على أنّه يحتمل أن يكون النهی عن الحلف بالأب فی مقام فصل الخصومات و حسم الخلافات، وقد عرفت أنّ الفاصل فی هذا المجال هو الحلف باللّه وصفاته . وأكثر ما يمكن أن يقال: إنّ النهی تنزيهی لا تحريمی بشهادة ما سبق من الحلف بغير اللّه فی حديث الرجل النجدی . ۲- جاء ابن عمر رجل فقال: أحلف بالكعبة؟ قال له: لا، ولكن احلف برب الكعبة، فإنّ عمر كان يحلف بأبيه، فقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ

---

۱ . نهج البلاغة: تعليق محمد عبده: الخطبة رقم ۲۲ و۲۵ و۵۶ و۸۵ و۱۶۱ و۱۶۸ و۱۸۲ و۱۸۳ و۱۸۷ والرسالة رقم ۶ و۹ و۵۴ .

۲ . الموطأ، أخرجه فی باب الحدود برقم ۲۹ .

۳ . سنن ابن ماجة: ج ۱ ص ۲۷۷، سنن الترمذی: ج ۴ ص ۱۰۹ وغيرهما.

۴ . سنن النسائی ج ۷ ص ۹ .

۵ . سنن النسائی: ج ۷ ص ۷، سنن ابن ماجة: ج ۱ ص ۲۷۸ ـ والطواغيت هی الأصنام . (۳۰۷)

لا تحلف بأبيك فإنّ من حلف بغير اللّه فقد أشرك(۱) . يلاحظ على الاستدلال: أنّ الحديث يتألف من أُمور ثلاثة: ۱- إنَّ رجلا جاء إلى ابن عمر فقال: أحلف بالكعبة؟ فأجابه بقوله: لا، ولكن احلف برب الكعبة . ۲- إنَّ عمر بن الخطاب كان يحلف بأبيه، فنهاه النبی ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ عن ذلك . ۳- إنَّ رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ علل ذلك بقوله: «من حلف بغير اللّه فقد أشرك» . والمتبادر من كلام الرسول حيث وقع تعليلا لنهی عمر عن الحلف بوالده ـ الكافر ـ ما إذا كان المحلوف به شيئاً غير مقدس كالكافر والصنم، وأما إذا كان المحلوف به مقدساً وذا فضيلة وكرامة كالكعبة، فكلام الرسول منصرف عنه، وإنما اجتهد ابن عمر حيث حمل كلام الرسول حتّى على الحلف بالمقدس، كالكعبة، واجتهاده حجة على نفسه لا على غيره . وهناك جواب آخر، وهو أنه يحتمل وقوع التحريف فی الخبر، وأن قوله فقال: «رسول اللّه» مصحّف قوله: وقال رسول اللّه، وعندئذ يكون كلام الرسول مستقلا، لا تعليلا بشیء حتّى النهی عن الحلف بالكافر، وعلى هذا فالحديث مركب من أُمور ثلاثة جمعها ابن عمر فی حديث واحد . والّذی يعرب عن أنّ كلام الرسول كان كلاماً مستقلا غير واقع فی ذيل النهی عن الحلف بالأب، ما رواه إمام الحنابلة عن ابن عمر، قال: «كان يحلف أبی، فنهاه النبی وقال: من حلف بشیء دون اللّه فقد أشرك»(۲) فلو كان كلام الرسول مصدّراً بنهی عمر عن الحلف بأبيه كان اللازم أن يقول: «فقال» مكان «قال» وعلى فرض استقلاله وورود بدون _____

۱ . السنن للبيهقی: ج ۱ ص ۲۹، وقريب منه فی مسند أحمد: ج ۲ ص ۶۹ .

۲ . مسند أحمد: ج ۲ ص ۳۴ . (۳۰۸)

«الفاء» يكون القدر المتيقن منه الحلف بالأصنام . ويشهد على ذلك ما رواه النسائی: أن النبیَّ ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ قال: «من حلف فقال فی حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلاّ اللّه»(۱) . والحديث يعرب عن أن رواسب الجاهلية كانت باقية فی بعض النفوس، فكانوا يحلفون بأصنامهم المعبودة، فأمرهم النبی أن يقولوا بعد الحلف: «لا إله إلاّ اللّه» ليقضی على تلك الرواسب الجاهلية . وحصيلة الجوابين: إنَّ قول النبی: «من حلف بغير اللّه فقد أشرك» إمّا مختص بغير المقدسات كالحلف باللات والعزى والكافر، أو مختص بالأصنام والأوثان فقط، ولا يعم الكافر فضلا عن المقدسات . _____

۱ . سنن النسائی: ج ۷ ص ۸ . (۳۰۹)

ابن تيمية والحلف على اللّه بحق الأولياء

ابن تيمية والحلف على اللّه بحق الأولياء

إنّ من نقاط الاختلاف بين جماهير المسلمين والوهابيين هی مسألة الحلف على اللّه بحق الأولياء . قال ابن تيمية: التوسل فی لغة الصحابة: أن يطلب من النبی الدعاء والشفاعة فيكونون متوسلين و متوجهين بدعائه وشفاعته، ودعاؤه وشفاعته من أعظم الوسائل عند اللّه، وأمّا فی لغة كثير من الناس: أن يسأل بذلك، ويقسم عليه بذلك، واللّه تعالى لا يقسم عليه بشیء من المخلوقات، بل لا يقسم بها بحال، فلا يقال أقسمت عليك يا رب بملائكتك، ونحو ذلك، بل إنما يقسم باللّه وأسمائه وصفاته... وأمّا أن يسأل اللّه ويقسم عليه بمخلوقاته، فهذا لا أصل له فی الإسلام . وقال: وقوله: «اللّهمّ إنّی أسألك بمعاقد العز من عرشك، ومنتهى الرحمة من كتابك، وباسمك وجدك الأعلى وكلماتك التامة» مع أنّ فی جواز الدعاء به قولين للعلماء: فجوّزه أبو يوسف وغيره، ومنع منه أبو حنيفة

وأمثاله، فينبغى للخلق أن يدعوا بالأدعية المشروعة الّتى جاء بها الكتاب والسنة(۱) . ترى أنّ ابن تيمية يفتى بالحرمة من دون أن يذكر لها مصدراً، بل يفتى على خلاف النص كما ستعرفه . _____

۱ . مجموعة الرسائل والمسائل: ج ۱ ص ۲۱ . (۳۱۰)

وجاء الرفاعى يتفلسف فى تبيين حرمة الحلف على اللّه بمخلوقه، ويقول: إنّ الإقسام على اللّه بمخلوقاته أمر خطير يقرب من الشرك، إن لم يكن هو ذاته، فالإقسام على اللّه بمحمد وهو مخلوق بل وأشرف المخلوقين لا يجوز، لأنّ الحلف بمخلوق على مخلوق حرام، وإنّه شرك لأنّه حلف بغير اللّه، فالحلف على اللّه، بمخلوقاته من باب أولى، أى جعلنا المخلوق بمرتبة الخالق، والخالق بمرتبة المخلوق، لأنّ المحلوف به أعظم من المحلوف عليه، ولذلك كان الحلف بالشىء دليلا على عظمته، وأنّه أعظم شىء عند المحلوف عليه(۱) . ومن هنا كان الحلف بالمخلوق على اللّه شركاً باللّه، لأننا خصصنا هذه المكانة العليا بالمخلوق، مع أنها هى بالخالق أولى(۲) . يلاحظ عليه: أنّ كلامه يشتمل على أمرين: ۱- إنَّ الحلف بغير اللّه شرك . ۲- إنَّ المحلوف به أعظم من المحلوف عليه، فلازم الحلف بالمخلوق على اللّه كونه أعظم من اللّه . وكلتا الدعويين باطلتان، أمّا الأُولى فقد عرفت فى البحث السابق أن الحلف بغير اللّه ليس بحرام، بل هو سنة متبعة بين المسلمين، فقد حلف رسوله ووصيه بغير اللّه، وأن الكتاب قدوة وأسوة، فقد حلف بعمر النبى وحلف بالقرآن الكريم وقال: «يس والقرآن الحكيم» فما هذا الإفتاء به دليل، والتشريع بلا برهان؟ (قُلْ آللّه أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرونَ)(۳) . _____

۱ . تلاحظ أن هذا لا ينسجم مع ما سبق منه: «إنّ المحلوف به أعظم من المحلوف عليه» وفى النسخة بعد لفظة «عليه» لفظة «به» .

۲ . التوصل إلى حقيقة التوسل: ص ۲۱۷ ـ ۲۱۸ .

۳ . سورة يونس: الآية ۵۹ . (۳۱۱)

و أمّا الثانية فالمصيبة فيها أعظم، فإن لازم الحلف بشىء على اللّه، أن يكون المحلوف به محترماً عند اللّه و مقبول الشفاعة والدعاء، لا كونه أعظم من المحلوف عليه، فالرجل لم يفرق بين كونه أكرم عند الّه وبين كونه أعظم من اللّه، والحاصل أنّ هذه التفلسفات لا تكون مدركاً للتشريع والإفتاء بالحرمة، فيجب اتّباع النص وتعليل المسألة فى ضوء القواعد الفقهية، فها هنا مقامان: ۱- هل الحلف بمخلوق على اللّه شرك؟ ۲- هل هناك ما يدل على حكم هذا الحلف؟ أمّا الشرك فقد حددناه ووضعنا له حداً منطقياً، وهو الخضوع عن اعتقاد بألوهية المخضوع له وربوبيته، أو كونه قائماً بفعله سبحانه، وهل ينطبق هذا الحد على الحلف بالمخلوق على اللّه؟ إنّ الذكر الحكيم يصف بعض عباد اللّه ويقول: (الصَّابِرينَ والصَّادِقِينَ والقَانَتِينَ والمُنْفِقِينَ وَالمُسْتَغْفِرينَ بِالأسْحَارِ)(۱) .

فلو أنّ إنساناً قام فى هزيع من الليل وصلّى لربه ركعات، ثم تضرع إلى اللّه قائلا: «اللّهمّ إنّى أسألك بحق المستغفرين فى الأسحار، اغفرلى ذنبى» فهل يصحّ لنا أن نعده مشركاً، وأنه أشرك الغير فى عبادة اللّه، مع أنه رفع يديه إلى اللّه سبحانه ودعاه بالضراوة؟ إنّ القرآن الحكيم ذكر مقياساً للتمييز بين المشرك والموحّد فقال: (إِنَّهُم كَانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لاَ إله إلاّ اللّه يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقولُونَ أَئِنّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنا لِشَاعِرٍ مَجْنُون)(۲) . _____

۱ . سورة آل عمران: الآية ۱۷ .

۲ . سورة الصافات: الآية ۳۵ ـ ۳۶ . (۳۱۲)

وقال: (وَإِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)(۱)وقال سبحانه: (ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِىَ اللّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُم، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤمِنُوا فَالحُكْمُ للّهِ العَلِىِّ الكَبير)(۲) . فهل ينطبق هذا المقياس المركز عليه فى الذكر الحكيم على من أحلف اللّه بحبيب من أحبائه، أو شهيد من شهداء دينه؟ فهل هو من الذين إذا دعى اللّه وحده كفر، وإن أشرك به آمن؟ كلاّ وألف كلاّ . إنّ أرخص شىء وأوفره فى سوق الوهابيين هو البذاءة فى اللسان، وتكفير المسلمين واتهامهم بالشرك، فكأنهم لا يوجد فى علبتهم إلاّ السب والكلام البذىء والاتهام بالشرك، معرضين عن قوله سبحانه: (وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلقَى

إلَيْكَمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤمِناً)(۳)

وكأنه سبحانه خوّل تفسير الشرك إلى الوهابيين ليفسروه كيف يشاؤون، فيعتبروا جماعة مشكرين وأُخرى موحدين . أمّا المقام الثانى، أعنى استخراج حكم المسألة من الكتاب والسنة، فيكفى فى ذلك : ۱- ما رواه أبو سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ما خرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال: اللّهمّ إنّى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى...(۴) . ۲- ما رواه البيهقى عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : _____

۱ . سورة الزمر: الآية ۴۵ .

۲ . سورة غافر: الآية ۱۲ .

۳ . سورة النساء: الآية ۹۴ .

۴ . لاحظ ص ۲۵۷، ۲۶۱، ۲۳۲، ۲۵۸ من هذا الجزء . (۳۱۳)

لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلّا غفرت لى..»(۱) . ۳- وما رواه عثمان بن حنيف عن رسول اللّه من دعاء الرسول للضرير وفيه «اللّهمّ إنّى أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمد نبىّ الرحمة...» (۲) . ۴- وما روى من دعاء النبى عند دفن فاطمة بنت أسد، قال: اغفر لفاطمة بنت أسد ووسّع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى» (۳) . إنّ هذه الأحاديث وإن خلت من لفظ القسم بعينه، لكن مضمونه موجود لمكان الباء فيها، والمعنى: أقسم عليك بحقّهم . هذا ما روى عن النبى الأكرم، وإليك ما روى عن أئمة أهل البيت ـ عليهم السَّلام ـ . ۵- هذا إمام المتقين أميرالمؤمنين على ـ عليه السَّلام ـ يقول فى دعائه بعد صلاة الليل: «اللّهمّ إنى أسألك بحرمة من عاذ بك منك، ولجأ إلى عزّك، واستظلّ بفيئك، واعتصم بحبلك، ولم يثق إلّا بك» (۴). ۶- ويقول فى دعاء علّمه لأحد أصحابه... «وبحق السائلين عليك، والراغبين إليك، والمتعوذين بك، والمتضرعين إليك، وبحق كل عبد متعبّد لك فى كل برّ أو بحر أو سهل أو جبل، أدعوك دعاء من اشتدّت فاقته» (۵) . ۷- وهذا أبو الشهداء الإمام الحسين بن علىّ ـ عليهما السَّلام ـ يقول فى دعائه: «اللّهمّ إنى أسالك بكلماتك، ومعاقد عزك، وسكان سماواتك وأرضك، وأنبيائك ورسلك أن تستجيب لى، فقد رهقنى من أمرى عسر، _____

(۱، ۲، ۳) المصدر السابق .

(۴، ۵) الصحيفة العلوية: ص ۳۷۰ . (۳۱۴)

فأسألك أن تصلى على محمد وآل محمد، وأن تجعل من أمرى يسراً». ۸- وهذا هو الإمام زين العابدين يقول فى دعائه يوم عرفة وهو يناجى ربّه: «بحقّ من انتخبت من خلقك، بمن اصطفيته لنفسك، بحقّ من اخترت من بريّتك، ومن اجتبيت لشأنك، بحقّ من وصلت طاعته بطاعتك، ومن نيطت معاداته بمعاداتك»(۱) . وهذا هو الإمام الصادق ـ عليه السَّلام ـ يقول عندما زار مرقد جده الإمام أميرالمؤمنين ـ عليه السَّلام ـ : «اللّهمّ استجب دعائى، واقبل ثنائى، واجمع بينى وبين أوليائى بحق محمد وعلىّ وفاطمة والحسن والحسين»(۲) . ولعلّ القارىء يسأل: هل للوهابيين على تحريم هذا النوع من الحلف دليل؟ والجواب: نعم، إنّ لهم شُبهاً وظنوناً فحسب، وإليك البيان: ۱- إنّ الإقسام على اللّه بمخلوق منهى عنه باتفاق العلماء(۳) . إنّ معنى الإجماع على حكم هو اتفاق علماء الإسلام فى جميع الأعصار، أو فى عصر واحد على حكم . وأيضاً نسأل من أين وقف هذا الناقل للإجماع على اتفاق علماء الإسلام على التحريم؟ ونحن نسامحه ونقول: هل أفتى خصوص أئمة المذاهب الأربعة بالحرمة؟ فأين هذه الفتاوى؟ دلونا على محلها ومصادرها وكتبها!. ثم ما قيمة هذه الفتاوى المدّعاة تجاه النصوص والأحاديث الصحيحة _____

۱ . الصحيفة السجادية: الدعاء ۴۷ .

۲ . مصباح المتهجد: ص ۶۸۱ .

۳ . الهدية السنية، المنسوب إلى عبدالعزيز بن محمد بن مسعود كما فى كشف الارتياب، ص ۳۲۹ . (۳۱۵)

والآثار المرویة عن أئمة أهل البیت ـ علیهم السَّلام ـ، أو لیسوا من السلف الصالح والقادة الأعلین؟ . ۲- إنّ المسألة بحق المخلوقین لا تجوز لأنه لا حق للمخلوق علی الخالق . إنّ هذا الاستدلال عجیب جداً. هذه هی الآیات القرآنیة تثبت حقوقاً علی اللّه سبحانه لعباد اللّه الصالحین، وکذلک الأحادیث الشریفة: (وَکَانَ حَقّاً عَلَینَا نَصْرُ المُؤمِنِینَ)(۱) . (وَعْداً عَلَیهِ حَقّاً فِی التَّوراةِ وَالإنجیلِ)(۲) . (کَذَلِکَ حَقّاً عَلَینَا نُنْجِ المُؤمِنِینِ)(۳) .

وبالإضافة إلی ما سبق من الآیات الکریمة... هناک مجموعة کبری من الأحادیث الشریفة فی هذا المجال، وإلیک نماذج منها: ألف ـ قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : «حقٌّ علی اللّه عون من نکح التماس العفاف مما حرم اللّه»(۴) . ب ـ «ثلاثة حق علی اللّه عونهم: الغازی فی سبیل اللّه، والمکاتب الّذی یرید الأداء، والناکح الّذی یرید التعفف»(۵) . ج ـ «أتدری ما حق العباد علی اللّه...»(۶) .

نعم إنّ من الواضح أنه لیس لأحد بذاته حق علی اللّه، فعندئذ، ربما یُسأل عن معنی هذا الحق؟ _____

۱ . سورة الروم: الآیة ۴۷ .

۲ . سورة التوبة: الآیة ۱۱۱ .

۳ . سورة یونس: الآیة ۱۰۳ .

۴ . الجامع الصغیر، للسیوطی: ج ۲ ص ۳۳ .

۵ . سنن ابن ماجة: ج ۲ ص ۸۴۱ .

۶ . النهایة لابن الأثیر، مادة حق . (۳۱۶)

الجواب: إنّ المقصود من الحق هو المنزلة الّتی یمنحها اللّه تعالی لعباده مقابل طاعتهم وانقیادهم له، وهو مزید من التفضل والعنایة منه تعالی حقاً، فهذا هو الحق الّذی نقسم به علی اللّه، حق جعله اللّه ومنحه لعبده، لا أنّ للعبد حقاً علی اللّه ذاتاً، وهذا مثل القرض الّذی یستقرضه سبحانه من عباده ویقول: (مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللّهَ قَرضاً حَسَناً)(۱).

وهذا النوع من التعبیر لطف من اللّه سبحانه وعنایة فائقة بعباده، حیث یعتبر نفسه المقدسة مدینة وعباده دُیّاناً، فلما أعظم لطفه، مع أنّه سبحانه هو المالک، والعباد خلفاؤه . قال: (آمِنُوا بِاللّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنفِقُوا مَمّا جَعَلَکُمْ مُسْتَخْلَفِینَ فِیهِ، فَالَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُم وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ کَبِیرٌ)(۲). تری أنّ مالک الملوک یستقرض من خلفائه ونوابه . ۳- عن جندب بن عبداللّه قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : قال رجل: واللّه لا یغفر اللّه لفلان، فقال اللّه عزّوجلّ: «من ذا الّذی یتألی علیّ أن لا أغفر لفلان؟ إنی قد غفرت له وأحبطت عملک» . رواه مسلم: وقد استدل به الشیخ عبدالرَّحمان حفید الشیخ محمد بن عبدالوهاب فی کتابه «قرة عیون الموحدین»(۳) . ولم یذکر کیفیة الاستدلال، وذیّل کلامه بحدیث أبی هریرة الّذی رواه أبو داود عنه قال: سمعت رسول اللّه یقول: کان رجلان فی بنی إسرائیل _____

۱ . سورة البقرة: الآیة ۲۴۵ .

۲ . سورة الحدید: الآیة ۷ .

۳ . ص ۳۳۳، طبع لاهور . (۳۱۷)

متواخیین، فکان أحدهما یذنب، والآخر مجتهد فی العبادة، فکان لا یزال المجتهد یری الآخر علی الذنب فیقول: اقصر، فوجده یوماً علی ذنب فقال له: اقصر، فقال: خلنی وربی، أبُعثت علیّ رقیباً؟ واللّه لا یغفر اللّه لک ولا یدخلک الجنة، فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمین، فقال لهذا المجتهد: أکنت بی عالماً؟ أو علی ما فی یدی قادراً؟ فقال للمذنب: أذهب فادخل الجنة برحمتی، وقال للآخر: إذهبوا به إلی النار(۱) . والحدیث الثانی یفسر الحدیث الأول، وأنّ المراد من قوله: «یتألی علّی أن لا أغفر لفلان» هو الحلف بلا علم علی اللّه، کما ورد فی الحدیث الثانی: «أکنت بی عالماً، أو علی ما فی یدی قادراً»؟ . _____

۱ . قرة عیون الموحدین: ص ۲۳۳، والحدیث فی التعلیقة وفی المتن إشارة إلیه .

ابن تیمیة وتکریم موالید أولیاء اللّه ووفیاتهم

ابن تیمیة وتکریم موالید أولیاء اللّه ووفیاتهم

إنّ من المنکرات والبدع عند ابن تیمیة وابن عبدالوهاب هو تکریم مولد النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ بالاحتفال وقراءة القرآن و إنشاد القصائد والأشعار، والإحسان إلی المؤمنین بالإطعام، إلی غیر ذلک مما یعد مجلی لحب النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وتکریمه ورفعه، کما رفعه اللّه سبحانه وقال: (وَرَفَعْنا لَکَ ذِکْرَکَ)(۱) . وقد عرفت فی ترجمة ابن تیمیة أنّ مسلکه یشتمل علی أبعاد أربعة، وأحد الأبعاد هو الحط من کرامة النبی وعظمته الّتی جاءت فی الکتاب والسنة، فجاء یحقق بغیته بتحریم الاحتفال بالموالید والتأبین فی الوفیات، مع أنه لا یشک ذو مسکة أنّه لیس عبادة للنبی، لما عرفت من أنّ العنصر المقوم للعبادة هو الاعتقاد بألوهیة المعبود أو ربوبیته أو کونه مفوضاً إلیه فعل الرب، ولیس فی الاحتفال شیء من ذلک . وکما أنه لیس عبادة، لیس بدعة، لأنه تجسید للأصل الوارد فی الذکر الحکیم، وهو حب النبی ومودته علی وجه یکون النبی مقدماً علی الإنسان ونفسه ونفیسه، وقد قام به السلف طیلة قرون، وإجماع العلماء فی عصر حجة، فکیف فی قرون، ومع ذلک فابن تیمیة یظهر ما یضمره عن طریق تحریم هذه الاحتفالات ویقول: _____

۱ . سورة الانشراح: الآیة ۴ . (۳۱۹)

إنّ اتخاذ هذا الیوم عیداً محدث لا أصل له، فلم یکن فی السلف لا من أهل البیت ولا من غیرهم من اتخذ ذلک عیداً، حتّی یحدث فیه أعمالا، إذا الأعیاد شریعة من الشرائع، فیجب فیها الإتباع لا الإبتداع، وللنبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ خطب وعهود، ووقائع فی ایام متعددة، یذکر فیها قواعد الدین، ثم لم یوجب ذلک أن یتخذ أمثال تلک الأیام أعیاداً، وإنما یفعل مثل هذا، النصاری الذین یتخذون أمثال أیام حوادث عیسی ـ علیه السَّلام ـ أعیاداً، أو الیهود، وإنما العید شریعة، فما شرعه اللّه أتبع، وإلّا لم یحدث فی الدین ما لیس منه . وکذلک ما یحدثه بعض الناس إمّا مضاهاةً للنصاری فی میلاد المسیح ـ علیه السَّلام ـ ، وإمّا محبة للنبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وتعظیماً له، واللّه قد یثیبهم علی هذه المحبة، والاجتهاد، لا علی البدع من اتخاذ مولد النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ عیداً مع اختلاف الناس فی مولده، فإنّ هذا لم یفعله السلف، مع قیام المقتضی له، وعدم المانع منه، ولو کان هذا خیراً محضاً أو راجحاً لکان السلف ـ رضی اللّه عنهم ـ أحق به منّا، فإنهم کانوا أشد محبة لرسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وتعظیماً له منّا، وهم علی الخیر أحرص(۱) . إنّ هذه البذرة الّتی بذرها ابن تیمیة استغلّها تلمیذه ابن القیم وبعده الوهابیة، وإلیک بعض نصوصهم: قال ابن القیم: «نهی رسول اللّه عن اتّخاذ القبور مساجد، وإیقاد السرج، واشتد نهیه فی ذلک حتّی لعن فاعله، ونهی عن الصلاة إلی القبور، ونهی أن یتخذوا عیداً»(۲) . وقال الشیخ عبدالرحمن بن حسن آل الشیخ: «وقد أحدث هؤلاء المشرکون أعیاداً عند القبور الّتی تعبد من دون اللّه، ویسمونها عیداً کمولد البدوی بمصر وغیره، بل هی أعظم لما یوجد فیها _____

۱ . اقتضاء الصراط المستقیم: ص ۲۹۳ - ۲۹۴ .

۲ . زاد المعاد فی هدی خیر العباد: ج ۱ ص ۱۷۹ . (۳۲۰)

من الشرک والمعاصی العظیمة»(۱) . وقال محمد حامد الفقی: «والموالید والذکریات الّتی ملأت البلاد باسم الأولیاء، هی نوع من العبادة لهم وتعظیمهم»(۲). وقد استدلوا بما رواه أبو هریرة، قال: قال رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : «لا تجعلوا بیوتکم قبوراً، ولا تجعلوا قبری عیداً، وصلّوا علیَّ فإن صلاتکم تبلغنی حیث کنت»(۳) . وملاحظة هذه الکلمات تفید أنهم یستدلون علی التحریم بأُمور: الأول: إنَّها عبادة للأولیاء وأصحاب الذکریات . الثانی: إنَّها بدعة، وإنَّها مما لم یشرعه الشارع الشریف . الثالث: لو کان هذا خیراً لأقامه السلف . الرابع: الاستدلال بروایة أبی هریرة من النهی عن اتخاذ قبر النبی عیداً .

هـذه هی الوجوه المهمـة الّتی یستدل بها ابن تیمیة وأتباعه علی تحریم تکریم المواليد، ونحن ندرس کل واحد من هذه الأدلة واحداً بعد آخر : أ ـ هل الاحتفال بالمواليد شرک؟

قد عرفت أنّ محمد حامد الفقی رئیس جماعة أنصار السنة المحمدیة أفتی بکونه شـرکاً، وقال: هو نوع من العبادة للأولیاء وتعظیمهم. ولکنّه کعامـة الوهـابیین لم یفرّق بین التکریم والعبادة، ولـذلک عطف التعظیم علی العبادة، وهـذا هو الـداء العیاء فی دعایـة الوهابیین وکتبهم وخطبهم، وأرخص شیء عندهم هو الشرک فی العبادة، فلا تمیل یمیناً ولا یساراً ـــــــــــــــــــ

۱ . قرة العیون، کما فی فتح المجید: ص ۱۵۴ .

۲ . تعلیق فتح المجید: ص ۱۵۴ .

۳ . مسند أحمد: ج ۳ ص ۲۴۸ . (۳۲۱)

إلّا وتسمع من الجماعة المتسمین بالآمرین بالمعروف والناهین عن المنکر یصرخون فی وجهک «یا حاج! هذا شرک» وهم لم یحددوا للعبـادة حـداً منطقیـاً حتّی یمیزوا فی ضوئه العبـادة عن التعظیم، فعادوا یسـمّون کل تعظیم شـرکاً، ولو کان تعظیم وخضوع عبادة، للزم کفر المملـوک والزوجـة، والولـد والخـادم، والأـجیر، والرعیـة، والجنـود، بإطـاعتهم وخضـوعهم للمـولی والزوج والأـب والمخـدوم والمسـتأجر والملک والأمراء، وجمیع الخلق لإطاعتهم بعضهم بعضاً، بل کفر الأنبیاء لإطاعتهم آباءهم وخضوعهم لهم، وقد أوجب اللّه طاعـة أوامر الأـبوین، وخفض جناح الـذل لهما، وقال لرسوله: (وَاخْفِضْ جَنَاحَکَ لِمَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ)(۱)، وأمر بتعزیر(۲) النبی وتوقیره، وأمر بإطاعـة الزوجة لزوجها، وأوجب إطاعة العبید لمواليهم وسـمّاهم عبیداً(۳) . وقد عرفناک علی أنّ العنصـر المقوم لکون التعظیم عبادة، هو الاعتقاد بألوهیة المعظَّم له، أو ربوبیته، أو کونه مالکاً لمصیر المعظّم، وأنّ بیده عاجله وآجله، ومنافعه و مضارّه، ولا اقل مغفرته وشـفاعته، وأمّا إذا خلا التعظیم عن هذه العناصـر، وقام بالاحتفال بذکری رجل ضحّی بنفسه ونفیسه من أجل استقلال أُمته وإخراجهـا عن نیر الاسـتعباد، وهیّأ لهم أسـباب الاسـتقلال، فلا یعـد ذلک عبادة له، وإن کان هناک احتفال أو احتفالات، وأُلقی فیها عشـرات القصائـد والخطب فلاـ صـلة لهـذابالعبادة. نعم یـدور أمر کـل ذلـک بین الحلال والحرام، وهـل الشـارع رخص ذلک أو لم یرخص، وسـیوافیک أنّ بـاذر هـذه الشـکوک ابن تمیـة، یری أن الأصـل فی العادات عـدم الخطر، إلا ما حظره اللّه(۴). نعم، الاحتفال بمولـد النبی لیس من العـادات، ولاـ یقـام بمـا أنه أمر عـادی بـل بمـا هو أمر قربی له أصل فی الکتاب والسـنة کما مرّ وسـیأتی أیضاً .

---

۱ . سورة الشعراء: الآیة ۲۱۵ .

۲ . إشارة إلی قوله سبحانه:(فالذین آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوه النور الّذی أُنزل معه)سورة الأعراف:الآیة ۱۵۷

۳ . کشف الارتیاب، ص ۱۰۳ وللکلام صلة مفیدة جداً فمن أراد فلیرجع إلیه .

۴ . المجموع من فتاوی ابن تیمیة: ج ۴ ص ۱۹۵ . (۳۲۲) ب ـ هل الاحتفال بالمواليد بدعة؟

إنّ القوم یعدّون الاحتفال شـرکاً تارة، وبدعة ثانیاً، وقد عرفت أنه لیس بشرک لفقدان العنصر المقوم للشرک فیه، وأمّا کونه بدعة فقد عرفت بطلاـنه عنـد البحث عن أنه عبـارة عن إحـداث أمر بـاسم الـدین، ولیس له فیه نصّ أو أصل، والاحتفال، وإن لم یکن فیه نص، لکن له أصـلا فی الکتـاب والسـنة، وهو حبّ النبی ومودته وإظهـاره ;فلیست هـذه الاحتفالاـت إلّا تجسـیداً للحب لا للعـداء والنصـب والبغضاء، نعم، المنع عنه إظهار للضغینة الکامنة فی القلوب . هلمّ معنا ندرس دلیلهم الثالث: ج ـ لو کان خیراً لأقامة السلف

هـذا هو الـدلیل الثالث الّذی یرکن إلیه المانع، وهو من أعجب الدلائل، فکأنّ السـلف مقیاس الحق والباطل فی الفعل والترک معاً، فلو ترکوا شیئاً دل ذلک علی أنه باطل یجب ترکه، نحن نفترض أنّ السلف لم یقیموه ولم یحوموا حوله، ولکن الخلف أبناء الـدلیل، فلو کان له أصل فی القرآن والسنة لا یعبأ بترک السلف. علی أنّ هذا ما یقوله القائل، ونحن إذا رجعنا إلی التاریخ نجد أنّ السـلف أقامه عبر القرون والأجیال قبل أن یتولد باذر هذه الشکوک . هذا مؤلف تاریخ الخمیس یقول: ولا یزال أهل الإسلام یحتفلون بشهر مولده،

ویعملون الولائم ویتصدقون فی لیالیه بأنواع الصدقات، یظهرون السرور، ویزیدون فی المبرّات، یعتنون بقراءة مولده الشریف، ویظهر علیهم من کراماته کل فضل عمیم(۱) . وقال القسطلانی: ولا زال أهل الإسلام یحتفلون بشهر مولده ـ علیه السَّلام ـ ، ویعملون الولائم ویتصدقون فی لیالیه بأنواع الصدقات، _____

۱ . تاریخ الخمیس، ج ۱ ص ۳۲۳ للدیار بکری . (۳۲۳)

ویظهرون السرور، ویزیدون فی المبرات ویعتنون بقراءة مولده الکریم. ویظهر علیهم من برکاته کل فضل عمیم... فرحم اللّه امرأً اتخذ لیالی شهر مولده المبارک أعیاداً لیکون أشدّ علّةً علی من فی قلبه مرض وأعیاه داء . ولقد أطنب ابن الحاج فی «المدخل» فی الإنکار علی ما أحدثه الناس من البدع و الأهواء، والغناء بالآلات المحرمة فی العمل بالمولد الشریف، واللّه تعالی یثیبه علی قصده الجمیل(۱) . وقال ابن عباد فی رسائله الکبری: «وأمّا المولد فالذی یظهر لی أنه عید من أعیاد المسلمین، وموسم من مواسمهم، وکل ما یفعل فیه مما یقتضیه وجود الفرح والسرور بذلک المولد المبارک... أمر مباح لا منکر»(۲) . کلمة أخیرة

إنّ المانعین عن الاحتفال بمولد النبی یقولون: إنّ أول من احتفل بمولد النبی هو الأمیر أبو سعید مظفر الدین الاربلی عام ۶۳۰ هـ ، وربما یقال: أول من أحدثه بالقاهرة، الخلفاء الفاطمیون، أولهم المعز لدین اللّه، توجه من المغرب إلی مصر فی شوال ۳۶۱ هـ ، وقیل فی ذلک غیره(۳) وعلی أی تقدیر فقد احتفل المسلمون حقباً وأعواماً من دون أن یعترض علیهم أیّ ابن أُنثی، وعلی أیّ حال فقد تحقق الإجماع علی جوازه وتسویغه واستحبابه قبل أن یتولد باذر هذه الشکوک، فلماذا لم یکن هذا الإجماع حجة؟ مع أن اتّفاق الأُمة بنفسه أحد الأدلة، وکانت السیرة علی تبجیل مولد النبی إلی أن جاء ابن تیمیة، والعز بن عبد السلام، وابن رجب، والشاطبی فناقشوا فیه ووصفوه بالبدعة، مع أنّ الإجماع انعقد قبل هؤلاء بقرون، أو لیس انعقاد الإجماع فی عصر من العصور حجة بنفسه ؟

---

۱ . المواهب اللدنیة: ج ۱ ص ۲۷ .

۲ . لاحظ المواسم والمراسم، نقلا عن القول الفصل فی الاحتفال بمولد خیر الرسل ص ۱۷۵ .

۳ . المواسم والمراسم: ص ۲۰ . (۳۲۴) الدلیل الأخیر «لا تجعل قبری وثناً یعبد»

آخر ما فی کنانة القوم من نبال مرشوقة إلی المؤمنین المحتفلین بمولد النبی الأکرم، ما روی أبو هریرة، قال: قال رسول اللّه: «لا تجعلوا بیوتکم قبوراً، ولا تجعلوا قبری عیداً، وصلّوا علیّ فإنّ صلاتکم تبلغنی حیث کنتم» . وفی الاستدلال بالحدیث مجال للنظر: أولا: إنّ إمام الحنابلة رواه فی مسنده عن سهیل بن أبی صالح، عن أبیه، عن أبی هریرة. عن النبی أنه قال: «اللّهمّ لا تجعل قبری وثناً. لعن اللّه قوماً اتخذوا قبور أنبیائهم مساجد»(۱) . ورواه فی کنز العمال بالنحو التالی: «اللّهمّ لا تجعل قبری وثناً یصلّی إلیه، فإنّه اشتدّ غضب اللّه علی قوم اتخذوا قبور أنبیائهم مساجد»(۲) . وفی الوقت نفسه رواه إمام الحنابلة عن أبی هریرة: قال رسول اللّه: «لا تتخذوا قبری عیداً، ولا ـ تجعلوا بیوتکم قبوراً، وحیثما کنتم فصلّوا علّی فإنّ صلاتکم تبلغنی»(۳) . وروی أبو داود فی صحیحه عن أبی هریرة نفس هذا المتن(۴) . ومن المتحمل جداً طروء التصحیف علی الروایة، فبدل «وثناً» إلی «عیداً» ویؤید ذلک ذیل الروایة، أعنی قوله: «ولا تجعلوا بیوتکم قبوراً» فإنه یناسب قوله: «لا ـ تجعل قبری وثناً» . وثانیاً: إنّ العید فی اللغة هو الموسم، وهو کل یوم فیه اجتماع أو تذکار

---

۱ . مسند أحمد: ج ۲ ص ۲۴۶ .

۲ . کنز العمال: ج ۲ برقم ۳۸۰۲ .

۳ . مسند أحمد: ج ۲ ص ۳۶۷ .

۴ . سنن أبی داود: ج ۲ ص ۲۱۸، طبع دار إحیاء التراث العربی . (۳۲۵)

لذی فضل، أو حادثة مهمة، سمّی عیداً لأنه یعود کل سنة بفرح مجدد. فعلی هذا لا یصحّ أن یقع خبراً لقوله: «قبراً» إذا لا معنی لجعل

القبر عيداً، فإنما يصحّ جعل موسم أو يوم مشخّص عيداً، فهو يقع خبراً أو صفة للزمان لا للمكان، ولو صحّ جعله صفة للمكان فإنما هو باعتبار اليوم الّذى يجتمع الناس فيه فى ذلك المكان، فالتعبير الوارد فى الحديث لا يوافق الذوق العربى السليم، فكيف يمكن نسبته إلى أشرف من نطق بالضاد، ولو أُريد منه ما يحاول المستدل أن يثبته كان الأولى أن يقول: لا تتخذوا مولدى عيداً، لا قبرى عيداً، أو يقول: لا تتخذوا مولدى حول قبرى عيداً. وحصيلة الكلام أنّ يوم العيد هو يوم الفرح ويوم الزينة، ولا يمكن تطبيق هذا المعنى على القبر، إلاّ بارتكاب مجاز متكلف فيه . وثالثاً: إنّ الرواية لم يعمل بها الصحابة حيث جعلوا بيت النبى قبوراً، إذ دفن فيه النبى الأكرم، وبعده أبو بكر وعمر، فصار بيته قبوراً. وأمّا الاعتذار بأنّ للأنبياء خصوصية ليست لغيرهم وهى أنهم يدفنون حيث يقبضون، لا يدفع الإشكال، إذ ليست هذه الخصوصية فى غيرهم كصاحبيه «أبى بكر وعمر» فلماذا جعل بيت النبى قبوراً . ورابعاً: إنّ الحديث يحتمل معانى مختلفة وراء ما يرتئيه المستدل . ۱- منها ما ذكره الحافظ المنذرى من أنه يحتمل أن يكون المراد به الحث على كثرة زيارة قبر النبى، وأن لا يهمل حتّى يكون بمثابة العيد(۱) . ۲- ومنها ما ذكره السبكى حيث قال: «ويحتمل أن يكون المراد: لا تتخذوا وقتاً مخصوصاً لا تكون الزيارة إلاّ فيه، كماترى أنّ كثيراً من المشاهد، لزيارته يوم معين كالعيد، وزيارة قبره ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ليس لها يوم بعينه، بل أى يوم كان(۲) _____

۱ . شفاء السقام: ص ۶۷، نقلا عن زكى الدين المنذرى (أى: يزار بين المدة الطويلة كالعيد الّذى لا يكون فى كل عام إلاّ يوماً واحداً أو يومين) .

۲ . المصدر نفسه . (۳۲۶)

۳- ومنها ما ذكره أيضاً من أنه يحتمل أن يراد أن يجعل كالعيد فى العكوف عليه، وإظهار الزينة والاجتماع وغير ذلك مما يعمل فى الأعياد، بل لا يؤتى إلاّ للزيارة والسلام والدعاء ثم ينصرف عنه . وقال العلامة السيد جعفر مرتضى العاملى: «يحتمل قوياً أن يكون المراد أنّ اجتماعهم عند قبره ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ينبغى أن يكون مصحوباً بالخشوع والتأمل والاعتبار، حسبما يناسب حرمته واحترامه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فإنّ حرمته ميتاً كحرمته حياً، فلا يكون ذلك مصحوباً باللهو واللعب والغفلة والمزاح وغير ذلك مما اعتادوه فى أعيادهم، ثم عقبه بقوله: ولعل هذا مراد السبكى»(۱) . وخامساً: إنّ الحديث بكلتا صورتيه (وثناً ـ عيداً) ضعيف . أمّا الصورة الأُولى فقد وقع فى السند «سهيل بن أبى صالح» وهو ليس بالقوى فى الحديث، والحديث ليس بحجة; قال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به، وقد كان اعتلّ بعلّة فنسى بعض حديثه، وقال ابن المدينى: مات أخ لسهيل ووجد عليه فنسى كثيراً من الحديث، وقال ابن أبى خيثمة: ابن معين يقول: لم يزل أصحاب الحديث يثقون بحديثه، وقال مرة: ضعيف(۲) . وأمّا الصورة الثانية فقد وردت فى مسند الإمام أحمد وأبى داود «عبداللّه بن نافع» قال البخارى: يعرف حفظه وينكر، وقال أحمد بن حنبل: لم يكن صاحب حديث، وكان ضعيفاً فيه، ولم يكن فى الحديث بذاك، وقال أبو حاتم الرازى: ليس بالحافظ، هو لين يعرف حفظه وينكر، ووثّقه يحيى بن معين، وقال أبو زرعة: لا بأس به، وقال ابن عدى: روى عن مالك غرائب، وهو فى رواياته مستقيم الحديث(۳) . هذا هو حال الحديث الّذى يحتج به ابن تيمية ومن يلعق قصعته من _____

۱ . المواسم والمراسم: ص ۷۱ .

۲ . ميزان الاعتدال: ص ۲۴۳ - ۲۴۴، ونقل أقوال الآخرين فى توثيقه، فالرجل مختلف فيه جداً .

۳ . شفاء السقام: ص ۶۶ . (۳۲۷)

الوهابية، وبذلك أفتوا بحرمة الاحتفال بذكرى النبى الأكرم ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ . وهذه هى أدلة المانعين وشواهدهم، وقد عرفت ضعفها وعدم دلالتها على ما يرتأون، ولنختم البحث بذكر أُمور: الأول: إنّ الاحتفال بالمواليد يجب أن يكون بعنوان أنّه تطبيق للأصل القرآنى من لزوم تكريم النبى وتوقيره وتعظيمه، ولأجل ذلك يصحّ إيقاعه فى كل شهر وأُسبوع ويوم، وعند ما يقام الاحتفال بمولده فإنما يقام بما أنّه جزئى لذلك بالتكريم بالخصوص، حتّى يكون الاحتفال تجسيداً لهذا الأمر، فهو بدعة لا يصار إليها، ولا

أرى أحداً يدّعى أنّه ورد الأمر بالخصوص بمولده . الثانى: يجب أن يكون الاحتفال مطابقاً للسنن الإسلامية، خالياً عما يستقبح فعله فى الشريعة، كعزف المعازف، واتخاذ القيان، واختلاط الرجال بالنساء، فلو فرض أنه اقترنت بعض هذه الاحتفالات بالمحرمات، فلا يكون دليلا على حرمة نفس الاحتفال، ولا يكون سبباً للمنع عنه، فالنّ بعض الفرائص ربما تكون ذريعة لما هو أعظم من هذه المحرمات . الثالث: ليست لإقامة الاحتفال كيفية خاصة، بل ينبغى أن يكون الكل فى إطار الشريعة الغراء، ويكون فى طريق تكريم النبى وتعظيمه، وإظهار الحب، وأحسن الطرق هو تلاوة الآيات الواردة فى حقه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ثم الإيعاز إلى الجهود الّتى بذلها الرسول فى طريق إنقاذ البشر، وبلغ بهم إلى أعلى مراتب العز والعظمة، ثم دعوة المسلمين عن طريق إلقاء الخطب بالتمسك بالكتاب والسنة، والسعى لتطبيق وتجسيد مبادئها فى الحياة، ودعم الصحوة الإسلامية للنهوض والوقوف فى وجه القوى الكبرى الّتى تتربص بهم الدوائر، إلى غير ذلك من الأُمور الّتى فيها خير وسعادة المسلمين كافة، فى عاجلهم وآجلهم .

يقول العالم الجليل السيد محمد علوى بن عباس المالكى المكى الحسنى: (۳۲۸)

«إنّنا نرى أنّ الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ليست له كيفية مخصوصة لا بد من الالتزام وإلزام الناس بها، بل إنّ كل ما يدعو إلى الخير ويجمع الناس على الهدى ويرشدهم إلى ما فيه منفعتهم فى دينهم ودنياهم، يحصل به تحقيق المقصود من المولد النبوى، ولذلك فلو اجتمعنا على شىء من المدائح الّتى فيها ذكر الحبيب ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وفضله، وجهاده، وخصائصه، ولم نقرأ قصة المولد النبوى الّتى تعارف الناس على قراءتها، واصطلحوا عليها حتّى ظن بعضهم أن المولد النبوى لا يتم إلاّ بها، ثم استمعنا إلى ما يلقيه المتحدثون من مواعظ وإرشادات، وإلى ما يتلوه القارىء من آيات ;أقول: لو فعلناه فإنّ ذلك داخل تحت المولد النبوى الشريف، ويتحقق به معنى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف، وأظنّ أنّ هذا المعنى لا يختلف فيه اثنان، ولا ينتطح فيه عنزان» انتهى(۱) . ومن المؤسف جداً أنّ الوهابية قامت بشن حملة شعواء على هذا الكتاب، ولم تراع أدب الكتابة والمناظرة إلى حد اعتراف الكاتب بأسوليه القاسى فى المحاورة، وينتهى فى خاتمة كتابه إلى قوله: «ونكرر أسفنا وتأثرنا من القسوة الّتى آثرنا أن يشتمل عليها أسلوبنا فى رد ترهاته، وأباطيله، ويعلم اللّه أن الباعث لهذا الأسلوب القاسى، الغيرة لحق اللّه(۲) . ويؤاخذ عليه أن الغيرة لحق اللّه يجب أن تكون فى إطار الأدب الّذى ندب إليه الذكر الحكيم وقال: (ادْعُ إلى سبِيلِ رَبِّكِ بِالحِكْمِةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ)(۳) . وكان الإمام أميرالمؤمنين علىّ ـ عليه السَّلام ـ يؤدب أصحابه عند مقابلة الشاتمين من الشاميين، من أصحاب معاوية القاسطين بقوله: إنِّى أَكْرَهُ لَكُمْ أن تَكُونُوا سَبَّابِينَ، وَلَكِنَّكُمْ لَو وَصَفْتُم أعْمَالَهُم وَذَكَرتُم حَالَهُمْ، كَانَ أصْوَبَ فى القَولِ، وأبلَغَ فِى العُذْرِ، وَقُلتُم مَكَانَ سَبِّكُمْ إيَّاهُمْ: اللّهُمّ احْقِن دِمَاءَنَا _____

۱ . حوار مع المالكى، تأليف عبداللّه بن سليمان بن منيع، ص ۱۶۸ .

۲ . حوار مع المالكى، ص ۱۹۰ .

۳ . سورة النحل: الآية ۱۲۵ . (۳۲۹)

وَدِمَاءَهُمْ، وَأَصْلِحْ ذَاتَ بَيْنِنَا وَبَيْنِهِم وَاهْدِهِم مِنْ ضَلاَلَتِهِمْ حَتّى يَعْرِفَ الحَقُّ مَنْ جَهِلَهُ، وَيَرعَوِىَ عَنِ الغَىِّ وَالعُدْوانِ مِن لهج به(۱) . الرابع: روى أهل السنة عن الإمام علىّ بن الحسين ـ عليه السَّلام ـ أنّ رجلا كان يأتى كل غداة فيزور قبر النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ويصلّى عليه، ويصنع من ذلك ما انتهره عليه علىّ بن الحسين ـ عليه السَّلام ـ فقال له: ما يحملك على هذا؟ قال: حبّ التسليم على النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ، فقال علىّ بن الحسين ـ عليه السَّلام ـ: هل لك أن أُحدّثك حديثاً عن أبى؟

قال: نعم، فقال له علىّ بن الحسين ـ عليه السَّلام ـ: أخبرنى أبى عن جدى أنه قال: قال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ: لا تجعلوا قبرى عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلّوا علىّ وسلّموا حيثما كنتم فسيبلغنى سلامكم وصلاتكم(۲) . ولو صحّ الحديث فلعل انتهاره كان لأجل أنّ الرجل زاد فى الحدّ وخرج عن الحد الأوسط، ولا صلة له بنفى الزيارة بتاتاً، كما لا صلة له بإقامة الاحتفال والذكريات . إنّ هذه الرواية ظاهرة فى أنه عليه الصلاة والسلام قد لاحظ أنّ ذلك الرجل قد ألزم نفسه بأمر شاق، وهو المجى، يومياً

للصلاة عليه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وزيارته، فأراد ـ عليه السَّلام ـ التخفيف عنه وإفهامه أنّ بإمكانه الصلاة و التسليم عليه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ حيثما كان، فسيبلغه ذلك، فلا داعى لإلزام نفسه بما فيه كلفة ومشقّة، ولم ينهه عن الصلاة والدعاء عند قبره ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ (۳) * * * * * _____

۱ . نهج البلاغه، الخطبة: ۲۰۶ .

۲ . رواه السبكى عن عبدالرزاق عن القاضى إسماعيل فى كتاب فضل الصلاة على النبى، بسنده إلى على بن الحسين ـ عليه السَّلام ـ ورواه عبدالرزاق فى مصنفه بسنده إلى الحسن بن على ;لاحظ شفاء السقام، ص ۲۸۰ ـ ۲۸۱ .

۳ . المواسم والمراسم: ص ۷۳ . (۳۳۰)

إلى هنا تمّ تبيين عقائد ابن تيمية ومحيى مسلكه ابن عبدالوهاب فبقى الإلماع إلى حياة المحيى وناصره، وهو ما سيوافيك فى البحث التالى . «والحمد لله رب العالمين» * * * * * (۳۳۱) محمد بن عبدالوهاب مؤسس الحركة الوهابية

نشأته ووفاته استشفاف بوادر الضلال من كلماته اتفاق الشيخ ومحمد بن سعود بدء الدعوة ونشرها صِدام بين ابن عبدالوهاب وأمير عيينة تكفير محمد بن عبدالوهاب جميع المسلمين حروبه مع المسلمين (۳۳۲) (۳۳۳)

تاريخ الوهابية

تاريخ الوهابية مؤسسها، ناصرها وتطورها

قد وقفت فى الفصول السابقة على العقائد الوهابية عن كثب، وأنها لم تكن شيئاً جديداً سوى ما ابتدعه أحمد بن تيمية فى القرن الثامن الهجرى وقد كاد أن يصير نسياً منسياً، ويذهب أدراج الرياح، غير أنّ بذورها لما كانت تقبع فى طيات كتبه ورسائله، قام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمى بتجديد العهد بها، وإحيائها مرة أُخرى بفضل سيف آل سعود فى الشطر الثانى من القرن الثانى عشر إلى أوليات القرن الثالث عشر الهجرى، أى من سنة ۱۱۶۰ إلى سنة ۱۲۰۷ هـ الّتى وافاه الأجل فيها، ثم تعاهد أبناؤه من بعده مع أبناء بيت قبيلة آل سعود فترة بعد فترة، على أن تكون الدعوة والإرشاد والتخطيط على أبنائه، والتطبيق والتنفيذ والسلطة على كاهل آل سعود، فلم تزل هذه المعاهدة باقية إلى يومنا هذا، غير أنها اتخذت فى هذه الآونة لنفسها شكلا آخر، وهو أن القوة والسلطة كانت فى بدء التأسيس آلة طيّعة بيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولكنه فى عصرنا هذا تبدلت رأساً على عقب، فأصبحت السلطة الدينية أداة طيعة فى يد آل سعود، يأتمرون بكل ما يلقى إليهم من البلاط السعودى والملك الحاكم من قبلهم على شبه الجزيرة العربية. وهذه إحدى الصور الّتى تحكى لنا عن تراجع الوهابية عن مبادئها الأولية الّتى قامت على أعتابها يوم تأسيسها، وسنوافيك بما يحكى لك المزيد من ذلك . (۳۳۴) نشأته ووفاته

اختلف المؤرخون فى عام ولادته ووفاته، فمن قائل(۱) بأنه ولد سنة ۱۱۱۱ هـ وتوفى عام ۱۲۰۷ هـ فيكون عمره ستاً وتسعين ;إلى آخر(۲) بانه ولد عام ۱۱۱۵ هـ وتوفى ۱۲۰۷ هـ فيكون قد ناهز إحدى وتسعين، نشأ وترعرع فى بلده «العيينة» فى نجد، وتلقى دروسه بها على رجال الدين من الحنابلة، ثم غادر موطنه ونزل المدينة المنورة ليكمل دروسه، يقول أحمد أمين المصرى: «سافر الشيخ إلى المدينة ليتم تعلمه، ثم طاف فى كثير من بلاد العالم الإسلامى، فأقام نحو أربع سنين فى البصرة، وخمس سنين فى بغدادن وسنة فى كردستان، وسنتين فى همدان، ثم رحل إلى إصفهان، ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوّف، ثم رحل إلى «قم» ثم عاد إلى بلده، واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة»(۳) . وقد ذكر كثير من المؤرخين تجواله وترحاله فى هذه البلاد، منهم عبد الرزاق الدنبيلى فى كتابه «مآثر سلطانية»(۴)، والشيخ أبو طالب الإصفهانى الّذى كان معاصراً للشيخ محمد بن عبدالوهاب، فقد ذكر سفر الشيخ إلى إصبهان وإلى أكثر بلاد العراق وإيران، حتّى إلى «غزنين» الّذى هو بلد فى أفغانستان(۵) .

استشفاف بوادر الضلال من كلماته

إنّ الإنسان مهما كان ذكياً مواظباً على ستر عقيدته لا يتمكن من إخفائها فی الفترة الّتی يكون فيها الوعی غائباً والذهن خاملا، وعند ذلك يبدو على صفحات وجهه وفلتات لسانه ما يكتمه ويخفيه فی الأوعية، قال أميرالمؤمنين ـ عليه السَّلام ـ : _____

۱ . زينی دحلان: الدرر السنية: ص ۴۲ طبع الآستانة وغيره .

۲ . أحمد أمين: زعماء الإصلاح فی العصر الحديث، ص ۱۰ بيروت، وقد أرّخ الآلوسی ولادته بـ ۱۱۱۱ هـ لكنه أرّخ وفاته بـ ۱۲۰۶ هـ .

۳ . نفس المصدر السابق: ص ۱۰ .

۴ . مآثر سلطانية: ص ۸۲ و...

۵ . ميرزا أبو طالب سفرنامه: ص ۴۰۹ و... (۳۳۵)

«ما أضمر أحد شيئاً إلّا فی ظهر فلتات لسانه وصفحات وجهه»(۱) وقد كان محمد بن عبدالوهاب ممن يتفرّس مشايخه وأساتذته فيه الضلال، حيث كان عندما يتردد إلى مكة والمدينة لأخذ العلم من علمائهما، وعندما كان يدرس على الشيخ محمد بن سليمان الكردی، والشيخ محمد حيات السندی كانا يتفرسان فيه الغواية والإلحاد، بل يتفرس غيرهما فيه مثل ذلك، وكان ينطق الكل بأنه سيضل اللّه تعالى هذا، ويضل به من أشقاه من عباده، حتّى أنّ والده عبدالوهاب ـ وهو من العلماء الصالحين ـ كان يتفرس فيه الإلحاد ويحذّر الناس منه، حتّى أنّ أخاه الشيخ سليمان ألف كتاباً فی الرد على ما أحدثه من البدع والعقائد الزائفة، وكان محمد بن عبدالوهاب بادیء بدء كما ذكره بعض المؤلفين مولعاً بمطالعة أخبار من ادّعى النبوة كاذباً كمسيلمة الكذاب وسجاح، والأسود العنسی، وطليحة الأسدی وأضرابهم(۲). يكتب ميرزا أبو طالب الإصفهانی وهو معاصره ويقول: أخذ فی أول أمره عن كثير من علماء مكة والمدينة، وكانوا يتفرسون فيه الضلال والإضلال، وكان والده عبدالوهاب من العلماءالصالحين، وكان يتفرس فيه ذلك ويذمه كثيراً، يحذر الناس منه، وكذا أخوه سليمان بن عبد الوهاب أنكر عليه ما أحدثه، وألف كتاباً فی الرد عليه، وكان فی أول أمره مولعاً بمطالعة أخبار مدّعی النبوة كمسيلمة و...»(۳) . لو صحّ هذا فهو يعرب عن أنّ محمد بن عبدالوهاب كان يضمر فی مكامن ذهنه شيئاً يشاكل فعل هؤلاء المتنبئين، فصبّ ما أضمره فی الدعوة الجديدة إلى التوحيد، وعاد يكفّر رجال الدين عامة فی كافة العصور، وينسبهم إلى الجهل والضلال، وهذه سمة المبتدعين عامة. انتقال عبد الوهاب إلى «حريملة»

ترك أبوه «العيينة» ونزل بلدة «حريملة» وبقی فيها إلى أن وافته المنيّة _____

۱ . نهج البلاغه، قسم الحكم ۲۶۰ .

۲ . صدقی الزهاوی: الفجر الصادق ص ۱۷ والسيد أحمد زينی دحلان: فتنة الوهابية ص ۶۶ .

۳ . ميزرا أبو طالب: سفرنامه، ص ۴۰۹ . (۳۳۶)

سنة ۱۱۴۳(۱) ولم يكن راضياً عن ابنه، وطالما زجره ونهاه، ولمّا توفّی الوالد تجرّأ عليه أهل «حريملة» وهمّموا بقتله، فلم يجد بداً من الهرب إلى «العيينة» وهی مسقط راسه ودار نشأته، وقد تعاهد هو وأميرها «عثمان بن معمر» على أن يشد كلٌّ أزر الآخر، فيترك الأمير للشيخ الحرية فی إظهار الدعوة والعمل على نشرها، لقاء أن يقوم محمد بن عبد الوهاب بدوره بشتى الوسائل لسيطرة الأمير على نجد بكاملها، وكانت يومذاك موزعة إلى ست أو سبع إمارات منها إمارة العيينة(۲) ولكن لكی تقوى الروابط بين الاثنين زوّج الأمير أُخته «جوهرة» من الشيخ، فقال له الشيخ: «إنی لآمل أن يهبك اللّه نجداً وعربانها»(۳) . هكذا بدأ التآلف بين الشيخ والأمير، واحدة بواحدة... مساومة ثم أخذ وعطاء، والثمن هو الدين والشعب، أمّا زواج الشيخ من «جوهرة» فتثبيت للتحالف، وضمان للوفاء... لقد سخر محمد بن عبد الوهاب الدين لأجل الدنيا، وتطوع لتعزيز حكمه دون أن يكون على يقين من عدله، أو يأخذ منه موثقاً لتحسين الأوضاع وراحة الناس، والعمل للصالح العام، بل على العكس، فقد وعده بملك نجد وعربانها... ولكن لا بالاقتراح وحرية تقرير المصير، بل بالحرب والغزو وبأشلاء الضحايا(۴) . أبعد ذلك يصحّ أن يعدّ الشيخ من المصلحين المجددين، وممّن له رسالة إنسانية كما عدّه نفر منهم أحمد أمين فی كتابه زعماء الإصلاح فی العصر الحديث، ومهما كان فإنّ التحالف بين الشيخ والأمير لم يطل عمره

ولم يتم أمره، وما تمخّض إلّا عن زواج الشيخ بجوهرة، وهدم قبر زيد بن الخطاب، وإثارة الفتن والقلاقل فقط ـ لم يطل عمر التحالف بين ابن عبد الوهاب والأمير ابن معمر ـ لأنّ سليمان الحميدى صاحب الأحساء والقطيف أمر عثمان بن معمر ـ وكان أقوى منه ـ أن يقتل الشيخ . _____

۱ . محمد جواد مغنية: هذه هى الوهابية ص ۱۱۱ .

۲ . الآلوسى ـ السيد محمود: تاريخ نجد، ص ۱۱ .

۳ . فيلبى ـ عبداللّه: تاريخ نجد، ص ۳۶ .

۴ . مغنية ـ محمد جواد: هذه هى الوهابية ص ۱۱۲ . (۳۳۷)

يقول عبداللّه فيلبى فى تاريخ نجد: «قرر عثمان أن يتخلص من ضيفه، فطلب منه أن يختار المكان الّذى يريد الذهاب إليه، فاختار «الدرعية»، فأرسل عثمان معه رجلا اسمه فريد: وكلفه أن يقتل ابن عبد الوهاب فى الطريق، ولكن فريداً خذلته إرادته، وترك الشيخ وقفل راجعاً دون أن يمسه بسوء(۱) . ويذكر السيد محمود شكرى الآلوسى انتقال الشيخ من «عينية» إلى «حريملة» نحو ما مرّ ويزيد: خرج إلى «الدرعية» سنة: ۱۱۶۰ هـ وهى بلاد مسيلمة الكذاب(۲) . اتفاق الشيخ ومحمد بن سعود

ورد الشيخ إلى الدرعية فى العام الّذى عرفت، وكان أميرها آنذاك محمد بن سعود جد السعوديين، وتمّ الاتفاق بين الأمير والشيخ على غرار ما كان قد تمّ بينه وبين ابن معمر فى «العيينة»، فقد وهب الشيخ نجد وعربانها لابن سعود، كما وهبهما من قبل لابن معمر، ووعده أن تكثر الغنائم عليه والأسلاب الحربية الّتى تفوق ما يتقاضاه من الضرائب(۳) على أن يدع الأمير للشيخ ما يشاء من وضع الخطط لتنفيذ دعوته . وتقول الرواة: إنّ الأمير سعود بايع محمد بن عبد الوهاب على القتال فى سبيل اللّه... ومعلوم انهما لم يفتحا بلداً غير مسلم فى الشرق أو فى الغرب، وإنما كانا يغزوان ويحاربان المسلمين الذين لم يدخلوا فى طاعة ابن سعود، ولأجل ذلك قال الأمير لابن عبدالوهاب: «أبشر بالنصر لك ولما أمرت به، والجهاد لمن خالف التوحيد، لكن أُريد أن اشترط عليك اثنين: أولا: إذا قمنا بنصرتك وفتح اللّه لنا ولك، أخشى أن ترحل عنّا وتستبدل بنا غيرنا فعاهده الشيخ أن لا يفعل . _____

۱ . فيلبى ـ عبداللّه: تاريخ نجد، ص ۳۹۰ ط المكتبة الأهلية بيروت .

۲ . كشف الارتياب ص ۱۳ ـ ۱۴ نقلا عن كتاب تاريخ نجد لمحمود شكرى الآلوسى .

۳ . فيلبى: تاريخ نجد ص ۳۹ . (۳۳۸) ثانياً: إنّى أتقاضى من أهل «الدرعية» مالا وقت الثمار، وأخاف أن تمنع ذلك، فقال الشيخ: لعل اللّه يفتح الفتوحات فيعوضك اللّه من الغنائم ما هو أعظم منها»(۱) .

وعلى هذا تم الاتفاق بين أمير «الدرعية» والشيخ . إنّ بعض المستشرقين مثل «فيليب حتّى»(۲) و «جولد تسيهر»(۳) وغيرهما يذكرون أنه قد تقوّت الروابط بين الاثنين بمثل ما تقوّت بينه وبين أمير «عيينة» وزوّج محمد بن سعود ابنه عبدالعزيز من إحدى بنات محمد بن عبد الوهاب، ولا يزال العهد بين آل سعود وعائلة عبد الوهاب مستمراً إلى يومنا هذا، وإن اختلف مضمومنه مع استمرار التزاوج على نطاق وسيع(۴) . بدء الدعوة نشرها

شعر محمد بن عبد الوهاب بقوته عن طريق هذا التحالف الجديد، وأن الامارة السعودية اصبحت تناصره وتؤازره، فلأجل ذلك جمع الشيخ أنصاره وأتباعه وحثهم على الجهاد، وكتب إلى البلدان المجاورة المسلمة أن تقبل دعوته، وتدخل فى طاعته، وكان يأخذ ممن يطيعه عشر المواشى والنقود والعروض، ومن أبى غزاه بانصاره، وقتل الأنفس ونهب الأموال، وسبى الذرارى، وكان شعارهم: «ادخل فى الوهابية وإلّا فالقتل لك، والترمّل لنسائك، واليتم لأطفالك» هذا هو بالذات مبدأ الوهابية الّذى لا تتنازل عنه لأية مصلحة، ومن أجله تحالف مع ابن معمر فى «العيينة»، ثم مع ابن سعود فى «الدرعية»، وكان على أتم استعداد أن يتحالف مع أية قوة يستعين بها على ذلك(۵) . _____

۱ . أبو علية ـ عبد الفتاح: محاضرات فى تاريخ الدولة السعودية الأولى ص ۱۳ ـ ۱۴ .

۲ . فیلیب حتّی: تاریخ العرب ج ۲ ص ۹۲۶ المترجم إلی الفارسیة .

۳ . العقیدة والشریعة فی الإسلام ص ۲۶۷ ط مصر الطبعة الثانیة .

۴ . جبران شامیة: آل سعود ماضیهم ومستقبلهم، ط الریاض ص ۲۳.

۵ . محمد جواد مغنیة: هذه هی الوهابیة، ص ۱۱۴ . (۳۳۹)

کان الشیخ یغزو بأنصاره وأتباعه عربان نجد، یسلبونهم مصدر حیاتهم، ثم ینتقلون إلی الدرعیة بعد أن یترکوا وراءهم أشلاء الضحایا، والخرائب والأرامل والأیتام، ویوزع الشیخ علیه أربعة أخماس الغنائم والأسلاب من المسلمین الآمنین، ویخص الخمس بالخزینة الّتی یشرفون علیها هو و الأمیر السعودی . یقول عبداللّه فیلبی فی تاریخ نجد: «وقد أدخل الإمام فی عقول طلابه مبادیء فریضة الجهاد المقدس، فوجد الکثیر منهم فی الجهاد أقدس تعالیمه، إذ أنه یتفق مع ما اعتاد علیه العرب - یرید أنّ العرب قد اعتادوا علی السلب والنهب ـ ، کما خصص الشیخ خمس الأسلاب لخزینته المرکزیة الّتی کان الأمیر والإمام یتقاضیان منها ما یقوم بأودهما... وهکذا کان سلطان الشیخ فی تصرف شؤون البلاد بعد مرور سنة أو سنتین، وقد أصبح شریکاً مؤسساً. الوهابیة أو السیف

ربما یستغرب القاریء عند ما یسمع أنّ الوهابیة تحصنت فی بدء دعوتها بهذا الشعار، وطبقته فی حیاتها سنین، ولکنه لعمر اللّه حقیقة لامریة فیها، فقد ارتفع صرح الإمارة السعودیة یوم انتشارها إلی العصر الحاضر علی هذا الأصل، فإن السعودیة آنذاک ویوم تعاهدها مع محمد بن عبدالوهاب تعیش حیاة البؤس، ولم یکن ابن سعود متمکناً حتّی من تأمین الأغذیة لأعز تلامیذ محمد بن عبد الوهاب، الّذی یمارس تأثیره بقوة الإقناع فقط(۱) . وبعد أُولی غزوات الدرعیین علی جیرانهم، وزعت الغنائم بالعدل طبقاً لأحکام الوهابیة: الخمس لابن سعود، والباقی للجند ;ثلث للمشاة، وثلثان للخیالة ;وکان التمسک بالوهابیة یکافأ مادیاً، وإذا کان الغزو فی السابق مجرد حملة شجاعة، فقد تحول الآن إلی انتزاع أموال المشرکین! وإحالتها إلی المسلمین الحقیقیین! _____

۱ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ۱ ص ۱۳ . (۳۴۰) صِدام بین ابن عبد الوهاب وأمیر «العیینة»

قد تعرفت أنّ التحالف بین الشیخ وأمیر «العیینة» لم یلبث إلّا برهة قلیلة، وأنه اعتذر عن ضیفه وسمح له أن یغادر الامارة ویذهب إلی أیة نقطة شاء، ولما التحق محمد بن عبدالوهاب بأمیر «الدرعیة» وبزغ نجمه، أحسّ عثمان بن معمر أمیر «العیینة» بتمخض خطر من جانب السعودیین، فلم یجد مناصاً من إظهار التودد والمداراة معهم، إلی أن انتهی به الأمر إلی تزویج ابنته من ابن عبد العزیز بن محمد بن سعود، الّذی بلغ الوهابیون فی عهده أوج قوتهم(۱). إلّا أنّ العداء حتّی الموت بین الأقارب ظاهرة عادیة تماماً فی الجزیرة العربیة، فلا داعی للدهشة من تطور الأحداث لاحقاً، وکان لموقف محمد بن عبد الوهاب ـ الّذی لم ینس أنّ أمیر «العیینة» نفاه منها ـ أهمیة حاسمة فی التنافس بین حکام «الدرعیة» و «العیینة»، فلم یلبث إلّا یسیراً حتّی اتّهم أمیر «العیینة» بأنه أجری مراسلات سریة مع حاکم الأحساء «محمد بن عفالق» وأعد العدة للخیانة(۲) . ـ ولأجل ذلک ـ أرسلوا بعض المرتزقة، ومنهم حمد بن راشد، وإبراهیم بن زید إلی عثمان بن معمر حاکم «العیینة» فاغتالوه أثناء أدائه لصلاة الجمعة . ومما جاء فی کتاب أصدره آل سعود وآل الشیخ تحت عنوان: تاریخ نجد، ونقله عن رسائل محمد بن عبدالوهاب، الشیخ حسین بن غنا، وأشرف علی طباعته عبدالعزیز بن باز مفتی الدیار السعودیة، العبارة التالیة: إنّ عثمان بن معمر مشرک کافر، فلمّا تحقق أهل الاسلام من ذلک تعاهدوا علی قلته بعد انتهائه من صلاة الجمعة، وقتلوه وهو فی مصلاه بالمسجد فی رجب سنة ۱۱۶۳ هـ وفی الیوم الثالث من مقتله جاء محمد بن عبدالوهاب إلی «العیینة» وعین علیهم مشاری بن معمر، وهو من أتباع محمد بن عبد _____

۱ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ۱ ص ۲۳ .

۲ . فاسیلیف: فصول من تاریخ العربیة السعودیة - ص ۲۸ . (۳۴۱)

الوهاب (۱) . هکذا کانوا یحکمون علی الموحدین المصلین فی محراب العبادة بالشرک والخروج عن التوحید «وما نقموا منهم» «إلّا أن قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا» ولم یخضعوا للسلطة الّتی أسسها محمد بن عبد الوهاب . ثم إنّ محمد بن عبد الوهاب نحّی «مشاری»

عن منصة الحكم وأسكنه «الدرعية» مع عائلته، وعين شخصاً آخر للشغال الحكم، حتّى يكون الحاكم أطوع له كطوع الظل لذى الظل، ولم يكتف بذلك حتّى جاء إلى قصر آل معمر وأمر بتدميره(۲) . إنّ هذه العلمية تسفر عن عقيدة محمد بن عبد الوهاب فی حق عامة أهل نجد دون استثناء، لأنه لو كان ابن معمر كافراً فقد كان سكنة نجد كلهم على دينه، فهم حينئذ كفرة تباح دماؤهم ونساؤهم وممتلكاتهم، والمسلم هو من آمن بالطريقة التی يسير عليها محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود(۳) . لم يبرح زمن على سلطة آل سعود على «العيينة» حتّى ثاروا على النظام الّذی فرض عليهم من جانب محمد بن عبدالوهاب، ولكن لم يكتب لانتفاضتهم النجاح، فعاد السعوديون إلى «العيينة» فدمّروا البلد على آخره، فهدموا الجدران، وردموا الآبار، وأحرقوا الأشجار، واعتدوا على أعراضهم وبقروا بطون الحوامل من النساء، وقطعوا أيدى الأطفال، وأحرقوهم بالنار، وسرقوا المواشی وكل ما فی البيوت، وقتلوا كل الرجال . هكذا خربت «العيينة» وما زالت مخروبة منذ عام ۱۱۶۳ هـ حتّى يومنا هذا، وما زالت الوهابية يبررون أعمالهم بما قاله محمد بن عبد الوهاب: إنّ اللّه سبحانه وتعالى قد صبّ غضبه على العيينة وأهلها وأفناهم تطهيراً لذنوبهم، وغضباً على ما قاله حاكم العيينة، عثمان بن معمر، فقد قيل لحاكمها _____

۱ . تاريخ نجد، ص ۹۷ .

۲ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ۱ ص ۴۳ ـ ابن غنام: تاريخ نجد، ج ۲ ص ۵۷ .

۳ . تاريخ نجد، ص ۹۸، ۹۹، ۱۰۰، ۱۰۱ . (۳۴۲)

بأن الجراد آت إلى بلادنا و نحن نخشى أن يأكل الجراد زراعتنا، فأجاب الحاكم ساخراً من الجراد: سنخرج على الجراد دجاجاً فتأكله، وبهذا غضب اللّه سبحانه لسخرية الحاكم بالجراد، وهو آية من آيات اللّه لا يجوز السخرية منها، ولهذا أرسل اللّه الجراد على بلدة العيينة فأهلكها عن آخرها(۱) . نحن نفترض أنّ أمير العيينة استهزأ بآية من آيات اللّه فكفر، فيجب ضرب عنقه بسيف الجلادين، فهل كفر الآخرون، وهل تزر وازرة وزر أُخرى، وما هی إلّا خدعة يمّوه بها الأمر على الصبيان وأشباههم. فلما قضى محمد بن عبد الوهاب وآل سعود على مناوئيهم فی المنطقة، قويت الإمارة السعودية من طريق الدين باتّباعها محمد بن عبدالوهاب، وقويت دعوة ابن عبد الوهاب بطريق السيف باتّباع ابن سعود له وانتصاره به، فكان ابن سعود الأمير الحاكم، وابن عبد الوهاب الزعيم الدينی، وصارت ذرية كل منهما تتولى مرتبة سلفها. لقد قوّى انتصار القبيلة السعودية على حاكم «العيينة» عزيمتهم على توسيع نطاق حكومتهم، مغبة أمر محمد بن عبد الوهاب بالجهاد وحث اتباعه عليه، وأول جيش تم تأليفه له من سبع ركائب(۲) ومعلوم أنّ هذه الجيوش والركائب لم تغز بلاد الكفار والمشركين، ولا الرومان، وإنما غزوا بلاد المؤمنين، بلاد القائلين بـ (لا إله إلّا اللّه، محمد رسول اللّه ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ) ولما أحس ابن عبد الوهاب بسلطة وقدرة، كتب إلى أهل نجد (وهم المسلمون بزعمهم) على الدخول فی مذهب التوحيد، فأطاع بعضهم بينما امتنع آخرون، فأمر أهل «الدرعية» بالقتال، فأجابوه وقاتلوا معه أهل نجد والأحساء مراراً، حتّى دخل بعضهم فی طاعته طوعاً أو كرهاً، وصارت جميع إمارة نجد لآل سعود بالقهر والغلبة»(۳) . _____

۱ . ناصر السعيد: تاريخ آل سعود، ص ۲۲ ـ ۲۳ .

۲ . محمد جواد مغنية: هذه هی الوهابية، ص ۱۱۷ نقلا عن ابن بشر عثمان، عنوان المجد فی تاريخ نجد .

۳ . السيد محسن الأمين: كشف الارتياب ص ۱۳ ـ ۱۴ نقلا عن كتاب تاريخ نجد لمحمود شكرى الآلوسی . (۳۴۳) سراب لا ماء

قد كان اللحركة الوهابية فی عصر مؤسسها صدى ودوى، والقريب منها يستشف الحقيقة عن كثب، ويرى أنها قد بنيت على القتل الذريع، والسفك المروع، وأن محمد بن عبدالوهاب يهتف بأنه لا عدل ولا سلم، ولا رحمة، ولا إنسانية، ولا حياة، لا شیء أبداً إلّا الوهابية أو السيف . وهذه السنّة الّتی استنّها محمد بن عبدالوهاب يتحمل وزرها منذ يومه إلى يوم القيامة، لأنها كماترى دعوة تقوم على الحرب والضحايا، وتتطبع بطابع الدم والفوضى، ويكفی فی ذلك قول أخيه الشيخ سليمان بن عبدالوهاب فی كتاب الصواعق الإلهية مخاطباً لأخيه وأتباعه: «فانتم تكفّرون بأقل القيل والقال، بل تكفّرون بما تظنون أنتم أنه كفر، بل تكفّرون بصريح الإسلام، بل

تكفّرون من توقف عن تكفير من كفّرتموه»(۱) . ولم يكن أخوه فريداً فى القضاء، فقد رجع عن طريقته بعض المنصفين المنخدعين بدعوته، وهذا هو السيد محمد بن إسماعيل الأمير لمّا بلغه من أحوال الشيخ النجدى، الدعوة إلى التوحيد، فأنشا قصيدته المشهورة: سلام على نجد ومن حلّ فى نجد * وإن كان تسليمى على البعد لا يجدى ثم حقق الأحوال من بعض من وصل إلى اليمن، ووجد الأمر على عكس ما روى له، فأنشأ يقول فى قصيدته ثانياً عما قاله أولا: رجعت عن القول الّذى قلت فى نجد * فقد صحّ لى عنه خلاف الّذى عندى حكى عن محمد بن إسماعيل أنه قال فى شرح القصيدة المذكورة المسماة بـ«محو الحوبة فى شرح أبيات التوبة»: لمّا بلغت قصيدتى الأُولى نجداً التى مدحت فيها الحركة الوهابية، جاء إلينا بعد أعوام رجل كان يعرّف نفسه بـ«الشيخ مربد بن أحمد التميمى» وذلك فى صفر سنة ألف ومائة وسبعين، _____

۱ . الصواعق الإلهية، ص ۲۷ ـ ۲۹، ط ۱۳۰۶ . (۳۴۴)

وحمل بعض كتب ابن تيمية وابن القيم بخطه، ثم عاد إلى وطنه فى شوال تلك السنة، وكان من تلاميذ ابن عبد الوهاب الّذى وجهنا إليه القصيدة، وقد قدم إلينا قبله الشيخ الفاضل عبد الرحمان النجدى، ووصف لنا من حال ابن عبد الوهاب أشياء أنكرناها عليه من سفك الدماء ونهب الأموال والتجرى على قتل النفوس، ولو بالاغتيال، وتكفيره الأُمة المحمدية فى جميع الأقطار، فبقى فينا تردد فيما نقله ذلك الشيخ، حتّى قدم إلينا الشيخ «مربد» وله نباهة، ومعه بعض رسائل ابن عبدالوهاب الّتى جمعها فى وجه تكفير أهل الإيمان، وقتلهم ونهبهم، وحقق لنا أحواله، فعرفنا أحوال رجل عرف من الشريعة شطراً ولم يمعن النظر ولا قرأ على من يهديه نهج الهداية، ويدله على العلوم النافعة ويفقّهه، بل طالع بعض مؤلفات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقلدهما من غير إتقان، مع أنهما يحرمان التقليد(۱) . يقول العلامة السيد محسن الأمين العاملى: هذا يدل على أن محمد بن إسماعيل رجع عن مغالاته فى التوهب، ولعل رجوعه كان بعد تأليفه رسالة «تطهير الإعتقاد عن أدران الإلحاد» فإنّ تلك الرسالة لا تقصر عن كتب ابن عبدالوهاب فى المغالاة(۲) .

أهل البيت أدرى بما فيه

هذه لمحة خاطفة عن حياة محمد بن عبدالوهاب، جئنا بها ليكون القارىء الكريم على اطلاع بحقيقة حاله على جهة الإجمال، ولكن هناك الكثير الكثير فى الزوايا والخبايا ذكرت فى تاريخ حياته أغفلنا ذكرها روما للاختصار، ولكن ما يجب ذكره فى المقام كلمة أخيه فى حقه، وهو من أهل بيته وأدرى بحاله منّا ومن كل كاتب. يقول فى كتاب أسماه «الصواعق الإلهية» رداً على آراء أخيه: «فإنّ اليوم ابتلى الناس بمن ينتسب إلى الكتاب والسنة، ويستنبط من علومهما، ولا يبالى من خالفه . _____

۱ . كشف الارتياب، ص ۸ .

۲ . السيد محسن: كشف الارتياب: ص ۱۶ - ۱۹ . (۳۴۵)

وإذا طلبت منه أن يعرض كلامه على أهل العلم لم يفعل، بل يوجب على الناس الأخذ بقوله وبمفهومه، ومن خالفه فهو عنده كافر، هذا وهو لم تكن فيه خصلة واحدة من فعال أهل الاجتهاد ولا واللّه، ولا واللّه عشر واحدة، ومع هذا فراج كلامه على كثير من الجهّال، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون، الأُمة كلها تصيح بلسان واحد، ومع هذا لا يرد لهم فى كلمة بل كلهم كفار وجهال! أللّهمّ اهد هذا الضال وردّه إلى الحق...»(۱) ويقول ايضاً: إنّ هذه الأُمور (الّتى يكفر بها محمد بن عبد الوهاب) حدثت من قبل زمان الإمام أحمد فى زمن أئمة الإسلام، حتّى ملأت بلاد الإسلام كلها، ولم يُرْوَ عن أحد من أئمة المسلمين أنهم كفّروا بذلك، ولا قالوا هؤلاء مرتدون، ولا أمروا بجهادهم، ولا سموا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم، بل كفّرتم من لم يكفر بهذه الأفاعيل وإن لم يفعلها، وتمضى قرون على الأئمة من ثمانمائة عام، ومع هذا لم يُرْوَ عن عالم من علماء المسلمين أنه كفر، بل ما يظن هذا عاقل، بل واللّه لازم قولكم أن جميع الأُمة بعد زمان الإمام أحمد ـ رحمة اللّه تعالى ـ، علماؤها وأُمراؤها وعامتها كلهم كفار مرتدّون، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون، واغوثاه إلى اللّه! ثم واغوثاه أن تقولوا كما يقول بعض عامتكم إنّ الحجة ما قامت إلاّ بكم، وإلاّ قبلكم لم يعرف دين الإسلام(۲) . وهذه العبارة من أخيه صريحة فى أنه كان يكفّر جميع طوائف المسلمين، ويعتبر بلادهم بلاد حرب . تكفير محمد بن

عبد الوهاب جميع المسلمين

ولعلّ القارىء ينتابه الاستغراب مما نسبه إليه أخوه، ولكنه إذا رجع إلى مبادىء دعوته يسهل له التصديق بالنسبة، وإليك خلاصة رسالته تحت أربع قواعد: _____

١ . سليمان بن عبدالوهاب النجدى: الصواعق الإلهية، ص ٣ ـ ۴ .

٢ . نفس المصدر السابق، ص ٣٨ . (٣۴۶) الأُولى: إنّ الكفار الذين قاتلهم رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ مقرّون بأنّ (اللّه) هو الخالق الرازق المدبر، ولم يدخلهم ذلك فى الإسلام لقوله تعالى: (قُلْ مَنْ يَرزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأرضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأبصَارَ... فَسَيَقُولُونَ اللّه فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ)(١) . الثانية: إنهم يقولون: ما دعونا الأصنام وما توجهنا إليهم الاّ لطلب القرب والشفاعة لقوله تعالى: (الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَولِياءَ مَا نَعْبُدُهُم اِلاّ لِيُقَرِّبُونا إلى اللّه زُلفَى)(٢). وقوله: (وَيَعْبُدونَ مِنْ دُونِ اللّه مَالا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُم وَيَقُولُونَ هَؤلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّه)(٣) . الثالثة: إنّه ظهر (صلّى اللّه عليه وآله) على قوم متفرقين فى عبادتهم، فبعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم الأنبياء والصالحين، وبعضهم الأشجار والأحجار، وبعضهم الشمس والقمر، فقاتلهم ولم يفرق بينهم. الرابعة:إنّ مشركى زماننا أغلظ شركاً من الأولين، لأن أولئك يشركون فى الرخاء، ويخلصون فى الشدة، وهؤلاء شركهم فى الحالتين لقوله تعالى: (فَإذا رَكِبُوا فِى الفُلْكِ دَعَوا اللّهَ مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُم إلَى البَرِّ إذا هُمْ يُشْرِكُونَ)(۴) .

وهو لا يريد من قوله «إنّ مشركى زماننا أغلظ شركاً...» إلاّ المسلمين عامة، وذلك لأنهم يتوسلون بالنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى شدتهم ورخائهم، ولذلك صاروا عنده أغلظ من مشركى عهد الرسالة . ومما يؤخذ عليه فيما ذكره فى القاعدة الثانية، وهى المحور الرئيس للضلالة، أنّ هناك فرقاً جلياً بين المسلمين وعبدة الأوثان والأصنام، فإنّ _____

١ . سورة يونس: الآية ٣١ .

٢ . سورة الزمر: الآية ٣ .

٣ . سورة يونس: الآية ١٨ .

۴ . محمد بن عبد الوهاب: رسالة أربع قواعد ص ١ - ۴ ط مصر المنار، سورة العنكبوت: الآية ۶۵ . (٣۴٧)

المسلمين يعبدون اللّه وحده، ولا يتوجّهون إلى النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ إلاّ بقصد أن يدعو لهم عند اللّه، ويشفع لهم عنده، وأين هو من عبدة الطاغوت الذين كانوا يعبدون الأصنام ولا يعبدون اللّه، ويتوجهون إليها على أنها آلهة تملك ضرهم ونفعهم، وما هذه إلاّ مغالطة مفضوحة، وقد تكررت هذه الظاهرة فى أكثر رسائله وكتبه، فإليك نتفاً منها فى كتابه الآخر المسمى بكشف الشبهات الّذى فرض تدريسه على علماء الحرمين فى بعض الفترات الّتى شهد لها التاريخ، حيث يقول فى حق النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ : ١- «أرسله إلى أُناس يتعبّدون ويحجّون ويتصدقون ويذكرون اللّه كثيراً، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات بينهم وبين اللّه، يقولون نريد منهم التقرب إلى اللّه، ونريد شفاعتهم عنده، مثل الملائكة و عيسى و مريم وأُناس غيرهم من الصالحين(١) . وفى هذه العبارة من المغالطة مالا يخفى، فقد حاول تزييف الحقيقة وقال: ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين اللّه، فقد ركز على التوسيط، مع أنهم عبدوهم أولا، واتخذوهم وسائط ثانياً، فالممنوع هو عبادة الغير لا توسيطه، فالشيخ يركز على مجرد الوساطة الّتى ليست ملاكاً لشركهم، ويترك ما هو الملاك لكفرهم، أعنى عبادتهم. وعمل المسلمين على اتخاذ الوسيلة لا على عبادتها . ٢- يقول فى موضع آخر ما نصه: «إنّ التوحيد الّذى جحدوه هو توحيد العبادة، الّذى يسميه المشركون فى زماننا الاعتقاد، كما كانوا يدعون اللّه سبحانه ليلا و نهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من اللّه ليشفعوا له، أو يدعو رجلا صالحاً مثل اللات، أو نبياً مثل عيسى(٢) . فتراه كيف يستر الحقيقة فيقول: «ثم منهم من يدعو الملائكة أو يدعو _____

١ . كشف الشبهات: ص ٣ .

٢ . محمد بن عبدالوهاب: كشف الشبهات، ص ۴، ط مصر بتصحيح محب الدين الخطيب . (٣۴٨)

رجلا صالحاً فیرکز علی الدعوة الّتی هی أعم من العبادة، مع أنّ منهم من یعبد الملائکة، أو یعبد رجلا صالحاً، ولیس کلّ دعوة عبادة، وإلّا فلا یوجد فوق البسیطة من یصحّ تسجیل اسمه فی دیوان الموحدین، والرجل لأجل إثبات أنّ المسلمین فی دعوة النبی والصالحین کهؤلاء المشرکین فی عبادة الملائکة والصالحین، یرکز علی کلمة «یدعو» ویترک کلمة «یعبد» فهناک فرق بین الدعوة والعبادة، ولیس کل دعوة عبادة، ولا کل عبادة دعوة، بل بینهما من النسب عموم و خصوص من وجه، فلو کانت الدعوة تنبثق من ألوهیة المدعو وربوبیته فتتّسم بالعبادة، ولو کان انبثاقها من أنه عبد من عباد اللّه ولکنه عبد عزیز عند اللّه تستجاب دعوته إذا دعا، فلا تکون الدعوة عبادة، بل یدور الأمر بین کونه مفیداً إذا کان مستجاب الدعوة، وغیر مفید، إذا لم یکن کذلک . ۳- یقول أیضاً: «تحققت أنّ رسول اللّه قاتلهم لیکون الدعاء کله للّه، والذبح کله للّه، والنذر کله للّه، والاستغاثة کلها باللّه» . أمّا کون الدعاء کله للّه فإن کان المراد به العبادة فلا غبار علیه، والمسلمون علی هذا عن بکرة أبیهم، وإن کان المراد هو القسم الّذی لا یراد به العبادة فلیس بمنحصر فی اللّه، وما أکثر دعاء إنسان لإنسان وهذا هو الدعاء ورد فی القرآن الکریم فی غیر مورد العبادة. قال سبحانه: (قَالَ رَبِّ إِنِّی دَعَوْتُ قَوْمِی لَیلا وَنَهَاراً)(۱) .

وأمّا النذر فلا شک أنّ المسلمین ینذرون للّه سبحانه، ویذکرون لفظ الجلالة فی إنشاء صیغته الدالة علیه، وقد أسهبنا القول فی ذلک فیما مضی، والشیخ خلط بین اللام للغایة واللام للانتفاع، فلو استعملت فی بعض الموارد لفظة اللام فإنما یراد منه الانتفاع، فلو قیل هذا نذر للنبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ أو للروضة المبارکة، فالمراد هو إهداء ثوابه إلی النبی ـ صلّی الله علیه وآله وسلم ـ أو انتفاع الروضة به .

۱ . سورة نوح: الآیة ۵ . (۳۴۹)

۴- ویقول أیضاً: «إنّ المشرکین یقرّون بالربوبیة وإن کفرهم بتعلقهم علی الملائکة والأنبیاء» . یؤاخذ علیه أن کفرهم إنما لعبادتهم الملائکة والأنبیاء لا لتعلقهم بها إذ لیس مجرد التعلق مع الاعتراف بعبودیتهم وعدم تفویض الأمر إلیهم موجباً للتکفیر . ۵- ویقول أیضاً: «إنّ الذین قاتلهم رسول اللّه مقرّون بأن أوثانهم لا تدبّر شیئاً وإنما أرادوا منها الجاه والشفاعة»(۱). فتری أنه کیف یقلب الحقیقة، فلم یکن تکفیره لهم لأجل طلب الشفاعة، بل لعبادتهم أولا، ثم طلب الشفاعة منهم ثانیاً، قال سبحانه: (وَیَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّه مَا لاَ یَضُرُّهُمْ وَلاَ یَنْفَعُهُم وَیَقُولُون هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّه)(۲) .

۶- ویقول: «إنّ اللّه کفّر من قصد الأصنام، وکفّر من قصد الصالحین، وقاتلهم رسول اللّه» . کلاّ إنّ رسول اللّه کفّر من عبد الصالحین، لا من قصدهم، فمن قصد الصالحین لطلب العلم والمال والدعاء لا یکون کافراً . ۷- ویقول أیضاً ـ وهو یعلّم أتباعه کیف یناظرون المخالف ـ : اقرأ علیه: (ادعوا ربّکم تضرعاً وخفیةً إنه لا یحبّ المعتدین) فإذا أعلمته بهذا فقل له: هل علمت هذا عبادة للّه؟ فلا بد أن یقول نعم، والدعاء مخ العبادة، فقل له: إذا أقررت أنها عبادة، ثم دعوت تلک الحاجة نبیاً أو غیره، هل أشرکت فی عبادة اللّه غیره؟ فلابد أن یقول نعم»(۳) .

۱ . نفس المصدر السابق، ص ۶ .

۲ . سورة یونس: الآیة ۱۸ .

۳ . نفس المصدر السابق . (۳۵۰)

والمغالطة فی کلامه واضحة، فإنّ الدعاء فی قوله: «ادعوا ربکم» مساوق للعبادة لا بمعنی أن الدعاة بمعنی العبادة، بل معناه أن الدعوة إذا انبثقت من الاعتقاد بالألوهیة والربوبیة تصیر مصداقاً للعبادة، وجزءاً من جزئیاته، کما أن المراد من قوله: «والدعاء مخ العبادة» هو أن الدعاء مخ العبادة، أو دعاء من یعتقد أنه ند للّه فی جمیع الشؤون أو بعضها مخ العبادة، وأین هو من دعوة الأنبیاء والصالحین الذین لا یُدعَوْن إلاّ بعنوان أنهم عباد صالحون لا یعصون اللّه ما أمرهم وهم بأمره یعملون، ولا یملکون شیئاً لأنفسهم ولا لغیرهم نفعاً ولا ضراً إلاّ بإذن اللّه، أفهل تکون الدعوتان متماثلتین حتّی تشترکا فی الحکم؟ وإنک إذا تتبعت کلماته وجمله فی هذا الکتاب یظهر لک

أنه يحاول التضليل من طريق تشبيه توسل المسلمين ودعائهم، بعمل المشركين وعبدة الأوثان، بالتمسك بمشابهات ومشاركات بعيدة، وتناسى ما هو البون الشاسع بين الأُمتين والدعوتين . قال زينى دحلان: كان محمد بن عبدالوهاب يخطب للجمعة فى مسجد الدرعية ويقول فى كل خطبة: ومن توسل بالنبى فقد كفر، وكان أخوه الشيخ سليمان ينكر عليه إنكاراً شديداً، فقال لأخيه يوماً: كم أركان الإسلام يا محمد؟ فقال: خمسة(۱) فقال أنت جعلتها ستة: السادس: من لم يتبعك فليس بمسلم، هذا عندك ركن سادس للإسلام . وقال رجل آخر: كم يعتق اللّه كل ليلة فى رمضان؟ فقال له: يعتق فى كل ليلة مائة ألف، وفى آخر ليلة، يعتق مثل ما أعتق فى الشهر كله، فقال له: لم يبلغ من اتّبعك عشر ما ذكرت، فمن هؤلاء المسلمون الذين يعتقهم اللّه تعالى، وقد حصرت المسلمين فيك وفى من اتّبعك؟ فبهت الّذى كفر . ولما طال النزاع بينه وبين أخيه فخاف على نفسه، فارتحل إلى المدينة المنورة، وألّف رسالة فى الرد على محمد بن عبدالوهاب وأرسلها له، فلم _____

۱ . يشير إلى ما رواه البخارى فى كتاب الإيمان . (۳۵۱)

ينته، وألّف كثير من علماء الحنابلة وغيرهم رسائل فى الردّ عليه وأرسلوها إليه، فلم ينته(۱) . ويقول جميل صدقى الزهاوى: كان محمد بن عبدالوهاب يسمى جماعته من أهل بلده، الأنصار ;وكان يسمى متابعيه من الخارج، المهاجرين ;وكان يأمر من حج حجة الإسلام قبل اتّباعه أن يحج ثانياً قائلا إنّ حجتك الأُولى غير مقبولة لأنك حججتها وأنت مشرك، ويقول لمن أراد أن يدخل فى دينه: اشهد على نفسك أنك كنت كافراً، واشهد على والديك أنهما ماتا كافرين، واشهد على فلان وفلان (يسمى جماعة من أكابر العلماء الماضين) أنهم كانوا كفاراً. فإن شهد بذلك قبله، وكان يصرّح بتكفير الأُمة منذ ستمائة سنة، ويكفّر كل من لا يتبعه وإن كان من أتقى المسلمين، ويسميهم مشركين، ويستحل دماءهم وأموالهم، ويثبت الإيمان لمن اتّبعه . وكان يكره الصلاة على النبى بعد الأذان، وينهى عن ذكرها ليلة الجمعة وعن الجهر بها على المنابر، ويعاقب من يفعل ذلك عقاباً شديداً، حتّى أنه قتل رجلا أعمى مؤذناً لم ينته عن الصلاة على النبى بعد الأذان، ويلبس على أتباعه أن ذلك كله محافظة على التوحيد . كان قد أحرق كثيراً من كتب الصلاة على النبى، كدلائل الخيرات وغيرها، وكذلك أحرق كثيراً من كتب الفقه والتفسير والحديث مما هو مخالف لأباطيله(۲) . قال أحمد زينى دحلان: إنّ الوهابيين أرسلوا فى دولة الشريف مسعود بن سعيد بن زيد المتوفى سنة ۱۱۶۵ هـ ثلاثين نفراً من علمائهم فأمر الشريف أن يناظرهم علماء الحرمين، فناظروهم فوجدوا عقائدهم فاسدة، وكتب قاضى الشرع حجة بكفرهم فأمر بسجنهم، فسجن بعضهم وفرّ الباقون . ثم فى دولة الشريف أحمد المتوفى سنة ۱۱۹۵ هـ أرسل أمير الدرعية بعض _____

۱ . السيد أحمد بن زينى دحلان: الدرر السنية فى الرد على الوهابية، ص ۳۹ ـ ۴۰ .

۲ . صدقى الزهاوى: الفجر الصادق، ص ۱۷ ـ ۱۸ . (۳۵۲)

علمائه فناظرهم علماء مكة وأثبتوا كفرهم، فلم يأذن لهم بالحج(۱) . وقال أيضاً: لما منع الناس من زيارة النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ خرج ناس من الأحساء وزاروا النبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وبلغه خبرهم، فلما رجعوا مرّوا عليه بالدرعية، فأمر بحلق لحاهم، ثم أركبهم مقلوبين من الدرعية إلى الأحساء . وبلغه مرة أن جماعة قصدوا الزيارة والحج، وعبروا على الدرعية، فسمعه بعضهم يقول لتابعيه: خلّوا المشركين يسيرون طريق المدينة، والمسلمون (أتباعه) يخلفون معنا(۲) . تكفير المسلمين شعارهم الوحيد

من رجع إلى كتب محمد بن عبد الوهاب وما ألّف فى الفترة المتاخمة إلى عصره يقف على أنهم اتفقوا على تكفير المسلمين قاطبة، سنّيهم وشيعيّهم ولم تكن المحاربة وقتل الأنفس وسفك الدماء فى عصره وما بعده إلّا على أساس أن غيرهم مشركون، لا حرمة لدمائهم وممتلكاتهم، يجب تتويبهم قسراً، وإلّا فإنه ستهدر دماؤهم، ويشهد على ذلك ما كتبه الآلوسى صاحب تاريخ نجد الّذى له مع السعوديين أُلفة وطيدة حيث يقول بعد التطرق لذكر سعود بن عبد العزيز(۳): إنه قاد الجيوش وأذعنت له صناديد العرب و رؤساؤهم، بيد أنه منع الناس عن الحج، وخرج على السلطان وغالى فى تكفير من خالفهم، وشدّد فى بعض الأحكام، وحمل أكثر الأُمور على ظواهرها، كما غالى الناس فى قدحه، والإنصاف، الطريق الوسطى، لا التشديد الّذى ذهب إليه علماء نجد من تسمية

غاراتهم على المسلمين بالجهاد فى سبيل اللّه، ومنعهم الحج، ولا ـ التساهل الّذى عليه عامة أهل العراق والشامات وغيرهما(۴) .

---

۱ . السيد محسن الأمين: كشف الارتياب، ص ۱۵ ـ نقلا عن خلاصة الكلام .

۲ . الشيخ أحمد بن زينى دحلان: الدرر السنية، ص ۴۱ .

۳ . سعود بن عبدالعزيز بن محمد وهو حفيد أول من بايع محمد بن عبدالوهاب، وسيتم التعرض لتاريخ حياته .

۴ . السيد محسن الأمين: كشف الارتياب، ص ۹ نقلا عن تاريخ نجد . (۳۵۳)

فهذا الاعتراف الصريح من موالى الوهابيين يدل على أنهم كانوا فى فترة من الزمن على تكفير المخالفين، وتسمية الغارة على المسلمين جهاداً فى سبيل اللّه . نعم فى الفترة الأخيرة الّتى أخذ فيها أزمّة الحكم فى نجد والحرمين الشريفين عبد العزيز، ثم خلفه أبناؤه من بعده سعود وفيصل وخالد وفهد اليوم، تنازلوا عن تكفير المسلمين علانية، ولاترى هذه التهمة فى صفحات وسائلهم الإعلامية السمعية والبصرية، فتغير موقفهم بالنسبة إلى جميع الطوائف الإسلامية، فيرون الحرمة لبلادهم ودمائهم وممتلكاتهم، إلّا الشيعة، فهم موقفهم السابق منهم، وخصوصاً بعد نجاح الثورة الإسلامية فى إيران فقد تأججت نار أحقادهم وحميتهم العصبية عليهم، فلا تمر برهة زمنية إلّا وينتشر كتاب ضد الشيعة بأقلام المأجورين فى مختلف أنحاء العالم، ويبذلون مال اللّه ليصدّوا الناس عن طريقه . سؤال وجواب

إنّ الوهابية امتداد فكرى لما بذره أحمد بن تيمية فى أوائل القرن الثامن وتعتبر حركتهم الهدامة انعكاساً جذرياً لمبادئه الضالة، ويتمخض عن ذلك، سؤال يستثيره نجاح محمد بن عبدالوهاب النسبى فى تطبيق وإقرار مبادىء دعوته، دون مؤسس المنهج أحمد بن تيمية، فقد أخفق فى دعوته، وأخمدت فى بادىء بدئها، وإن كان قد تبعه بعض الناس فلم تكن متابعتهم له عن علم بمبادئه وغاياته . وهذا ابن كثير الشامى التابع لمنهج ابن تيمية يقول: كان الناس يتبركون بجنازته(۱) مع أنّه عنده شرك، والشرك من أعظم الجرائم عند ابن تيمية، فلم تكن متابعة جماعة من الناس له عن إحاطة ودراية، بل مخالفته للحكم السائد فى الشام، وإبعاده منها إلى مصر ثم سجنه، صارت سبباً لاستمالة قلوب الناس

---

۱ . البداية والنهاية، ج ۱۴، حوادث عام ۷۲۸ . (۳۵۴)

إليه من دون وعى بمعتقده، وهذا بخلاف محمّد بن عبد الوهاب، فقد تكللت دعوته بالنجاح النسبى، فياترى ما هو السبب؟ . نجيب بكلمة واحدة، إنّ ابن تيمية افتقد الأرضية الكفيلة بإنجاح دعوته لأنّه بثّها بين أوساط علمية، كان فيهم كبار العلماء والفقهاء، فأخمدوا ضوضاءها بالاستدلال والبرهنة، فثاروا فى وجهه ثائرة أخمدت دعوته وأبطلت كيده، وكانت السلطة أيضاً ناصرت العلماء فى مجابهتهم له، فلم يكن لبذرة الفساد نصيب سوى الكمون فى ثنايا الكتب، أو النجاح فى مرضى القلوب . وأمّا ما يرتبط بدعوة محمّد بن عبد الوهاب فقد ساعد على إنجاحها وجود أرضية خصبة مليئة بالأُمية والجهل بمبادىء الإسلام، تضاف إلى ذلك مناصرة سلطة آل سعود وتحالفهم معه فى تطبيق دعوته، على أن يكون التخطيط من الشيخ، والإنجاز من السلطة بالقوة والإغارة والفتك والتخويف . يقول الزهاوى: لمّا رأى ابن عبد الوهاب أنّ قاطبة بلاد نجد بعيدون عن عالم الحضارة، لم يزالوا على البساطة والسذاجة فى الفطرة، وقد ساد عليهم الجهل حتّى لم تبق للعلوم العقلية عندهم مكانة ولا رواج، وجد هنالك من قلوبهم ما هو صالح لأن تزرع فيه بذور الفساد، مما كانت نفسه تنزع إليه وتمنيه به من قديم الزمان، وهو الحصول على رئاسة عظيمة ينالها باسم الدين - إلى أن قال ـ : فلم يجد للحصول على أُمنيته طريقاً بين أولئك إلّا أن يدّعى أنّه مجدد فى الدين، مجتهد فى أحكامه ;فحمله هذا الأمر على تكفير جميع طوائف المسلمين، وجعلهم مشركين بل أسوأ حالا وأشدّ كفراً وضلالا، فعمد إلى الآيات القرآنية النازلة فى المشركين فجعلها عامة شاملة لجميع المسلمين، الذين يزورون قبر نبيّهم ويستشفعون به إلى ربّهم(۱) . الرادّون على محمّد بن عبد الوهاب

هذا غيض من فيض من حياة محمّد بن عبدالوهاب المليئة بالإجرام والإفساد والتضليل، وشق عصا المسلمين، فمن أراد التوسع فى

دراسة حياته _____

۱ . جميل صدقی: الفجر الصادق، ص ۱۴ . (۳۵۵)

وما جرّه علی المسلمين من حروب وويلات، فليرجع إلی الكتب المؤلفة حول الوهابية ومؤسسها، وتاريخ نجد والسلطة القبلية الحاكمة فيه منذ عصر محمّد بن عبدالوهاب إلی يومنا هذا . إلاّ أنّ العلماء الواعين فی الحرمين الشريفين فی عصره وما بعده، وفی سائر الأقطار الإسلامية، قد أدوا ما عليهم من وظائف رسالية تجاه هذه الحركة الهدامة، فترى كيف أنّهم قد بذلوا الجهود المضنية فی سبيل ردّ دعوتهم وإثبات بطلانها، وإليك قائمة من الردود المؤلفة فی إبطالها، نأتی بأسمائها وأسماء مؤلّفيها: ۱- «مقدمة شيخه محمّد بن سليمان الكردی الشافعی»الّتی قرّظ بها رسالة أخيه سليمان بن عبدالوهاب، وقع فی نحو ثلاث ورقات، وقد تضمّنت ما يشير إلی ضلاله ومروقه عن الدين، علی نحو ما حكی فی ذلك عن شيخه الآخر محمّد حياة السندی، ووالده عبد الوهاب . ۲- «تجريد سيف الجهاد لمدّعی الاجتهاد» لشيخه العلامة عبد اللّه بن عبد اللطيف الشافعی . ۳- «الصواعق والرعود» للعلامة عفيف الدين عبداللّه بن داود الحنبلی . قال العلامة علوی بن أحمد الحداد: كتبت عليه تقاريظ أئمة من علماء البصرة وبغداد وحلب والأحساء وغيرهم، تأييداً له وثناء عليه . ثم قال: ولو وقفت عليه قبل هذا ما ألفت كتابی هذا . ولخصه محمّد بن بشير قاضی رأس الخيمة بعجمان . ۴- «تهكّم المقلدين بمن ادّعی تجديد الدين» للعلاّمة المحقق محمّد بن عبدالرحمن ابن عفالق الحنبلی، وقد ترصّد فيه لكل مسألة من المسائل الّتی ابتدعها وردّ عليها بأبلغ رد، وقد ضمّن كتابه هذا ملحقاً يتناول ما يتعلق بالعلوم الشرعية والأدبية، كما أرفقه بأسئلة كان قد بعثها إلی محمد بن عبد الوهاب، منهاشطر وافر حول علم البيان تتعلق بسورة «والعاديات» ، (۳۵۶)

وألمح فی ذيلها إلی عجزه عن الجواب عن أدناها فضلا عن أجلِّها. ۵- رسالة للعلامة أحمد بن علی القبانی البصری الشافعی، وتقع فی نحو عشر كراريس عقد فصولها كافة للرد علی معتقداته وتزييف أباطيله . ۶- رسالة للعلامة عبدالوهاب بن أحمد بركات الشافعی الأحمدی المكی . ۷- «الصارم الهندی فی عنق النجدی» للشيخ عطاء المكی . ۸- رسالة للشيخ عبد اللّه بن عيسی المويسی . ۹- رسالة للشيخ أحمد المصری الأحسائی . ۱۰- السيوف الصقال فی أعناق من أنكر علی الأولياء بعد الانتقال، لأحد علماء بيت المقدس. ۱۱- السيف الباتر لعنق المنكر علی الأكابر، للسيد علوی بن أحمد الحداد، طبع فی نحو مائة ورقة . ۱۲- رسالة للشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن عبداللطيف الأحسائی . ۱۳- تحريض الأغبياء علی الاستغاثة بالأنبياء والأولياء، للعلامة عبداللّه بن إبراهيم مير غنی الساكن بالطائف . ۱۴- رسالة للشيخ محمد صالح الزمزمی الشافعی، تقع فی نحو عشرين كراساً، حكی السيد علوی بن أحمد الحداد أنّه رآها أمام مقام إبراهيم بمكة . ۱۵- «الانتصار للأولياء الأبرار» للعلامة طاهر سنبل الحنفی، حكی السيد علوی المذكور آنفاً أنّه رآه عند مؤلفه بالطائف . ۱۶- مجموعة أجوبة وردود نظماً ونثراً لأكابر علماء المذاهب الأربعة، لا يحصون، من أهل الحرمين الشريفين والأحساء والبصرة وبغداد وحلب واليمن وغيرها. حكی عنها السيد علوی أيضاً وذكر أنّه أتی بها إليه رجل من آل ابن عبد الرزاق الحنابلة، الذين يقطنون الزبارة والبحرين . (۳۵۷)

۱۷- كتاب ضخم يحتوی علی جملة من الأسئلة والأجوبة، كلها من علماء أهل المذاهب الأربعة الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، حدّث به أيضاً السيد المذكور، كلها فی الرد علی محمّد بن عبد الوهاب . ۱۸- قصيدة للسيد المنعمی ردّ بها علی ابن عبد الوهاب إثر قتله جماعة كانوا قد عفوا شعر رؤسهم، مطلعها: أفی حلق رأس بالسكاكين «الحدِّ» * حديث صحيح بالأسانيد عن جدی ۱۹- «مصباح الأنام وجلاء الظلام فی رد شبه البدعی النجدی التی أضل بها العوام» للعلامة السيد علوی بن الحداد المتقدم، طبع سنة ۱۳۲۵ هـ بالمطبعة العامرية، وما سبق حكايته عن مؤلفه منقول عنه . ۲۰- «الصواعق الإلهية» لأخيه سليمان بن عبدالوهاب «مطبوع» . ۲۱- كتاب لشيخ الإسلام بتونس المحقق إسماعيل التميمی المالكی المتوفی سنة ۱۲۴۸، وهو فی غاية التحقيق والإحكام، نقض فيه رسالة لابن عبدالوهاب طبعت فی تونس . ۲۲- رسالة مسجعة محكمة للمحقق الشيخ صالح الكواش التونسی، طبعت ضمن كتاب «سعادة الدارين فی الردّ علی الفرقتين» نقض فيها مؤلفها رسالة لابن عبدالوهاب . ۲۳- رسالة للعلامة المحقق السيد داود البغدادی الحنفی، مطبوعة .

۲۴- قصیدة للشیخ غلبون اللیبی، ردّ بها علی قصیدة الصنعانی الّتی مدح بها ابن عبد الوهاب، تقع فی أربعین بیتاً، مطلعها: سلامی علی أهل الإصابة والرشد * ولیس علی نجد ومن حلَّ فی نجد وهی مذکورة فی سعادة الدارین . ۲۵- قصیدة أخری للسید مصطفی المصری البولاقی، یرد فیها أیضاً علی قصیدة الصنعانی الّتی ذکرت فی المصدر السابق، تقع فی مائة وستة وعشرین بیتاً، مطلعها: (۳۵۸)

بحمد ولیِّ الحمد، لا الذم أستبدی * وبالحق لا بالخلق، للحق أستهدی ۲۶- قصیدة ثالثة للسید الطباطبائی البصری، یرد فیها علی قصیدة الصنعانی، وقد کان لهذه القصائد الأثر الأکبر فی إرجاع الصنعانی عن غیه الّذی وقع فیه، حتّی بلغ به الأمر إلی إنشاد قصیدة یعلن فیها توبته مما بدر منه: مستهلها: رجعت عن القول الّذی قلت فی نجدِ * فقد صحّ لی عنه خلاف الّذی عندی ۲۷- «سعادة الدارین فی الرد علی الفرقتین ـ الوهابیة والظاهریة ـ للعلامة الشیخ إبراهیم السمنودی المنصوری المتوفی فی العقد الثانی من هذا القرن، وقد طبع فی مجلدین . ۲۸- «الدرر السنیة فی الرد علی الوهابیة» لمفتی مکة السید أحمد زینی دحلان المتوفی سنة ۱۳۰۴ هـ وهو مطبوع . ۲۹- «شواهد الحق فی التوسل بسید الخلق» للشیخ یوسف النبهانی. طبع فی مجلد . ۳۰- «الفجر الصادق» لجمیل صدقی الزهاوی، مطبوع . ۳۱- «إظهار العقوق ممن منع التوسل بالنبی والولی الصدوق» للشیخ المشرفی المالکی الجزائری . ۳۲- رسالة فی جواز التوسل، للشیخ المهدی الوازنانی مفتی فاس، ردّ فیها علی محمّد بن عبد الوهاب فی منعه ذلک . ۳۳- «غوث العباد (فی) بیان الرشاد» للشیخ مصطفی الحمامی المصری، مطبوع . ۳۴- «جلال الحق فی کشف أحوال أشرار الخلق» للشیخ إبراهیم الحلبی القادری الاسکندری، وهو کتاب جید طبع فی الاسکندریة سنة ۱۳۵۵ هـ. (۳۵۹)

۳۵- «البراهین الساطعة» للعلامة الشیخ سلامة العزامی المتوفی سنة ۱۳۷۹ هـ . ۳۶- «النقول الشرعیة فی الردّ علی الوهابیة» للشیخ حسن الشطی الحنبلی الدمشقی، مطبوع . ۳۷- رسالة أُخری له أیضاً فی تأیید مذهب الصوفیة والردّ علی من ناوأهم، مطبوعة . ۳۸- رسالة فی حکم التوسل بالأنبیاء والأولیاء، للشیخ محمّد حسنین مخلوف، مطبوعة. ۳۹- «المقالات الوفیة فی الردّ علی الوهابیة» للشیخ حسن قزبک، مطبوعة . ۴۰- «الأقوال المرضیة فی الردّ علی الوهابیة» وهی رسالة صغیرة للشیخ عطا الکسم الدمشقی . والردود علی الوهابیة أکثر مما ذکر، وقد اکتفینا بهذا العدد المبارک، وفیه غنی وکفایة، وکلّها لأهل السنة والجماعة، وأمّا الشیعة فحدث عنها ولا حرج، وأول من ردّ علیه، الفقیه الشیخ جعفر کاشف الغطاء الأکبر بکتاب أسماه بـ«منهج الرشاد لمن أراد السداد» کتبه ردّاً علی الرسالة الّتی بعثها سعود بن عبد العزیز إلیه یشرح فیها مواقف الوهابیة فی المسائل الراجعة إلی التوحید والشرک، وقد طبع فی النجف الأشرف عام ۱۳۴۳ هـ، ثم توإلی النقد من علماء الشیعة بعد تدمیر قباب البقیع عام ۱۳۴۴ هـ، إلی یومنا هذا، ونشیر إلی قلیل من کثیر مما طبع وانتشر باللغة العربیة: ۱- الآیات البینات فی قمع البدع والضلالات، للشیخ محمد حسین کاشف الغطاء (۱۲۹۴ ـ ۱۳۷۳ هـ) طبع بالنجف الأشرف ۱۳۴۵ هـ . ۲- الآیات الجلیة فی ردّ شبهات الوهابیة، للشیخ مرتضی کاشف الغطاء (م ۱۳۴۹ هـ). (۳۶۰)

۳- إزاحة الوسوسة عن تقبیل الأعتاب المقدسة، للشیخ عبد اللّه بن محمد حسن المامقانی (ت ۱۳۵۱ هـ) طبع فی النجف الأشرف مع کتابه مخزن المعانی . ۴- البراهین الجلیة فی دفع شبهات الوهابیة، للسید محمد حسن القزوینی الحائری (ت ۱۳۸۰ هـ) طبع بالنجف (۱۳۴۶ هـ) . ۵- التبرک، للشیخ علی الأحمدی المیانجی، طبع فی بیروت . ۶- دعوی الهدی إلی الورع فی الأفعال والفتوی، للشیخ محمد جواد البلاغی (ت ۱۳۵۲ هـ) .طبع فی النجف الأشرف (۱۳۴۴ هـ) . ۷- الرد علی الوهابیة، للشیخ محمّد علی الغروی الأردوبادی، طبع سنة (۱۳۴۵ هـ) . ۸- الرد علی الوهابیة للسید حسن الصدر الکاظمی (ت ۱۳۵۴ هـ)، طبع فی بغداد (۱۳۴۴ هـ) . ۹- کشف الارتیاب فی أتباع محمد بن عبد الوهاب، للسید محسن الأمین العاملی (ت ۱۳۷۳ هـ) طبع فی صیدا . ۱۰- المواسم المراسم، للسید جعفر مرتضی العاملی، یبحث عن مشروعیة إقامة مراسم الاحتفال فی الأعیاد، أو مظاهر الحزن فی المآتم ـ طبع فی طهران . ۱۱- هذه هی الوهابیة، للشیخ محمد جواد مغنیة العاملی (ت ۱۴۰۰ هـ) طبع فی بیروت . ۱۲- مع الوهابیین فی خططهم وعقائدهم، لمؤلف هذا الکتاب، طبع فی طهران، عام (۱۴۰۶ هـ) . ۱۳- الوهابیة فی المیزان، له أیضاً، طبع فی قم المشرفة عام (۱۴۰۷ هـ) . (۳۶۱)

۱۴- وأخیر الردود لا آخرها ـ التوحید والشرک فی القرآن الکریم، له أیضاً، استعرض فیه الآیات الواردة حولهما بإمعان ودقة، وفند جمیع مستمسکات الوهابیین فیه . ولنکتف بهذا المقدار، وإلّا فاردود علیها من الشیعة بألسنة مختلفة کثیرة . * * *

«فاحتفظوا بکتبکم فإنّکم سوف تحتاجون إلیها» الإمام الصادق ـ علیه السَّلام ـ (۳۶۲)

تاریخ الإمارة القبلیة السعودیة

الفترة الأُولی

الفترة الأُولی

وقد تصدی للحکم فیها من عام ۱۱۳۷ إلی ۱۲۳۳ الأُمراء التالیة أسماؤهم: ۱- محمد بن سعود ۲- عبدالعزیز بن محمد بن سعود ۳- سعود بن عبدالعزیز ۴- عبد اللّه بن سعود . الفترة الثانیة ۱۲۴۰ ـ ۱۳۰۹

۵- ترکی ابن أخی عبد العزیز ۶- مشاری بن عبدالرَّحمن ۷- فیصل بن ترکی ۸- خالد بن سعود ۹- عبداللّه بن ثنیان ۱۰- فیصل بن ترکی ۱۱- عبداللّه بن فیصل الترکی ۱۲- سعود بن فیصل الترکی ۱۳- عبدالرَّحمن بن فیصل . الفترة الثالثة ۱۳۱۹ ـ..

۱۴- عبد العزیز بن عبدالرَّحمن ۱۵- سعود بن عبدالعزیز ۱۶- فیصل بن عبدالعزیز ۱۷- خالد بن عبدالعزیز ۱۸- فهد بن عبدالعزیز . ویعلم اللّه من سیتحکم فی الدیار المقدسة بعد هذا الرجل . (۳۶۳) تاریخ الإمارة القبلیة السعودیة

قد تعرفت علی أنّ آل سعود وعلی رأسهم محمّد بن سعود کانوا هم الحماة لدعوة محمّد بن عبد الوهاب، وقد تمخض عنها إبرام اتفاقیة بین ابن عبد الوهاب وأمیر العائلة السعودیة، وهذه الاتفاقیة لا تزال باقیة إلی یومنا هذا وإن تبدلت بأشکال مختلفة، غیر أن الوقوف علی کیفیة توسع نطاق دعوة ابن عبد الوهاب یتوقف علی دراسة تاریخ حیاة هذه القبیلة بعد هذه الاتفاقیة، کیف أنّهم سلّوا سیوفهم فی طریق نشرها إلی حدّ خضبوا وجه الأرض بإراقة دماء الصالحین والمؤمنین، وقتل الأطاف فی حجور أُمهاتهم، وتدمیر الأبنیة، وإحراق الأشجار والنخیل، إلی غیر ذلک ممّا یکلّ البیان عن وصفه والقلم عن الإحاطة به، والقارىء إذا استطلع ما سنذکره مؤیداً بمصادر موثقة، یقف علی أنّه لم تکن هناک رسالة دینیة ولا إنسانیة، بل کانت الدعوة الوهابیة واجهة وغطاء لما تربّوا علیه وألفوه فی حیاتهم القبلیة من النهب والغارة والقتل والسفک، وتوسیع نطاق السلطة، إلی غیر ذلک مما کانوا یمارسونه قبل قبول الدعوة الوهابیة، الّتی ترکز بزعمهم علی رفض الشرک وزیادة رقة الموحدین، وکانت فکرةً اغترّ بها البسطاء وانطلت علی عقولهم الساذجة، لأنّهم کانوا یعیشون فی واحات الصحاری منقطعین عن الأُمم المتحضرة، فلأجل ذلک تمکنت الدعوة الوهابیة من النفوذ إلی أذهانهم بیسر وسهولة، فصار البدو أداة طیعة بید الأمیر وصاحب الدعوة، فأشاعا الفساد بما أوتیا من قوة. إنّ تاریخ العائلة السعودیة حسبما یذکره المؤرخون تتلخص فی فترات ثلاث: الفترة الأُولی: وهی تبتدیء من عام ۱۱۳۷ هـ إلی ۱۲۳۳ هـ . الفترة الثانیة: تبتدیء من عام ۱۲۴۰ هـ إلی ۱۳۰۹ هـ . الفترة الثالثة: تبتدیء من عام ۱۳۱۹ هـ إلی عصرنا هذا . (۳۶۴)

الفترة الأولی لحیاة العائلة

الفترة الأولی لحیاة العائلة

۱- إمارة محمد بن سعود: (۱۱۳۷ هـ ـ ۱۱۷۹ هـ) . إنّ محمد بن سعود هو أول من صافح محمد بن عبد الوهاب و کان معه إلی أن لفظ أنفاسه الأخیرة فی العام الآنف الذکر، وقد حصل صدام بینه وبین عثمان بن معمر شیخ «العیینة»، وقد خشی عثمان من امتداد السلطة السعودیة فعقد حلفاً مع «ثرمدة» و «ابن سویط» شیخ الظفیر، ولکنه باء بالفشل واغتیل علی ید الوهابیین عند خروجه من المسجد، فانضمت «العیینة» بعد ذلک إلی الحکم السعودی، وقد آل معمر دورهم السیاسی فی نجد(۱) . یقول زینی دحلان: «کان

ابتداء ظهوره أمره (ابن عبد الوهاب) فی الشرق سنة ۱۱۴۳ هـ، واشتهر أمره بعد الخمسین وألف ومئة بنجد وقراها، فتبعه وقام بنصرته أمیر الدرعیة محمد بن سعود، وجعل ذلک وسیلة إلی اتساع ملکه ونفاذ أمره، فأحمل أهل «الدرعیة» علی متابعة محمد بن عبدالوهاب فیما یقول، فتبعه أهل «الدرعیة» وما حولها، ومازال یطیعه علی ذلک کثیر من أحیاء العرب، حی بعد حی، وقبیلة بعد قبیلة، حتّی قوی امره فخافته البادیة، فکان یقول لهم إنما أدعوکم إلی التوحید، وترک الشبرک باللّه، ویزین لهم القول وهم بَواد فی غایة الجهل لا یعرفون شیئاً من أُمور الدین، فاستحسنوا ما جاءهم به، وکان یقول لهم إنّی أدعوکم إلی الدین، وجمیع من هو تحت السبع الطباق مشرک علی الإطلاق ومن قتل مشرکاً فله الجنة، فتابعوه وصارت نفوسهم بهذا القول مطمئنة، وکان محمد بن عبدالوهاب بینهم کالنبی فی أمته، لا یترکون شیئاً مما یقول، والذا قتلوا إنساناً أخذوا ماله وأعطوا الأمیر محمد بن سعود الخمس، واقتسموا الباقی، وکانوا یمشون حینما مشی، ویأتمرون له بما شاء، والأمیر محمد بن سعود ینفذ کل ما یقول، حتّی اتسع له الملک .

---

۱ . أبو علیه، عبدالفتاح: محاضرات فی تاریخ الدولة السعودیة، ص ۱۶ . (۳۶۵) البعثة الوهابیة إلی مکة

تولی ولایة مکة الشریف مسعود من عام ۱۱۴۶ إلی عام وفاته ۱۱۶۵ هـ، وقد أرسل محمد بن سعود عندما استحفل أمر محمد بن عبدالوهاب ثلاثین عالماً إلی مکة یستأذنونه فی الحج، ولکن کان هدفهم هو الدعوة إلی الوهابیة ونشرها فی أوساط أهل الحرمین، وقد کان أهلهما قد سمعوا بظهورهم فی نجد وإفسادهم عقائد البوادی، ولم یعرفوا حقیقتهم بعد عن کثب، فلما وصلت بعثته أمر الشریف مسعود أن یناظرهم علماء الحرمین، فإذا بهم فوجئوا بعقائد غریبة، فأقاموا علیهم الحجة والبرهان، فقبض علی جماعة منهم، بینما فرّ بجلدته البعض الآخر(۱) . الصدام مع حاکم الریاض

کان دهام بن دواس حاکماً علی الریاض، وکان من ألد الأعداء للدعوة الوهابیة، وقد دامت الحروب بین الریاض والدرعیة زهاء سبعة وعشرین عاماً علی الرغم من قرب المسافة بینهما، وکانت سجالا، فلم تمرّ سنة إلّا وقعت فیها غزوة بین البلدین، وفی إحدی هذه الهجمات قتل ولدا محمد بن سعود، أعنی فیصلا وسعوداً(۲) . وظل أمیر الریاض المنافس الرئیسی لمحمد بن سعود، وکانت الغزوات بین الدرعیة والریاض تدور رحاها کل عام تقریباً . ففی عام ۱۱۷۸ هـ اتفق أبناء «یام» من أهالی نجران وقبیلتی العجمان و «بنی خالد» وتحالفوا علی سحق محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب . فقد تحالف بنو یام علی أن یسیروا من نجران بقیادة السید حسن بن هبة اللّه، وأن یسیر بنو خالد والعجمان من الأحساء بقیادة حاکمها آنذاک باسم الخالدی، وتواعد الجمیع علی الزحف علی الدرعیة، فصارت جموع من

---

۱ . الدرر السنیة، ص ۴۳ ـ بتصرف .

۲ . أبو علیة، عبدالفتاح: محاضرات فی تاریخ الدولة السعودیة الأولی، ص ۱۹ ـ ۲۰ . (۳۶۶)

نجران والأحساء، ولکن قائد نجران قد وصل إلی ضواحی «الدرعیة» قبل وصول العجمان وبنی خالد، وبوحدتهم تمکنوا من سحق الجند السعودی واختفی محمد بن سعود، وکاد ینتهی أظلم حکم دخیل عرفته شبه الجزیرة العربیة علی أیدی أهالی نجران الأبطال، لو لم یلجأ محمد بن عبدالوهاب إلی المکر والخداع، فقد رفع رایة الصلح علی أن یقف أهالی نجران عند حدهم ویمتنعوا من دخول «الدرعیة»، وأنّ یسلّموا ما تحت أیدیهم من الأسری السعودیین، ویتعهد کل من محمد بن عبدالوهاب ومحمد بن سعود بدفع عشرة آلاف جنیه ذهب کتعویض لأهالی نجران عن رحتلهم هذه، وأن لا یتعدی محمد بن سعود ومحمد بن عبدالوهاب حدود «الدرعیة»، وبهذا شهد محمد بن عبدالوهاب ببطلان دعوته أمام أهالی نجران . ولما وصلت قوات الخالدی المسلحة بالمدافع إلی ضواحی «الدرعیة»، وکان قد انضمّ إلیها الکثیر من النجدیین فوجئوا بهذا الصلح، والقبوله تمشیاً مع ما اتّخذه أبناء عمهم من أبناء نجران، ولم یکن سبب فشلها الّا التصرفات الفردیة للشیخ حسن بن هبة اللّه، وإلّا لقضی علی الوجود السعودی فی ذلک الوقت، وقد کان عنف الهجوم وإیجاد الرعب علی حد أُصیب محمد بن سعود بإسهال، ومرض مرضاً شدیدیاً من جزاء ما انتابه من رعب شدید حینما شاهد

أنّ أبناء يام يحاصرون «الدرعية»، بعد سحقهم للجند السعودى، وقد تسبب ذلك هلاك محمد بن سعود من جراء المرض الّذى أصابه من ذلك الحادث، ومات عام ۱۱۷۹ هـ (۱) . * * * ۲- عبدالعزيز بن محمد بن سعود (۱۱۷۹ ـ ۱۲۱۸ هـ)

اختار محمّد بن سعود ولده عبدالعزيز وليّاً للعهد من بعده، باقتراح من محمد بن عبدالوهاب، فكان أول أمير يبايع بولاية العهد من السعوديين، ومنذ ذلك الحين أصبحت الإمارة تنتقل بالمبايعة بولاية العهد، تماماً كما فعل _____

۱ . ناصر السعيد: تاريخ آل سعود، ص ۳۰ . (۳۶۷)

معاوية مع ولده يزيد، وهذه واحدة من بدع الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقد تزوج عبدالعزيز ابنة محمد بن عبدالوهاب، وامتزج النسب بعضه ببعض أكثر من ذى قبل(۱) . ولم تكن سيرة عبدالعزيز خيراً من سيرة أبيه بل شرّاً منه، وقد نجمت فى عهده حروب دامية سفكت فيها دماء الأبرياء بما يتجاوز حد الوصف، وإن كنت فى شك مما نقول فعليك بقراءة ما أسجله لك من وثائق موثقة: احتلال الأحساء عام ۱۲۰۷ هـ

تشكل الأحساء وسواحلها وموانئها جزءاً من البلاد المطلة على الخليج، والّتى يتنازع عليها العثمانيون وولاة العراق ومصر. كانت الأحساء فى القرن الثانى عشر (۱۱۰۰ ـ ۱۲۰۰) تخضع لنفوذ قبائل بنى خالد، وهى قبائل نجدية كبيرة منتشرة على شاطىء الخليج تحت حكم شيخهم محمد آل حميد، الّذى أنذر عثمان بن معمر شيخ العيينة بطرد محمد بن عبد الوهاب من قريته، لما أساءت تعاليمه إلى القرى المجاورة، وكان ذلك من أسباب العداء بين بنى خالد وآل سعود، بالإضافة إلى رغبة هؤلاء فى التوسع، وأدى ذلك إلى سقوط الأحساء فى يد الوهابيين عام ۱۷۸۵ م «حوالى ۱۲۰۷ هـ» . وفى خريف ۱۷۰۳ م «حوالى ۱۲۱۵ هـ» توجه سعود بن عبدالعزيز مع قوات كبيرة إلى الأحساء، ونهبت قواته البدوية كل ما صادفته فى طريقها، وقتلت دون رحمة كل من أبدى مقاومة، ودمرت بساتين النخيل واستأثرت بمحاصيل التمور، ورعت الماشية فى الحقول، وأعربت الأحساء كلها عن خضوعها لهم، وعيّن براك بن عبدالمحسن أميراً للأحساء(۲) ولكنه حاول فى ربيع ۱۷۹۶ م أن يتخلص من سلطة الوهابيين، ولكنه اطّلع عليه سعود بن عبدالعزيز

---

۱ . المصدرالسابق، ص ۳۰ .

۲ . ابن غنام: تاريخ نجد، ج ۲ ص ۱۵۸ ـ ۱۶۶ . (۳۶۸)

فجاء بجيش قوى إلى الأحساء وقمع الحركة فيها من جديد(۱) . يقول ابن بشر فى كيفية إخضاع الأحساء: فلما أصبح الإصباح رحل سعود بعد صلاة الصبح، فلما استووا على ظهور ركائبهم وقربوا من الأحساء، أطلقوا رصاص بنادقهم دفعة واحدة، فاسقط الكثير من النساء الحوامل ما فى بطونهم لهول الموقف، فاحتلها، ثم نزل سعود فأمرهم بالخروج إليه، فخرج فأقام هناك مدة أشهر يقتل من أراد قتله، يجلى من أراد إجلاءه، ويحبس من أراد حبسه، ويأخذ من الأموال، يهدم من المحالّ، ويبنى ثغوراً ويهدم دوراً، وضرب عليهم ألوفاً من الدراهم وقبضها منهم، وذلك لما تكرر منهم من نقض العهد ومنابذة المسلمين وأكثر فيها القتل (إلى أن يقول) فلما أراد ابن سعود الرحيل من الأحساء أمسك عدة رجال من رؤساء أهلها... فاستقدمهم إلى «الدرعية» وأسكنهم فيها، واستعمل فى الأحساء أميراً باسم (ناجم) وهو رجل منهم(۲) . تدمير كربلاء والتصفية الجسدية

وفى سنة ۱۲۱۶ هـ جهز سعود بن عبد العزيز بن محمد جيشاً جراراً من أعراب نجد، وغزا به العراق، وحاصر كربلاء ثم دخلها عنوة، وأعمل فى أهلها السيف، ولم ينج منهم إلّا من فرّ هارباً، أو اختفى فى مخبأ من حطب ونحوه فلم يعثروا عليه، وهدم قبر الحسين ـ عليه السَّلام ـ واقتلع الشباك الموضوع على القبر الشريف، ونهب جميع ما فى خزانة المشهد، ولم يرع لرسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ ولا لذريته أدنى حرمة، وجدد بجريمته النكراء مأساة واقعة كربلاء ويوم الحرة، وجرائم بنى أُمية وبنى العباس . ويتناول كوران سيز وصف تلك الواقعة بقوله: وقد جرت العادة أن يحتفل الشيعة كل عام بعيد الغدير فى يوم الغدير فى _____

۱ . ابن غنام: تاريخ نجد: ج ۲ ص ۱۷۴ ـ ۱۷۵ .

۲ . نفس المصدر: ج ۲، ص ۱۷۴ - ۱۷۵ ـ ابن بشر: عنوان المجد، ج ۱، ص ۱۰۵ ـ ۱۰۶ . (۳۶۹)

النجف الأشرف، فخرج أهالی کربلاء من بلدتهم، فانتهز الوهابیون فرصة غیابهم عن البلدة واقتحموها، وهم حوالی اثنی عشر ألف جندی، ولم یکن فی البلدة إلّا عدد قلیل من الرجال المستضعفین، قتلهم الوهابیون ولم یبقوا أحداً منهم حیّاً، ویقدر عدد الضحایا خلال یوم واحد بثلاثة آلاف، وأمّا السلب فکان فوق الوصف، ویقال إنّ مائتی بعیر حملت فوق طاقاتها بالمنهوبات الثمینة، فقد استولی الوهابیون علی کل الکنوز والأموال، وجردوا القبة من صفائح النحاس المطلیة بالذهب(۱) . وقال «فیلبی» فی تاریخ نجد: اقتحم سعود بجیش أبیه کربلاء، وبعد حصار قصیر أعمل السیف فی رقاب أهلها، ودمر ضریح الحسین ـ علیه السَّلام ـ ، ونهب المجوهرات الّتی کانت تغطی الضریح، وجمع کل شیء ذا قیمة فی المدینة... والحق أن یقال إنّ عمله هذا هزّ العالم کله، فضلا عن الشیعة، فقد کان منعطفاً تاریخیاً للثورة علی الوهابیین، کما أدّی فیما بعد إلی عواقب وخیمة علی سلطة هذه الإمارة الضالة(۲) . ویقول العلاّمة السید جواد العاملی مؤلف مفتاح الکرامة: «... فأغار سعود بن عبدالعزیز فی سنة ۱۲۱۶ هـ علی مشهد الحسین ـ علیه السَّلام ـ وقتل الرجال والأطفال، وأخذ الأموال، وعاث بالحضرة المقدسة، وخرب بنیانها وهدم أرکانها، ثم إنّه بعد ذلک استولی علی مکة المکرمة والمدینة المنورة، وفعل بالبقیع ما فعل، ولم یستثن من ذلک إلّا قبر النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ »(۳) . _____

۱ . الدکتور منیر العجلانی: تاریخ البلاد العربیة، ص ۱۲۶ ـ ۱۲۷ . ۲ . فیلبی: تاریخ نجد، ص ۹۹ .

وهذا الکاتب، أعنی فیلبی کان رجلا إنکلیزیاً باسم «سنت جون فیلبی» فقد أظهر الإسلام وأقام مدة مدیدة فی نجد، وکان له علاقة وطیدة مع السعودیین ثم توترت علاقته معهم بسبب تسجیله هذه الحوادث التاریخیة المریرة الّتی أصبحت وصمة عار فی جبین الأسرة السعودیة إلی الأبد .

۳ . العاملی، السید جواد: مفتاح الکرامة، ج ۵ ص ۵۱۲ . (۳۷۰)

کان تدمیر کربلاء أفدح هزیمة منی بها سلیمان باشا والی بغداد، مما زاد فی تدهور وضع الوالی . احتلال الطائف عام ۱۲۱۷ هـ

قال الجبرتی: فی أواخر سنة ۱۲۱۷ هـ أغار الوهابیون علی الحجاز، فلما قاربوا الطائف خرج إلیهم الشریف غالب فهزموه، فرجع إلی الطائف وأحرقت داره وهرب إلی مکة، فحاربوا الطائف ثلاثة أیام حتّی دخلوها عنوة، وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال، وهذا دأبهم فی من یحاربهم، وهدموا قبة ابن عباس فی الطائف(۱) . یقول زینی دحلان: فدخلوا البلد عنوة فی ذی القعدة سنة ۱۲۱۷ هـ فقتلوا الناس قتلا عاماً حتّی الأطفال، وکانوا یذبحون الطفل الرضیع علی صدر اُمه، وکان جماعة من أهل الطائف خرجوا قبل ذلک هاربین، فأدرکتهم الخیل وقتلت أکثرهم، وفتشوا علی من تواری فی البیوت وقتلوه، وقتلوا من فی المساجد ـ إلی أن قال ـ : وصارت الأعراب تدخل کل یوم إلی الطائف وتنقل المنهوبات إلی الخارج حتّی صارت کأمثال الجبال، فأعطوا خمسها للأمیر واقتسموا الباقی، ونشروا المصاحف وکتب الحدیث والفقه والنحو فی الأزقة، وأخبروا أن الأموال مدفونة فی المخابیء فحفروا فی موضع فوجدوا فیه مالا، وعندها حفروا جمیع بیوت البلد حتّی بیوت الخلاء والبالوعات . استیلاء الوهابیین علی مکة فی سنة ۱۲۱۸ هـ

عزم الوهابیون فی سنة ۱۲۱۷ هـ علی الاستیلاء علی مکة المکرمة وإخضاعها لسیطرتهم ونفوذهم، فأعدّوا العدة وحشدوا الحشود المکثفة لذلک فی أول الأشهر الحرم، فشاع خبرهم فی الآفاق وبلغ مسامع الناس وهم فی موسم الحج، وقد کان ممن حج فی ذلک العام، إمام مسقط: سلطان بن سعید ونقباء وأمراء حجیج مصر والشام وغیرهما، فاستنجد بهم الشریف غالب _____

۱ . غالب محمد أدیب: أخبار الحجاز ونجد فی تاریخ الجبرتی، ص ۹۳ . (۳۷۱)

أمیر مکة فأبوا علیه، ودعاهم إلی الجهاد ضد الوهابیة بعد انقضاء مناسک الحج فأعرضوا عنه، وتعللوا بعلل واهیة، وأکثر الإلحاح علیهم فلم یجد فیهم أُذناً صاغیة، فاضطرّ إلی الجلاء عن مکة برفقة أتباعه وخزائنه وذخائره، وکثیر من أهالی مکة إلی مدینة جدة، للأمن من غائلة سطوة الوهابیین . ووصل ابن سعود بقواته مشارف مکة المکرمة یومة العاشر من المحرم، فدخلها من دون مقاومة تذکر، ففعل بها وبأهلها ما فعله جنده بأهل الطائف(۱) . وفرض ابن سعود علی علمائها تلقّی أفکار ابن عبد الوهاب ومدارسة کتبه،

كما منع مسلمى الآفاق من أداء الحج والعمرة، فانقطع عن أهل مكة والمدينة ما كان يصل إليهم من الصدقات، أو أسباب التجارة الّتى كانوا يتعيشون منها(۲) . وبعد استيلائهم على مكة، قدمت جموع غفيرة من نجد من الوهابيين، فتوجهت حشودهم بتخطيط مسبق إلى الأضرحة والمزارات ذات القباب الّتى شيدت لتكريم شخصيات صدر الإسلام فهدموها، وكذا فعلوا بدار مولد النبىّ وقبّة السيدة خديجة وقبة زمزم(۳)، فما مضت عليهم إلاّ ثلاثة أيام حتّى محوا جميع آثار صدر الإسلام ومعالمه، وآثار الصالحين، فأزالوها عن بكرة أبيها(۴) . طرد الوهابيين من مكة المكرمة

كانت الوهابية مسيطرة على الحرم الشريف على نحو ما مرّ ذكره، فدفعت جرائمهم الّتى ارتكبوها بمكة الشريف غالب إلى تصميمه على تجديد العهد بها لتطهيرها من دنس الوهابيين، فسار برفقة الشريف باشا حاكم جدة ــــــــــــــــــ

۱ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۶۴ ـ تاريخ الجبرتى، ص ۹۳ .

۲ . أخبار الحجاز ونجد فى تاريخ الجبرتى، ص ۹۳ .

۳ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ۱ ص ۱۲۲ .

۴ . تاريخ الجبرتى، ص ۱۱۸ بتصرف . (۳۷۲)

وكثير من العسكر والعبيد، وتمكنوا من اقتحام متاريس الوهابيين المحيطة بها، فدخلوها وأحكموا السيطرة عليها، بعد أن طردوا منها كل ما تبقى من شراذم الوهابيين. ثم أخذ الشريف غالب يحارب كل من كان يوالى الوهابيين ممن جاور مكة من القبائل بالغارة عليهم، حتّى تمكن من استئصالهم والقضاء على تبعيتهم وعمالتهم لهم. هذا غيض من فيض من جرائم عبدالعزيز بن محمّد آل سعود، وهذه كلها حروب وفتن، وتدمير وتخريب وضحايا، ونهب وسلب وهتك للمقدسات الدينية، وغارات متصلة ليل نهار على المسلمين الآمنين . وظلّ على هذه السيرة إلى عام ۱۲۱۸ هـ حتّى اغتاله رجل. قال جبران شامية الكاتب الوهابى: وانتقم الشيعة من غزوة كربلاء بعد سنتين باغتيال الإمام عبد العزيز وهو يصلّى فى المسجد عام ۱۲۱۸ هـ وقال فيلبى: لقد تنكّر القاتل بزى «درويش» وذهب إلى «الدرعية» وبقى فيها أياماً يصلّى خلف عبد العزيز، وفى ذات يوم ألقى بنفسه على عبد العزيز وهو يصلّى، وطعنه بمدية فى ظهره اخترقت به إلى بطنه، وعجلت به إلى مقره الأخير، وتكاثر الناس على القاتل وقتلوه(۱) . وقال ابن بشر: كان مقتل أمير الدرعية عبدالعزيز ضربة جديدة للوهابيين، ففى خريف عام ۱۸۰۳ م قتل فى مسجد الطريف بالعاصمة على يد درويش غير معروف يدعى عثمان، وهو كردى من إحدى قرى الموصل، وكان هذا الدرويش قد حلّ ضيفاً على البلاط، وعندما سجد عبدالعزيز أثناء الصلاة هجم هذا الدرويش الّذى كان فى الصف الثالث على الأمير وقتله بطعنة من خنجر، ثم جرح أخاه عبداللّه، وتفيد بعض المعلومات أن قاتل عبد العزيز شيعى هلك كل أفراد عائلته اثناء غزو كربلاء(۲) . ــــــــــــــــــ

۱ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۶۴ .

۲ . فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ۵۴ . (۳۷۳)

وبذلك طويت صفحات حياته السوداء، وقد اقتصرنا فى التعرض لتاريخ حياته على ما هو الجدير بالذكر منها، وإلاّ فقد قال أحمد بن زينى دحلان: إنّ الشريف غالباً (أمير مكة) غزا الوهابيين ما ينوف عن خمسين غزوة، من سنة ۱۲۰۵ هـ إلى سنة ۱۲۲۰ هـ وكانت أكثر هذه الحروب أيام سلطة عبد العزيز آل سعود، ومن اراد التفصيل فليرجع إلى كتاب «خلاصة الكلام فى أُمراء البلد الحرام» وكتاب «كشف الارتياب» للسيد الأمين، وقد ذكر الأخير نبذاً من هذه الحروب . * * * ۳- سعود بن عبدالعزيز (۱۲۱۸ ـ ۱۲۲۹ هـ)

استولى سعود على السلطة فى الإمارة القبلية السعودية بعد وفاة والده، وكان أول عمل قام به غزو بلدتى الزبير والبصرة، وأعمل فيهما القتل والسلب وهدم قبرى طلحة والزبير، وتوسعت رقعة النفوذ السعودى فى عهده إلى أوجها، فقد كثف الغزوات والغارات بقصد الاحتلال والسلب والنهب، بشكل رهيب لم يكن له سابقاً فى تاريخ دويلتهم، وقد تمخّض عن تلك الأغراض التوسعية ضم جميع نواحى نجد والأحساء وسواحل البحر الأحمر إلى نفوذهم، واستمر حكمه أحد عشر عاماً(۱) . وإليك بعض حروبه وغاراته على جدة،

والحرمين الشريفين على وجه الاختصار: محاصرة الوهابيين جدة ١٢١٩ هـ

ثم دخلت سنة ١٢١٩ هـ فاقبلت جيوش الوهابيين وعلى رأسها ابن شكبان والمضايفى باثنى عشر ألف مقاتل لحصار جدة، فأراد الشريف غالب تحصين مكة لعلمه بعدم قدرتهم على جدة، فنادى بالنفير العام، فخرج الناس على طبقاتهم إلى «الزاهر» حاملين السلاح، وبقوا هناك سبع ليال . _____

١ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم ص ٦٢ ـ ٦٣ بتصرف . (٣٧۴)

أمّا الذين حاصروا جدة فبقوا ثلاثة أيام يحملون عليها حملة واحدة، فيفرقهم المدفع ويقتل منهم فينهزمون إلى خيامهم، حتّى قتل الكثيرون منهم وامتلأت الحفر والقنوات من جيفهم، وكانوا يدفنون العشرة فى محل واحد، فلما رأوا ذلك ارتحلوا، وقتلوا فى طريقهم حيّاً من الأعراب، وأخذوا إبلا للشريف غالب، فجهز الشريف جيشاً بقيادة الشريف حسين للانتقام منهم، فهجموا عليهم فى منطقة تسمى «الليث» فغلبوهم، وقتل كثير من الوهابيين فى تلك الملحمة، واستهشد الشريف حسين، فعاود الشريف غالب إرسال الجند والكتائب عليهم حتّى يترصدوا لهم كل موضع، فهزموهم هزائم ساحقة، واقتطعوا الكثير من رؤوسهم، وعلقت على أبواب مكة للعبرة(١) . محاصرة مكة والمدينة سنة ١٢٢٠ هـ ثانياً

يقول زينى دحلان: ودخلوا مكة فى أواخر ذى القعدة سنة ١٢٢٠ هـ وتملكوا المدينة المنورة، على ساكنها أفضل السلام، وانتهبوا الحجرة (النبوية) وأخذوا ما فيها من الأموال، وفعلوا أفعالا شنيعة، وجعلوا على المدينة أميراً منهم يدعى «مبارك مزيان» واستمر حكمهم سبع سنين ومنعوا دخول الحاج الشامى والمصرى مع المحامل مكة، وصاروا يصنعون للكعبة ثوباً من العباء، وأكرهوا الناس على الدخول فى دينهم، وهدموا القباب الّتى على قبور الأولياء، وكانت الدولة العثمانية فى تلك السنة فى ارتباك كثير وشدّة قتال مع النصارى، وفى اختلاف فى خلع السلاطين وقتلهم(٢) . وقال الكاتب جبران شامية: إنّ سعود بن عبد العزيز حاصر المدينة المنورة وفعل بها ما فعله بالطائف ومكة(٣) . وقال السيد جواد العاملى: فى سنة ١٢٢١ هـ فى الليلة التاسعة من شهر _____

١ . الأمين ـ السيد محسن: كشف الارتياب، ص ٢٥ ـ ٢۶ .

٢ . زينى دحلان: فتنة الوهابية ص ٧٢، تاريخ الجبرتى ص ١١۶ ـ ١١٨ .

٣ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۶۵ نقلا عن خطط الشام . (٣٧۵)

صفر قبل الصبح بساعة، هجم علينا بالنجف الأشرف ونحن فى غفلة، حتّى بعض أصحابه صعدوا السور وكادوا يأخذون البلد، فظهرت لأميرالمؤمنين الكرامات الباهرة، فقتل من جيشه الكثير، ورجع خائباً، وله الحمد على كل حال(١) . وقال أيضاً: جاء سعود بن عبدالعزيز عام ١٢٢٣ هـ فى شهر جمادى الآخرة من نجد بما يقرب من عشرين ألف مقاتل، أو أزيد، فجاءتنا النذر بأنّه يريد أن يدهمنا فى النجف الأشرف غفلة، فتحذرنا منه، وخرجنا جميعاً إلى سور البلد، فأتانا ليلا فرآنا على حذر قد أحطنا بالسور بالبنادق والأطواب، فمضى إلى الحلة فرآهم كذلك، ثم مضى إلى مشهد الحسين على حين غفلة نهاراً، فحاصرهم حصاراً شديداً فثبتوا له خلف السور، وقتل منهم وقتلوا منه، ورجع خائباً، ثم عاث فى العراق فقتل من قتل، وبقينا مدة تاركين البحث والنظر على خوف ووجل، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلى العظيم، وقد استولى على مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتعطل الحج سنين وما ندرى ما يكون(٢) . ويظهر من غير واحد من المؤرخين أنّ الحج انقطع من العراق أربع سنين، ومن الشام ثلاث سنين، ومن مصر سنتين، ولا يعلم هل انقطع بعد ذلك أو لا. غزو الوهابيين لبلاد الشام

وقد غزا سعود منطقتى عسير وتهامة، ثم انسحب منهما وغزا كربلاء مرة ثانية عام ١٢٢٣ هـ ، فاستعصت عليه لأنّ أهلها حصنوها بعد الغزوة الأُولى، ثم هاجم البصرة والزبير وغنم بعض الأموال(٣) . وفى هذه السنة هجم ولد عبداللّه بن سعود على بلاد حوران فنهب

---

١ . العاملى ـ السيد جواد: مفتاح الكرامة، ج ۵ ص ۵١٢ .

۲ . نفس المصدر ج ۶ ص ۴۳۵ .

۳ . جبران شامیة: آل سعود ماضیهم ومستقبلهم ص ۶۵ . (۳۷۶)

الأموال، وأحرق الغلال، وقتل الأنفس البریئة، وسبی النساء وقتل الأطفال، وهدم المنازل وعاث فی الأرض فساداً(۱) . ویقول صلاح الدین المختار، وهو من المعجبین بآل سعود: فی السادس من ربیع الثانی عام ۱۲۲۵ هـ (۱۸۰۹ م) سار الأمیر سعود بثمانیة آلاف مقاتل إلی الدیار الشامیة، وقد بلغه أن عشائر سوریا من عنزة وبنی صخر وغیرهما قد نزلوا فی نقرة الشام، فلما وصلها لم یجد فیها أحداً، فتوجه بقواته إلی «حوران» وهاجم القری والدساکر وبصری، واستولی علی ما عثر علیه من مال ومتاع وطعام، وکان أهلها قد هربوا إلی مختلف النواحی عند ما سمعوا بقدومه، ثم هاجم الأمیر قصر المزریب فاستعصی علیه، وارتحل إلی بصری لیلا ومنها قفل عائداً إلی بلده ومعه غنائم کثیرة. وقال السید جواد العاملی: وفی سنة ۱۲۲۵ هـ قد أحاطت الأعراب من عنیزة القائلین بمقالة الوهابی بالنجف الأشرف ومشهد الحسین ـ علیه السَّلام ـ وقد قطعوا الطرق ونهبوا زوار الحسین ـ علیه السَّلام ـ بعد منصرفهم من زیارة نصف شعبان، وقتلوا منهم جمعاً غفیراً، وأکثر القتلی من العجم، وربما قیل إنّهم مائة وخمسون، وقیل اقل، وبقی جملة من زوّار العرب فی الحلّة ما قدروا أن یأتوا إلی النجف، فبعضهم صام فی الحلّة، وبعضهم مضی إلی الحسکة، ونحن الآن کأنّا فی حصار، والأعراب إلی الآن ما انصرفوا وهم من الکوفة إلی مشهد الحسین بفرسخین أو أکثر(۲) . وقد بلغ تعصب الوهابیین إلی حدّ حملهم علی قطع العلاقات التجاریة مع غیرهم، وکانت التجارة إلی عام ۱۲۶۹ هـ مع الشام والعراق محرمة(۳) . وکانوا إذا وجدوا تاجراً فی طریق یحمل متاعاً إلی المشرکین صادروا ماله(۴) . _____

۱ . الشهابی: لمع الشهاب، ص ۲۰۱ .

۲ . مفتاح الکرامة .

۳ . فاسیلیف: تاریخ العربیة السعودیة، ص ۱۰۵ .

۴ . ابن بشر: عنوان المجد فی تاریخ نجد، ج ۱، ص ۱۲۲ . (۳۷۷)

وفی سنة ۱۲۲۶ هـ أرسل محمد علی باشا، والی مصر ولده طوسون لتحریر الحجاز من الوهابیین، فصدوه فی الکرّة الأُولی، وتغلّب علیهم فی الثانیة، واستولی علی مکة والمدینة، وحاول أن یفتح نجداً، فلم یستطع. یقول ابن بشر: «وصلت النجدات المصریة عام ۱۲۲۷ هـ فزحف طوسون علی المدینة، وانضم إلیه کثیر من عرب جهینة وحرب، فحاصرها وقطع عنها المیاه، وکان فیها سبعة آلاف من أهل نجد، فدخل المصریون البلد، وقتل من النجدیین نحو أربعة آلاف(۱) . ثم تابع طوسون حتّی دخل مکة والطائف بمساعدة الشریف غالب من دون قتال عام ۱۲۲۹ هـ (۱۸۸۳ م) . وفی سنة ۱۲۲۸ هـ حج محمد علی باشا وعزل الشریف غالباً وأرسله منفیاً إلی سلانیک، وعیّن مکانه الشریف محمّد بن عون، فانتقلت الإمارة من فرع إلی آخر من أُسرة الأشراف، ومحمد بن عون هو جدّ الشریف حسین أبی فیصل ملک العراق وعبد اللّه ملک الأردن. یقول العلامة الشیخ محمّد جواد مغنیة: إنّ سعود بن عبدالعزیز أقام هیئة باسم الآمرین بالمعروف ومهمتها التجول فی الأسواق أوقات الصلاة، تخضّ الناس علی أدائها، وما زالت هذه الطریقة متبعة إلی الیوم عند السعودیین، واصبحت تحمل العصا وتجول فی الأسواق والشوارع تنهال ضرباً بها علی حلیق الذقن و من یلمس قبر الرسول، أو قبر إمام من أئمة البقیع، وغیر ذلک مما یخالف العقیدة الوهابیة، بل کانوا إلی الأمس القریب یضربون المدخنین علناً وإن کانوا غرباء عن الدیار(۲) . وقد هلک سعود فی الدرعیة عام ۱۲۲۹ هـ وهو فی الثامنة والستین من _____

۱ . ابن بشر، عثمان: عنوان المجد، ص ۱۶۰ .

۲ . مغنیة، محمد جواد: هذه هی الوهابیة، ص ۱۲۷ . (۳۷۸)

عمره، وکانت ولایته إحدی عشرة سنة أی من سنة ۱۲۱۸ هـ إلی سنة ۱۲۲۹ هـ وبذلک طویت صحیفة عمره السوداء وکانت حیاته کلها ملیئة بالحرب والدمار . * * * ۴- عبداللّه بن سعود (۱۲۲۹ هـ ـ ۱۲۳۴)

وتولى بعد سعود ابنه عبداللّه، ونازعه عمه عبداللّه بن محمد، وانقسمت الأسرة على نفسها، وفى هذه السنة ارسل الباشا عساكر كثيرة إلى ناحية القنفذة برّاً وبحراً، فاستولوا عليها وهرب من كان فيها من الوهابيين، وفى أول سنة ۱۲۳۰ هـ عاد إلى الطائف، ووقعت بينه وبين الوهابيين حروب كان النصر له فيها عليهم، واستولى عر تبة وبيشة ورينة، وقتل الكثير من الوهابيين، فاستسلم أهلها، ومنها استولى على تربة، وقضى فيها على آخر مقاومة وهابية، ثم عاد إلى مكة ومنها إلى القاهرة(۱) . بقى طوسون فى الحجاز بعد حملته إلى نجد .

تدمير الدرعية

وفى أوائل سنة ۱۲۳۴ هـ أرسل محمد على باشا ولده إبراهيم باشا إلى الحجاز، لإكمال محاربة الوهابيّين والاستيلاء على «الدرعية»، فتوجه بعساكر وأموال وذخائر كثيرة حتّى دخل مكة، ثم خرج منها بالعساكر قاصداً «الدرعية»، وجعل يملك كل أرض وصلها بلا معارضة، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر منهم وغنم خياماً ومدفعين(۲) . وفى سنة ۱۲۳۳ هـ ملك بلداً من بلاد الوهابيين وقبض على أميره، ثم استولى على الشقراء، وكان بها عبداللّه بن سعود، فخرج هارباً إلى «الدرعية» ليلا، وبينها وبين الشقراء يومان، ثم استولى إبراهيم باشا على بلد كبير من _____

۱ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۶۸ .

۲ . الأمين، السيد محسن: كشف الإرتياب، ص ۴۵ . (۳۷۹)

بلادهم ولم يبق بينه وبين «الدرعية»، إلاّ ثمان عشرة ساعة، ثم زحف على «الدرعية»، فملك جانباً منها، وحاصر الوهابيين وأحاط بهم(۱) . وقال جبران شامية: استمر الحصار خمسة أشهر، فكانت تتوإلى على إبراهيم باشا النجدات والذخيرة من مصر، والأرزاق والمواشى من البصرة والمدينة، وبقيت قبائل البدو التى انضمن إليه تناصره مادامت عطاياه مستمرة، وفى نهاية الشهر الخامس من الحصار، أى فى سنة ۱۲۳۴ هـ ، استسلم عبداللّه بن سعود لإبراهيم باشا فأرسله أسيراً للقاهرة ثم للآستانة، حيث طوفوه فى الأسواق ثم أعدموه، وقتل فى «الدرعية»، عدد كبير من آل سعود وآل الشيخ، ونفى قسم منهم إلى مصر، وبذلك انتهت الدولة السعودية الأُولى(۲) . ثم اقام إبراهيم باشا فى «الدرعية» سبعة أشهر، ثم أمر بتدميرها فاصبحت أثراً بعد عين(۳). وانتهت ستة أشهر من المعارك الطاحنة، وفقد السعوديون أثناء تلك المعارك زهاء عشرين من اقرباء الإمام بمن فيهم ثلاثة من إخوانه، وكتب إبراهيم باشا إلى القاهرة والآستانة بأنّ الوهابيين خسروا ۱۴ ألف من القتلى، و ۶ آلا من الأسرى، ومن بين الغنائم ۶۰ مدفعاً(۴) . بسبب هزيمة الوهابيين جرت فى القاهرة احتفالات بهية، أطلقت فيها نيران المدافع، وأجريت الألعاب النارية، وكان الناس يسرحون ويمرحون، وأعرب شاه إيران (فتح على شاه) فى رسالة إلى محمد على باشا عن تقديره لدحر الوهابيين(۵) . وقال العلامة الشيخ محمد جواد مغنية فى هذا المجال: _____

۱ . المصدر السابق .

۲ . جبران شامية: آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم ص ۶۹ .

۳ . المصدر السابق .

۴ . فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ۱۳۱ ـ نقلا عن ارشيف السياسة الخارجية لروسيا .

۵ . الجبرتى، طبع مصر، ص ۶۳۶ . (۳۸۰)

«وطغى إبراهيم باشا وبقى فى البلاد، وأكثر فيها الفساد، وصادر أموال آل سعود وآل محمد بن عبدالوهاب، وأجلى الكثير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم من الديار، ونفى الكثير منهم إلى مصر، وكان هذا جزاء وفاقاً لما فعلوه من قبل بأُمّة محمد ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ من المظالم والمآثم، وما ارتكبوه من الخيانة للّه وكتابه، وللنبى ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ وسنّته: وهكذا كل ظالم لا بد أن يبتلى بأظلم وأغشم(۱) . * * * (فَاعْتَبِرُوا يا أُولى الأَبصارِ)(۲) . _____

۱ . الشيخ محمد جواد مغنية: هذه هى الوهابية، ص ۱۲۹ .

۲ . سورة الحشر: الآیة ۲ . (۳۸۱) الفترة الثانیة للإمارة القبلیة السعودیة

قد هرب کثیر من کبار الوهابیین عندما ملک إبراهیم باشا «الدرعیة»، فلما ارتحل عنها رجعوا إلیها، منهم عمر بن عبدالعزیز وترکی ابن أخی عبدالعزیز، ومشاری بن سعود، فعمروا «الدرعیة» ورجع أکثر أهلها، فجهّز محمد علی باشا عسکراً بإمرة حسین بک، فقبضوا علی مشاری الّذی کان قد انتخب رئیساً لـ«الدرعیة» وأرسلوه إلی مصر فمات فی الطریق، وتحصّن الباقون فی قلعة الریاض، بینها وبین «الدرعیة» أربع ساعات، فحصارهم حسین بک ثلاثاً فطلبوا الأمان فآمنهم فخرجوا (إلّا ترکیاً فهرب من القلعة لیلا) فقیدهم وأرسلهم إلی مصر. ۵- ترکی ابن أخی عبدالعزیز (۱۲۳۹ ـ ۱۲۵۰ هـ)

عاش ترکی ابن أخی عبدالعزیز مختفیاً طوال عدة سنوات فی المناطق الجنوبیة، وکان یتجول فی صحراء نجد داعیاً العربان إلی إحیاء مجد الأسلاف، وتزوج أثناء تجواله بامرأة من آل تامر، ولدت له ذکراً أسماه جلوی، فتجمع حول ترکی ثلاثون رجلا ثم انضمت إلیه بعض القبائل، وفی تلک الأثناء بدأت فی القسیم انتفاضة ضد المصریین إلی حدٍّ ألجأهم إلی الجلاء إلی الحجاز، وترکوا حامیتین فی الریاض ومنفوحة(۱) . _____

۱ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ۲، ص ۱۲ . (۳۸۲)

وانتهز ترکی فرصة ضعف المواقع المصریة فی نجد فی عامی ۱۲۳۹ و ۱۲۴۰ هـ فوسّع نفوذه فی المنطقة المحیطة بالریاض ومنفوحة، وعزل الحامیتین المصریتین، وبعد عدة شهور سقطت الریاض بید ترکی، وتمّ جلاء المصریین عن نجد، وأعلنت بعض مناطق القصیم عن اعترافها بحکم ترکی، فترکی إذاً هو الأمیر السعودی الوهابی الأول من الفرع الثانی لمحمد بن سعود، وبه انتقلت الإمارة من سلالة عبدالعزیز بن محمد بن سعود إلی سلالة أخیه عبداللّه بن محمد بن سعود، وما زالت فیها إلی الیوم(۱) . ولکنه نشب خلاف فی العائلة السعودیة، فتمرد مشاری بن عبدالرَّحْمن بن مشاری بن سعود مع بعض أفخاذ قبیلة قحطان علی الأمیر، فکبر علی نسل عبد العزیز أن تخرج الإمارة منهم، فدبّر مشاری أمر اغتیال ترکی، وتم له ذلک، ونادی مشاری بنفسه أمیراً . ۶- مشاری بن عبدالرحمن (۱۲۵۰ هـ)

قال جبران شامیة: انتهت ولایة الإمام الخامس ترکی بن عبد اللّه اغتیالا علی ید ابن عمّه مشاری بن عبد الرحمان، الّذی استولی علی السلطة وأصبح الإمام السادس، ودام حکم مشاری أربعین یوماً، إذ زحف فیصل بن ترکی من الهفوف إلی الریاض بمساعدة عبداللّه، وعبیداللّه، من آل الرشید شیوخ حائل، واستولی علی المدینة وأعدم مشاری، وأصبح فیصل الإمام السابع فی العائلة السعودیة. ۷- فیصل بن ترکی (۱۲۵۰ ـ ۱۲۵۳ هـ)

تولی فیصل بن ترکی الحکم بعد أبیه وهو فی حوالی الأربعین من العمر، فی أوج نضوج قابلیاته الجسمانیة والروحانیة، وأصبح یتقبل البیعة من أهالی العاصمة، ولکن محمد علی باشا لم یمهله طویلا، فأرسل حملة کبری إلی نجد ومعها خالد بن سعود، الّذی کان مع السعودیین المنفیین بمصر، فدخل جیش _____

۱ . ابن بشر: عنوان المجد، ج ۲ ص ۲۶ ـ ۳۰ . (۳۸۳)

محمد علی باشا واستولی علی العاصمة بلا مقاومة، بعد أن فرّ منها فیصل، ثم أسر ونفی إلی مصر، وأقام المصریون فیها خالد بن سعود حاکماً مکان فیصل، وکان ذلک سنة ۱۲۵۳ هـ . وکانت الحجاز لم تزل بید محمد علی، وکان من أعوانه خالد أصغر أبناء سعود الکبیر، وأخو الإمام عبد اللّه الّذی استسلم لإبراهیم باشا فی الحملة المصریة الأُولی وأُعدم فی استنبول . ۸- خالد بن سعود (۱۲۵۳ ـ ۱۲۵۵ هـ)

نشأ خالد بن سعود فی القاهرة فی کنف محمد علی، الّذی أعدّه لیتولی الحکم فی الجزیرة العربیة نیابة عنه، وکان لخالد أنصاره الذین لم یرضوا عن انتقال الإمامة عن أولاد سعود الکبیر إلی أولاد عبد اللّه بن محمد(۱) . وجد فیصل أنّ أهل الریاض وقبائل کثیرة مالت إلی الأمیر خالد، لأنّه کان یمثّل نزعة دینیة بحکم تثقفه فی القاهرة، وذلک ممّا دعا فیصل إلی ترک الریاض، ودخل الأمیر خالد الریاض سنة ۱۲۵۳ هـ . فأعاد الحکومة إلی فرع سعود الکبیر، وأصبح الأمیر الثامن، فاستمر خالد فی الإمارة سنتین . ۹- عبد اللّه بن

ثنیان (۱۲۵۵ ـ ۱۲۵۸ هـ)

ثم ثار علیه عبد اللّه بن ثنیان مع النجدیین، فأرادوا الفتک به فهرب إلی مکة، ثم مات(۲) . ولمّا بلغ ذلک فیصلا وهو محبوس بمصر، استطاع أن یهرب لیلا من القلعة ومن معه، حتّی وصلوا جبل شمر مقر عمارة ابن الرشید، فأکرمهم وتوجهوا إلی القصیم فانضاف إلیهم کثیر منهم. إلی أن استطاع بعون أهالی عنیزة أن یقاتل ابن ثنیان فی الریاض ، _____

۱ . أبو علیة، عبد الفتاح: الدولة السعودیة الثانیة، ص ۴۱ .

۲ . الأمین، السید محسن: کشف الارتیاب ص ۴۷ ـ نقلا عن خلاصة الکلام لزینی دحلان . (۳۸۴)

فقبضوه وحصروا علیه، ثم قتل فی الحبس خنقاً فی سنة ۱۲۵۸ هـ . ۱۰- فیصل بن ترکی (۱۲۵۸ ـ ۱۲۷۸ هـ)

صار بعد ذلک فیصل سیداً فی دیاره لمدة تقرب من عشرین عاماً، وفی سنة ۱۲۶۲ هـ صدر الأمر من الدولة العثمانیة بتجهیز العساکر لمحاربة فیصل بن ترکی أمیر الریاض، لأنّه استفحل أمره ویخشی أن یقع منه ما وقع من أسلافه، وأن یکون ذلک برأی الشریف محمد بن عون أمیر مکة المکرمة، فتوجه الشریف مع العساکر من المدینة حتّی وصل جبل شمر، فسار معه أمیره ابن الرشید بکثیر من القبائل، ولما وصلوا القصیم أطاعهم أهله، فخاف فیصل فأرسل لأهل القصیم أن یتوسط فی الصلح علی تأدیة عشرة آلاف ریال فی کل سنة، فتم الصلح، ورجع الشریف بالعساکر، واستمرّ فیصل یدفع ذلک حتّی مات سنة (۱۲۸۲ هـ)(۱) . ولکنه بعد ما أُصیب بالشلل وقد البصر، سلّم الأُمور لابنه عبداللّه، وبعدما مات نشبت حرب أهلیة بین أولاده الأربعة، وهم عبداللّه وسعود ومحمد وعبدالرَّحمن، وعمّت الفوضی البلاد. ۱۱- عبداللّه بن فیصل الترکی (۱۲۷۸ هـ ـ ۱۲۸۴ هـ)

کان فیصل قد بایع ولده الأکبر عبداللّه بولایة العهد مطابقاً للتقالید المتّبعة فی البیت السعودی، ولکن نشبت الحروب الأهلیة بین أولاده الأربعة وهم: عبداللّه وسعود ومحمد وعبدالرحمن، وعمّت الفوضی فی البلاد، وقد نازع سعود أخاه عبداللّه وثار علیه، واستمرت الحروب الأهلیة بین الطرفین، ونشبت الفتن والقلاقل واستمرت ۲۵ عاماً، ممّا أدی إلی ضعف الإمارة وذهاب سلطانها، وانتفاضة حکام المقاطعات علیها، واستقلال کلّ بدویلته واحتل الأتراک الأحساء والقطیف(۲) واستمرّ الصراع داخل أُسرة آل سعود، وظهر عبداللّه فی الأراضی المحتلة من قبل الأتراک، وطرد سعود من الریاض موقتاً، _____

۱ . جبران شامیة: آل سعود، ماضیهم ومستقبلهم، ص ۷۸ .

۲ . وهبة ـ حافظ: خمسون عاماً فی جزیرة العرب، ص ۲۴ . (۳۸۵)

ففی سنة ۱۲۸۳ هـ عاد عبداللّه من جدید إلی الریاض إلّا أنّ الوضع فی الإمارة کان میؤوساً منه فالمجاعة مستمرة، وکان الناس یأکلون جیف الحمیر ویحرقون جلود الماعز ویدقونها، بل کانوا یدقون العظام ویأکلون مسحوقها، ومع هذا فمن لم یمت بالسیف مات جوعاً(۱) . ۱۲- سعود بن فیصل ترکی (۱۲۸۴ هـ ـ ۱۲۹۱ هـ)

وفی العام القادم ۱۲۸۴ هـ عاد سعود مجدداً إلی الریاض، واستمرت المعارک سجالا بین الأخوین واقترنت کالعادة بالنهب والقتل، ولکن عبداللّه بن فیصل کان یعتمد علی الأتراک، بینما یعتمد سعود علی الإنجلیز، حتّی أنّهم أرسلوا أغذیة له، وبعد طائفة من الأحداث استتب الأمر إلی سعود، ودخل الریاض فی محرم ۱۲۹۰ هـ و توفی بعده بعام ۱۲۹۱ هـ وأمّا عبدالله فقد تنازل عن الحکم وترک الریاض هو وأخوه محمد، ورحل إلی مقربة من الکویت واستقرّ فی بادیة قحطان، ثم ترکها بعد أن رفضوا الخوض فی معرکة جدیدة یکونون حطبها بلا فائدة، ولما توفی سعود أخذ الحکم مکانه أخوه عبد الرَّحمن الّذی کان یمیل إلی سعود بعکس محمد، فحکم لمدة عامین، ثم تلاها حرب بینه وبین أخیه محمد الّذی کان یکبره سناً، فوقعت معرکة بینهما فی ثرمدا فی غرب الریاض، وعاد الأمر من جدید للتوتر، حتّی وافق الاثنان علی أن یتولی الحکم أخوهم الکبیر عبداللّه، فعاد هذا الأخیر من البادیة واستلم الحکم عام ۱۲۹۳ هـ حتّی عام ۱۳۰۵ هـ ولم یقبل أبناء سعود أن یتولی عمّهم الکبیر عبداللّه، فغادروا الریاض احتجاجاً علی ذلک، واستقروا فی «الخرج». وعندئذ توجه عبد الرحمن خوفاً من أبناء أخیه إلی عبداللّه، فقرر الإخوة الثلاثة (عبداللّه ـ محمد - عبدالرحمن) تشکیل

جبهة واحدة بزعامة عبداللّه ضد أولاد سعود الذين تمكنوا من السيطرة على الرياض بضعة أسابيع، ثم فرّ أولاده ودخل عبداللّه الرياض من جديد، وبقى فيها إلى أن مات عام ۱۳۰۵ هـ. _____

۱ . الريحانى ـ أمين: تاريخ نجد الحديث، ص ۹۹ . (۳۸۶) ۱۳- عبدالرحمن بن فيصل

ولما توفى عبدالله أخذ أخوه عبدالرحمن الأمر بيده، وأعلن نفسه أميراً خلفاً لأخيه عبداللّه، ولم يطل الوقت حتّى اختلف عبدالرحمن مع أولاد سعود، ومن جانب آخر جنحت قبائل نجد لمحمد بن الرشيد مع أنّه لم يكن وهابياً بل كان حليفاً للخليفة العثمانى، الّذى يتبع المذهب الحنفى ويستمد منه المال والسلاح(۱) . ولما رأى عبدالرحمن قوة ابن الرشيد شعر أنّه بين أمرين: إمّا أن يحارب ابن الرشيد وإمّا أن يخضع له كموظف عنده، ولا طاقة له على الأُولى ولا تطيقه نفسه على الثانية، فلم يبق أمامه إلاّ الرحيل، فرحل عن نجد بأهله سنة ۱۳۰۹ هـ وظل منتقلا فى الأمصار، فذهب أولا إلى الأحساء، ثمّ إلى الكويت، ثمّ إلى قبائل بنى مرة قرب الربع الخالى، ثم إلى قطر ومنها عاد إلى الكويت، واستقرّ فيها مع عائلته وأولاده ;وكان عمر ولده عبدالعزيز عشر سنوات، وعين له أمير الكويت الشيخ محمد بن الصباح مرتباً إلى أن خصصت له الدولة العثمانية ستين ليرة عثمانية فى الشهر(۲) . فقطع ابن الصباح عنه المرتب، وعاش هو وأفراد عائلته فى شدة وضيق(۳) وبذلك انتهت الدولة السعودية الثانية . يقول بعض المؤرخين: «إنّ الوهابية فقدت صيتها وبريقها لما توسّعت فوق طاقتها فانهزمت، وهكذا خسروا الأرض والحركة الوهابية». لم يكرم الشيخ مبارك الصباح ضيافة آل سعود فى الكويت، فسكنوا ثلاث غرف من طين فى أحد أزقة الكويت، ومع ذلك كان آل سعود خلال إقامتهم فى الكويت مدة سبعة أو ثمانية أعوام متعاونين مع الشيخ مبارك حسبما تمليه مصالحهم، لقد كانت مجالس الشيخ مبارك بالنسبة إلى الشاب عبدالعزيز _____

۱ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۸۱ ـ ۸۲ .

۲ . الريحانى: تاريخ نجد الحديث، ص ۹۱ .

۳ . مغنية ـ محمد جواد: هذه هى الوهابية، ص ۱۳۲ ـ ۱۳۳ . (۳۸۷)

مدرسة تلقى مما يدور فيها من الأحداث، ولعلّ أهم درس وعاه هو الحذر عند التعامل مع القوى الدولية، والنظر بعين الاعتبار لمركز بريطانيا المتفوق(۱) . _____

۱ . السعدون ـ خالد: العلاقات بين نجد والكويت، ص ۶۷ .

الفترة الثالثة للإمارة القبلية السعودية

الفترة الثالثة للإمارة القبلية السعودية

ذات يوم جاء الفتى عبدالعزيز إلى الشيخ مبارك وقال له: أريد أن أنقذ نجداً من ابن الرشيد فهل تساعدنى بالمال والعتاد؟ فأعطاه الشيخ مائتى ريال وثلاثين بندقية وأربعين جملا وبعض الزاد، فأخذها ومضى هو وأرحامه وأصحابه، ورافق عبدالعزيز أخوه محمد وابن عمه عبداللّه بن جلوى وبعض أتباعهم وعددهم نحو أربعين رجلا(۱) . سارت الجماعة متخفّية حتّى وصلت ضواحى الرياض وغافلت حراسها، وذلك فى ۳ شوّال سنة ۱۳۱۹ هـ ، ودخلت المدينة خلسة، وقتلت قائد الحامية الشمرى عبدالرَّحْمن بن ضبعان، فاستسلم رجاله وخضعت الواحة لآل سعود، فأرسل عبدالعزيز ناصر بن سعود إلى الشيخ مبارك مبشراً وطالباً المدد، ثم بنى سوراً حول الرياض، ثم دامت مساعدات شيخ الكويت واستتبّ له الأمر. ۱۴- عبدالعزيز بن عبدالرحمن (۱۳۱۹ ـ ۱۳۷۳ هـ)

وبعد هذا صار عبدالعزيز حاكماً للرياض وهو فى الثانية والعشرين، وظل أبوه مستشاراً رئيسياً له وإماماً للمسلمين(۲).

---

۱ . السعدون خالد: العلاقات بين نجد والكويت، ص ۶۸ .

۲ . المصدر السابق . (۳۸۹)

اتصلت الدولة العثمانية بعبد العزيز بن سعود بواسطة الشيخ مبارك ودعته لإرسال والده عبدالرّحمن لمفاوضة والى البصرة، ولبّى عبدالرّحمن الدعوة ووصل إلى الكويت ومنها إلى الزبير برفقة الشيخ مبارك، حيث عقدت الجلسة الأُولى من المباحثات عام ۱۳۲۲ هـ وتوصل الفريقان إلى اتفاق تضمن إقرار العثمانيين بسيطرة عبدالعزيز على مناطقه بوصف أنّه موظف عثمانى برتبة قائم مقام، وتعهّد العثمانيون بمنع آل الرشيد عن التدخل فى شؤون إمارة آل سعود(۱) . عبدالعزيز يتحالف مع الإنكليز

انتهز عبدالعزيز الفرصة فاجتمع لأول مرة فى سنة ۱۳۲۸ هـ برسمى بريطانى هو المعتمد فى الكويت، أعنى «ويليم شكسبير» ونشأت بينهما مودة وتقدير متبادل، واجتمعا ثانية سنة ۱۳۳۰ هـ ، وكذلك فى ربيع الأول ۱۳۳۱ هـ وشرح عبدالعزيز لمندوب بريطانيا بأنّ الوقت مناسب لتخليص نجد والأحساء نهائياً من السيطرة العثمانية . تمكّن شكسبير من إجراء مباحثات سياسية مع عبدالعزيز، فوضع مسودة معاهدة التزم الإنكليز بموجبها بضمان مواقع أمير الرياض فى نجد والأحساء، وحمايته من الهجمات العثمانية المحتملة من جهة البحر والبر إذا التزم بمساعدة الحلفاء، وتخلى الإنكليز عن سياستهم القديمة، والتزموا بعدم التدخل فى الشؤون الداخلية لشبه الجزيرة العربية، والتزم عبدالعزيز بعدم إقامة علاقات مع البلدان الأُخرى بدون مشاورة تمهيدية مع السلطات البريطانية، وتبين الدراسة التى أجراها «تلولير» لوثائق الأرشيفات الإنكليزية، أن عبدالعزيز كان يدرك بدقة مضامين السياسة البريطانية فى الجزيرة العربية(۲) . وجاء فى المعاهدة أنّ ابن سعود يتعهّد أن يمتنع عن كل مخابرة أو اتفاق أو معاهدة مع أية حكومة أو دولة أجنبية، وأنّ أمير نجد لا يمكن أن يتنازل عن _____

۱ . فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ۲۱۵ .

۲ . الأمين، السيد محسن: كشف الارتياب، ص ۴۸ . (۳۹۰)

الأراضى أو جزء منها، ولا أن يؤجرها أو يرهنها أو يتصرف بها بأىّ شكل، ولا أن يقدمها على سبيل الامتياز إلى أيّة دولة أجنبية، أو إلى أحد من رعايا دولة أجنبية بدون موافقة الحكومة البريطانية. وجاء فى المادة السادسة أنّ ابن سعود يتعهّد كما تعهّد والده من قبل بأن يمتنع عن كل تجاوز وتدخل فى أرض الكويت والبحرين وأراضى مشايخ (قطر) وعمّان وسواحلها، وكل المشايخ الموجودين تحت حماية الإنكليز، والذين لهم معاهدات معها، ولم يرد فى المعاهدة شىء عن الحدود الغربية لنجد، وهكذا فرضت هذه المعاهدة، الحماية البريطانية على نجد وتوابعها، وصارت هذه المعاهدة جزءاً من شبكة النفوذ البريطانى الّتى أرادت لندن فرضه على القسم الأكبر من الشرق الأوسط، وعلى أيّة حال على الجزيرة العربية كلّها بعد الحرب العالمية الأولى . ثم استلمت نجد من عام ۱۳۴۴ هـ مقابل توقيع المعاهدة مؤونة شهرية بمبلغ ۵ آلاف جنيه استرلينى مع إرساليات معينة من الرشاشات والبنادق(۱) . وكما كان ابن الرشيد حليفاً مخلصاً للأتراك، فقد كان عبدالعزيز حليفاً دائماً وصديقاً وفيّاً للإنكليز، فكان يذكرها ويشكرها فى خطبه وغيرها، وهذا مثال من أقواله «بحق الانكليز» جاء فى خطبة ألقاها بمكة المكرمة عام ۱۳۶۲ هـ . «ولا يفوتنى فى هذا الموقف أن أتمثّل بأنّ من لم يشكر الناس لم يشكر اللّه، فأثنى على الجهود الّتى قدّمتها الحكومة البريطانية بتقديم بواخر الحجاج وتسهيل سفرهم، كما أثنى على مساعدتها ومساعدة الحلفاء القيمة، ومتابعتهم تموين البلاد بما يحتاجه الأهالى من أسباب المعيشة وغيرها، وكذلك لابدّ من الإشارة إلى أنّ سيرة البريطانيين معنا طيبة من أول الزمن إلى آخره» . يقول العلامة الشيخ محمد جواد مغنية بعد نقل هذا الكلام :

---

۱ . فاسيليف: تاريخ العربية السعودية، ص ۲۵۱ ـ ۲۵۲ . (۳۹۱)

«ويعلم الصغير والكبير أنّ الإنكليز والحلفاء وأية دولة استعمارية يستحيل أن تفعل شيئاً بقصد الخير والإنسانية، وإذا فعلت مع بلد أو بلدان ما يبدو كذلك فإنّما تتخذ منه وسيلة إلى التسرب إلى أسواقه والسيطرة على مقدراته. إنّ الاستعمار يوافق ويتصنع ليمتص دماء الشعوب . وغريب أن تخفى هذه الحقيقة على الملك عبدالعزيز، وأن يقول ـ وهو الوهابى الّذى يصلّى فى أول الوقت حتّى فى بيت عدوه عجلان ـ من لم يشكر الناس (أى الإنكليز) لم يشكر اللّه، وهذا مع العلم بأنّ الوهابية تقول بفساد الصلاة عند قبر نبى أو ولى،

لأنّها تكون مشوبة بعبادة صاحب القبر، إذاً كيف ربط الملك عبد العزيز شكر اللّه بشكر الإنكليز بحيث لا يقبل الأول بدون الثانى، وبعد أن ضعف الإنكليز حلّ محلهم الأمريكيون(۱) . التوسع السعودى بعد التعاون مع بريطانيا

ترافقت هذه الفترة مع تطورات دولية عملت لمصلحة آل سعود، فقد انتهت الحرب العالمية الأُولى واستسلمت تركيا عام ۱۳۳۷ هـ، وتبعتها ألمانيا، فانقطع دور تركيا فى الجزيرة العربية، وانفردت بريطانيا بالتحكم بشؤون المنطقة . ومن ناحية أُخرى نجد بريطانيا قد خانت وعودها للهاشميين بإنشاء الدولة العربية الكبرى فى الشمال، وصارت تسعى للتخلص منهم ومن وعودها لهم، فتوجه عبدالعزيز ضدهم فى هذه الفترة الّتى شهدت احتلال آل سعود للحائل، ثم للحجاز وعسير، واختلطت السياسة بالدين(۲) . هجوم الوهابيين على الحجاز

فى سنة ۱۳۴۰ هـ غزا الوهابيون عرب الفرع من قبيلة حرب فى عقر دارهم فى الحجاز، ونهبوا المواشى، فجاء النذير إلى أهل الفرع فلحقوهم _____

۱ . مغنية ـ محمد جواد: هذه هى الوهابية، ص ۱۳۵ - ۱۳۶ .

۲ . جبران شامية ـ آل سعود، ماضيهم ومستقبلهم، ص ۱۱۴ ـ ۱۱۵ . (۳۹۲)

واستخلصوا منهم ما نهبوه، وقتلوا منهم، وغنموا جميع ما معهم وولوا منهزمين، ومن جملة ما غنموه أعلام وبيارق، فدفعوها إلى الملك حسين وانقطع مجيء أعراب نجد إلى الفرع لاكتيال التمر، فحصل بذلك ضيق على أهل الفرع بسبب كساد تمورهم الّتى كان يشتريها النجديون»(۱) . قتل الوهابيون الحجاج اليمانين سنة ۱۳۴۱ هـ

فى هذه السنة التقى الوهابيون بالحجاج اليمانين وهم عزل من السلاح وجميع آلات الدفاع، فسايروهم فى الطريق وأعطوهم الأمان، ثم غدروا بهم لمّا وصلوا إلى سفح جبل، مشى الوهابيون فى سفح الجبل واليمانيون تحتهم، فعطفوا على اليمانيين وأطلقوا عليهم الرصاص حتّى قتلوهم عن بكرة أبيهم، وكانوا ألف إنسان، ولم يسلم منهم غير رجلين هربا وأخبرا بالحال(۲). هجوم الوهابيين على الحجاز عام ۱۳۴۳ هـ

وقد هجم الوهابيون فى هذه السنة على الحجاز وحاصروا الطائف، ثم دخلوها عنوة وأعملوا فى أهلها السيف، فقتلوا الرجال والنساء والأطفال حتّى قتلوا منهم ما يقرب من الفين، بينهم العلماء والصلحاء، وأعملوا فيها النهب، وعملوا فيها من الفظائع ما تقشعر منها الجلود، نظير ما عملوه فى المرة الأولى، حتّى أنّ السلطان عبد العزيز بن سعود لما سئل عنها لم ينكر وقوعها، لكنه اعتذر بما وقع من خالد بن الوليد يوم فتح مكة، وقول النبىّ: اللّهمّ إنّى أبرأ إليك مما صنع خالد(۳) . أصبح الحجاز بعد معركة الطائف مفتوحاً أمام عبدالعزيز، لكنه تباطأ بالزحف على مكة حتّى يستكشف نوايا الإنكليز الذين كانوا أنذروه وطلبوا منه التوقف عن القتال، لكن سياسة بريطانيا كانت قد تغيرت خلال هذه المدة، _____

۱ . الأمين ـ السيد محسن: كشف الارتياب، ص ۵۰ .

۲ . الأمين ـ السيد محسن: كشف الارتياب، ص ۵۴ .

۳ . الأمين ـ السيد محسن: كشف الارتياب، ص ۵۲ . (۳۹۳)

وأصبحوا يريدون التخلص من الملك حسين وأولاده فى الحجاز، حتّى يكفوا عن مطالبتهم بتنفيد تعهداتهم لعرب الشمال، وكانت وسيلتهم المفضلة أن يضربوا العرب بالعرب، وكان عبدالعزيز أداتهم فى تلك السياسة(۱). هجوم الوهابيين على شرقى الأردن

وفى سنة ۱۳۴۳ هـ هجمت جماعة من الوهابيين فجأة على أعراب شرقى الأردن الآمنين، فهجموا على أُم العمد وجوارها، فقتلوا ونهبوا، ومالبثوا أن ارتدّوا مدحورين مأسورين، وإنّ الدبابات والطائرات الإنكليزية اشتركت فى قتالهم مع عرب شرقى الأردن، وانجلت المعركة عن قتل ثلاثمائة من الوهابيين بأمر من الإنكليز . استيلاء الوهابيين على مكة المكرمة سنة ۱۳۴۳ هـ

كان الملك حسين يظن أنّ الإنكليز سيتدخلون لإنقاذه على نحو ما فعلوا فى شرقى الأردن فى الشهر الماضى، فأرسل برقية إلى المستر

بولارد القنصل البريطاني فی جدة ذكر فيها أنّ الحالة حرجة، وأنّ علاقته بالحكومة البريطانية تجعله يطلب منها الاهتمام بصد ابن سعود، وتجنّب ما وقع فی الطائف، وهو يأمل منها النظر فی طلبه باسرع ما يمكن، فأبرق القنصل إلى حكومته فی لندن فوافاه الجواب أن الحكومة البريطانية متمسكة بسياستها فی عدم التدخل فی الأُمور الدينية ـ وهی لذلك ـ لا تريد أن تتدخل فی أی نزاع بشأن امتلاك الأماكن المقدسة فی الإسلام(۲) . وفی الوقت نفسه كتب الدكتور «ناجی الأصيل» مندوب الحسين فی لندن رسالة إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول فيها: «إنّ صاحب الجلالة الهاشمية يناشد الحكومة البريطانية ـ طبقاً لروح المعاهدة الّتی هی تحت المفاوضة ـ أن تتدخل لوضع حدّ للاعتداء الوحشی الّذی يقوم به الوهابيون ضد الأماكن المقدسة، وإخراجهم من الطائف . _____

۱ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۱۳۴ .

۲ . دائرة الوثائق العامة فی لندن (أف، أو رقم ۳۷۱ ـ ۱۰۰۱۴) . (۳۹۴)

فوافاه الجواب: إنّ الحكومة البريطانية لا تريد أن تتورط فی النزاع القائم بين أُمراء عرب مستقلين، حول امتلاك الأماكن المقدسة فی الإسلام» . ثم رد ناجی الأصيل على جواب وزراة الخارجية فی ۲ تشرين الأول وقال: إنّ ما قام به شعب الحجاز من مخاطرة كبرى فی تأييد بريطانيا فی الحرب العامة يستدعی من بريطانيا مساعدتها له فی إنقاذ مكة من ويلات الحرب، وإنّ العالم الإسلامی لا يرضی أن تقع الأماكن المقدسة ولو لفترة قصيرة جدّاً فی أيدی طائفة كالوهابية(۱) . تنازل الحسين عن العرش لصالح ولده على

ارتأت الحكومة البريطانية حفاظاً على مصالحها فی المنطقة خلع الأُسرة الهاشمية عن الحرمين الشريفين، حتّى تحلّ محلّها السلطة الوهابية، ولأجل ذلك استعملت بريطانيا جميع وسائل الضغط لتجبر الملك حسين على التنازل عن العرش، وعلى رأسها قطع المساعدات المالية عنه، حتّى عجز عن دفع رواتب الضباط والجنود(۲) . أصبح وضع الحسين ميؤوساً منه، فاجتمع أعيان الحجاز ومنهم أشراف مكّة وعلماء الدين وكبار التجار فی جدة، وقرروا خلع الحسين لترضية ابن سعود، وبعد أخذ ورد، وافق الحسين على التنازل عن العرش لولده الّذی نصب ملكاً على الحجاز فی ۶ تشرين الأول (عام ۱۹۲۴ م) الموافق ۱۳۴۳ هـ، وبعد ثلاثة أيام أرسل الحسين مع أمتعته إلى جدة لكن الحكومة البريطانية تضايقت من وجوده هناك، فأرسلت إليه إنذاراً بمغادرة المدينة تلبية لطلب عبد العزيز، وابلغته بأنّ عليه أن يسافر إلى قبرص، حتّى مات هناك عام ۱۹۳۱ م ۱۳۵۰ هـ ونقلت جنازته إلى الأردن فدفن فی المسجد الأقصى، وانتهت بذلك حقبة محزنة من تاريخ العرب(۳) . _____

۱ . نفس المصدر .

۲ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۱۳۵ .

۳ . جبران شامية: آل سعود ماضيهم ومستقبلهم، ص ۱۳۵ . (۳۹۵)

دخل الوهابيون مكة بغير قتال بعدما خرج الملك حسين وولده منها إلى جدة، فنهبوا داره واستولوا على جميع ما يؤول إليه، ثم قامت الحرب بينهم وبين الملك على المتحصن فی جدة، وانقطع الحج فی تلك السنة، وعين خالد بن لؤی حاكماً على مكة ثم انطلق الوهابيون وفرضوا على السكان حضور صلاة الجماعة خمس مرات فی اليوم، كما منعوا التدخين وقراءة المولد النبوی وزيارة القبور، ومن يشاهدونه يفعل ذلك يشتمونه ويضربونه، وربما ساقوه إلى الحبس أو فرضوا عليه الغرامة(۱) . دخل عبد العزيز مكة المكرمة، واستعرض الجيش، واجتمع مع العلماء وفرض عليهم اعتناق الأُصول الّتی جاء بها محمد بن عبدالوهاب، وكان يقول وهو يحارب الملك عليّاً: إنّه ما جاء إلى الحجاز إلّا لينقذه من ظلم الأشراف، ولا يريد تملكه وإنّما يجعل مصيره إلى رأی عموم المسلمين . وهذا هو الأسلوب الماكر لجميع الدهاة إذا تغلبوا على قطر من الأقطار، حتّى أنّ دولة إسرائيل الغاشمة بعدما استولت على أراض جديدة عام ۱۹۶۷ م كانت تقول بأنّها لا تريد الاستيلاء عليها . اكتساح قبور البقيع

لما استتبّ الأمر لعبد العزيز وملك الحجاز قاطبة، عمد إلى تخريب المعالم الإسلامية فی مكّة وجدّة والمدينة، فخربوا فی مكة قباب عبدالمطلب جدّ النبیّ، وأبی طالب عمّه، وخديجة أُم المؤمنين، وخربوا مولد النبی ومولد فاطمة الزهراء ـ عليها السَّلام ـ ، ولما دخلوا

جدّة هدموا قبة حواء، وخربوا قبرها بل خربوا فی هذه البلاد کل القباب والمزارات والأمکنة الّتی یتبرک بها، ولما حاصروا المدینة هدموا مسجد حمزة ومزاره، لوقوعهما خارج المدینة المنورة(۲) . یقول الدکتور علی الوردی أُستاذ علم الاجتماع فی جامعة بغداد:

---

۱ . الریحانی .

۲ . الأمین، السید محسن: کشف الارتیاب ص ۵۵ . (۳۹۶)

کان البقیع مقبرة المدینة فی عهد النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ وما بعده، دفن فیه العباس والخلیفة عثمان، وزوجات النبی والکثیر من الصحابة والتابعین، کما دفن فیه أربعة من أئمة أهل البیت ـ علیهم السَّلام ـ هم الحسن بن علیّ، وعلیّ بن الحسین، ومحمّد بن علیّ وجعفر بن محمّد، وقد صنع الشیعة لقبور هؤلاء الأربعة ضریحاً باهراً یشبه الأضرحة المعروفة فی العراق وإیران، لکن علی نطاق أصغر، واعتاد الشیعة أن یزوروا هذا الضریح فیقبلونه ویتبرکون به ویصلّون عنده، علی نحو ما یفعلون فی أضرحة العراق وإیران(۱) . ظلّت هذه القبور سلیمة أکثر من أربعة أشهر دون أن یمسّها أحد بسوء، ولکن اتّهم ابن سعود فی تنفیذ مبدأ الوهابیة لإبقائه علیها، فاضطر ابن سعود فی شهر رمضان سنة ۱۳۴۴ هـ إلی إرسال کبیر علماء نجد عبداللّه بن بلیهد من مکة إلی المدینة للعمل علی هدم القبور، وعندما وصل ابن بلیهده إلی المدینة اجتمع بعلمائها ووجه إلیهم الاستفتاء التالی: «ما قول علماء المدینة ـ زادهم اللّه فهماً وعلماً ـ فی البناء علی القبور واتّخاذها مساجد، هل هو جائز أم لا؟ وإذا کان غیر جائز بل ممنوع منهی عنه نهیاً شدیداً، فهل یجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا؟ وإذا کان البناء فی مسبلة کالبقیع، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبنی علیها، فهل هو غصب یجب دفعه لما فیه من ظلم المستحقین ومنعهم استحقاقهم أم لا؟ وما یفعله الجهال عند هذه الضرائح من التمسح بها ودعائها مع اللّه، والتقرب بالذبح والنذر لها، وإیقاد السرج علیها، هل هو جائز أم لا؟ . وما یفعل عند حجرة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ من التوجه إلیها عند الدعاء وغیره، والطواف بها وتقبیلها والتمسح بها، وکذلک ما یفعل فی المسجد من الترحیم والتذکیر بین الأذان والإقامة وقبل الفجر ویوم الجمعة، هل هو مشروع أم لا؟ أفتونا مأجورین وبیّنوا لنا الأدلة المستند إلیها لا زلتم ملجأ للمستفیدین»(۲) . تری أنّ الأسئلة طرحت بشکل أدرج فیها الجواب، وألزم المفتین علی ــــــــــــــــ

۱ . الوردی ـ علی: لمحات اجتماعیة، ملحق الجزء السادس ص ۳۰۵ .

۲ . الوردی ـ الدکتور علی: لمحات اجتماعیة، ص ۳۰۵ ـ ۳۰۶ . (۳۹۷)

الإجابة بما یرتأیه السائل، ولأجل ذلک جاء الجواب بالشکل التالی: «أمّا البناء علی القبور فهو ممنوع إجماعاً لصحة الأحادیث الواردة فی منعه، ولهذا أفتی کثیر من العلماء بوجوب هدمه مستندین فی ذلک بحدیث علیّ قال لأبی الهیاج: ألا أبعثک علی ما بعثنی علیه رسول اللّه ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ أن لا تدع تمثالا إلّا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلّا سویته؟» (رواه مسلم). وأمّا اتّخاذ القبور مساجد والصلاة فیها وإیقاد السرج علیها فممنوع، لحدیث ابن عباس: «لعن اللّه زائرات القبور المتخذین علیها المساجد والسرج»، رواه أهل السنن، وأمّا ما یفعه الجهال عند الضرائح من التمسح بها والتقرب إلیها بالذبائح والنذور، ودعاء أهلها مع اللّه فهو حرام ممنوع شرعاً لا یجوز فعله أصلا . وأمّا التوجه إلی حجرة النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ عند الدعاء فالأولی منعه، کما هو معروف عن معتبرات کتب المذهب، ولأنّ أفضل الجهات جهة القبلة، وأمّا الطواف والتمسح بها وتقبیلها فهو ممنوع مطلقاً، وأمّا ما یفعل من التذکیر والترحیم والتسلیم فی الأوقات المذکورة فهو محدث، هذا ما وصل إلیه علمنا(۱) . وعلی أثر صدور هذه الفتوی هدمت القبور، فأحدثت هذه الجریمة ضجّة مدوّیة فی أقطار العالم الإسلامی، خصوصاً الشیعیة منها، فقرّر علماء الشیعة علی أثر تلقّیهم هذا الخبر إعلان الحزن العام وإظهار الحداد وترک التدریس، وعقد فی صحن الکاظمیة إجتماع حضرته جماهیر کثیرة، وتلیت فیه البرقیات والرسائل الواردة فی هذا الشأن، کما نظمت البرقیات الّتی قرّر إرسالها إلی ملوک وعلماء العالم الإسلامی فی أقطارهم المختلفة، وجری مثل ذلک فی کربلاء والنجف(۲) . ــــــــــــــــ

۱ . الوردى ـ الـدكتور على: لمحات، ص ۳۹۶ ـ نقلا عن كشف الإرتياب، ص ۳۴۹ ـ ۳۶۰ ولقد عرفت فى الفصول السابقة أنها فتاوى فارغة عن البرهانية، فلاحظ .

۲ . نفس المصدر السابق، ص ۳۰۸ . (۳۹۸)

وفى ذلك يقول الـدكتور الوردى: وأخذت الجرائد العراقية تنشـر المقالات فى التنديد بابن سـعود وشـجب أعماله، فقد كتبت جريدة «العراق» فى مقالة افتتاحية لها تقول: «قضـى الأمر وأصدر ابن بليهد الفتوى المعلومة، فقام بأكبر خدمة لسـيده ابن سـعود، ولم يعلم بأنّ مسـعاه كان سـهماً أصاب كبد العالم الإسـلامى فآلمه أيما ألم» كما نشـرت مقالة أخرى بقلم إسماعيل آل ياسين من الكاظمية عنوانها «الطامة الكبرى والأماكن المقدسة فى الحجاز» وورد فيها ما نصّه: «أيّها المسلمون، ما هذا السبات وما هذا الجمود الّذى أدّى بكم إلى السـكون وإلى عـدم الاـكتراث بهـذه القضايـا المؤلمـة، والأدوار المخزيـة الّتى يمثلها ذلك الطاغيـة فى البلاد المقدسـة؟»(۱) . يقـول الوردى: نشـرت جريدة «العراق» حديثاً جرى بين أحد محرريها والسـيد محمود الكيلانى نقيب أشـراف بغداد، أعلن فيه السيد محمود انتقـاده لمـا قـام به الوهـابيون من هـدم قبور البقيع وذكر أن بنـاء القبب على القبور ليس مخالفاً للسـنة النبويـة، لأنّ النبى نفسه دفن فى حجرة عائشة وهى حجرة ذات جدران وسـقف كقبة، وذكر أيضاً أنّ تقبيل الأضـرحة هو من باب تقبيل المحبوب، وهو أمر غير ممنوع فى الإسـلام . ونشـرت صـحيفة «العراق» بعندئذ ثلاثة أبيات من الشـعر، طالبة من الشـعراء تشـطيرها وتخميسـها وهى: لعمرى إنّ فاجعة البقيع * يشـيب لهولهـا فود الرضـيع وسوف تكون فاتحـة الرزايا * إذا لم نَصْـيحُ من هـذا الهجوع أما من مسـلم للّه يرعى * حقوق نبيّه الهادى الشفيع(۲) _____

۱ . المصدر السابق. نقلا عن عددها الصادر فى ۲۹ أيار، ۱۹۲۶ م.

۲ . الـوردى ـ على: لمحـات، ص ۳۰۹ ولم يـذكر الوردى قائل الشـعر وناظمه، وهو للعلامـة الفقيـد الراحل آية اللّه السـيد صدر الدين الصدر العاملى، المتوفى عام ۱۳۷۳ هـ وهو والد الإمام السيد موسى الصدر المختطف . (۳۹۹)

حلّ شهر محرّم عام ۱۳۴۴ هـ فكانت خطب مجالس التعزية ونوحيّات المواكب الحسينية تدور فى معظمها حول فاجعة البقيع، وتطالب الانتقـام من ابن سـعود، إنّ يـوم ۸ شـوال أصـبح يوم حـداد فى السـنوات التاليـة فى النجف وكربلاء، حيث تغلق فيه الأـسواق وتخرج مواكب اللطم(۱) . الصراع الداخلى بين عبدالعزيز وأتباعه

بعدما اسـتتبّ الأمر لعبد العزيز بتأييد من بريطانيا، وطرد الملك حسين وولده الأمير على من الحجاز، فصار سلطان نجد سلطان الحجاز اليوم، كما صار الأمير ملكاً للقطرين، ولكن أتباعه الذين يعبر عنهم فى تاريخ المملكة بالإخوان أورثوا له مشكلة خاصة، وهى الإصرار على تطبيق مبادىء الوهابيـة، فرموه بموالاة الكفار الإنكليز والتساهل فى الـدين، وأنكروا عليه ألقاب السـلطان والملك، وتطويل شاربه وثوبه، ولبس العقـال، وإرسـاله ولـده سـعود لزيـارة مصـر للعلاج، لأنّه بلـد الكفار، وإرسال ابنه فيصل لزيارة البلاد الأوربيـة لأنّها أكثر كفراً، ورأوا أنّ اسـتخدام السيارات وأجهزة اللاسلكى والهاتف بدع لأنّها من صنع الفرنج، وأنّه يجب محاربة الدول المجاورة كالعراق والأردن واحتلالها ونشـر الوهابيـة بين سـكانها، وقد أحرقوا أول شاحنة ظهرت فى مدينة (الحول) وكاد سائقها يلقى المصـير ذاته، إلى غير ذلك مما عليه بنى المذهب الوهابى(۲) . قال أمين الريحانى: إنّ الإخوان فيما ظهر من بسالتهم اورثوا عبدالعزيز مشكلا آخر، فقد طغى الإـخوان وتجبّروا، فضـج النـاس، وراح الإـخوان يحـاربون من لم يتبعهم من البـدو، ويكفّرون وينهبون ويقتلون ويقولون أنت يا بدوى مشـرك، والمشـرك حلال الدم والمال، وقد انتشـرت من جراء ذلك الفوضـى فى البلاد، وكاد يقطع حبل الأمن والسـلام(۳) .

---

۱ . المصدر السابق .

۲ . أبو علية: الإصلاح الاجتماعى فى عهد الملك عبدالعزيز، ص ۱۶۰ ووهبة حافظ، الجزيرة العربية فى القرن العشرين، ص ۲۲۹ .

۳ . الريحانى ـ أمين: تاريخ نجد الحديث، ص ۲۶۰ . (۴۰۰)

کـان الإخـوان کـارهین للعلم والتقـدم، فـاعتبروا أی نوع من أنواع التکنولوجیـا الحدیثـة شـرّاً وکفراً، کالهـاتف والتلغراف والسـیارات والساعات والکهرباء، وقالوا إنّها سـحر من عمل الشـیطان، فقاوموا استخدامها ونشرها وأخّروا تقدّم البلاد(۱) . وفی مطلع عام ۱۳۴۵ هـ اجتمع رؤسـاء الإخوان، ومن أبرزهم فیصـل الـدویش وابن حثلین وابن بجـاد فی الغطغـط، وأعـدّوا قائمـة ذکروا فیهـا ما یؤاخـذون به عبدالعزیز ومن جملته: ۱- سـفرة ابنه سعود إلی مصر . ۲- سـفرة ابنه فیصل إلی لنـدن للتفاوض مع الإنجلیز، وهو یعنی التعاون مع بلد الشرک . ۳- استخدام التلغراف والهاتف والسیارة فی أرض إسلامیة . ۴- فرض رسوم جمرکیة علی مسلمی نجد، وکان هذا فی الواقع احتجاجاً علی تشدید اسـتغلال السکان عن طریق الضرائب . ۵- منع قبائل الأردن والعراق حق الرعی فی أراضـی المسلمین . ۶- حظر المتاجرة مع الکویت لأنّهم کفّار لم یأخذوا بمبادیء الوهابیة . ۷- التسامح مع الخوارج (الشیعة) فی الأحساء والقطیف، فیجب علیه أن یهدیهم إلی الإسـلام أو یقتلهم(۲) . هـذه بعض القرارات الّتی اتّخـذها مؤتمر الإخوان، وکان عبـدالعزیز آنـذاک فی الحجاز، فأسـرع بالسـفر إلی نجـد عن طریق المدینـة محاولا علاج غضب الإخوان بالحیل والدجل، ولما وصل إلی الریاض عقد فیها مؤتمراً بتاریخ ۲۵ رجب سـنة ۱۳۴۵ هـ وحضـر الـدعوة جمیع زعمـاء الإخوان، إلّا سـلطان بن بجاد، وهو القائـد الّـذی اسـتولی علی الحجاز، وبرر عـدم حضوره بقوله: «إنه _____

۱ . المانع محمد: توحید المملکة العربیة السعودیة، ص ۱۵ .

۲ . ابن هذلول: تاریخ ملوک آل سعود، ص ۱۸۰ . (۴۰۱)

لم یثق بعبـد العزیز وأقواله، وخاصـة بعـد أن اتخـذنا قراراتنـا بتجریمه وتکفیره وعزله» وفی هـذا الإجتمـاع قال عبـدالعزیز عن نفسه إنه خادم الشـریعة، یحافظ علیها أتم المحافظة، وهو الّذی یعهدونه من قبل ولم یتغیر کما یتوهم الناس، ولا یزال ساهراً علی مصالح العرب والمسلمین . وفی عام ۱۳۴۶ هـ قررت الحکومة العراقیة التفاوض لإقامة مخافر للشـرطة مجهزة باللاسلکی والسیارات المصفحة بالقرب من الحـدود النجدیـة، للإشـراف علی تنقلات البـدو، ومنع الغزو، وفی أثناء إنشاء المخافر هاجم الإخوان مخفر البصـیة فقتلوا عدداً من العمال والشـرطة الـذین کانوا فیه، ثم عادوا من حیث أتوا، وتقـدر المصادر البریطانیة عدد القتلی بعشـرین کان من بینهم امرأة واحدة. کان الإخوان یشـنون غاراتهم علی العشائر العراقیـة ویعیثون فیها نهباً وقتلا، إلی أن اضـطرت الطائرات الإنجلیزیـة بإصـرار من الحکومة العراقیـة إلی إلقاء منشورات علی البادیـة تنذر الإخوان بالابتعاد عن الحدود العراقیة بمسافة أربعمائة میل، ولکن لم یهتم الإخوان بهذه المنشورات، فـانتهت بقصف تجمعاتهم وقواهم(۱) . إنّ قصف الطـائرات وضع ابن سـعود بین نارین: نار الإنجلیز ونار الإخوان، ووجد ابن سـعود أن الأفضـل أن یتفـاوض مع الإنـجلیز بـدلا من محاربتهم، فجرت مفاوضات فی جـدة مرتین، وکان یمثل الجانب البریطانی (سـرجلبرت کلایـتون) ورجع عبـدالعزیز بعـد ذلـک إلی الریاض واجتمع مع الإخوان، فأخـذ یهـدیء روعهم، وطلب منهم أن یعرضوا شکـاواهم علیه، فـذکرو اله منهـا علاقته بالکفار وصـداقته مع الأنجلیز، واسـتعمال مخترعاتهم الشـیطانیة کالسـیارات وأجهزة الهاتف، وتساهله تجاه المخافر الّتی یبنیها الکفار علی الحدود، ومنع المسـلمین من الجهاد لإعلاء کلمة اللّه ونصر دینه، وفی هذا المؤتمر حاول ابـن سـعود أن یقنعهـم بـأن جهـاد الکفـار یجب أن یکـون فی حـدود الطاقـة، وأن هـذه الآلات لیست من السـحر وعمـل الشـیطان .

---

۱ . فیلبی عبداللّه: تاریخ نجد، ص ۳۵۹ . (۴۰۲) ثورة الإخوان

إنّ النتیجة الّتی انتهی إلیها مؤتمر الریاض لم یرض عنها الرؤساء الثلاثة فیصل الدویش وسلطان بن بجاد وابن حثلین، فصاروا ینشـرون الإشاعات السیئة ضد ابن سعود، وأنه بصدد هدم الدین وموالا الکفار وطلب الملک، ویقطعون الطریق علی القوافل، ویهاجمون عشائر العراق . کان عدد الثائرین نحواً من خمسة آلاف رجل فأعدّ عبدالعزیز جیشاً کبیراً لقتالهم یربو علی خمسة عشـر ألفاً، ووقعت المعرکة بین الفریقین فی صـباح ۳۵ آذار سـنة ۱۹۲۹ الموافق سـنتة ۱۳۴۹ هـ وانتهت بهزیمـة الإخوان وانتصار عبـدالعزیز . یقول الـدکتور علی الوردی: إنّ معظم بناة الدول یقتلون من ساعدهم علی بنائها، وسـبب ذلک أن أولئک المساعدین یریدون أن یشارکوا البانی فی ثمرة

بنائه، بینما هو لا یرید أن یتنازل لهم عن تلک الثمرة، فینشب النزاع بینهم، وربما ینتهی إلی القضاء علی أولئک المساعدین، وقد صدق من قال: السیاسة لا أب لها. ویبدو أنّ هزیمة الإخوان کانت بسبب أن المشایخ والعلماء کانوا مع عبد العزیز، وهذا مما أدی إلی الوهن فی عزیمة الإخوان، وقلل من فدائیتهم وحماسهم الدینی(۱). لمّا تخلّص عبدالعزیز من حرکة الإخوان، أنشأ جیشاً تحت إشراف بعض الضباط العرب من بقایا الجیش العثمانی واستورد السیارات وأجهزة اللاسلکی، وأنشأ مدارس حدیثة فی بلاده، وهو وإن تخلّص من شرّ الإخوان لکنه ابتلی بشر علماء الدین النجدیین، فقد أوجد فتح المدارس الإبتدائیة فی الحجاز ضجة بینهم، فاحتجوا علی عبد العزیز بأنه یجری تعلم الرسم أولا، واللغات الأجنبیة ثانیاً، والجغرافیا ثالثاً فی تلک المدارس الحدیثة . _____

۱ . صادق حسن السودانی: العلاقات العراقیة السعودیة، ص ۳۰۸ والوردی، علی، لمحات ص ۳۳۵ . (۴۰۳)

ظل المشایخ یستنکرون المخترعات الحدیثة الّتی ترد إلی البلاد، فاستنکروا الحاکی والسینما والأنوار الکشافة والطائرات، فهم یعتقدون فی الطائرات مثلا أن رکابهم یتحدَّون ربهم بها(۱) . وحین بدأ الأمریکیون ینقبون عن النفط فی منطقة الظهران، قال المشایخ لابن سعود: لا یجوز دخول الکفار البلاد لأنهم یفسدون الرجال والنساء، ویدخلون الخمر والفوتوغراف وما شاکل ذلک من الأمور الشیطانیة إلی داخل البلاد، ومن الطرائف الّتی تروی فی هذا الصدد أن جماعة من البریطانیین زاروا ابن فی قصره فی الریاض، وبینما هم فی القصر حلّ وقت الصلاة، فقام ابن سعود وحاشیته یصلون خلف إمام لهم، فقرأ الإمام فی الرکعة الأولی قوله تعالی: (وَلاَ تَرکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّکُمُ النّارُ) وأعاد قراءة الآیة فی الرکعة الثانیة، ولما انتهت الصلاة زحف ابن سعود من مکانه نحو الإمام وأشبعه وخزاً ورکلاً وهو یؤنبه قائلا: «ما لک بالسیاسة یا خبیث، وما الّذی تقصده من ترديد هذه الآیة فی کل رکعة؟ أفلا توجد آیات غیرها»(۲) . فلم تُجْدِ اعتراضات الإخوان ومعارضة المشایخ نفعاً . وهنا یقف القارىء علی تطور الوهابیة فی سیرها التاریخی، فمبادىء الوهابیة هی الّتی کان الإخوان یطلبونها، فقضی علیهم عبد العزیز بالسیف والنار، ثم ما یطلبه المشایخ من تحریم العلم الحدیث والاختراعات الحدیثة وإیقاف المجتمع علی ما کان علیه من السذاجة والبساطة، وهؤلاء یستنکرون، وعبد العزیز کان یعمل بقوة وقدرة، ویسقط الرأی العالم لصالحه، فلم یجد المشایخ بدّاً من السکوت. وأین هذه المبادىء الّتی تسوق إلی الأُمیة من وهابیة الیوم الّتی یدرس مشایخها فی الجامعات الحدیثة وینالون الدرجات العلمیة الرائجة فی الغرب، ویأکلون ویلبسون ویسافرون مثل الإفرنج، حتّی أنّ مفتی المملکة تذاع خطبه مباشرة عن طریق وسائل الإعلام السمعیة والبصریة، وها هنّ البنات یدرسن فی الجامعات فی مختلف العلوم، _____

۱ . فیلبی، عبدالله: تاریخ نجد، ص ۳۵۶ .

۲ . الممیز، أمین: المملکة العربیة السعودیة کما عرفتها، ص ۱۲۶ ـ ۱۲۹. (۴۰۴)

وهذه المقاهی ودور السینما والأفلام المبتذلة الخلیعة، وأشرطة الأغانی والموسیقی: هذا إن دلّ علی شیء فإنما یدل علی أنه لم یبق من مبادىء الوهابیة إلّا ما یمت إلی الأولیاء وقبورهم ومراسم إحیاء موالیدهم، لم یبق شیء منها، سوی ما یرجع إلی الحط من مقامات الأولیاء وتوقیرهم واحترامهم، فبناء القباب علی مشاهد الصالحین محرم، والتوسل بهم محظور، لکن الربا جائز والحلف مع الکفّار سائغ، وتسلیطهم علی بلاد المسلمین لدعم عرش السلطة أمر لابد منه، والأغانی الّتی تشیع الخلاعة وتدفع الشباب إلی المیوعة والتسیب الخلقی مباحة ومشروعة، وهکذا دوالیک . (فَوَیْلٌ لَهُمْ مِمّا کَتَبَتْ أَیْدِیهِمْ وَوَیْلٌ لَهُمْ مَمّا یَکْسِبُونَ)(۱) . _____

۱ . سورة البقرة: الآیة ۷۹ . (۴۰۵) أزمة ثالثة یواجهها عبدالعزیز

قد قضی عبدالعزیز علی فتنة الإخوان، وکافح محالفة مشایخ الدین، ولکنه قد واجه عام ۱۳۴۹ هـ وما بعدها أزمة خاصة، وهذه السنوات کانت منحوسة علی أمیر الحجاز، حیث إنّ الأزمة الاقتصادیة قد خیمت بکابوسها علی الحجاز ونجد، وقلّ مجیء الحجاج إلی الحجاز، فبعد ما کان عدد الحجاج فی السنوات السابقة یقدر بمائة ألف انخفض إلی أربعین ألفاً فی عام ۱۳۵۰ هـ وإلی ثلاثین ألفاً فی عام ۱۳۵۱ هـ وإلی عشرین ألفاً فی العام المتأخر عنها، فساد البؤس والحرمان فی أنحاء الحجاز، وأصبح الکثیر من سکانه علی

حافة المجاعة، وأينما سار الحجاج يحيط بهم المتسولون من كل جانب للاستجداء، وإذا رمى أحد الحجاج بفضلات الطعام أو قشور الفواكه تهافت عليها الأطفال متكالبين من شدة الجوع(۱) . وهذا فيلبى يذكر فى مذاكراته: بدأ القلق يستحوذ على الملك عبدالعزيز، فأعرب عن قلقه فى ذات يوم، وقال بأنّا سنواجه كارثة اقتصادية تحل بالبلاد، ويضيف فيلبى: قلت له إن بلدك مليء بالكنوز الدفينة من نفط وذهب، وأنت عاجز عن استغلالها بنفسك، ولا تسمح للآخرين باستغلالها بالنيابة عنك، فقال عبد العزيز: لو وجدة من يدفع لى مليون جنيه فإننى سأمنحه كل ما يريده من امتيازات فى بلادى(۲) . _____

۱ . خيرى حماد، عبدالله فيلبى، ص ۲۰۸ ـ بيروت، ۱۹۶۱ م.

۲ . نفس المصدر . (۴۰۶)

لمّا وقف الغرب على وجود الكنوز فى أراضى نجد، حصل التنافس للحصول على امتياز التنقيب عن النفط بين شركتين: إحداهما أمريكية والأخرى بريطانية، وقد تمكنت الشركة الأمريكية من الحصول على الامتياز عام ۱۳۵۳ هـ ووقعت الاتفاقية فى جدة، من قبل مستر هاملتون والشيخ عبدالله سليمان ممثل الحكومة السعودية .(۱) وكانت هذه هى الخطوة الأولى الّتى مكنت الأمريكيين من السيطرة على منابع الثروة فى شبه الجزيرة العربية. وبعد فترة من الزمن، وبشكل تدريجى تمكن الأمريكيون من إعمال نفوذهم، والسيطرة على جميع مصادر الثروة بالحد الّذى نشاهده اليوم، ولا نطيل الكلام فى ذلك، ونحيل القراء الكرام إلى مطالعة الصحف اليومية الّتى تصدر من أجهزة الإعلام العالمى، والتى تحكى مراراً وتكراراً أخبار خيانة آل سعود لشعوب العالم الإسلامى، وسعيهم الحثيث لاستنزاف مصادر الثروة لصالح الأمريكيين . زوجاته وأولاده

يقول الوردى: كان عبدالعزيز مزواجاً إلى درجة يندر أن يكون له مثيل فى عصرنا، وكان مولعاً بزيادة نسله حتّى بلغ مجموع أولاده الذكور أخيراً خمسة وأربعين ولداً، مات منهم عشرة وبقى منهم خمسة وثلاثين، وأما بناته فلا نعلم عن عددهن شيئاً، وقد تولد آخر ولده فى عام ۱۳۶۸ هـ وكان فى الواحدة والسبعين من عمره، وقد ناهز عدد أولاد وأحفاده بما فيهم من البنات عند وفاته الثلاثمائة . إنّ هذا العدد الكبير من الأُمراء أصبح ظاهرة اجتماعية لها أثرها الكبير فى المملكة السعودية، فقد صاروا طبعة متميزة تعيش فوق القانون، وقد توافر لدى أفراد هذه الطبقة من جراء تدفق النفط مال كثير يكاد لا يحصى، ولا _____

۱ . الوردى ـ على: لمحات، ص ۳۵۱ . (۴۰۷)

حاجة إلى القول بأن اجتماع هذين العاملين ـ التميز الطبقى وتوافر المال – لابد أن يؤدى بطبيعته إلى الترف الباذخ والانهماك فى الشهوات بلا حدود(۱) . نهاية العهد

بدأت تظهر على عبدالعزيز منذ سنة ۱۳۶۷ هـ أعراض الشيخوخة والانحلال، وزاد الألم فى ركبتيه فلم يعد يقوى على المشى، ولجأ إلى الاستعانة بكرسى متحرك، وعاد لا يميز الأشياء على الرغم من ارتداء النظارات، إلى أن لفظ أنفاسه فى ثانى شهر ربيع الأول سنة ۱۳۷۳ هـ عن سبعة وسبعين عاماً، ونودى بسعود بن عبدالعزيز ملكاً، وبفيصل ولياً للعهد، وبعدما عُزل سعود عن العرش جرت البيعة لفيصل ملكاً، ولخالد ولياً للعهد، فلما قتل فيصل جرت البيعة لخالد بن عبدالعزيز ملكاً، ولفهد ولياً للعهد، وبعد موت خالد ألقيت مقاليد الملوكية بيد فهد، وصار عبدالله بن عبدالعزيز ولياً للعهد ;وإليك لمحة خاطفة عن حياة هؤلاء إكمالا للبحث(۲) . ۱۵ ـ سعود بن عبدالعزيز (۱۳۷۳ ـ ۱۳۸۴ هـ)

ولد سعود بن عبدالعزيز عام ۱۳۲۰ هـ وهو الابن الثانى لعبد العزيز، وولد فيصل عام ۱۳۲۴ هـ من الزوجة الثانية لعبد العزيز، وهى من آل الشيخ، وقد جرى بين الأخوين غير الشقيقين تنافس مستمر لم ينقطع حتّى بعد موت عبدالعزيز، بالرغم من اليمين الّذى أقسماه، وقد أدلى سعود فى أول اجتماع لمجلس الوزراء ببيانه السياسى الأول بوصفه أنه ملك، وأنّ من أهدافه تعزيز الجيش ومكافحة الفقر والجوع والمرض، وتحسين الخدمات الطبية، وتأسيس وزارات للمعارف والزراعة والمواصلات(۳) . ولكن كان لسعود وفيصل تاريخ من المنافسة حتّى دعاهما أبوهما إلى غرفة نومه الّتى أمضى فيها آخر شهور حياته، وقال لهما: أمسكا بأيديكما وأقسما بأن

۱ . الوردی، علی: لمحات، ص ۳۲۲ .

۲ . جبران شامیة: آل سعود، ماضیهم ومستقبلهم، ص ۱۶۶ .

۳ . أمین سعید: تاریخ المملکة السعودیة، ج ۳ ص ۱۶ . (۴۰۸)

تعملا معاً حینما أموت، وأن لا تتجادلا فیما بینکما بحیث لا یسمع العالم عدم توافقکما، ولکن ما مضی شیء من موت الوالد حتّی بدأت الخلافات تظهر بسرعة، وتزایدت الانشقاقات بأکثر مما کان یتصور(۱) . سقط الملک سعود عام ۱۳۸۱ هـ مریضاً بسبب قرحة فی الأمعاء، وأشار الأطباء الأمریکیون علیه بالذهاب للعلاج إلی أمریکا، ولما عاد سعود إلی البلاد بعد بضعة أشهر استغرقت علاجه فی الخارج، وبعد أن استحوذ فیصل علی کل شیء من أجهزة الدولة، وکادت أن تقع مصادمات عنیفة بین الأخوین لولا أن تدخلت العائلة، حیث أثمرت تسویة بین الأخوین علی أن یتقاسما الوزارة . وفی خریف عام ۱۳۸۲ هـ قصد سعود أوربا للعلاج، فأخذ فیصل یعمل بنشاط لإحکام سیطرته علی السلطة، وعیّن أخاه غیر الشقیق قائداً للحرس الوطنی، وأخاً آخر حاکماً للریاض، فلما عاد سعود فوجیء بالتغییرات الأخیرة، فاضطر إلی الرضوخ لما أملاه علیه أخوه من الظهور بمظهر الملک، دون صلاحیة للتدخل فی الشؤون الداخلیة للبلاد . وانتهی بعد خلافات واسعة إلی خلع سعود بن عبدالعزیز عن الملک، وحلّ فیصل بن عبدالعزیز ملکاً مطلقاً علی المملکة، وصدرت الفتوی (الشرعیة) اللازمة من الشیخ محمد إبراهیم مفتی الدیار السعودیة فی ۱۶ من شهر جمادی الثانیة عام ۱۳۸۲ هـ واضطر سعود إلی مغادرة البلاد والانتقال إلی مصر، فحل فی القاهرة ضیفاً علی عبد الناصر أیام کانت العلاقات بین مصر والجزیرة العربیة متوترة، إلی أن مات فیها عام یراجع المصدر وقد کان ذا ثروة طائلة بذلها لاسترداد عرشه، ولکنه خسر فی هذه المحاولة . یقول جبران شامیة: ما من رجل استطاع أن یبذل هذه الأموال فی مثل هذا الوقت القصیر، وبمثل هذه النتائج الضئیلة کسعود(۲) .

۱ . القحطانی ـ فهد: صراع الأجنحة فی العائلة السعودیة، ص ۸۰، ط لندن .

۲ . جبران شامیة: آل سعود ماضیهم ومستقبلهم، ص ۱۷۹ ـ ۱۸۰. (۴۰۹) ۱۶- فیصل بن عبدالعزیز (۱۳۸۴ ـ ۱۳۹۵ هـ)

قد تسنّم فیصل منصة العرش بعد خلع أخیه سعود من الحکم وهو یعلم أن الضمان الوحید للإبقاء علیه علی منصة الحکم هو إظهار الولاء للأمریکیین، فاتصل بسفیر أمریکا ورؤساء شرکة آرامکو مراراً لیقنعهم بأنه أجدی لهم وأبقی لمصالحهم من سعود، وفی عام ۱۳۸۵ هـ سافر إلی أمریکا ومکث مدة مبدیاً للمسؤولین الأمریکان تذمره من سعود، واجتمع بوزیر خارجیة أمریکا آنذاک (جون فوستر دالاس) وبالرئیس الأمریکی السابق (أیزنهاور) شاکیاً لهما سوء تصرفات سعود(۱). وقال فیصل: إننی أقول لکم بصراحة: إنّ هناک من الأمریکان المسؤولین عندما یکتب لکم ضدی ویزعم أن سعوداً أکثر إخلاصاً لأمریکا منی لکنهم علی خطأ، فإننی أصدق صدیق لأمریکا(۲). وجهت مجلة «المصور» لفیصل الأسئلة التالیة التی أقحم فیها تعبیره عن حبه لأمریکا بطریقة غیر مستقیمة: س ـ ما سبب رحلة سموکم إلی أمریکا؟ ج ـ السبب هو أننی أصدق صدیق لأمریکا، لکن الأمریکان مع الأسف الشدید لم یقدروا هذه الصداقة حتّی الآن. ونشرت له مجلة المصور أیضاً بتاریخ (۱۷/۸/۱۹۵۸) تصریحاً قال فیه: یعتقد الأمریکان أنی عدو لهم، مع أنهم لو أدرکوا معنی نصحی لهم لعرفوا أنی أصدق صدیق لهم . وعقد «جون فوستر دالاس» وزیر خارجیة أمریکا مؤتمراً صحیفاً أعلن فیه بکل صراحة عندما سئل عن رأیه بتولی فیصل لمناصبه، قائلا: إننی مطمئن کل الإطمئنان بکل ما حدث فی السعودیة، نحن قد تفاهمنا مع الأمیر فیصل فی ذلک عندما کان فی أمریکا(۳) . _____

۱ . السعید، ناصر: تاریخ ال سعود، ص ۶۶۱ ـ ۶۶۲ .

۲ . مجلة المصور المصریة فی عددها الصادر بتاریخ ۱۳/۷/۱۹۵۸ م .

۳ . ناصر السعید: تاریخ آل سعود نقلا عن مجلة المصور المصریة . (۴۱۰)

قد وجه وفد مبعوث عن التلفزيون البريطاني سؤالاً عن إمكان قيام نظام ديمقراطي في السعودية، فأجاب فيصل: في اعتقادنا أن في المملكة في وقتها الحاضر أحسن وأجود نظام ديموقراطي، ونحن في بلادنا لا نشعر بأن هناك أي فوارق أو مميزات لفئة أو لأشخاص دون أشخاص، وإن الجميع متساوون في الحق أمام الحكم العادل، ولذلك نعتقد أننا نمثل أعلى ديموقراطية(١) . وفي الوقت الّذي يجيب فيه عن الأسئلة بهذه الصورة بكل صلف وشراسة، نجد أن المملكة الواسعة صارت ملكاً لقبيلة واحدة تملك كل شيء، وليس هناك مجلس للنواب ولا مجلس للشيوخ، ومع ذلك فهم يمثلون أجود نظام ديموقراطي، وأقصى ما عندهم مجلس الوزراء، وهم الطبقة الأولى من هذه العائلة يمثلون الوزارة! كان فيصل يملك ويحكم إلى أن قتل بيد ابن أخيه فيصل بن مساعد بن عبدالعزيز، حيث دخل مكتبه مع الوفد النفطي الكويتي الّذي قدم للقاء فيصل، وحين وصل دوره للسلام على الملك وانحنى لتقبيل كفه، أخرج من معطفه مسدساً أطلق منه ثلاث رصاصات وجهت لرأس الملك وصدره، وبذلك طويت صحيفة عمره، وقد كثرت التعاليق السياسية على هذا القتل حتّى رمي القاتل بالجنون مع أنه أجرى عليه القصاص! ١٧- خالد بن عبدالعزيز (١٣٩٥ ـ ١۴٠٢ هـ)

اجتمعت العائلة السعودية وأفراد الأُسرة المالكة وبايعوا خالداً أخاه بالملك، وفهد كولي لعهده، وقد جاءت المبايعة بسرعة لاستباق الأحداث، ولكن منذ اليوم الأول لإعلان البيعة لخالد كانت الأنظار متوجة إلى فهد كملك غير متوج، وكان خالد يملك ولا يحكم، وهو يحكم ولا يملك، إن الأمريكيين كانوا يرغبون في وصول فهد إلى الملك، ففهد هو الّذي يلقى بيانات الملك خالد وكلماته وخطبه، وهو الّذي تفرد بالزيارات الرسمية، فزار الكويت والعراق، ثم إيران وفرنسا ولندن وسوريا والأردن ومصر .

---

١ . ناصر الشمراني: فيصل القاتل والقتيل، نقلا عن كتاب فيصل بن عبدالعزيز من خلال أقواله وأعماله، صلاح الدين المجد، ص ٢٠۴ .

(۴١١) زلزال جهيمان في مكة

وفي مطلع القرن الخامس عشر الهجري في شهر محرم، سيطرت مجموعات من الأشخاص الذين ينتمون إلى حركة «الإخوان» على الحرم المكي الشريف، يرافقهم في ذلك نساؤهم وأطفالهم، وحاول النظام السعودي إخفاء ما حدث، وقام بعدة إجراءات ابتدأت بالصمت وانتهت بغلق المطارات وقطع الأتصالات الهاتفية بالخارج، ولكن لما تسرب الخبر إلى الخارج، اضطر آل سعود إلى إعلان النبأ مشوهاً، ومنعوا الصحفيين من الدخول إلى البلاد، وقال فاسيليف: «أعلنت منظمة حركة الثوار المسلمين في شبه الجزيرة العربية، الّتي لم تكن معروفة آنذاك، أنها تتولى قيادة الأنتفاضة، وأعلن الزعيم الروحي للثوار وهو محمد القحطاني الّذي قال عن نفسه إنه المهدي المنتظر، أن هدف الحركة يتمثل في تحرير البلد من زمرة الكفار (العائلة المالكة ورجال الدين المرتزقة الذين لا همّ لهم سوى التمسك بمناصبهم وامتيازاتهم) . أما الزعيم السياسي للحركة فهو الجهيمان العتيبي البالغ من العمر ۴٧ عاماً، فقد ندّد في خطبه بأن الحكومة تدعي من جهة أنها مركز الدين الحنيف في العالم، ولكنها من الجهة الأخرى تناصر الظلم والفساد والرشوة، وندد جهيمان بالأمراء الذين يستولون على الأراضي ويبذرون أموال الدولة، ونعتهم بـ«السكيرين» الذين يعيشون حياة الفسق والفجور في البيوت والقصور الفخمة . ولم يكن في وسع العائلة المالكة القبول بشروط المنتفضين للتفاوض إذ أنها تضمنت مطالب بإجراء تعديلات في الوزارة، منها إقصاء كبار الأمراء عن مناصبهم، وإعادة النظر جذرياً في سياسة استخراج وتسويق النفط، وطلب المنتفضون بوقف بيع النفط إلى الغرب عموماً، والعودة إلى أحكام الإسلام الخالص، وطرد جميع المستشارين العسكريين الأجانب من البلد . وأضاف فاسيليف: عاد ولي العهد فهد من تونس، وأصر على قمع الأنتفاضة بالقوة، وقد استخدمت قوات الحكومة القنابل المسيلة للدموع (۴١٢)

والمدافع والطائرات لإرغام المتنفضين على الأنسحاب من المسجد الحرام، وردّ المنتفضون بإطلاق النار من السطوح والمنائر، واستمرت المقاومة الضارية الّتي أبداها زهاء ألف شخص أسبوعين، وأدت كما تقول السلطات، إلى مصرع عشرات الأشخاص، بينما يقول شهود العيان إن القتلى كانوا يعدون بالمئات، وكان بين القتلى «المهدي» ذاته، أما الزعيم السياسي للحركة (جهيمان العتيبي) فقد

أعدم مع ۶۲ شخصاً من رفاقه، فی ۹ کانون الثانی (ینایر) ۱۹۷۰ م، وکان بین من أعدموا علاوة علی السعودیین مصریون ویمنیون وکویتیون وعرب آخرون...(۱) . فتوی وعّاظ السلاطین ضد المستأمنین بحرم اللّه

اجتمع الملک خالد مع عدد من العلماء المتواجدین فی الریاض بعد وقوع الحادثة، وأطلعهم علی ما جری، فقدم لهم معلومات مصطنعة عن تعداد الرهائن وقتل المصلین والحجاج وغیر ذلک، فاستفتاهم فی کیفیة حل الأزمة، فوافاه الجواب بالنحو التالی: «بسم اللّه الرحمن الرحیم»: أما بعد، ففی یوم الثلاثاء الیوم الأول من شهر محرم عام أربعمائة وألف من الهجرة، دعانا نحن الموقعین أدناه جلالة الملک خالد بن عبدالعزیز آل سعود وأخبرنا أن جماعة فی فجر هذا الیوم بعد صلاة الفجر مباشرة دخلوا فی المسجد الحرام مسلحین، وأغلقوا أبواب الحرم وجعلوا علیها حراساً مسلحین، وأعلنوا طلب البیعة لمن سموَّه المهدی، ومنعوا الناس من الخروج من الحرم، وقاتلوا من مانعهم، وأطلقوا النار علی أناس داخل المسجد وخارجه، وقتلوا بعض رجال الدولة وأصابوا غیرهم، وإنهم لا یزالون یطلقون النار علی الناس والمسجد، واستفتانا فی شأنهم وما یعمل معهم فأفتیناه أن الواجب دعوتهم إلی الإستسلام ووضع السلاح، فإن فعلوا قبل منهم وسجنوا حتّی ینظر فی أمرهم شرعاً، وإن امتنعوا وجب اتخاذ کافة الوسائل للقبض علیهم ولو أدی إلی قتالهم وقتل من لم یحصل القبض علیه _____

۱ . فاسیلیف: تاریخ العربیة السعودیة، ص ۵۱۶ ـ ۵۱۷ . (۴۱۳)

منهم، ولا یستسلم إلا بذلک، لقوله تعالی: (وَلا تُقاتِلُوهُم عِندَ المَسجِدِ الحَرام حتّی یُقاتِلوکُم فِیه فإن قاتَلوکُم فَاقتلوهم کَذلک جزاءُ الکافِرین).

ولقول النبی ـ صلَّی الله علیه وآله وسلم ـ : «من أتاکم جمع یرید یفرق جماعتکم ویشق عصاکم فاضربوا عنقه...» . هذه الفتوی أُصدرت علی أساس المعلومات قدمها الخصم، وکان من واجبهم أن یتقربوا من الحرم حتّی یطّلعوا علی الأمر، وکیف یحق للقاضی أن یصدر حکمه علی أساس معلومات یقدمها أحد المتخاصمین، وبالتالی قتل من قتل وأخذ من أخذ، ثم قطعت رؤوس عدة من المقبوض علیهم وسجن النساء . وهناک سؤال یتبادر إلی الذهن وهو: لماذا التجأ هؤلاء إلی بیت اللّه الحرام؟ ولعله لما جاء فی الروایات بأن المهدی حین یظهر فی الحرم یأتی لقتاله جیش عرمرم یخسف اللّه به الأرض، وهذه الفکرة هی الّتی دفعت بالجماعة إلی الحرم . وهناک خطأ غیر مغفور، وهو أن ما ورد فإنما هو فی المهدی المنتظر، لا فی من أسمی نفسه مهدیاً . وبذلک انتهت هذه الحرکة الّتی کانت استمراراً لحرکة الإخوان، وکان الملک وأبناء العائلة فرحین مسرورین بذلک، ولم یبرح خالد یملک ولا یحکم إلی أن وافته المنیة وأخترمه الأجل المحتوم عام ۱۴۰۲ هـ وأصدر الدیوان المکی بیاناً آخر جاء فیه: «لقد قام أفراد الأسرة وعلی رأسهم صاحب السمو الملکی الأمیر محمد بن عبدالعزیز بمبایعة ولی العهد الأمیر فهد بن عبدالعزیز ملکاً علی البلاد، وبعد إتمام البیعة أعلن صاحب الجلالة الملک فهد بن عبدالعزیز ترشیح صاحب السمو الملکی الأمیر عبداللّه بن عبدالعزیز ولیاً للعهد. وقد أجمع أفراد الأسرة علی ذلک وقاموا بمبایعة سموه... وقد تقرر أن (۴۱۴)

یقوم المواطنون، بالبیعة لجلالة الملک فهد بن عبدالعزیز ولسمو ولی العهد الأمیر عبداللّه بن عبدالعزیز فی قصر الحکم بالریاض صباح غد» . جدیر ذکره أن موت الملک لم یحدث فراغاً سیاسیاً، لما عرفت أنه کان یملک ولا یحکم . الملک فهد واستقدامه قوی الکفر(۱)

ویکفی فی مساوء «فهد» المتسلط علی مقدرات الحرمین الشریفین، وعدم أهلیته لهذا المنصب الخطیر وهذه المسؤولیة المقدسة، استقدامه لقوی الفکر والشرک إلی أرض مکة والمدینة، المحرمة علی المشرکین، واستعانته بهم بحجة الدفاع عن الحجاز، ولکن فی الحقیقة للدفاع عن مطامع الأمریکان والصهاینة الطویلة فی ثروات المسلمین، من دون التفات إلی حکم المذاهب الإسلامیة بحرمة دخول الکفار والمشرکین مکة والمدینة وما حولهما، بل وحکم القرآن قبل ذلک بحرمة الرکون إلی الکفار وتولیهم . فقد قال القرآن: (وَلاَ تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّکُمُ النَّارُ)(۲) . وقال: (یَا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوا قَوماً غَضِبَ اللّه عَلَیْهِمْ)(۳) وقال: (وَلاَ

تَوَلَّوا مُجْرِمينَ)(۴). وقال تعالى: (إنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللّه عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهرُوا عَلَى إخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)(۵) . وقال سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَصَارى أَوْلِيَاء)(۶) .

---

۱ . كان تقديم الملازم الأخيرة من هذا الجزء، مقارناً لهذه الحادثة المؤلمة فأثبتناها فى هذا المقام لتبقى فى ذاكرة التاريخ غير الناسى، وإن كان الإنسان ذهولا .

۲ . سورة هود: الآية ۱۱۳ .

۳ . سورة الممتحنة: الآية ۱۳ .

۴ . سورة هود: الآية ۵۲ .

۵ . سورة الممتحنة: الآية ۹ .

۶ . سورة المائدة: الآية ۵۱ . (۴۱۵)

وقال سبحانه: (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤمِنِين أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإنَّ العِزَّةَ للّهِ جَمِيعاً)(۱). وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً، مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ)(۲) . وقال سبحانه: (إنَّما المُشرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا المَسجِدَ الحَرَامَ)(۳) . وقال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَولِياءُ بَعْض)(۴) . وقال رسول اللّه ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ فى حديث متواتر: «أخرجوا اليهود من جزيرة العرب. لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب» وأمر بمضايقتهم فى الطرقات حتّى يضطروا إلى أضيقها(۵) . وأما الفقهاء، فقال الإمام النووى فى كتاب المنهاج: «ويُمنع كل كافر من استيطان الحجاز، وهو مكة والمدينة واليمامة وقراها...» راجع كتاب الجزية منه . فكيف يجوز لفهد، وهو يدّعى خدمة الحرمين الشريفين أن يقوم بمثل هذه الخيانة العظمى للحرمين وأهلهما، وليستقدم جيوش الغزو الغربى الصليبى الصهيونى إلى بلاد الوحى والرسالة، ويتكفل مؤونتهم، ويحمّل المسلمين مليارات لاستضافتهم، كما صرح المسؤولون السعوديون الوهابيون أنفسهم بذلك، وصرّح به قادة الغزو الغربى، كل ذلك بحجة الدفاع.. الدفاع عن ماذا؟ عن الحكم الوهابى الرجعى الأسود، وليس عن الشعب الحجازى المضطهد المظلوم، وليس عن الحرمين الشريفين، اللّذين يفديهما المسلمون متى ــــــــــــــ

۱ . سورة النساء: الآية: ۱۳۹ .

۲ . سورة المائدة: الآية ۵۷ .

۳ . سورة التوبة: الآية ۲۸ .

۴ . سورة الأنفال: الآية ۷۳ .

۵ . راجع صحيح البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى ومسند أحمد والموطأ والدارمى . (۴۱۶)

لزم الأمر بأرواحهم، وأنفسهم، وبأعز مالديهم من الأهل والولد . كل هذا بغض النظر عما يجلبه هؤلاء الكفار من فسق وفجور، بل وأمراض وعاهات خلقية إلى شعب هذه البلاد المقدسة. هذه صورة إجمالية عن حياة العائلة السعودية بسلاطينها وأمرائها وملوكها، وقد وضعناها أمام القارىء ليقف على حقيقة المذهب، وعلى نزعات حماته وجناياتهم طيلة استيلائهم على الحكم والعرش، وأما تفصيل حياة الملك الأخير الّذى يحكم على البلاد حالياً فنتركه إلى جهد القراء لكى يقفوا على حياته وأعماله وتحالفه مع الكفار عن كثب، واللّه يعلم إلى متى يبقى هذا ويبقى عرشه . إنّ إدارة الحرمين الشريفين رهن كفاءات ومؤهلات للقائمين بها، وقد قال سبحانه: (وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُم اللّه وَهُمْ يَصُدّونَ عِنَ المَسْجِدِ الحَرامِ وَمَا كَانُوا أَولِياءَهُ إنْ أَوْلِياؤُهُ إلاَّ المُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لاَ يَعْلَمُونَ)(۱) وهل للعائلة السعودية، التقوى اللازمة لإدراة الحرمين الشريفين؟ وهل هم متّقون حتّى يتسنموا هذه المنصة؟ لا أدرى، ولكن القراء يدرون . (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَب يَنْقَلِبُونَ) .

تمّ الجزء الرابع من هذه الموسوعة، ويليه الجزء الخامس فى تبيين عقيدة الخوارج، ومبدأ تكونهم، و حياة مشايخهم بإذنه ومنّه سبحانه . والحمد للّه رب العالمين جعفر السبحانى ٨ جمادى الآخرة ١۴١١ هـ ــــــــــــــــــــــــ

١ . سورة الانفال: الآية ٣۴ .

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴١).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ١۵٩؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب٢٨، ج١/ ص٣٠٧).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ١٣۴٠ الهجريّة الشمسيّة (=١٣٨٠ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ١٣٨۵ الهجريّة الشمسيّة (=١۴٢٧ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحامِيل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ أُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ أُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣۵٠۵٢۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/ "بنايهٔ "القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹